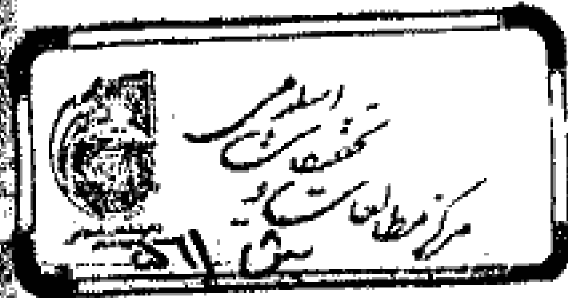
مجلة

المؤرخ العربي

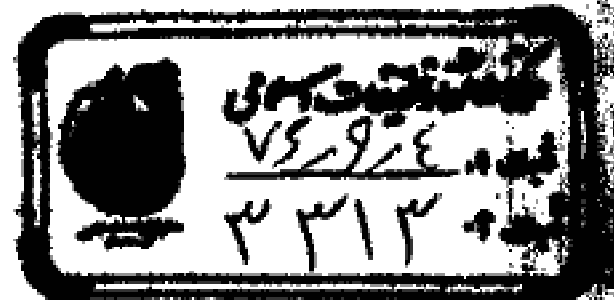


رئيس التحرير

الدكتور حسين أمين

الأمين العام

لاتحاد المؤرخين العرب



٢٠

العدد العشرون

١٤٠١هـ = ١٩٨١م

مجلة تصدرها

الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب

بغداد - العراق



محتويات العدد العشرون



اللجنة الاستشارية


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

المقـدّمـة

كتابة تاريخ الأمة واجب وطني ومسؤولية قومية

بقلم
الدكتور حسين أمين
الأمين العام لإتحاد المؤرخين العرب

إن كتابة تاريخ الأمة ضرورة تحتمها الالتزامات القومية وهي بحد ذاتها من واجبات المؤرخين والباحثين العرب الذين عليهم أن ينهضوا بتحمل هذه المسؤولية والتي هي إلتزام وواجب وطني.

ولعل من أهم أهداف إتحاد المؤرخين العرب هو السعي إلى كتابة تاريخ الأمة بروح موضوعية وبأسلوب علمي، يحقق طموحات أبناء الأمة في تشوقها وتطلعها إلى كتاب يكون المرآة الصادقة لتاريخنا الزاخر بالأمجاد والمفعم بالمعالم الحضارية الرائعة ذات الجوانب الانسانية المشرقة والتي لها الأثر البالغ في هذا التراث الانساني الذي نعيشه، ولكن هذا الهدف لا يتحقق بشكله الكامل ما لم تنهض كل جهود المثقفين والغيارى من مسؤولي الأقطار العربية.

إن التاريخ الذي نريد كتابته لا يكفي أن يكون سجلاً للأحداث مجرداً من الأغراض التي نريد تحقيقها من كتابة تاريخ الأمة، إننا نستهدف كتابة تاريخ يكون له الأثر الفعَّال في تربية وتوجيه النشء وتقويم الأجيال والمعبر عن روح الأمة وآمالها والذي يبين بصدق تفاعل أحداثها وآثار ذلك على قوتها وضعفها، وهذا يتطلب من كاتب التاريخ أن يكون مواطنا مثقفاً

صادقاً في انتمائه لأمته ونزيهاً في تعابيره وأحكامه ومخلصاً للهدف الذي ترجوه الجماهير العربية، أقول هذا لأن قول الحقيقة هو أكثر استجلاء لواقع الأمة وأبلغ خدمة لواقعها من تشويه الحقيقة، وإذا ما حاول المؤرخ إبراز الجوانب المشرقة من التراث وأخفى الجوانب المعتمة من تاريخ الأمة فإن ذلك العمل سيشوه الحقيقة ويسيء إلى أبناء الأمة الذين يريدون الوقوف على حقيقة تاريخهم والتعرف على جوانب القوة والضعف ليتعظوا ويعتبروا بالأحداث الماضية والتاريخ بلا شك عظة وعبرة.

إن الدعوة التي دعا إليها السيد رئيس مجلس قيادة الثورة الأستاذ صدام حسين إلى كتابة تاريخ الأمة هي مبادرة رائعة مستلهمة من مستلزماتنا القومية ومنطلقاتنا الثورية، وإن النظرة العلمية التي يدعو إليها السيد الرئيس في تحديد المنهج التاريخي لهي من أبرز الأسس التي يجب أن يتقيد بها المؤرخ الصادق الثبت وإننا نؤيد السيد الرئيس في أن المؤرخ يجب أن يكون متفاعلاً مع تاريخه وتراثه مدركاً واقع أمته ملمًا بأحداثها التاريخية.

ونحن نؤيد السيد الرئيس في قوله: (لذلك فنحن لسنا في حاجة إلى تزوير التاريخ أو إلى اصطناعه من أجل أن نقرأه قراءة بعثية وإنما نحن بحاجة إلى أن نفهمه فهما بعثياً ليس غير، وإن ذلك يضفي على الحقيقة ما لم يكن ظاهراً منها) ذلك أن التاريخ العربي زاخر بالمفاخر مليء بالأمجاد والأعمال الحضارية الرائعة، إذن نحن لسنا بحاجة إلى اصطناع المفاخر أو افتعال الأمجاد لأن ذلك يجرح مشاعر الأمة ويسيء إلى تاريخها الناصع بصفحاته المشرقة.

وإننا مع رأي السيد الرئيس في قوله: (وعليه فأن البعثي يجب أن يعطي تفسيراً جزئياً بحيث لا يكون متجنياً فيه على التاريخ أو يخترع حوادث التاريخ إختراعاً، لكنه في الوقت نفسه يجب أن يختار طريقة مرتبطة بخصوصيته البعثية للأغراض التربوية) إن هذه النظرة مع إلتزامها

وموضوعيتها، فإنها تشير إلى روح إنسانية سامية في النظرة إلى دراسة التاريخ دراسة جدية وعلمية بعيدة عن التعصب والتجني، وهذا يؤكد أن سيادة الرئيس يستهدف من رأيه ذلك أنه لا بد من وجود تفسير واحد وشامل للتاريخ يحدد علمياً ويثبت موضوعياً ويكون الأساس لكل الذين يشتغلون في عملية البحث التاريخي.

هذا وإن الرأي السديد الذي أبرزه السيد الرئيس في قوله: (إن تاريخ الأمة العربية يمتد إلى عصور سحيقة في القدم وإن كل الحضارات الأساسية التي نشأت في الوطن العربي إنما هي تعبير عن شخصية أبناء الأمة الذين نبعوا من أصل المنبع الواحد وإذا كانت لتلك الحضارات خصوصية وطنية فإن الخصوصية الوطنية هي جزء من السمة القومية الأعم والأشمل). إن هذا الرأي هو ما يعرف بالوصل والأصالة التاريخية ذلك أن كل حضارة لا بد لها من أسس سابقة عليها، وأصالة الأمة وإمتداد تاريخها يعني أن الماضي موصول بالحاضر وأن جذور الحاضر ممتدة إلى الماضي السحيق المزدهر حضاريا، وصلة الحضارة كصلة النسب حيث يتبادل الأبناء أسلافهم بالتقاليد والمفاهيم وينقلوها واحداً عن واحد وسالف إثر سلف وهكذا تتكامل معالم الحضارة وتزدهر عبر الأجيال.

إن نظرتنا إلى تاريخ الأمة العربية نظرة متجددة كتجدد حياة الأمة عبر نضالها من أجل إقامة حضارتنا الشامخة، فدراسة تاريخ الأمة العربية أو العمل على مشروع كتابة تاريخ الأمة يجب علينا أن نوجه الأنظار إلى دراسة أسس تاريخنا ومقومات بنائه ومظاهر حضارتنا القديمة والوسيطة والحديثة بأسلوب علمي وخاضعة للمنهج النقدي، وعلينا أن نركز في سبيل ذلك على أن تكون الحضارة العربية الذي يدور عليه تاريخ الأمة وإبراز دور الجماهير العربية في بناء هذا الكيان الشامخ من المنجزات الحضارية عبر أعمالها الخالدة وجهودها المخلصة في إشادة هذا التراث الإنساني الرائع، وعدم الإطناب في ذكر سير الملوك والحكام وما وقع في أيامهم من

الحروب والغزوات، وعلينا أن نهتم كل الاهتمام في إبراز وحدة الأمة العربية وأصالة الروابط بين أبنائها في جميع العصور التاريخية رغم تعدد الحكومات واختلاف الأنظمة، كما يجب أن نبذل عناية فائقة بصفحات النضال الرائعة التي خاضتها الأمة العربية قديماً وحديثاً من أجل استقلالها وسيادتها.

إن الهدف من كتابة تاريخ الأمة العربية، أن نضع بين أيدي أبناء الأمة ولكل الدارسين والباحثين في العالم، الحقائق الناصعة والصفحات الجلية لتاريخ العرب، أصلهم، مكانتهم، تكويناتهم الأولى، تطورهم التاريخي توحدهم، بناؤهم للحضارة، أثرهم في التاريخ الانساني، العوامل التي أدت إلى قوتهم وازدهارهم، وما الأسباب التي أدت إلى ضعفهم، كتاب نضع فيه الحقيقة لأبناء الأمة ليعوا تاريخهم ويتفهموا واقعهم وليدركوا أهميتهم الحضارية وبذلك نزيل الغشاوة عن أعينهم.

إن دراسة التاريخ لها أهمية إجتماعية، لأن دراسته وفق منهج علمي مرسوم ومنسق هي الطريقة المثلى لعملية التحليل الاجتماعي للحاضر، ومن المعلوم أن التاريخ في ظاهره هو دراسة الماضي ولكن ذلك ليس كغاية في حد ذاته بل لتنوير الحاضر وتفسيره والوقوف على العملية التي صاغته وأخرجته.

ودراسة التاريخ هي ربط بين الماضي والحاضر وبإمكان الباحث العلمي أن يربط ويقارن بين حوادث تاريخية حصلت في الماضي القريب والبعيد وما يحدث في حاضرنا على الكرة الأرضية ولنأخذ مثلاً إن أزهى عصور الحضارة وإنطلاقة الفكر في العصور الاسلامية هي تلك التي كانت فيها تسود حرية الفكر وانحسار التزمت والرجعية، كما يمكن أن نقارن بين حالتين متشابهتين تاريخياً، فالصليبيون تمكنوا من دحر المسلمين في وقت تشتتهم وتنافسهم ولكن المسلمين كسبوا النصر على الصليبيين عندما خلصت نياتهم أيام البطل صلاح الدين الأيوبي، وهذا ينطبق تماماً على حالة الأمة العربية اليوم في مجابهتها للمطامع الاستعمارية والصهيونية.

فالتاريخ الذي نستهدفه هو ذلك الكتاب الذي يبرز كل الجوانب الأيجابية والسلبية لتاريخنا القومي لنتعرف على حقيقة تاريخنا ونقف على عوامل القوة والضعف ولنتعظ ونعتبر الأحداث وبذلك نكون قد حققنا هدفاً سامياً وساهمنا بإخلاص في تلبية دعوة السيد الرئيس المحترم لكتابة تاريخ الامة وبإسلوب علمي وروح موضوعية.

إننا ضد الرأي القائل أن كتابة التاريخ مشكلة أساسية وعالمية، إن التصميم والارادة الحية والغيرة على حضارة الأمة وتراثها دوافع قوية ومحفزة للأخذ بالمبادرة الايجابية إلى كتابة التاريخ، وإننا إذا ما تسلحنا بالخلق العربي والإباء العربي وبالشجاعة العربية، أعتقد انها صفات تؤهلنا إلى مواجهة أي معضلة أو موقف حرج في كتابتنا لتاريخنا القومي، ولا أدري ما هي المشكلة التي تجابه المؤرخ العربي الثبت الصادق النزيه، إننا نكتب تاريخنا بجهودنا وبإخلاصنا وبأقلامنا الحرة، وأعتقد أن إثارة مثل هذه الأفكار هي عوامل مثبطة وغير مشجعة في مبادراتنا بل إنها تظهر الجانب السلبي في مواجهة الحقيقة ..... وأرجو أن يكون مفهوماً أن التاريخ من المواضيع التي يستفاد منها في نشر الفضيلة وغرس روح الشجاعة وصفات الإنسانية ..... إننا نستهدف كتابة تاريخ يكون عبرة للأجيال بحيث يكون ذلك التاريخ المرآة الصادقة لتصوير الماضي فيتعظ النشىء بانتصاراته وانتكاساته، وتصوير الحضارة الزاهرة التي أقامها الأجداد تصويراً صادقاً بحيث يكون الفرد مديناً لآبائه وأجداده كما يكون في موقع المسؤولية أمام الأجيال القادمة على اعتبار أنه سيقوم بتسليم التراث خيراً مما تسلمه من أسلافه، وبذلك نكون قد خلقنا مواطنين صالحين يشعرون بالمسؤولية نحو حضارتهم ونحو أبنائهم، ملتزمين قومياً ومؤمنين بأهمية التراث وعاملين على الحفاظ عليه وتلك لعمري أجل خدمة يقدمها المؤرخون لأبناء وطنهم لأننا بعملنا نعمل على إعداد المواطن لا ليعيش في حاضر دائم وإنما ليعيش في الحاضر المتطور نحو المستقبل يجب أن يكون خيراً من الماضي. أما كيف نعمل نحن كأمة عربية وكشعب عربي على كتابة تاريخنا فإنني أعتقد أن الطريقة المثلى هي

إعداد مؤتمر عربي يحضره معظم المتخصصين في الدراسات التاريخية، يجتمعون في حاضرة عربية ويضعون الخطوط الرئيسة لكتابة التاريخ وأن يتقدم المؤرخون في تخصصاتهم المختلفة بالآراء والمقترحات والأفكار التي تنير الدرب ويتخلل ذلك نقاش علمي تكون حصيلته مجموعة من الأفكار الجيدة تصاغ على شكل توصيات أو مقترحات، ثم ينقسم هذا المؤتمر إلى لجان، لجنة التاريخ القديم ولجنة التاريخ الاسلامي، ولجنة الحضارة ولجنة التاريخ الحديث، وتأخذ كل لجنة على عاتقها إعداد دراسة وافية للمنهج العلمي الذي يكون الأساس في كتابة الموضوع المختص ثم تناقش هذه الدراسة من قبل اللجنة ومن قبل المؤتمر العام وإذا ما حصلت الموافقة عليه حسب الأصول يعمل على إختيار المتخصصين لتحمل مسؤولية كتابة الموضوع المعين ..... إنني اعتقد أن توحيد جهود الأمة العربية ضروري لكي نبعث بكتاب تاريخ الأمة والذي يأخذ طريقه إلى كل جامعة وبيت وكل مدرسة ومكتبة.....

إن الكتاب الذي ننشده هو كتاب يبرز تاريخنا بصدق وأمانة في منهجية علمية عالية يعبر عن آمال وأماني كل المثقفين في الوطن العربي والعالم ...... وأرجو أن يتحقق هذا الهدف بتكاتف جهود المخلصين من أبناء الأمة ويعملوا بصدق إلى إظهار تاريخهم القومي وقد آن الأوان، والله ولي التوفيق.

بقلم

الدكتور حسين أمين

الأمين العام لاتحاد المؤرخين العرب.

العوامل الاقتصادية لهجرة بني هلال وبني سليم من مصر إلى أفريقية

انّ مشكلة هجرة بني هلال وبني سليم من مصر إلى افريقية في منتصف القرن الخامس الهجريّ (منتصف القرن الحادي عشر الميلاديّ) قد شغلت بال المؤرخين - وخاصّة المستشرقين منهم - منذ القرن التاسع عشر. وقد حظي هذا الموضوع بعدّة أبحاث ودراسات[1] غير أنّ أغلب المستشرقين - وخاصّة الفرنسيين منهم - قد عالجوا قضيّة هذا الغزو «Invasion» أو الهجرة «Immigration» من زاوية معيّنة ألا وهي التأكيد على أسبابه السّياسيّة والدّينية والايديولوجيّة من ناحية. ثمّ إنهّم بالغوا في تحميل قبائل هلال وسليم كلّ ما لحق بافريقية من خراب وانحطاط في أواخر القرن الخامس من ناحية أخرى.

انّ النظريّة القديمة التي دافع عنها كلّ من «مرسي» G. MARçAIS[2] و«ادريس» H.R. IDRRIS[3] وغيرهما من المستشرقين الفرنسيين تؤكّد على

---

(١) انظر دراستنا عن «مراحل تاريخ الهلاليّة في المشرق» (المؤرخ العربي - تحت النشر) وقد ذكرنا فيها باسهاب عدداً من الاشغال والدراسات التي وضعها المستشرقون الفرنسيون لمشكلة هجرة بني هلال إلى افريقيّة.

(٢) انظر .Las Arabes en Bebérie du XIe au XIve s. G. MARCAIS Paris 1913

(٣) انظر ,La Berbérie orientale sous Les Zirides -H.R. IDRISS aux Xe-XIIIe siècles
2vol. Paris, 1962. 1: 143.

أنّ هجرة بني هلال وبني سليم إلى افريقيّة جاءت نتيجة للقطيعة بين الفاطميين في مصر والزّيريين في افريقيّة - فهي على حدّ تعبيرهم «عمليّة انتقام قام بها الخليفة الفاطميّ المستنصر بالله على حليفه وتابعه «Vassal» المعزّ بن باديس الصّنهاجي[٤] الذي كان خلع طاعة - صاحب مِصر - وأقام البيعة لمنافسه الخليفة العبّاسي.

انّ مثل هذا التّفسير يعتمد خاصّة على عوامل مختلفة أهّمها الدّينيّ (رجوع بني زيري إلى السنّة بينما كانوا تابعين للشّيعة) ثمّ السّياسيّ (معاقبة حليف قطع صلته الرّسميّة بسيّده «suzerain» ومولاه) والايديولوجيّ (الصّراع بين الشّيعة والسّنّة على مستوى العالم الاسلاميّ أو الصّراع بين الفاطميين في مصر وبني العبّاس في العراق). غير أنّه تفسير غير كاف في نظرنا لادراك الغاية التي من أجلها انتقل بنو هلال وبنو سليم من الصّعيد إلى افريقية ومعرفة أبعاد تلك النّقلة.

هنالك نظريّة جديدة تناقض الاولى جاء بها «بونسي» J. Poncet تقول بأنّ قدوم الهلاليين إلى افريقيّة في منتصف القرن الخامس هو مجرّد «حافز» (Catalyseur) عجّل في انهيار افريقية الزّيريّة التيّ كانت على «حافّة هاوية» (au bord d'un gouffre)[٥]. إنّ هذه النظريّة رغم أنها لاتخلو من ذكاء فهي لا تهتمّ - مع الاسف - إلاّ بما حدث في افريقيّة في العهد الزّيريّ ولا تعالج مشكلة الهجرة الهلاليّة في نطاق أوسع يشمل كلّ العالم الاسلاميّ

---

(٤) انظر «De la réalité de la catastrophe hilalienne» H.R. IDRISS **Annales-E.S.C., XXIII, No 2, 1968, pp. 390-396-**

«L'invasion hilalienne et ses conséquences», **Cahiers de civilisation médiévale, No 11, 1968, 3,** pp. 353-371.

(٥) انظر «L'évolution des genres de vie en Tunisie».-J. PONCET **Cahiers de Tunisie, No 2, 1954,** pp. 315-323.

«Le mythe de la Catastrophe hilalienne», **Annales. E.S.C., No 5, 1967,** pp. 1099-1120.

بما فيه مصر الفاطميّة كما أشار إلى ذلك المؤرخّ الفرنسي كلود كاهين (C. Cahen)[٦].

ثمّ انّ بونسي لم يثبت في مقالاته أنّ الدّولة الصّنهاجيّة كانت - قبل قدوم بني هلال - في حالة انحلال وتدهور. كما أنّه لم يدرس بصفة خاصّة الظّروف الاقتصاديّة التي ميّزت مصر في عهد المستنصر بالله الفاطميّ.

سنحاول اذن ابراز تلك الظّروف التي لم يتعرّض لها المؤرخون من قبل ثم تحليلها وربطها بالهجرة الهلالية.

ولحسن حظّنا فانّ لدينا مصدراً تاريخياً عظيم الأهمية لم يقع استغلاله في هذا المضمار إلى حدّ الان وهو كتيب صغير ألّفه المقريزي سنة ١٤٠٥/٨٠٨ عنوانه «إغاثة الامّة بكشف الغمّة»[٧]. وهو عبارة عن تاريخ عامّ للمجاعات التي عرفتها البلاد المصرية - منذ آدم إلى بداية القرن التاسع الهجريّ» - يحلّل فيه المؤلّف - أعني المقريزي أسباب تلك المجاعات ثم يقترح في نفس الوقت الحلول التي يراها صالحة لتداركها.

انّ هذا المصدر يعطينا فكرة واضحة عن الحالة الاقتصاديّة في مصر في عهد المستنصر الفاطميّ لا سيما وأنّ المجاعات التيّ تحدّث عنها المقريزي باسهاب تهمّ الفترة الفاطميّة.

فهي اذن معاصرة للمستنصر وللهجرة الهلاليّة.

انّ تلك المجاعات - التي سنتعرّض إليها بعد حين - تدلّ بكلّ وضوح على تدهور الحالة الاقتصادية في مصر المستنصريّة، تدهور أكّده لنا

---

(٦) انظر «Qulques mots sur les hilaliens et le nomadisme» C. CAHEN **J.E.S.H.O., Mars 1968**, pp. 130-133.

(٧) انظر المقريزي: «كتاب اغاثة الامّة بكشف الغمّة»، تحقيق جمال الدّين الشيال، القاهرة، ١٩٤٠، ترجمه إلى الفرنسية G. WIET تحت عنوان «**Traité des famines**» ونشره في **J.E.S.HO, Février. 1962**

من جهة أخرى ابن تغري بردى في تاريخه المسمّى «النّجوم الزّاهرة في ملوك مصر والقاهرة» الذي يعالج تاريخ مصر منذ سنة ٦٤١/٢٠ إلى سنة ١٣٩٧/٧٩٩ -[٨] حيث يذكر لنا العديد من الاحداث التي حصلت في خلافة المستنصر: أوبئة - مجاعات - عدد وفيّات كبير. . . .

وقد وجدنا أيضاً مؤشرين يدلّان على شدّة الازمة آنذاك:

- أولاً: انحدار وزن الدّينار المصريّ في عهد المستنصر[٩]

- ثانياً: تقلّبات مياه النّيل في نفس الفترة [١٠] وما كان لها من انعكاسات في الميدان الاقتصاديّ والاجتماعيّ. ستتمحور اذن دراستنا حول ثلاث نقاط أساسيّة:

- الحالة الاقتصاديّة في مصر على ضوء ما جاء في «اغاثة الامّة بكشف الغمّة» للمقريزي.

- تدهور تلك الحالة من خلال دراسة مؤشّرين: تطوّر أوزان الدّينار ثم تقلّبات مياه النّيل.

- العلاقة الضّمنيّة بين تأزّم الوضع الاقتصاديّ في مصر المستنصريّة وهجرة بني هلال إلى افريقيّة.

---

(٨) ابن تغري بردى: **النّجوم الزّاهرة في ملوك مصر والقاهرة** - طبعة دار الكتب المصريّة، ١٢ جزء، انظر ٥: ص١٤٢ - ١.

(٩) انظر **Catalogue des monnaies musulmanes.** H. LAVOIX T3/ : **L'Egypte-La Syrie,** Paris, 1896, pp 102-152.

حسن ابراهيم حسن: **تاريخ الدّولة الفاطميّة**، القاهرة، ١٩٦٤، ص٦٠٥.

(١٠) «**النّجوم**»: ٥:١٤٢ - ١ - المقريزي: **المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والاثار**، القاهرة، ١٣٢٤، ٤أجزاء. انظر١: ١٠٩ - ١٠٢ ابن عبد الحكم. **فتوح مصر وافريقية والاندلس**، طبعة ليدن ١٩٢٩، ١٥٠ - ٩٤١ - ياقوت الحموّي، **معجم البلدان**، طبعة ليبزيق، ١٨٦٦، ٤: ٨٧٠ - ٨٦١.

١ - الحالة الاقتصاديّة في مصر في عهد المستنصر بالله (٤٢٧-٤٨٧/١٠٣٦-١٠٩٤) على ضوء كتاب «إغاثة الأمّة بكشف الغمة» للمقريزي:

ليس في نيّتنا معالجة كل جوانب الحياة الاقتصاديّة في مصر في عهد الخليفة الفاطميّ المستنصر بالله وانّما هدفنا هو التّركيز على ذكر بعض الاحوال الاقتصاديّة» «conjoncture économique» التي اتّسمت بها البلاد المصريّة آنذاك خاصّة الازمة الكبيرة التي ترجع جذورها في الحقيقة إلى العهد الاخشيديّ.

فقد ذكر لنا المقريزي في «اغاثة الأمّة» أنّ مصر اجتاحتها مجاعات عديدة أهّمها مجاعة سنة ٣٣٨/٩٤٩[١١] ثم مجاعتا سنة ٣٤١/٩٥٢ وسنة ٣٥٢/٩٦٣[١٢]. وقد أكّد المقريزي في وصفه لتلك المجاعات على النّقاط التالية: قلّة الحبوب التي انتهكتها الفئران، ثمّ قلة المياه - مياه النّيل الصّالحة للريّ -، ارتفاع الاسعار الذي انجرّ عن ذلك والصّعوبة التي لاقاها المصريّون للحصول على الخبز.

أمّا في العصر الفاطميّ فانّ حلقة «Cycle» المجاعات لم تنقرض بل تواصلت مدّة سنوات عدّة: مثلاً مجاعة سنة ٣٥٨/٩٦٩[١٣] ثم مجاعة سنة ٣٨٧/٩٩٧[١٤] ومجاعات أواخر القرن الرّابع: ٣٩٥/١٠٠٥[١٥] و٣٩٨/١٠٠٨[١٦].

وممّا يذكر أنّ خلافة المستنصر - التيّ تهمّنا بدرجة أولى - قد تخلّلتها مجاعات أعنف وأشدّ نذكر من بينها مجاعة سنة ٤٤٤/١٠٥٢ ثم مجاعة سنة

(١١) اغاثة الامّة...: ١٣.

(١٢) المصدر نفسه:

(١٣) المصدر نفسه.

(١٤) المصدر نفسه: ١٤.

(١٥) المصدر نفسه.

(١٦) المصدر نفسه.

١٠٥٥/٤٤٧ ومجاعة سنة ١٠٦٥/٤٥٧. غير أنّ الحدث البارز في نظرنا يتمثّل في مجاعة سنة ١٠٥٢/٤٤٤[١٧] التي دامت عدّة سنوات وعاصرت الغزو الهلالّي لافريقيّة.

وقد وصفها لنا المقريزي بكل دقّة مبيّناً خاصّة أسبابها ومميزاتها ونتائجها.

أمّا فيما يتعلّق بالاسباب فالمقريزي يذكر خاصّة قصر مياه النّيل[١٨] منذ سنة ٤٤٤ ثم قلة الغلاّت في المخازن التّجاريّة آنذاك. وممّا تجدر الاشارة إليه أنّ خلوّ المخازن من الغلاّت يرجع في نظر المقريزي - إلى انخفاض الاسعار وإلى قرار السّلطان - بايعاز من وزيره اليازوري[١٩] - باخراج ما في خزائنه من الغلاّت وبيعها خوفاً من بوارها وانحطاطها.

يقول المقريزي في هذا الصّدد: «ثم وقع غلاء في خلافة المستنصر ووزيره النّاصر لدين الله أبي محمّد الحسن بن علي بن عبد الرّحمان اليازوريّ وسببه قصر النّيل في سنة ٤٤٤ وليس بالمخازن السّلطانيّة شيء من الغلاّت، فاشتدّت المسغبة. وكان سبب خلوّ المخازن أنّ الوزير لّما أضيف إليه القضاء في وزارة أبي البركات كان ينزل إلى الجامع بمصر في يومي السّبت والثلاثاء من كلّ جمعة، فيجلس في الزّيادة منه للحكم على رسم ما تقدّمه، وإذا صلّى العصر رجع إلى القاهرة. وكان في كلّ سوق من أسواق مصر على أرباب كلّ صنعة من الصّنائع عريف يتولّى أمرهم، والاخباز بمصر في أزمنة المساغب متى بردت لم يرجع منها إلى شيء لكثرة

(١٧) **إغاثة الامّة**: ١٨ - نلاحظ في هذا الصّدد أنّ المقريزي - في وصفه للمجاعات التي اجتاحت مصر في العصر الفاطميّ - يطلق عليها اسم «غلاء» «Disette»

(١٨) انّ قصر مياه النّيل كثيراً ما جاء ذكره عند المقريزي كسبب أساسيّ للمجاعات في مصر - وهذا ممّا يؤكّد الدّور الكبير الذي يلعبه النّيل كمصدر رخاء مصر أو كسادها آنذاك.

(١٩) اليازوري هو أحد وزراء المستنصر بالله - انظر ترجمته وأخباره المفصّلة في السّيوطي، **حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة**، طبعة بولاق، القاهرة، ١٩٠٥، ٢: ١١٦.

ما يغشّ بها. وكان لعريف الخبّازين دكّان يبيع الخبز بها، ومحاذيها دكّان آخر لصعلوك يبيع الخبز بها أيضاً، وسعره يومئذ أربعة أرطال بدرهم وثمن[٢٠]. فرأى الصّعلوك أنّ خبزه قد كان يبرد فأشفق من كساده فنادى عليه أربعة أرطال بدرهم ليرغّب النّاس فيه فانثال النّاس عليه حتىّ بيع كلّه لتسامحه، وبقي خبز العريف كاسداً فحنق العريف لذلك، ووكّل به عونين من الحسبة أغرماه عشرة دراهم».

ثم يواصل المقريزي حديثه عن أسباب مجاعة سنة ٤٤٤ مشيراً بصفة خاصة إلى ما اتّخذه الوزير اليازوري من قرارات:[٢١] «فلما مرّ قاضي القضاة أبو محمّد اليازوري إلى الجامع استغاث به فأحضره المحتسب وأنكر عليه ما فعل بالرّجل فذكر المحتسب أن العادة جارية باستخدام عرفاء في الاسواق على أرباب البضائع ويقبل قولهم فيما يذكرونه فحضر عريف الخبّازين بسوق كذا واستدعى عونين من الحسبة فوقع الظنّ أنّه أنكر شيئاً اقتضى ذلك فأحضر الوزير الخبّاز وأنكر عليه ما فعله وأمر بصرفه عن العرافة ودفع إلى الصّعلوك ثلاثين رباعيّاً من الذّهب فكاد عقله يختلط من الفرح. ثمّ عاد الصّعلوك إلى حانوته فإذا عجنته قد خبزت فنادى عليها خمسة أرطال بدرهم فمال الزّبون إليه وخاف من سواه من الخبّازين برد أخبازهم فباعوا كبيعه فنادى ستة أرطال بدرهم فأدّتهم الضرورة إلى اتّباعه. فلماً رأى اتّباعهم له قصد نكاية العريف الأوّل وغيظه بما يرخص من سعر الخبز فأقبل يزيد رطلاً رطلاً والخبّازون يتبعونه في بيعه خوفاً من البوار حتىّ بلغ النّداء عشرة أرطال بدرهم وانتشر ذلك في البلد جميعه وتسامع النّاس به فتسارعوا إليه. فلم يخرج قاضي القضاة من الجامع إلاّ والخبز في جميع البلد عشرة أرطال بدرهم».

---

(٢٠) يساوي الرّطل ٤٥٠ غراماً أو ١٢ وقيّة. انظر G. WIET سبق ذكره: ٩٠ **Islamische masse und-W. HINZ.Gewischete,** Leyden, 1970, 29.

(٢١) اغاثة الامّة... : ١٨.

ويعرّج المقريزي بعد ذلك على ما كان يقوم به السّلطان - أي الخليفة الفاطميّ آنذاك - من مضاربات[٢٢] حيث أنّه يشتري الغلاّت بقدر مائة ألف دينار كلّ سنة ويضعها في مخازنه ثم يتّجر بها عندما ترتفع الاسعار. وطبعاً انّ مثل هذه العمليّات تؤثّر على حركة الاسعار بالاضافة إلى ما تؤدّي إليه من سخط الرّعيّة وحنقهم على السّلطان.

يقول المقريزي في هذا الشّأن: «وكان يبتاع للسّلطان في كلّ سنة غلّة بمائة ألف دينار وتجعل متجراً. فلمّا رجع اليازوري إلى القاهرة وداره بها، مثل بحضرة السّلطان وعرّفه ما منّ الله به في يومه من إرخاص السّعر وتوفّر النّاس على الدّعاء له وأنّ الله جلّت قدرته فعل ذلك وحلّ أسعارهم بحسن نيته في عبيده ورعيته وأنّ ذلك بغير موجب ولا فاعل له، بل بلطفه تعالى واتّفاق غريب وأنّ المتجر الذي يقام بالغلّة فيه مضرّة على المسلمين وربّما انحطّ السّعر عن مشتراها فلا يمكن بيعها فتتغيرّ بالمخازن وتتلف، وأنّه يقيم متجراً لا كلفة على النّاس فيه ويفيد أضعاف فائدة الغلّة ولا يخشى عليه من تغيرّ ولا انحطاط سعر وهو الخشب والصّابون والحديد والرصاص والعسل وشبه ذلك. فأمضى السّلطان له ما رآه واستقرّ ذلك ودام الرّخاء مدّة سنتين».

يمتاز هذا النصّ القيّم بالحيويّة والطّرافة بقطع النّظر عمّا يحتوي عليه من إشارات دقيقة عن الحياة الاقتصادية في مصر في منتصف القرن الخامس: نظام الاسواق، العرفاء، الحسبة، الحرف، حركة الاسعار، طبيعة البضاعات المتبادلة، عمليّة المضاربة بين التّجار.

ثمّ لا ننسى أن المقريزي هو الوحيد تقريباً من بين المؤرخين الذّين تحدّثوا عن مجاعة سنة ٤٤٤ المعاصرة للغزو الهلاليّ.

وقد نقل لنا كذلك نبأ المجاعات الاخرى التي اكتسحت البلاد

(٢٢) المصدر نفسه.

المصريّة في عهد المستنصر بالله خاصّة مجاعة سنة ٤٤٧ ومجاعة سنة ٤٥٧.

أمّا مجاعة سنة ١٠٥٥/٤٤٧[٢٣] فسببها - على حدّ تعبير المقريزي - قصر النيّل وقلة الحبوب ممّا أدّى إلى ارتفاع الاسعار (التلّيس[٢٤] بثمانية دنانير) واشتدّاد الامر على النّاس.

يصف لنا المقريزي[٢٥] هذه المجاعة كما يلي:

«ثم قصر النّيل بعد خمس سنين من نظره في سنة ٤٤٧ وليس في المخازن إلّا جرايات ما في القصور ومطبخ السّلطان وحواشيه لا غير. فورد على الوزير أبي محمّد ما كثر به فكره ونزع السّعر إلى ثمانية دنانير[٢٦] للتليس واشتدّ الامر على الناس وصار الخبر طرفة فدبر الوزير البلد بما أمسك به رمق الناس: وهو أنّ التجّار حين إعسار المعاملين وضيق الحال عليهم في القيام للدّيوان بما يجب عليهم من الخراج ومطالبة الفلاّحين بالقيام به صاروا يبتاعون منهم غلاتهم قبل إدراكها بسعر فيه ربح لهم. ثم يحضرون إلى الديوان ويقومون للجهبذ عنهم بما عليهم ويثبت ذلك في روزنامج الجهبذ مع مبلغ الغلة وما قاموا به فإذا صارت الغلال في البيادر حملها التجّار إلى مخازنهم. فمنع الوزير أبو محمّد من ذلك وكتب إلى عمّال عامّة النّواحي باستعراض روزنامجات الجهابذة وتحرير ما قام به التجار عن

---

(٢٣) اغاثة الامّة: ٢٠ وما بعدها.

(٢٤) يساوي التليس ٨ ويبات أو ما يعادل إردب وربع. الاردب هو كيل البلاد المصرية مقداره ٩٠ لتراً أو ٣٦ مدّاً - انظر G. Wiet، سبق ذكره: ٩٠ HINZ سبق ذكره: ٥١.

(٢٥) اغاثة الامّة: ٢٠ وما بعدها.

(٢٦) تغيّرت قيمة الدينار حسب الفترات - ففي العهد الفاطمي كان يساوي عشرين درهماً تقريباً. انظر G. WIET، سبق ذكره: ٩٠ - مقال دينار في دائرة المعارف الاسلاميّة: ٢: ٣٢٨.

انظر كذلك MATERIAUX pour servir à-H. SAUVAIRE l'histoire de la numismatique et de la métrologie musulmane. **J.A., 1879-1882;**

المعاملين ومبلغ الغلّة التي وقع الابتياع عليه وأن يقوموا للتجّار بما وزنوه للدّيوان ويربحونهم في كلّ دينار ثمن دينار تطييباً لنفوسهم. وأن يضعوا ختومهم على المخازن ويطالعوا بمبلغ ما يحصل تحت أيديهم فيها. فلمّا حصل عنده علم ذلك جهّز المراكب وحمّل الغلال من النّواحي إلى المخازن السّلطانيّة بمصر وقرّر ثمن التلّيس ثلاثة دنانير بعد أن كان بثمانية دنانير. وسلّم إلى الخبّازين ما يبتاعونه لعمارة الاسواق ووظّف ما يحتاج إليه البلدان القاهرة ومصر وكان ألف تلّيس دوار في كلّ يوم، لمصر سبعمائة وللقاهرة ثلاثمائة. فقام بالتدبير أحسن قيام مدّة عشرين شهراً إلى أن أدركت غلّة السنّة الثّانية فتوسّع النّاس بها وزال عنهم الغلاء وما كادوا يتألّمون لحسن التّدبير».

إنّ نصّ المقريزي هذا يركز بصفة خاصّة على الدّور الرئيس الذّي قام به الوزير اليازوري حيث استطاع أن يضع حدّاً لعمليّات المضاربة التي كان يقوم بها التّجار على حساب الفلاّحين. ولا شكّ أن حسن تدبيره وقراره بأن يكون التلّيس بثلاثة دنانير عوض ثمانية دنانير ثمّ تسليمه الغلّة للفلاحين: كلّ هذا ينمّ عن حنكة سياسيّة ودهاء - وكانت نتيجة ذلك زوال الغلاء وتحسّن أحوال الرعيّة.

غير أن المقريزي يعتبر أنّ السّبب الرئيسي لهذه المجاعة ولغيرها من المجاعات هو قصر النّيل الذي تنتج عنه قلّة الحبوب ومن ثمّة ارتفاع في الاسعار فغلاء فمجاعة.

وقد أكّد لنا في العديد من المرّات أهمية العوامل الطبيعيّة في انطلاق الغلوات سواء في مصر (قصر النيل أو فيضانه) وفي الحجاز (الجفاف وقلة المياه) أو في العراق والشام[٢٧]. لكنّنا نعتقد أن هذا العامل الطبيعي - رغم أهميته- ليس إلا أحد العوامل التي تقف

(٢٧) إغاثة الأمة، ص٤١

وراء الغلاء أو المجاعات- فالمقريزي[٢٨] نفسه يشير إلى ذلك عندما يحلّل الوضع العام في البلاد المصرية بعد موت اليازوري: «فلما قتل الوزير أبو محمد لم تر الدولة صلاحاً ولا استقام لها أمر وتناقضت عليها أمورها ولم يستقر لها وزير تحمد طريقته ولا يرضى تدبيره وكثرت السعاية فيها فما هو إلا أن يستخدم الوزير حتى يجعلوه سوقهم ويوقعوا به الظن حتى ينصرف ولم تطل مدّته». هذا إذن عامل سياسي له وزنه في استفحال الوضع في مصر وهو يتمثل في عدم استقرار الحالة السياسية في مصر بعد موت اليازوري ولا أدل على انحلال السلطة آنذاك إلا ما ذكره لنا المقريزي عن تغلّب الرجال والعبيد على السلطان. يقول في هذا الصدد[٢٩]... وخالط السلطان الناس وداخلوه بكثرة المكاتبة فكان لا ينكر على أحد مكاتبته فتقدم منهم كل سفساف وحظي عنده عدة أوغاد وكثروا حتى كانت رقاعهم أرفع من رقاع الرؤساء والجلّة وتنقلوا في المكاتبة إلى كل فن حتى أنه كان يصل إلى السلطان في كل يوم ثمانمائة رقعة. فتشبهت عليه الأمور وانتفضت الأحوال ووقع الاختلاف بين عبيد الدولة وضعفت قوى الوزراء عن تدبيرهم لقصر مدتهم وأن الوزير منذ أن يخلع عليه إلى أن ينصرف لا يفيق من التحرز ممن يسعى عليه عند السلطان وتقف عليه الرجال فما يكون فيه فضل عن الدفاع عن نفسه. فخربت أعمال الدولة وقل ارتفاعها وتغلب الرجال على معظمها واستصفوا نواحي ارتفاعها حتى انتهى ارتفاع الأرض السفلى إلى ما نسبة له من ارتفاعها الأول. وكان قبل سني هذه الفتنة ستمائة ألف دينار تحمل دفعتين في غرة رجب وغرة محرّم فاتضح الارتفاع وعظمت الواجبات...

ثم يواصل المقريزي حديثه عن خاصيات هذه الفتنة التي عرفتها مصر فيشير بأطناب إلى الأزمات الوزارية[٣٠]، وتكاثر الوزراء، والصراعات

(٢٨) المصدر نفسه، ص٢٣.

(٢٩) المصدر نفسه، ص٢٤

(٣٠) نفس المصدر السابق.

بين الأتراك والعبيد، وقصور السلطان عن إيجاد حل ملائم للوضع.

جاء في نصّه ما يلي[٣١]: «ووقع اصطلاح الأضداد على السلطان وواصلوا اقتضاءه قيوضهم فيوفيهم واجباتهم ولازموا بابه ومنعوه لذاته وتجرّأوا على الوزراء واستخفوا بهم وجعلوهم عرضاً لسهامهم فكانت الفترات بعد صرف من ينصرف منهم أطول من مدة نظر أحدهم. فطغى الرجال وتجرّأوا حتى خرجوا من طلب الواجبات إلى المصادرة فاستنفدوا أموال الخليفة وأخلوا منها خزائنه وأحوجوه إلى بيع أعراضه فاشتراها الناس بالقيم العادلة».

«وكان الناس يعترضون ما يباع فيأخذ من له درهم واحد ما يساوي عشرة دراهم ولا يمكن مطالبته بالثمن. ثم زادوا في الجرأة حتى صاروا إلى تقويم ما يخرج من الأعراض فإذا حضر المقوّمون أخافوهم فيقومون ما يسوي ألف بمائة ودونها ويعلم المستنصر وصاحب بيت المال بذلك ويتمكنون من استيفاء الواجب عليهم. فتلاشت الأمور واضمحلّ الملك وعلموا أنه لم يبق ما يلتمس إخراجه لهم فتقاسموا الأعمال وأوقعوا التباسهم على ما زاد عن الارتفاع وكانوا ينتقلون فيها بحكم غلبة من تغلب صاحبه عليها. ودام ذلك بينهم سنوات خمساً أو ستاً. ثم قصر النيل فانتزعت الأسعار نزوعاً بدّد شملهم وفرّق الفهم وشتّت علمتهم وأوقع الله العداوة والبغضاء بينهم فقتل بعضهم بعضاً حتى أباد خضراءهم وعفى آثارهم فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا».

بصفة إجمالية يتجلى لنا من خلال هذا النص- عن مجاعة سنة (٤٥٤) وخاصياتها - أن الوضع في مصر في عهد المستنصر بالله كان متشعباً من الناحيتين السياسية (إنحلال السلطة، وانهيار الملك وانخرام النظام)

---

(٣١) إغاثة الأمة، ص٢٤-٧

والاقتصادية (المضاربات التي كان يقوم بها كل من السلطان والتجار الكبار على حساب الفلاحين الصغار والمستهلكين).

إن مثل هذا الوضع السيء كانت له - بدون شك - نتائج وخيمة خاصة في الميدان الاجتماعي والاقتصادي - حيث ارتفعت الأسعار وانخفض دخل النواحي وأقفرت الأرياف وتكاثرت المجاعات...

لكن الشيء الذي نؤكد عليه هو علاقة هذا الوضع بهجرة بني هلال إلى أفريقية في منتصف القرن الخامس الهجري ذلك لأن القبائل العربية القاطنة آنذاك في الصعيد المصري كانت تعيش في ظروف متدهورة جداً كما أشار إلى ذلك المقريزي في كتاب البيان[٣٢] ثم أن الخليفة المستنصر- لاضطراب الوضع- قد يكون شجع عملية انتقال بني هلال وبني سليم إلى أفريقية لتخفيف الشدائد على سكان تلك المنطقة لا سيّما وأن الغلاء أو المجاعات تواصلت في النصف الثاني من القرن الخامس وأهمها - بدون شك - «الشدة الكبرى» التي اجتاحت مصر سنة (٤٥٧/١٠٦٥)ودامت ما لا يقل عن سبع سنين. وكان من نتائجها الخطيرة هبوط كبير في عدد السكان من جراء تكاثر الموتى، وإقفار الأرياف وتعطل النشاط الاقتصادي إلى غير ذلك...

إن هذا الغلاء الفاحش وصفه لنا العديد من المؤرخين مثل السيوطي وإبن تغرى بردى وإبن أبي دينار[٣٣]. لكن المقريزي لم يكتف بوصف عاجل لتلك «الشدة الكبرى» بل حاول تحليل أسباب انطلاقها ثم انتشارها في مصر كما درس ميزاتها وتطورها.

(٣٢) انظر المقريزي: **البيان والاعراب عمن نزل مصر من الأعراب**، تحقيق السيد عابدين، القاهرة، ١٩٦١، ص٢٧.

(٣٣) انظر النجوم: ٥/٢، وما بعدها - السيوطي، حسن المحاضرة: ج٢، ص ١١٦ وما بعدها. ابن أبي دينار. **كتاب المؤنس في أفريقية وتونس** طبعة تونس، ١٨٦٩، ٦٧.

أما الأسباب فالمقريزي حصرها فيما يلي: ضعف السلطنة، اختلال أحوال المملكة، استيلاء الأمراء على دواليب الدولة. اتصال الفتن بين الاعراب، قصور النيل، تعدد الصراعات بين الولاة و رعية: فهي كما نرى عوامل ذات صبغة سياسية واجتماعية واقتصادية إلى جانب العامل الطبيعي المعهود (قصور النيل).

ومن ميزات هذا الغلاء يذكر لنا المقريزي ارتفاع الأسعار وخاصة سعر الخبز إلى درجة أن الرغيف أصبح يساوي خمسة عشرة دينار، انتشار الوباء في كل الجهات من جراء قلة المواد الغذائية، إهمال الأراضي المزروعة الناتج عن تكاثر الموتى من جراء الجوع، أكل القطط والكلاب وحتى البشر.

فلنستمع إلى نص المقريزي عن هذه الشدة الكبرى[٣٤]: «ثم وقع في أيام المستنصر الغلاء الذي فحش أمره وشنع ذكره وكان أمده سبع سنين. وسببه ضعف السلطنة واختلال أحوال المملكة واستيلاء الأمراء على الدولة واتصال الفتن بين العربان وقصور النيل وعدم من يزرع ما شمله الري. وكان ابتداء ذلك في سنة ٤٥٧ فنزع السعر وتزايد الغلاء وأعقبه الوباء حتى تعطلت الأراضي في الزراعة وشمل الخوف وخيفت السبل براً وبحراً وتعذر السير إلى الأماكن إلا بالخفارة الكثيرة وركوب الغرر. واستولى الجوع لعدم القوت حتى أبيع رغيف خبز في النداء بزقاق القناديل من الفسطاط كبيع الطرف بخمسة عشر ديناراً وأبيع الأردب من القمح بثمانين ديناراً. وأكلت الكلاب والقطط حتى قلّت الكلاب فبيع كلب ليؤكل بخمسة دنانير. وتزايد الحال حتى أكل الناس بعضهم بعضاً وتحرز الناس فكانت طوائف تجلس بأعلى بيوتها ومعهم سلب وحبال فيها كلاليب فإذا مر بهم أحد لقوها عليه ونشلوه في أسرع وقت وشرحوا لحمه وأكلوه».

---

(٣٤) إغاثة الأمة: ٢٤ وما بعدها.

إن تعدد أعمال الادامة (Anthropophagie) وأكل الحيوانات كالكلاب والقطط هو نتيجة طبيعية لشدة الأزمة وقد أكد لنا إبن تغرى بردى ما جاء به المقريزي في هذا المضمار فسرد لنا في كتابه النجوم الزاهرة (35) كثيراً من الأقاصيص الطريفة التي نذكر منها ما يلي: «هذا والغلاء بمصر يتزايد، حتى إنه جلا من مصر خلق كثير لما حصل بها من الغلاء الزائد عن الحد، والجوع الذي لم يعهد مثله في الدنيا، فإنه مات أكثر أهل مصر، وأكل بعضهم بعضاً. وظهروا على بعض الطباخين أنه ذبح عدة من الصبيان والنساء وأكل لحومهم وباعها بعد أن طبخها. وأكلت الدواب بأسرها، فلم يبق لصاحب مصر - أعني المستنصر- سوى ثلاثة أفراس بعد أن كانت عشرة آلاف ما بين فرس وجمل ودابة. وبيع الكلب بخمسة دنانير، والسّنور بثلاثة دنانير. ونزل الوزير أبو المكارم وزير المستنصر على باب القصر عن بغلته وليس معه إلا غلام واحد، فجاء ثلاثة وأخذوا البغلة منه، ولم يقدر الغلام على منعهم لضعفه من الجوع فذبحوها وأكلوها، فأخذوا وصلبوا، فأصبح الناس فلم يروا إلا عظامهم، أكل الناس في تلك الليلة لحومهم. «ودخل رجل الحمام فقال له الحمامي: من تريد أن يخدمك سعد الدولة أم عز الدولة أم فخر الدولة؟ فقال له الرجل: أتهزأ بي، فقال: لا والله أنظر إليهم، فنظر فإذا أعيان الدولة ورؤساؤها صاروا يخدمون الناس في الحمام لكونهم باعوا جميع موجودهم في الغلاء واحتاجوا إلى الخدمة. «...» وباع رجل داراً بالقاهرة كان اشتراها قبل ذلك بتسعمائة دينار بعشرين رطل دقيق. وبيعت البيضة بدينار، والأردب القمح بمائة دينار في الأول، ثم عدم وجود القمح أصلاً. وكان السودان يقفون في الأزقة يخطفون النساء بالكلاليب ويشترحون لحومهن ويأكلونها، واجتازت إمرأة بزقاق القناديل بمصر وكانت سمينة، فعلّقها السودان بالكلاليب وقطعوا من عجزها قطعة، وقعدوا يأكلونها وغفلوا عنها، فخرجت من الدار

(٣٥) النجوم الزاهرة: ٥: ١٦ وما بعدها.

واستغاثت، فجاء الوالي وكبس الدار فأخرج منها ألوفاً من القتلى، وقتل السودان . . .

وفيما يتعلق بالخليفة المستنصر نفسه يعلمنا المقريزي[٣٦] «أنه باع كل ما في قصره من ذخائر وثياب وأثاث وسلاح وغيره وصار يجلس على حصير وتعطلت دواوينه وذهب وقاره وكانت نساء القصور تخرجن ناشرات شعورهن تصحن «الجوع الجوع» تردن المسير إلى العراق فتسقطن على المصلى وتمتن جوعاً. واحتاج المستنصر حتى باع حلية قبور آبائه وجاءه الوزير يوماً على بغلته فأكلتها العامة فشنق طائفة منهم فاجتمع عليهم الناس فأكلوهم. وأفضى الأمر إلى أن عدم المستنصر القوت.

أما إبن تغرى بردي[٣٧] فقد أكد من جهته أن . . . «المستنصر الخليفة . . . باع جميع موجوده وجميع ما كان في قصره حتى أخرج ثياباً كانت في القصر من زمن الطائع الخليفة العباسي، لما نهب بهاء الدولة دار الخليفة في إحدى وثمانين وثلاثمائة، وأشياء أخر أخذت في نوبة البساسيري، وكانت هذه الثياب التي لخلفاء بني العباس عند خلفاء مصر يحتفظون بها لبغضهم لبني العباس فكانت هذه الثياب عندهم بمصر بسبب المعيرة لبني العباس. فلما ضاق الأمر على المستنصر أخرجها وباعها بأبخس ثمن لشدة الحاجة. وأخرج المستنصر أيضاً طستا وإبريقاً بلوراً يسع الابريق رطلين ماء، والطست أربعة أرطال، وأظنه بالبغدادي فبيعا بإثني عشر درهماً فلوساً، ثم باع المستنصر من هذا البلور ثمانين الف قطعة. وأما ما باع من الجواهر واليواقيت والخسرواني فشيء لا يحصى. وأحصى من الثياب التي أبيعت في هذا الغلاء من قصر الخليفة ثمانون ألف ثوب، وعشرون ألف

---

(٣٦) **إغاثة الأمة**: ٢٤.

(٣٧) **النجوم الزاهرة**: ٥: ١٦- ١٧. نلاحظ من خلال هذه الأقاصيص الطريفة أن الخليفة المستنصر كان في وضع متدهور جداً. لكن هذا لا يعني أن كل ما قيل في شأنه يقبله العقل بدون تساؤلات.

درع، وعشرون ألف سيف محلي، وباع المستنصر حتى ثياب جواريه وتخوت المهود، وكان الجند يأخذون ذلك بأقل ثمن. «. . .واحتاج المستنصر في هذا الغلاء حتى أنه أرسل فأخذ قناديل الفضة والسّتور من مشهد إبراهيم الخليل عليه السلام». ومن جملة النوادر الطريفة التي ذكرها المقريزي [٣٨] - في وصفه لانتشار «الشدة الكبرى»- التي أصابت تقريباً كل الطبقات الاجتماعية- لا بدّ لنا أن نتعرض «لقصة الشريفة بنت صاحب السبيل التي كانت تبعث إلى المستنصر كل يوم بقعب من فتيت من جملة ما كان لها من البر والصدقات في تلك الغلوة حتى أنفقت مالها كله، وكان يجلّ عن الاحصاء في سبيل البر. ولم يكن للمستنصر قوت سوى ما كانت تبعث به إليه وهو مرة واحدة في اليوم والليلة». نشير كذلك إلى قصة المرأة التي باعت عقداً قيمته ألف دينار بتلّيس من الدقيق: «ومن غريب ما وقع أن امرأة من أرباب البيوتات أخذت عقداً لها قيمته ألف دينار، وعرضته على جماعة في أن يعطوها به دقيقاً وكل يعتذر إليها ويدفعها عن نفسه إلى أن رحمها بعض الناس وباعها به تلّيس دقيق بمصر وكانت تسكن القاهرة فلما أخذته أعطت بعضه لمن يحميه من النهّابة في الطريق فلما وصلت إلى باب زويلة تسلّمته من الحماة له ومشت قليلاً فتكاثر الناس عليها وانتهبوه نهباً. فأخذت هي أيضاً مع الناس من الدقيق ملأ يديها لم ينبها غيره ثم عجنته وشوته فلما صار قرصة أخذتها معها وتوصلت إلى أحد أبواب القصر ووقفت على مكان مرتفع ورفعت القرصة على يدها بحيث يراها الناس ونادت بأعلى صوتها: «يا أهل القاهرة إدعوا لمولانا المستنصر الذي أسعد الله الناس بأيامه وأعاد عليهم بركات حسن نظره حتى تقومت علي هذه القرصة بألف دينار». نستنتج من كل هذه النوادر والأقاصيص التي يزخر بها كتاب إبن تغرى بردى بصفة خاصة أن مجاعة سنة (457) كانت أشدّ وأعنف من كل المجاعات التي سبقتها وأن الناس كانوا في ضيق أدى بهم

---

(٣٨) إغاثة الأمة: ٢٤، وما بعدها.

إلى النهب وأكل القطط والكلاب وحتى لحوم البشر. ثم أن الخليفة المستنصر لم يكن في وسعه وضع حدّ للأزمة.

غير أن المقريزي أشار في نهاية وصفه لتلك المجاعة إلى ردّ فعل المستنصر الصارم- بعد سماعه لقصة المرأة المذكورة آنفاً- وهو ردّ فعل أقل ما يقال فيه أنه يتناقض مع السلطة الفعلية والنفوذ السياسي اللذين كانا يملكهما الخليفة آنذاك.

يقول المقريزي(٣٩) : «فلما اتصل به ذلك امتعض له وقدح فيه وحرّك منه. وأحضر الوالي وتهدده وتوعده وأقسم له بالله جلّت قدرته أنه ان لم يظهر الخبز في الأسواق وينحلّ السعر وإلا ضرب رقبته وانتهب ماله. فخرج من بين يديه وأخرج من الحبس قوماً وجب عليهم القتل وأفاض عليهم ثياباً واسعة وعمائم مدوّرة وطياليس سابلة وجمع تجار الغلّة والخبازين والطحانين وعقد مجلساً عظيماً وأمر بإحضاره واحد من القوم فدخل في هيئة عظيمة حتى إذا مثل بين يديه قال له: «ويلك ما كفاك أنك خنت السلطان واستوليت على مال الديوان إلى أن أخربت الأعمال ومحقت الغلال. فأدى ذلك إلى اختلال الدولة وهلاك الرعية؟ أضرب رقبته «فضربت في الحال وتركه ملقى بين يديه ثم أمر بإحضار آخر منهم فقال له»: كيف جسرت على مخالفة الأمر لما نهي عن احتكار الغلّة وتماديت على ارتكاب ما نهيت عنه إلى أن تشبّه بك سواك. فهلك الناس أضرب رقبته فضربت في الحال.

واستدعى آخر فقام إليه الحاضرون من التجار والطحانين والخبازين وقالوا: «أيها الأمير في بعض ما جرى كفاية ونحن نخرج الغلة وندير الطواحين ونعمّر الأسواق بالخبز ونرخص الأسعار على الناس ونبيع الخبز رطلاً بدرهم فقال: «ما يقنع الناس منكم بهذا». فقالوا: «رطلين» فأجابهم

---

(٣٩) المصدر نفسه.

بعد الضراعة ووفوا الشرط. وتدارك الله الخلق وأجرى النيل وسكنت الفتن وزرع الناس وتلاحق الخير وانكشفت الشدة وفرجت الكربة. وخبر هذه الغلوات مشهور وفي هذا القدر كفاية من التعريف والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون».

يظهر جلياً على ضوء هذا النص أن الغلاء ناتج عن الوضع السياسي المتدهور الذي كان يتخبط فيه المستنصر وأن تماديه مدة سبع سنين يرجع إلى المضاربات التجارية وسياسة الاحتكار التي كان يقوم بها بعض التجار إلى جانب الطحانين والخبازين.

أما نهاية الأزمة فالمقريزي يفسّرها- بقطع النظر عن تدخل القوة الالهية- بضبط الأسعار من طرف الوالي وجريان النيل مما أدى بعد ذلك إلى سكون الفتن ومواصلة الزراعة...

هذا وقد أكد ابن تغرى بردى [٤٠] في حديثه عن غلاء سنة (٤٥٧) على المقابلة بين قصر النيل من ناحية، والحروب التي كانت تخاض آنذاك ضد بني حمدان ثم الصراع بين الأتراك والعبيد من ناحية أخرى.

- ومهما يكن من أمر فإن كل الغلوات التي اجتاحت مصر في عهد المستنصر تدل بكل وضوح على أن البلاد المصرية كانت فعلاً تتخبط في أزمة إقتصادية شديدة من جرّاء قصر النيل وقلة الحبوب وارتفاع أسعار الغلات بالاضافة إلى سياسة الاحتكار وعمليات المضاربة التي كان يقوم بها التجار والخبازون والطحانون على حساب الفلاحين والرعية.

وقد استطعنا أن نثبت اشتداد تلك الأزمة الاقتصادية بالاستناد إلى مؤشرين أساسيين: تطور وزن الدينار الذهبي في اتجاه الانحدار في عهد المستنصر، ثم تقلبات مياه النيل الفجائية في نفس المدة وما كان لها من انعكاسات على السكان.

(٤٠) النجوم الزاهرة، ٥: ١٣ و ١٧ وما بعدها.

٢ - الوضع الاقتصادي في مصر في عهد المستنصر من خلال دراسة تطور وزن الدينار الذهبي وتقلبات مياه النيل:

(أ) تطور الدينار الذهبي[٤١]:

إن دراسة تطور قيمة النقود من أهم الدلائل لتمييز الوضع الاقتصادي في بلد ما نظراً لأن معرفة وزن الدينار أو الدرهم تساهم بقسط وافر في إلقاء الأضواء على ذلك الوضع بكل أبعاده.

ولوزن الدينار الذهبي - الذي يهم دراستنا - أهمية كبرى. فكلما زاد وزنه ذلك يدل على رفاهية الدولة وغناها ثم عنايتها بالعملة حتى تكسب ثقة الرعية وتصبح واسعة الرواج. أما إذا نقص الوزن فذلك دليل على تدهور الحالة الاقتصادية في البلاد، إذ يعمد الخليفة في هذه الصورة إلى إنقاص وزن العملة حتى يقلل من نفقات الدولة فتنخفض رواتب الموظفين ويزيد مقدار الضرائب[٤٢].

كيف كان إذن تطور الدينار الذهبي في عهد المستنصر؟ إن المتفحص للخط التطويري للدينار في العصر الفاطمي بصفة عامة وفي خلافة المستنصر بصفة خاصة[٤٣] يلاحظ أنه بلغ حده الأقصى الذي مقداره (٤٣٩)، غرامات سنة (١٠٥٩/٤٥١)، وحدّه الأدنى الذي بلغ (٢,٩٠) غرامات سنة (١٠٣٧/٤٢٩). ومن ناحية أخرى فإن وزنه انحط إلى مستوى ٣,٨٨ غرامات سنة ١٠٥٢/٤٤٤ وهو وزن ضعيف بالنسبة للمعدل العام. ومما يسترعي الانتباه كذلك أن تلك السنة هي سنة المجاعة التي اكتسحت مصر آنذاك وهي في نفس الوقت سنة انطلاق هجرة بني هلال إلى أفريقية.

---

(٤١) انظر (H. LAVOIX) سبق ذكره، ٣: ١٥-١٠٢. حسن ابراهيم حسن- سبق ذكره، ٦٠٥- انظر كذلك **E. ASHTOR—Histoire des prix et des salaires dans l'orient médiéval**. paris. 1969. PP 119—122.

(٤٢) انظر (H. SAUVAIRE) - سبق ذكره، و (E. ASHTOR)سبق ذكره،١١٩ وما بعدها. حسن ابراهيم حسن- سبق ذكره: ٦٠٥.

(٤٣) انظر الجدول في الصفحة التالية.

إن وضع رسم بياني (Graphique) (٤٤) لأوزان الدينار أثناء المدة الواقعة بين سنتي (٤٢٨/١٠٣٦) و ٤٨٤/١٠٩٢) يمكننا من استنتاج ما يلي:

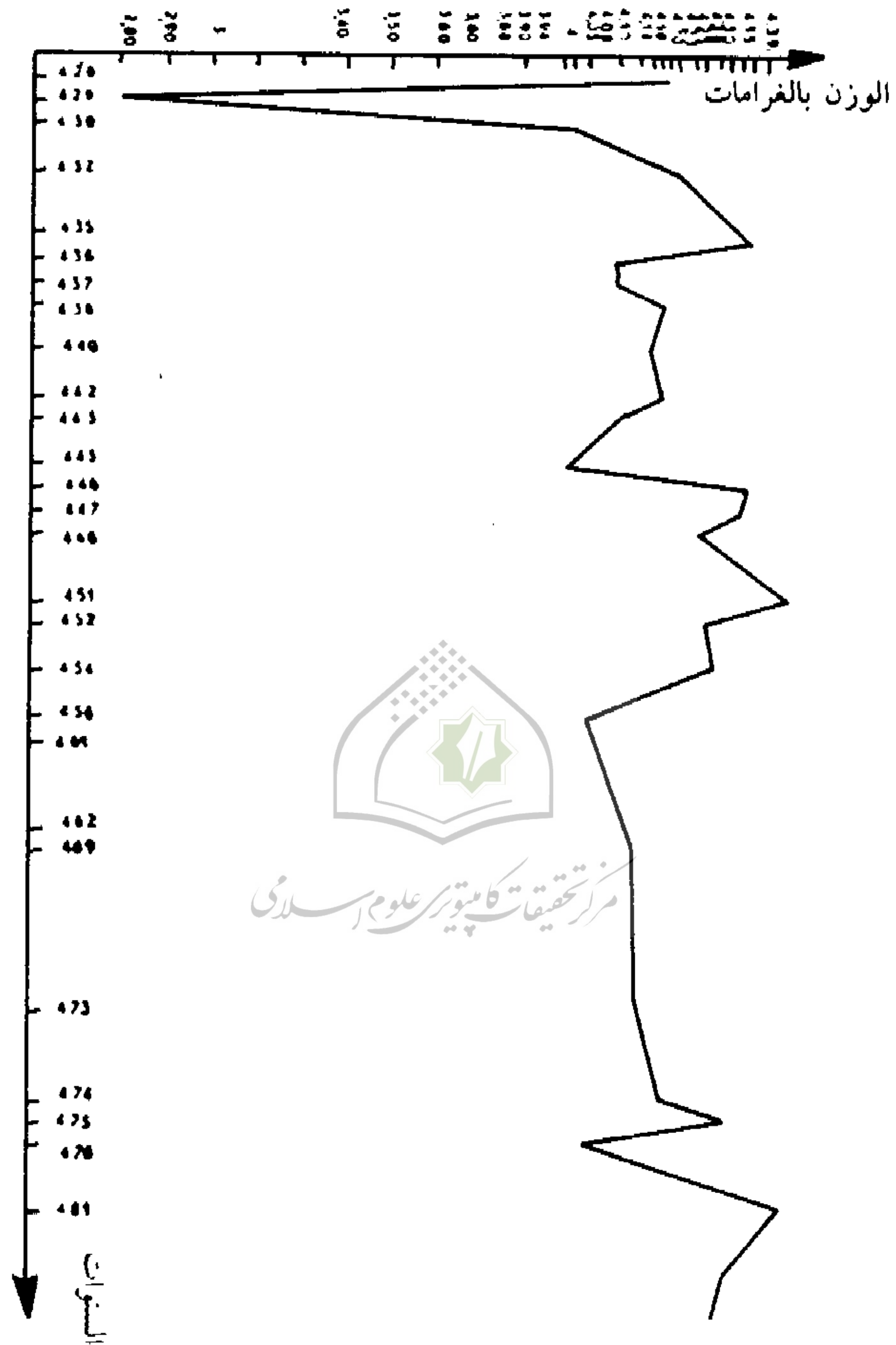
لوحة رقمية تبرز تطوّر وزن الدّينار الذّهبيّ في عهد المستنصر بالله الفاطميّ (٤٢٧-٤٨٧/ ١٠٣٦-١٠٩٠)*

السّنوات	الوزن بالغرامات	السّنوات	الوزن بالغرامات
٤٢٨/١٠٣٦-١٠٣٧	٤,١٢	٤٥١/١٠٥٩-١٠٦٠	٤،٣٩
٤٢٩/١٠٣٧-١٠٣٨	٢،٩٠	٤٥٢/١٠٦٠-١٠٦١	٤،٢٠
٤٣٠/١٠٣٨-١٠٣٩	٣،٩٠	٤٥٤/١٠٦٢-	٤،٢٢
٤٣٢/١٠٤٠-١٠٤١	٤،١٤	٤٥٦/١٠٦٣-١٠٦٤	٣،٩٤
٤٣٥/١٠٤٣-١٠٤٤	٤،٣٠	٤٦١/١٠٦٨-١٠٦٩	٤،٠٣
٤٣٦/١٠٤٤-١٠٤٥	٤،٠٠	٤٦٢/١٠٦٩-١٠٧٠	٤،٠٥
٤٣٧/١٠٤٥-١٠٤٦	٤،٠٠	٤٦٩/١٠٧٦-١٠٧٧	٤،٠٥
٤٣٨/١٠٤٦-١٠٤٧	٤،١٠	٤٧٣/١٠٨٠-١٠٨١	٤،١١
٤٤٠/١٠٤٨-١٠٤٩	٤،٠٨	٤٧٤/١٠٨١-١٠٨٢	٤,٢٥
٤٤٢/١٠٥٠-١٠٥١	٤،١٠	٤٧٥/١٠٨٢-١٠٨٣	٣،٩٤
٤٤٣/١٠٥١-١٠٥٢	٤،٠٠	٤٧٨/١٠٨٥-١٠٨٦	٤،٣٨
٤٤٥/١٠٥٣-١٠٥٤	٣،٨٨	٤٨١/١٠٨٨-١٠٨٩	٤،٢٥
٤٤٦/١٠٥٤-١٠٥٥	٤،٣٠	٤٨٣/١٠٩٠-١٠٩١	٤،٢٣
٤٤٧/١٠٥٥-١٠٥٦	٤،٢٨	٤٨٤/١٠٩٢-١٠٩٣	٤،٠٣
٤٤٨/١٠٥٦-١٠٥٧	٤،١٨		

(٤٤) انظر الرسم في الصفحة التالية.

(*) انظر (H. LAVOIX) سبق ذكره، ٣:١٠٢ــ١٥٢.

رسم تخطيطيّ (graphique) يمثّل تطوّر وزن الدّينار الذّهبيّ في عهد المستنصر *



(*) ذكرنا في الاحداثيّات (Coordonnées) السنوات في ناحية والوزن بالغرامات من ناحية أخرى.

- أوّلاً: ارتفاع في وزن الدّينار يتبعه نوع من الاستقرار من سنة ١٠٤٠/٤٣٢ (٤،١٤ غرامات) إلى حدّ سنة ١٠٥١/٤٤٣ (٤ غرامات).

- ثانياً: انخفاض سنة ١٠٥٣/٤٤٥ (٣,٨٨ غرامات) يعقبه استقرار في وزن الدّينار إلى حدّ سنة ١٠٥٩/٤٥١ (٤،٣٩ غرامات) حيث ينحدر الوزن من جديد بداية من سنة ١٠٦٣/٤٥٦ (٣،٩٤ غرامات).

- ثالثاً: استقرار نسبيّ من سنة ١٠٦٨/٤٠١ (٤،٠٣ غرامات) إلى حدّ سنة ١٠٨١/٤٧٤ (٤،٢٥ غرامات) يليه انخفاض سنة ١٠٨٢/٤٧٥ (٣،٩٤ غرامات) ثمّ ارتفاع سنة ١٠٨٥/٤٧٨ (٤،٣٨ غرامات).

لكنّ دراسة دقيقة للفترة الممتدّة من سنة ١٠٤٣/٤٣٥ إلى سنة ١٠٦٣/٤٥٥- وهي المدّة التي حدثت فيها القطيعة بين الفاطميين في مصر وحلفائهم بني زيري في افريقية وجاءت اثرها الهجرة الهلاليّة - تثبت لنا تطابقاً يكاد يكون كاملاً بين الثلاثة أحداث الاتية:

- انخفاض وزن الدّينار سنة ١٠٥٣/٤٤٥ (٣،٨٨ غرامات) ثمّ سنة ١٠٦٤/٤٥٦ (٣،٩٤ غرامات).

- شدّة المجاعات في البلاد المصريّة خاصّة سنة ١٠٥٣/٤٤٥ وسنة ١٠٦٥/٤٥٧.

- وأخيراً تدفّق بني هلال وبني سليم على افريقية بداية من سنة ١٠٥٣/٤٤٤.

أليس هذا دليلاً صارخاً على تدهور الحالة الاقتصاديّة وحدّة الازمة التي اكتسحت البلاد المصريّة في عهد المستنصر؟

(ب) دراسة تقلّبات مياه النّيل[٤٥]:

نودّ أن نشير قبل كلّ شيء إلى ما أورده ابن بطّوطة في رحلته[٤٦]

---

(٤٥) **أنظر الخطط**، ١: ١٠٢-١٠٩- **النجوم الزّاهرة**، ٥: ١-١٤٢ حيث يذكر لنا كلّ من المقريزي وابن تغري بردى نسبة ارتفاع أو انخفاض مياه النيل أثناء خلافة المستنصر.

(٤٦) ابن بطوطة، **رحلة**، دار صادر، بيروت، ١٩٦٤، ٤٠ وما بعدها.

عن النّيل وخاصيّاته: «. . .ونيل مصر يفضل أنهار الأرض عذوبة مذاق، واتّساع قطر، وعظم منفعة، والمدن والقرى بضفتيه منتظمة ليس في المعمور مثلها، ولا يعلم نهر يزرع عليه ما يزرع على النّيل وليس في الارض نهر يسمّى بحراً غيره». «ومن عجائبه أنّ ابتداء زيادته في شدّة الحرّ عند نقص الانهار وجفوفها، وابتداء نقصه حين زيادة الانهر وفيضها. . .وأوّل ابتداء زيادته في حزيران وهو يونيه، فإذا بلغت زيادته ستّة عشر ذراعاً تمّ خراج السّلطان، فان زاد ذراعاً كان الخصب في العام والصّلاح التّام، فان بلغ ثمانية عشر ذراعاً أضرّ بالضّياع، وأعقب الوباء، وان نقص ذراعاً عن ستّة عشر نقص خراج السّلطان، وان نقص ذراعين استسقى النّاس وكان الضّرر الشّديد».

يتّضح من خلال هذا النّص أنّ تقلبات مياه النّيل هي التي تحدّد رخاء مصر أو كسادها. وهذا ممّا يفسّر لنا اهتمام الحكّام - ومن بينهم الفاطميّين - بمقاييس النّيل التي هي أشبه «بميزان الرّخاء أو الكساد»[٤٧] بالنّسبة للبلاد المصرية.

وقد كانت في مصر عدّة مقاييس للنّيل نذكر من جملتها مقاييس أسوان ودندرة وحلوان والرّوضة. والمقياس[٤٨] (Nilomètre) هو عبارة عن عمود رخام أبيض مثمن الاضلاع، في موضع يصل إليه الماء عند انسيابه، وهو مقسّم إلى اثنين وعشرين ذراعاً، والذّراع مقسّم إلى أربعة وعشرين اصبعاً.

ويعلمنا المقريزي[٤٩] أنّ المقياس الذي كان يشرف عليه عامل جرت العادة أن تذاع نتائجه على الناس عن طريق المنادي في طرقات القاهرة وسائر مدن مصر. «غير أنّ الخليفة الفاطميّ المعزّ لدين الله

(٤٧) حسن ابراهيم حسن، سبق ذكره، ٥٧٢.

(٤٨) انظر .The Cairo Nilometer, Berkely, W. Popper 1951, pp.102-105

(٤٩) **الخطط**، ١: ١٠٢ وما بعدها.

(٣٤١-٣٦٥-٩٥٢-٩٧٥) أمر بكتمان أمر المقياس لأنّ النّاس إذا شعروا بانخفاض النّيل، تسرّب القلق إلى نفوسهم، فأخفوا الغلال، وامتنعوا عن بيعها حتىّ يرتفع السّعر، ويعمل الاغنياء على اختزان الغلال، فيحدث الغلاء. وإذا أحسّ النّاس بزيادة النّيل هبطت الاسعار هبوطاً فاحشاً وأصيب كبار التّجّار بأفدح الاضرار. لذلك كان في كتمان الزّيادة عن العامّة فائدة كبرى»(٥٠).

وهكذا فانّ رخاء البلاد المصريّة ورفاهيّتها مرتبطان أشد الارتباط بمنسوب مياه النّيل مع العلم أنّ المعدّل المثالّي - كما أكدّه كلّ من ابن بطّوطة والمقريزي - قدره ستّة عشر ذراعاً(٥١).

كيف كانت إذن تقلّبات مياه النّيل في أيّام المستنصر؟

يظهر من خلال الثّبت الذي يسجّل نسبة ارتفاع النّيل وانخفاضه في عهد المستنصر(٥٢) أنّ هناك سنين (٤٣٠-٤٤٠) بلغ فيها منسوب النّيل بالاذرع والأصابع أعلى مداه (أكثر من ١٧ ذراعاً) وسنين أخرى (مثلاً ٤٢٩-٤٥١-٤٦٠-٤٧٢) انخفض فيها ماء النّيل انخفاضاً فاحشاً كانت له انعكاسات سيئة على الضّياع والرّعيّة (ما يعادل ١٥,٢٠ ذراعاً).

إنّ دراسة مدقّقة لهذه الارقام المتوفّرة عند المقريزي وابن تغري بردى(٥٣) تكشف لنا عن التّقلّبات الاتية لمياه النّيل:

- أوّلاً: ارتفاع نسبيّ للنّيل أثناء المدّة الواقعة بين سنتي ٤٣٠ و٤٤٠ حيث بلغت المياه ما يعادل ١٧ ذراعاً - ما عدا سنتي ٤٣٩ و٤٠٠.

---

(٥٠) حسن ابراهيم حسن - سبق ذكره، ٥٧٢ وما بعدها.

(٥١) الذّراع عبارة عن «وحدة قياس» مقدارها ٤ قبضة أو ٦ اصبعاً - أما الأصبع فيساوي ٦ شعيرة. انظر دائرة المعارف الاسلاميّة ١١، ٢٣٨، (W. HINZ).

(٥٢) انظر الجدول في الصّفحة الموالية.

(٥٣) الخطط، ١: ١٠٢ وما بعدها. النّجوم الزّاهرة، ٥: ١-١٤٢.

٣ - جدول يسجّل نسبة ارتفاع النّيل وانخفاضه في عهد المستنصر*

السّنوات	القياس بالاذرع
١٠٣٦/١٠٣٥-٤٢٧	١٦,١٥
١٠٣٧/١٠٣٦-٤٢٨	١٥،٣٩
١٠٣٨/١٠٣٧-٤٢٩	١٥،٢٠
١٠٣٩/١٠٣٨-٤٣٠	١٧،٢٠
١٠٤٠/١٠٣٩-٤٣١	١٧،١٠
١٠٤١/١٠٤٠-٤٣٢	١٧،٢٠
١٠٤٢/١٠٤١-٤٣٣	١٧،١٧
١٠٤٣/١٠٤٢-٤٣٤	١٧،١٦
١٠٤٤/١٠٤٣-٤٣٥	١٧،٦٠
١٠٤٥/١٠٤٤-٤٣٦	١٧،٢٠
١٠٤٦/١٠٤٥-٤٣٧	١٧،٢٠
١٠٤٧/١٠٤٦-٤٣٨	١٧،١٩
١٠٤٨/١٠٤٧-٤٣٩	١٦،١٧
١٠٤٩/١٠٤٨-٤٤٠	١٦،٧٠
١٠٥٠/١٠٤٩-٤٤١	١٧،٩٠
١٠٥١/١٠٥٠-٤٤٢	١٧،١٦
١٠٥٢/١٠٥١-٤٤٣	١٧،١٢
١٠٥٣/١٠٥٢-٤٤٤	١٧،٥٠
١٠٥٤/١٠٥٣-٤٤٥	١٧،٠٠
١٠٥٥/١٠٥٤-٤٤٦	١٧،٤٠
١٠٦٧/١٠٦٦-٤٥٩	١٦،١٧
١٠٦٨/١٠٦٧-٤٦٠	١٥،٦٠
١٠٦٩/١٠٦٨-٤٦١	١٧،١٨
١٠٧٠/١٠٦٩-٤٦٢	١٦،٠٠
١٠٧١/١٠٧٠-٤٦٣	١٧،٣٠
١٠٧٢/١٠٧١-٤٦٤	١٦،١٠
١٠٧٣/١٠٧٢-٤٦٥	١٦،٧٠
١٠٧٤/١٠٧٣-٤٦٦	١٦،٣٠
١٠٧٥/١٠٧٤-٤٦٧	١٧،٨٠
١٠٧٦/١٠٧٥-٤٦٨	١٦،١٤
١٠٧٧/١٠٧٦-٤٦٩	١٧،١٣
١٠٧٨/١٠٧٧-٤٧٠	١٧،١٠
١٠٧٩/١٠٧٨-٤٧١	١٧،٢٠
١٠٨٠/١٠٧٩-٤٧٢	١٥،١٨
١٠٨١/١٠٨٠-٤٧٣	١٦،١٥
١٠٨٢/١٠٨١-٤٧٤	١٨،١٣
١٠٨٣/١٠٨٢-٤٧٥	١٥،١٠
١٠٨٤/١٠٨٣-٤٧٦	١٧،١٣
١٠٨٥/١٠٨٤-٤٧٧	١٧،١٣
١٠٨٦/١٠٨٥-٤٧٨	١٥،٥٠

٤٤٧-١٠٥٥/١٠٥٦	١٧،٤٠	٤٧٩-١٠٨٦/١٠٨٧	١٧،١٥
٤٤٨-١٠٥٦/١٠٥٧	١٧،١٣	٤٨٠-١٠٨٧/١٠٨٨	١٧،٧٠
٤٤٩-١٠٥٧/١٠٥٨	١٧،٣٠	٤٨١-١٠٨٨/١٠٨٩	١٨،٤٠
٤٥٠-١٠٥٨/١٠٥٩	١٦،١٢	٤٨٢-١٠٨٩/١٠٩٠	١٦،٩٠
٤٥١-١٠٥٩/١٠٦٠	١٥،٢٣	٤٨٣-١٠٩٠/١٠٩١	١٨،٠٠
٤٥٢-١٠٦٠/١٠٦١	١٦،٩٠	٤٨٤-١٠٩١/١٠٩٢	١٦،٢٢
٤٥٣-١٠٦١/١٠٦٢	١٦،١٨	٤٨٥-١٠٩٢/١٠٩٣	١٦،١١
٤٥٤-١٠٦٢/	١٧،٠٠	٤٨٦-١٠٩٣/١٠٩٤	١٦،٣٠
٤٥٥-١٠٦٣/	١٧،١٢	٤٨٧-١٠٩٤/١٠٩٥	١٦،٢١
٤٥٦-١٠٦٣/١٠٦٤	١٦،٣٠	٤٨٨-١٠٩٥/١٠٩٦	١٧،١٢
٤٥٧-١٠٦٤/١٠٦٥	١٦،١٠	٤٨٩-١٠٩٦/١٠٩٧	١٣،١٧
٤٥٨-١٠٦٥/١٠٦٦	١٦،١٧	٤٩٠-١٠٩٧/١٠٩٨	١٧،١٠

(*) انظر الخطط، ١: ١٠٢-١٠٩- النّجوم [..]ـرة، ٥: ١-١٤٢.

- ثانياً: ارتفاع فادح حيث بلـ[..] المياه ما بين سنة ٤٤٤و٤٤٧ - المعاصرة للغزو الهلالي لافريقيّة - أكثر [..] ١٧ ذراعاً.

-ثالثاً: انخفاض سنة ٤٥١ (٢٣[..] ١٥ ذراعاً).

-رابعاً: استقرار نسبيّ من سـ[..] ٤٥٢ (١٦،٩٠ ذراعاً) إلى سنة ٤٥٩ (١٦،١٧ ذراعاً) حول معدّل يتر[..]ح بين ١٦و١٧ ذراعاً.

- خامساً: ارتفاع فاحش خلا[..] السّنوات ٤٦٧ (١٧،٨٠ ذراعاً) و٤٧٤ (١٨،١٣ ذراعاً) و٤٨١ (١٨،٤٠ [..] ذراعاً).

إنّ رسم خطّ بيانيّ[54] لتقلّبات [..]ياه النّيل يدلّنا على مدى التّغيّرات الفجئيّـة للنّيـل (oscillations): ارتفـ[..]ع مشطّ خـلال السّنـوات ٤٤١ (١٧،٩٠ ذراعاً)، ٤٤٤ (١٧،٥٠ [..]راعاً) ٤٤٦ (١٧،٤٠ ذراعاً) و٤٦٧

(٥٤) انظر الخطّ البيانيّ في الصّفحة الموالية.

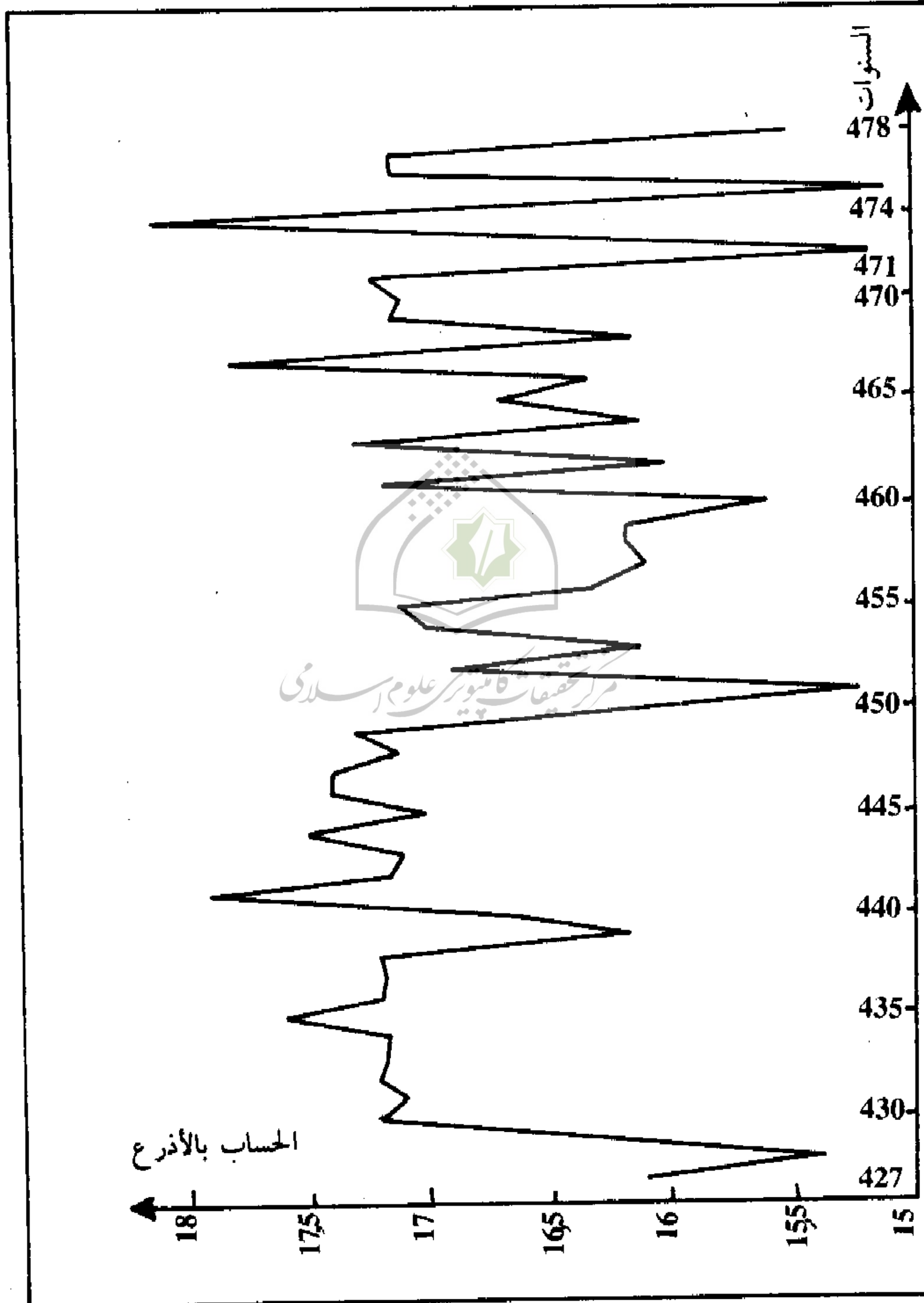
(١٧،٨٠ ذراعاً)؛ ثمّ انخفاض فادح سنة ٤٥١ (١٥،٢٣ ذراعاً)، ٤٦٠ (١٥،٦٠ ذراعاً) وخاصّة سنة ٤٧٢ (١٥،١٨ ذراعاً و٤٨٩ (١٣،١٧ ذراعاً). . .

هناك إذن تواقت بين سنوات فيضان النّيل (٤٤١ و٤٤٤ و٤٤٦) وسنوات الغلوات في مصر من ناحية وسنوات انطلاق هجرة بني هلال إلى افريقية من ناحية أخرى.

كذلك نلاحظ أنّ الدّينار انحدر خلال نفس هذه السّنوات. ممّا يجعلنا نتساءل عن العلاقة بين الأزمة الاقتصاديّة التي اكتسحت مصر في عهد المستنصر والهجرة الهلالية إلى افريقّية؟



٤ - رسم بيانيّ يمثّل تقلبّات
مياه النّيل في عهد المستنصر*



(*) ذكرنا في الاحداثيّات (Coordonnées) السّنوات من جهة ونسبة ارتفاع النّيل أو انخفاضه بالأذرع والأصابع من جهة أخرى.

٣ - العلاقة بين الحالة الاقتصاديّة المتدهورة في مصر في عهد المستنصر والهجرة الهلالية إلى افريقيّة:

كلّ الاشارات تدلّ بصفة جلّية لا يتسرّب إليها الشّك أنّ الوضع الاقتصاديّ في مصر كان فعلاً في تدهور أقلّ ما يقال فيه أنّه مريع. ولنا في الأحداث التّالية ما يثبت ذلك:

- أوّلاً: قلّة الموادّ الغذائيّة ولا سيما الحبوب.
- ثانياً: ارتفاع الاسعار وبصفة خاصّة سعر الخبز.
- ثالثاً: تكاثر المجاعات والأوبئة الذي جعل الرّعيّة تتهافت على أكل القطط والكلاب وحتىّ البشر.
- رابعاً: انخفاض في أوزان الدّينار الذّهبي.
- خامساً: فيضان مياه النّيل وقصرها وما لذلك من نتائج سيّئة على حالة السكّان.

وقد أكّد لنا المقريزي[٥٥] أنّ تأزّم الوضع الاقتصاديّ في مصر آنذاك وتكاثر المجاعات والاوبئة في عهد المستنصر انجرّ عنهما انحسار ديموغرافيّ كبير، وتوقّف للحركة التّجاريّة بقطع النّظر عن تعطّل الزّراعة وانتشار الخوف والفزع في صفوف الرّعيّة.

غير أنّ النّظام الفاطمي - في تلك الفترة - لم يكن في مستوى الوضع حيث أنّ المستنصر وجد صعوبات جمّة لتدارك تلك الحالة واجتثاث جذور الازمة.

وهكذا انجرّت عن الازمة الاقتصاديّة أزمة سياسية حادّة في منتصف القرن الخامس الهجريّ.

والمهمّ هو أنّ تلك الازمة الحادّة على المستوين الاقتصادي والسّياسيّ عاصرت الهجرة الهلاليّة إلى افريقيّة.

---

(٥٥) اغاثة الأمّة، ٢٤ وما بعدها.

فهل كانت المطابقة الزّمنيّة بين الحدثين من باب الصّدفة؟ أم هل أنّ تغريبة بني هلال لها علاقة ضمنيّة بالوضع الـدّاخليّ في مصـر في عهد المستنصر؟

انّما نميل بدون أيّ شكّ إلى الافتراض الثّاني وسنعلّل ذلـك بعد حين.

فالنّظريّة التّقليديّة[٥٦] التي ذكرناها آنفاً والتيّ تفسّر الهجرة بأسباب سياسيّة وايديولوجيّة بحتة غير كافية في نظرنا لانهّا تهمل كلّ الاهمال العامل الاقتصادي الذي لعب دوراً كبيراً في تلك الحركيّة.

ثمّ إنّ العامل السّياسيّ الذي لا يمكن لنا التّغافل عنه قد لا يكون في نهاية الأمر سبباً في حدّ ذاته بل مجرّد تعلّة (prétexte) بالنّسبة للمستنصر الذي كان يتخبّط في صعوبات جمّة. فهو اذن عامل ثانويّ لا سيما وأنّ القبائل الهلاليّة بدورها كانت في وضع ماديّ خانق نظراً لوجودها في منطقة جدباء عرفت بجفاف مناخها وقلّة مراعيها وهي الصّعيد، ممّا شجّعها على توجيه نظرها إلى افريقية والخروج من الصّعيد بحثاً عن ظروف عيش ملائمة.

وممّا يدلّ على ذلك ما جاء في سيرة بني هلال[٥٧] من ذكر حثيث للمجاعات التيّ أدّت بالسّلطان حسن بن سرحان إلى إرسال أبي يـزيد الهلاليّ إلى افريقيّة - المعروفة بغناها ورفاهيّتها - لاستطلاع أحوال البلاد.

هذا وقد تعرّض ابن خلدون في حديثه عن خروج بني هلال من الصّعيد إلى افريقّية إلى الاسباب التي تكمن وراء ذلك.

---

(٥٦) انظر H.R. IDRISS - سبق ذكره، ١: ٢٠٣ وما بعدها.

(٥٧) انظر عبد الرّحمان فيفة - سبق ذكره. راجع أيضاً «سيرة بني هلال» مخطوط بالمكتبة الوطنية بتونس رقم ١٣٥٥٧ و١٣٣٠٦.

يقول في هذا الصّدد[٥٨]: «فبعث المستنصر وزيره[٥٩] على هؤلاء الاحياء[٦٠] سنة إحدى وأربعين، وأرضخ لامرائهم في العطاء ووصل عامّتهم بعير ودينار لكلّ واحد منهم، وأباح لهم اجازة النّيل. وقال لهم: «قد أعطيتكم المغرب ملك المعزّ بن بلكّين الصنهاجيّ العبد الابق فلا تفتقرون».

نلاحظ من خلال هذا النّصّ المشهور الذي اعتمد عليه كلّ المؤرخينّ - وخاصّة المستشرقين منهم - لتعليل هجرة بني هلال واكسابها طابعاً سياسيّاً - ألا وهو نقمة المستنصر على حليفه المعزّ لدين الله الصّنهاجيّ الذي قطع الخطبة له وخطب لخصمه العبّاسي - نلاحظ اذن وجود جملة كثيراً ما وقع اهمالها «فلا تفتقرون» وهي تدلّ في نظرنا على تدهور وضع بني هلال آنذاك في الصّعيد.

ويضيف ابن خلدون قائلاً: «وكتب اليازوريّ إلى المغرب: «أما بعد فقد أنفذنا إليكم خيولاً فحولاً، وأرسلنا عليها رجالاً كهولاً، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، فطمعت العرب إذ ذاك وأجازوا النّيل إلى برقة، ونزلوا بها وافتتحوا أمصارها واستباحوها، وكتبوا لاخوانهم بشرقيّ النّيل يرغبونهم في البلاد، فأجازوا إليهم بعد أن أعطوا لكلّ رأس دينارين، فأخذ منهم أضعاف ما أخذوه»[٦١].

يكشف لنا هذا النّص على تشجيع الفاطميين لبني هلال لاجتياز النّيل والذّهاب إلى افريقية. وقد أصبح من المؤكّد أنّ هذه العمّلية مكّنت الخزانة الفاطميّة لا فقط من استرجاع الاموال التي كانت أسندت للعناصر

---

(٥٨) ابن خلدون - تاريخ: ٧١: ٣١.
(٥٩) الوزير المقصود هو اليازوريّ.
(٦٠) الاحياء يعني بها بنو هلال وبنو سليم.
(٦١) ابن خلدون، تاريخ، ٧١: ٣١.

الهلاليّة في بادىء الامر من طرف المستنصر لعبور النّيل بل درّت عليها كذلك أرباحاً وفيرة كانت في أشدّ الحاجة إليها آنذاك[٦٢].

أليس هذا إذن دليلاً إضافياً على مدى أهميّة العنصر الاقتصاديّ الماديّ لتفسير الهجرة الهلالية؟.

بقي لنا سؤال أخير يتعلق بالحالة الاقتصاديّة والاجتماعيّة في افريقيّة في العصر الصّنهاجيّ - وبصفة خاصّة في عهد المعزّ بن باديس -: فهل كانت في أوجها كما تكشف عن ذلك قراءة البيان المغرب لابن عذارى[٦٣] وكما أكّده كلّ من «مرسي» و «ادريس»؟ بحيث يكون الهلاليّون هم المتسبّبون في انهيار البلاد وانحطاط المدن فيها وبالتّالي في تغلب الحياة البدويّة عليها.

أم هل كان هذا الوضع في صدد التّدهور كما أشار إليه «بونسي»؟ بحيث لم «يزد الهلاليّون إلاّ الطّين بلّة» حينما دخلوا إلى افريقيّة و «عاثوا فيها فساداً» على خدّ تعبير ابن خلدون.

ومهما يكن من أمر فانّ العوامل الاقتصادية لعبت دوراً كبيراً في انتقال الهلاليّين من الصّعيد إلى افريقيّة عبر طرابلس وبرقة. وممّا لا يتسرّب إليه الشّكّ أن تلك القبائل العربية البدوّية قد ساهمت في نشر اللّغة العربيّة حيث تواجدت كما ساهمت - بمقدار لا نستطيع أن ننكره - في إحلال حياة البادية في مواضع كانت مزدهرة ويغلب عليها الطّابع المدنيّ ونعني بصفة خاصّة افريقيّة.

راضي دلفوس أستاذ التّاريخ
الوسيط بقسم التاريخ - **كلية الاداب** - تونس

---

(٦٢) انظر المقريزي، **اغاثة الأمّة**: ٢٢ حيث يُعلِمُنا أنّ الخزانة كانت خالية من الأموال نتيجة استفحال الأزمة وشدّة الغلوات في البلاد المصريّة آنذاك.

(٦٣) البيان المغرب، دار الثّقافة، بيروت، ١٩٤٨، ١: ٣٦٧ وما بعدها.

التطور الاقتصادي في العراق
١٩٥٨ - ١٩٦٨

بقلم
الدكتور/ محمد محمد صالح
جامعة بغداد

تحسنت إقتصاديات العراق خلال الفترة بين ١٩٥١ - ١٩٥٨ تحسناً واضحاً فازداد حجم الإنتاج ومتوسط الدخل الفردي، وتضخم حجم التجارة الخارجية بشقيها الصادرات والإستيرادات، وخاصة إستيراد البضائع الإنتاجية التي كانت ضرورية للحركة العمرانية ونشوء الصناعات الوطنية. ويرجع السبب الرئيسي لهذا التحسن إلى زيادة عائدات النفط التي بلغت أقصاها في سنة ١٩٥٥، حيث كانت ٨٦٦و٧٤٢و٧٣ دينار من ٤٦٣و٣٥٥و١٥ دينار في ١٩٥١[١].

وعلى أثر ذلك قامت الحكومة العراقية بتبني سياسة التخطيط ووضع البرمجة للتنمية الاقتصادية عن طريق وضع برامج طويلة ومتوسطة الأجل لتطوير الأقتصاد الوطني، وان كانت هذه البرامج تفتقد إلى طبيعة الخطة الإقتصادية العلمية الصحيحة، والتقصير في التنفيذ.

وتطبيقاً لفكرة التنمية الاقتصادية قامت حكومة العراق بتأسيس مجلس الاعمار الذي كان عبارة عن مؤسسة ذات استقلال من الناحية الأدارية والمالية، وفتحت صلاحيات واسعة النطاق لوضع وتنفيذ برامج التنمية

(١) التقرير السنوي للبنك المركزي العراقي لسنة ١٩٥٧. ص١٧ - ٢٠.

الاقتصادية ومشاريع الإعمار في شتى النواحي الاجتماعية والثقافية والاقتصادية.

غير ان ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ غيّرت مجرى الامور. وكانت الأزمات الأقتصادية العالمية تؤثر على إقتصاديات العراق.

وقد جاء في التقرير السنوي للبنك المركزي العراقي بأن سنة ١٩٥٧ شهدت ظهور بوادر متفرقة للأنتكاس الاقتصادي في الولايات المتحدة الأمريكية وفي دول أوروبا الغربية. وقد ازداد هذا الانتكاس حدة سنة ١٩٥٨ بحيث شمل بعض دول الشرق...

«فالتوسع الصناعي خارج العالم الأشتراكي كانت نسبته قد هبطت سنة ١٩٥٧ بالنسبة لبعض الفروع الانتاجية، ثم انقلبت إلى انكماش ملحوظ... كما أن التجارة العالمية قد انتكست خلال سنة ١٩٥٨ وهبطت أسعار المواد الأولية وتدهورت الاحتياطيات النقدية لكثير من الدول».

«يضاف إلى ذلك أن زيادة النفقات العامة كالبلدية والتسلح أدت إلى ارتفاع تكاليف الانتاج والتضخم النقدي الذي ازداد تعقداً في بعض الدول بسبب تطبيق مناهج اعمارية ضخمة تصرف عليها من ميزانيات غير متوازنة..»

«لقد خسرت بعض الدول إحتياطاتها النقدية، كما أن الولايات المتحدة الأمريكية خسرت جزءاً كبيراً من خزينتها الذهبية، وفقد الدولار قسطاً من قيمته الفعلية لكن الباون الاسترليني قد اكتسب قوة ملحوظة وزادت قيمة أرصدة الذهب والدولار للمنطقة الاسترلينية بمقدار ٣٥٪. فتدفقت الأموال للاستثمار في بريطانيا على أثر رفع أسعار الفائدة هناك»[٢].

(٢،أ) التقرير السنوي للبنك المركزي العراقي لسنة ١٩٥٨. ص٥ - ٣٧. تفاصيل الصفحات (٥ - ٧، ٩ - ١٢، ٢١ - ٣٠، ٣٤ - ٣٧).

«إن الكساد الإقتصادي كان قد أنتج أثره في إقتصاديات العراق، إذ أنه أدى إلى خفض أسعار المواد الأولية والغذائية التي يصدرها العراق، ولذلك استمرت الصادرات في هبوطها فوصلت إلى حدها الأدنى وقدره ١٢,٩ مليون دينار سنة ١٩٥٧. وبادرت الحكومة إلى عقد إتفاقيات تجارية مع البلاد الاشتراكية جميعاً، مكونة بذلك مجالاً واسعاً لزيادة التصدير ولرفع مستوى أسعار الصادرات، بحيث شهدت سنة ١٩٥٨ زيادة ملموسة في قيمة تجارة التصدير[٢].

ولقد كان من المؤمل أن يجتث قانون الإصلاح الزراعي الذي وضعته حكومة الثورة موضع التنفيذ أهم عوامل الضعف والخلل في اقتصاديات العراق الزراعية كي تطور الإنتاج الزراعي تطوراً سريعاً، لكن ذلك لم يحدث إلّا في السنوات الأولى من الثورة.

وفي مجال التجارة والاستيراد فقد عمدت الحكومة إلى تنظيم حركة السلع المستوردة بصورة جذرية، حيث أخضعت جميع الاستيرادات لنظام الإجازة. وفي منهج السنة التالية وضعت أسساً جديدة الغاية منها تسهيل استيراد سلع الأنتاج وسلع الإستهلاك، وحماية الإنتاج الوطني ومحاربة التبذير والبذخ توفيراً للأموال اللازمة للبلاد. وقد أزيلت الفوارق بين العملات النادرة والسهلة فيما يتعلق بالاستيراد بحيث لم يكن هناك داع للتمييز بين مصدر وآخر من مصادر السلع.

إن زيادة نفقات الدولة تحقيقاً لوجوه الاصلاح الآنية، وزيادة قيمة تجارة التصدير ومحاربة التضخم في تجارة الاستيراد كانت عوامل في زيادة العملة المتداولة وعرض النقد زيادة كبيرة. ومع ذلك لم ترتفع مستويات الاسعار خلال السنة المذكورة. وقد أدّى توسع إنتاج النفط وتصديره وتسوية قسم من القضايا المعلقة بين الجمهورية العراقية وشركات النفط إلى

(٢،ب) التقرير السنوي للبنك المركزي العراقي لسنة ١٩٥٨. ص ٥-٣٧ تفاصيل الصفحات (٥-٧,٩ ١٢، ٢١-٣٠، ٣٤-٣٧).

زيادة كبرى في المقبوضات من النفط، وكان من نتائج ذلك، مع زيادة مقبوضات تجارة التصدير وانخفاض المدفوعات لأغراض الاستيراد، أن عادت الإحتياطات النقدية إلى الأرتفاع بعد هبوطها الشديد في السنة السابقة، فزادت قيمة أرصدة العملات الأجنبية والذهب النقدي زيادة كبيرة[٣].

وكان من أهداف ثورة ١٤ تموز العمل على وضع وتنفيذ خطة منظمة لتصنيع البلاد وتحويل اقتصادها الزراعي المتأخر إلى اقتصاد مختلط متطور. ولتسهيل تحقيق هذا الهدف ارتؤي عند إعادة النظر في التشكيلات الوزارية عقب الثورة أنه من الضروري تأسيس وزارة خاصة بالصناعة للقيام بمهام التصنيع.

وقد اتبعت الحكومة العراقية سياسة اقتصادية داخلية مستقلة منذ سنة ١٩٥٩. فقد خرجت في تلك السنة من المنطقة الاسترلينية، التي كانت قد ضيقت الخناق على العملة العراقية. وطبقت سياسة نقدية مستقلة، وبذلك تحرر العراق من التقييد بسياسة تجارية معينة مع بعض الدول. وقامت الحكومة بعد ذلك بعقد إتفاقيات تجارية مع الدول الاشتراكية ودول أخرى على أساس المنافع المتبادلة والتأكيد على استيراد المواد الضرورية والتقليل من الكماليات.

ومن الناحية المالية فرضت ضرائب مباشرة لتحقيق العدالة الاجتماعية كضريبة التركات والعقار، وتعديل قانون الكمارك وضريبة الدخل. وكانت ميزانية العراق لسنة ١٩٥٩، أضخم ميزانية في تاريخ البلاد، قصد بها القيام بالمشاريع الصناعية والزراعية واعمار البلاد[٤].

---

(٣) المصدر نفسه ص٢١ - ٣٠.

(٤) التقرير السنوي للبنك المركزي العراقي لسنة ١٩٥٩، ص٥ - ٣٩ مقتبسة من صفحات (٥ - ٧، ٨ - ١٤، ٢١ - ٣١، ٣٦ - ٣٩).

الوضع الاقتصادي عام ١٩٦٠

الانتاج الصناعي: ولقد أ ـمردات النفط تعديلاً في سعر النفط بانخفاض السعر بمعدل عشر لبرميل في آب ١٩٦٠، جعلته ٧,٦ سنتات للبرميل الواحد بعد خسر العراق من جراء ذلك مقدار ٥,١ مليون دينار. فأخذ العـ ئذٍ يبذل جهوداً مثمرة لتكوين كتلة منظمة «أوبيك» من الاقطار ا لمنفط غايتها تنسيق وتوحيد سياستها النفطية وخاصة تجاه تخفيض ، وهي أول محاولة جدية لمواجهة التنظيم الاحتكاري الشرائي ، النفط بتنظيم مماثل له من قبل البائعين.

ويلاحظ أنه بالرغم من الإنتاج بنسبة ١٣,٧٪ لعام ١٩٦٠ مقارناً بحجمه في العام السا كمية المصدرة بنسبة ١٣,٦٪، فان قيمة النفط المصدر خلال نفس لم تزد إلا بنسبة ١٠,٤٪ فقط، في حين أن حصيلة إيرادات الحك اقية من النفط لم تزد إلا بنسبة ٩,٨ خلال نفس الفترة وذلك بسبب الأسعار التي اعلنته شركات النفط.

وقد أدى النمو الملحوظ ـاع إنتاج النفط وتصفيته إلى تحقيق زيادة جديدة في حجم الدخل الصافي خلال سنة ١٩٦٠ وزيادة في معدل حصة الفرد منه بسبب سبة النمو في حجم الانتاج الكلي للاقتصاد العراقي أسرع من ادة السكان خلال نفس الفترة هذا وبالأضافة إلى العامل السابق ت مساهمة كل من القطاع الصناعي غير النفطي والخدمات الحكوم والأهلية والقطاع الإنشائي بارزة في زيادة حجم الدخل القومي.

ويشار إلى أن أهم الصـ لتي شهد حجم إنتاجها إرتفاعاً هي صناعات الجلود والصابون و والأثاث المعدني والفانيلات ونسيج الحرير. علماً بأن معظم هذه رد إلى التوسع في إستغلال الطاقات

الإنتاجية القائمة نتيجة منحها المزيد من الحماية وليس إلى زيادة الاستثمارات الإنتاجية الفردية التي يلاحظ استمرار ميلها نحو القطاع التجاري. وقد نشط القطاع الإنشائي خلال السنة بدليل عدد الإجازات الممنوحة للبناء(٥).

الانتاج الزراعي:

أما الدخل الزراعي والحيواني فقد كانت مساهمته في الدخل القومي العراقي خلال عام ١٩٦٠، أعلى من مثيلها للعام السابق بسبب إستعادته لبعض نشاطه الذي كان واطئاً خلال عام ١٩٥٩ نتيجة الاستقرار النسبي الذي تحقق للعلاقات الزراعية بعد القلق الذي اعتورها في العام السابق. إلا أن مستوى الدخل الزراعي خلال عام ١٩٦٠، ظل برغم ذلك دون المعدلات السنوية بسبب توالي شحة المواسم الزراعية للسنوات الأربعة الماضية.

ولما كان الدخل الزراعي والحيواني وهو بمستواه الواطىء هذا يؤلف العمود الفقري للطاقة الشرائية لدى السكان في الأرياف والذين يؤلفون غالبية السكان، فقد كان من شأن تقلص حجم الطلب الفعال المتولد عنه أقسام فعاليات السوق الداخلية بالفتور وبروز مشكلة شحة النقد الفعال فيها مما حدا بالسلطة النقدية إلى معالجة ذلك عن طريق تشجيع النظام المصرفي على توسيع تسهيلات الائتمان بمختلف فروعه(٦).

الاحوال الاقتصادية عام ١٩٦١:

لقد استمر الإقتصاد العراقي في انتعاشه البطيء غير المتناسق وثباته المالي والنقدي النسبي خلال عام ١٩٦١، وإن صاحب ذلك ظهور بعض علامات التوسع غير المرضية فيه. وقد كان لتحسن توقعات المنظمين

---

(٥) التقرير السنوي لسنة ١٩٦٠. ص١١ - ١٧، ٣٣ - ٣٨.

(٦) المصدر نفسه، ص٢٩ - ٣٣.

(أصحاب المشاريع) نسبياً خلال العام أثره في زيادة مساهمة القطاع الخاص في دعم مستوى النشاط الاقتصادي.

وبالرغم من أن جميع القطاعات الإقتصادية الوطنية قد حققت نمواً ملحوظاً خلال سنة ١٩٦١، ساهمت معه في زيادة الدخل القومي الحقيقي، فانها قد تفاوتت في نسبة ذلك النمو وسرعته. فقد حقق قطاع الخدمات الاستهلاكية درجة نمو أكبر وأسرع من درجة نمو القطاعات الانتاجية كالقطاع الزراعي والصناعي(٧).

الإنتاج الزراعي لسنة ١٩٦١

لقد حقق القطاع الزراعي لأول مرة منذ خمسة أعوام عجاف نسب نمو معتدلة رغم الربح العالي الذي حققته معظم فروع الصناعات والامتيازات التي أغدقتها التشريعات الاقتصادية المختلفة والوسائل العديدة المشجعة التي سلكتها السلطة في حث رؤوس الأموال نحو الاستثمار الصناعي. وتشير إحصائيات الإنتاج الزراعي إلى أنه بالرغم من التأثير المعاكس لشحة المياه على المحاصيل الصيفية وخاصة الرز في مناطق الفرات الأوسط والأسفل وديالى، فقد أسهمت زيادة المساحات المزروعة وملائمة الظروف الجوية، وسلامة المحاصيل من الأوبئة والآفات الزراعية في زيادة كمية المنتج من المحاصيل الرئيسية وهي الحنطة والشعير والتمور والقطن. ومما يجدر ذكره أن تغييراً كبيراً قد أصاب السياسة الزراعية العامة خلال عام ١٩٦١. فقد شرعت القوانين التي تستهدف دعم الإصلاح الزراعي وتطوير الزراعة وزيادة الانتاج وإيقاف الهجرة من الريف إلى المدن باعفاء الفلاحين من الأعباء المالية، وتخفيض تلك الأعباء بالنسبة للمالكين والمتصرفين بدون تمييز وذلك عن طريق الاستعاضة عن الضرائب المتعددة

---

(٧) التقرير السنوي للبنك المركزي العراقي لسنة ١٩٦١، ص٩ - ١٧.

بضريبة موحدة هي ضريبة الأرض والتي اعفيت عنها منتجات التمور والتبوغ المستهلكة محلياً. كما أعفيت منها أيضاً المحاصيل الزراعية اللازمة للتطوير الزراعي او التي تنتج لاغراض التصدير[٨].

الانتاج الصناعي:

أما بالنسبة للأنتاج الصناعي فقد ازدهر خلال السنة بصورة ملموسة أيضاً نتيجة التوسع في استغلال الطاقات القائمة غير المستغلة في كثير من قطاعات الصناعة بالاضافة إلى زيادة واضحة في رؤوس الأموال المستثمرة في القطاعين الخاص والعام.

وبهذا الصدد، تجدر الأشارة إلى الحماية الحكومية والمساعدات التي منحتها للسياسة الإقتصادية المختلفة. هذا وقد كان لاستقرار العلائق الزراعية من ناحية وتحسن العلاقات بين العمال وأصحاب الأعمال[٩] وقلة المشاكل العمالية أثره في تحسين إنتاجية العمال بالنسبة للسنوات السابقة.

الوضع الاقتصادي العام لسنة ١٩٦٢:

لقد تميز الوضع الاقتصادي بنوع من الاستقرار، واستمر مستوى الفعاليات الاقتصادية في ميله نحو النمو في معظم القطاعات الاقتصادية خلال سنة ١٩٦٢. وتشير الإحصائيات إلى حدوث زيادة في حجم الإنتاج الزراعي وفي الإنتاج الصناعي بقطاعيه العام والخاص. وقد نشطت الحركة الصناعية في القطاع الخاص بصورة واضحة حتى وصلت بعض الصناعات القائمة كامل طاقاتها الانتاجية وتوسع بعضها الآخر توسعاً ملحوظاً وحفظت بعض الصناعات أسعار منتجاتها. هذا من ناحية، ومن ناحية اخرى فقد توخى منهاج الإستيراد لسنة ١٩٦٢، إيجاد الحماية الكافية للصناعة الوطنية

---

(٨) المصدر نفسه: ص٣٧ - ٤٢.

(٩) التقرير السنوي لسنة ١٩٦١، ص:٤٣ - ٥٠.

وذلك بمنع إستيراد السلع الأجنبية المنافسة أو تقليص قيم إجازات الإستيراد الممنوحة لإستيراد مثل هذه السلع[١٠].

الأحوال المالية والنقدية:

لقد ازدادت النفقات العامة ولا سيما الإستهلاكية منها خلال سنة ١٩٦٢، ورافق هذا الازدياد توسع في عمليات الائتمان مما أدى إلى ظهور اتجاه عام نحو التوسع النقدي وازدياد عرض النقد لدى الجمهور حيث وصل إلى ١٤٦,٧ مليون دينار بعد ان كان ١٣٣,١ مليون دينار في كانون الاول ١٩٦١. وكانت الزيادة بنسبة ١٣,٦٪.

وقد أثرت الظروف النقدية والمالية والتجارية على غطاء العملة المصدرة، فازدادت قيمة سندات الحكومة العراقية بمقدار ٨,٥ مليون دينار، وسجلت قيمة الموجودات من العملات الاجنبية انخفاضاً قدره أكثر من ثمانية ملايين دينار في نهاية عام ١٩٦٢[١١].

هذا وقد شهد عام ١٩٦٢، زيادة في عدد الشركات العاملة في العراق سواء منها المساهمة أو ذات المسؤولية المحدودة وزيادة مماثلة في رؤوس أموالها. فقد ازداد عدد الشركات المساهمة بمقدار (١٥) شركة، وعدد الشركات ذات المسؤولية المحدودة بمقدار (٧١) شركة. أما بخصوص شركات التأمين فقد تأسست شركتان جديدتان عراقيتان خلال عام ١٩٦٢، وبذلك أصبح عدد شركات التأمين المؤسسة في العراق ٢٥ شركة. ولم يطرأ تغيير على عدد الشركات الأجنبية العاملة في العراق خلال السنة المذكورة.

التجارة الخارجية:

تميزت تجارة العراق الخارجية باتجاهها التنازلي في هذه السنة بالنسبة للسنة السابقة فقد انخفضت قيمة تجارتي الاستيراد والتصدير من ٣٧١,٢

(١٠) التقرير السنوي للبنك المركزي العراقي لسنة ١٩٦٢ ص: ١٥ - ٢٤.
(١١) المصدر نفسه: ٥٠ - ٥٦.

مليون دينار في سنة ١٩٦١ إلى ٣٦٨,٥ مليون دينار في سنة ١٩٦٢، وذلك بسبب الهبوط الذي حصل في إستيرادات شركات النفط وفي القطاع غير النفطي.

بقيت قيمة النفط المصدر خلال عام ١٩٦٢ محتفظة بمستواها الذي كانت عليه خلال السنتين السابقتين. أما كمية النفط المصدر فقد بقيت على نفس المستوى بالنسبة إلى سنة ١٩٦١، أي ٤٨ مليون طن، بالإضافة إلى أن معدل سعر الطن الواحد من النفط بقي ثابتاً خلال السنة.

وارتفعت صادرات العراق المحلية (عدا النفط) فبلغت رقمًا قياسياً لم تصله من قبل، إذ كانت قيمتها أكثر من (١٩) مليون دينار وذلك بسبب زيادة تصدير المواد الغذائية والمواد الأولية حيث أن الموسم الزراعي كان جيّداً مما دفع بفائض الإنتاج الزراعي إلى الخارج.

وقد سجلت إستيرادات العراق خلال ١٩٦٢ إنخفاضاً بما في ذلك إستيرادات شركات النفط من ١٤٥,٦ مليون دينار سنة ١٩٦١، إلى ١٢٩,٦ مليون دينار في ١٩٦٢. وشمل هذا الانخفاض كلاً من سلع الإستهلاك والإنتاج. ويعود السبب في انخفاض استيرادات، شركات النفط إلى توقف عمليات التنقيب وإلى تقليص المساحات التي سمح لشركات النفط في التنقيب عليها[١٢].

زيادة الإنتاج وزيادة الدخل القومي:

إن ارتفاع القيمة القياسية للصادرات وانخفاض القيمة القياسية للأستيرادات أدى إلى حصول إرتفاع كبير في نسبة التبادل التجاري لسنة ١٩٦٢ لمصلحة العراق تفوق ما كانت عليه في أي من السنوات منذ ١٩٥٦. وازداد الدخل القومي في العراق بالأسعار السائدة في الأسواق إلى ٥٢٦,٥ مليون دينار في سنة ١٩٦٢، بعد أن كان ٢٤٣,٩ مليون دينار في سنة ١٩٥٣.

---

(١٢) المصدر نفسه: ١٥ - ٩٥.

وقد ساهم كل من القطاع الإقتصادي العام والخاص في زيادة الدخل. وتعتبر الزراعة واستخراج النفط الخام أهم قطاعين في الإقتصاد العراقي. ويأتي قطاع الصناعة التحويلية في المرتبة الثالثة.

وتشير الإحصائيات إلى أن زيادة ملموسة قد تحققت خلال هذا العام في حجم الإنتاج الزراعي في كل من المحاصيل الشتوية والصيفية بالقياس إلى العام الذي سبقه وهو عام ١٩٦١ والأعوام الثلاثة التي قبلها. فقد ازداد إنتاج الحنطة والرز والشعير والتمور والسمسم. وشرّعت الحكومة خلال سنة ١٩٦٢ بعض القوانين لدعم الإنتاج الزراعي وتحسين حالة الزراعة، وذلك لتخفيف الأعباء المالية عن كاهل المزارعين وتنشيط القطاع الزراعي. ومع ذلك فان قانون الإصلاح الزراعي كان بطيء التنفيذ. أما الانتاج الصناعي فقد أحرز تقدماً ملموساً في كلا القطاعين العام والخاص بسبب زيادة رؤوس الأموال المستثمرة. وقد ازدادت رؤوس الأموال المستثمرة من القطاع الخاص فبلغ ٣٥,٦ مليون دينار، وتم خلال هذا العام فتح بعض المعامل الحكومية كمعمل التعليب في كربلاء ومعمل الأحذية الشعبية في الكوفة.

ولقد بلغت ميزانية الدولة ١١٨,٥ مليون دينار خلال عام ١٩٦٢ وكانت أهم إيرادات الدولة عبارة عن ضريبة الدخل (حيث بلغت ٥٨ مليون دينار)، وإيرادات الكمارك والمكوس التي بالدرجة الثانية وكانت ٤٠ مليون دينار في السنة المذكورة. أما الايرادات الاخرى فهي ضريبة الزراعة والعقار والبريد والبرق والتلفون وإيرادات الدوائر الحكومية الاخرى[١٣].

الأحوال الاقتصادية خلال سنة ١٩٦٣:

لقد أدت التطورات السياسية والظروف الجوية غير الملائمة إلى إنخفاض في الإنتاج الزراعي والصناعي خلال سنة ١٩٦٣ فتقلص حجم

(١٣) المصدر نفسه. ص٨٠ - ٨٤، ٨٦ - ٨٨، ٩٤ - ٩٥.

الانتاج بسبب الظروف غير الطبيعية وأصيب المحصول ببعض الأمراض النباتية بالاضافة إلى تقلص المساحات المزروعة مما أدى إلى إنخفاض المنتوج: الحنطة بمقدار ٥٥,٢٪ والشعير ٢٩,٨٪ والكتان بمقدار ٣,٠٪.

الصناعة:

كما شهد الإنتاج الصناعي تقلصاً في إنتاج غالبية الصناعات المحلية ولا سيما صناعة الغزل والنسيج القطني والصوفي والحريري وصناعة الأحذية وصناعة الأواني المنزلية، في حين حافظت الصناعات الغذائية والمنظفات على مستوى إنتاجها. وحققت صناعة الزيوت والصابون والإسمنت ثمة زيادات خلال العام. وقد إنخفض عدد إجازات تأسيس المشروعات الصناعية إلى ١٦١ إجازة مقابل (٤٨٧) إجازة تأسيس للعام السابق. كما إنخفض عدد الشركات الصناعية الجديدة ذات المسؤولية المحدودة إلى (١٥) شركة برؤوس أموال اسمية يبلغ مجموعها (٧٧٥) ألف دينار وذلك مقابل (٢٩) شركة ذات مسؤولية محدودة تأسست خلال ١٩٦٢ برؤوس أموال اسمية يبلغ مجموعها (١,٩) مليون دينار. كما تم تأسيس شركة صناعية مساهمة واحدة برأسمال إسمي قدره (٢٥٠) ألف دينار ومدفوع قدره (٢١١) ألف دينار وذلك مقابل ١٠ شركات مساهمة أسست في العام السابق برأسمال إسمي يبلغ مجموعه (٢,٦) مليون دينار ومدفوع قدره (١,٤) مليون دينار. وقد أشارت إحصائيات وزارة التخطيط إلى إنخفاض المعدل الشهري للمؤسسات الصناعية التي تستخدم عشرة أشخاص فما فوق بمقدار ٩١ مؤسسة يبلغ مجموعها خلال العام (١,٠٩٥) مؤسسة كما انخفض عدد العاملين فيها إلى (٧٥,٧) ألف عامل في العام السابق[١٤].

---

(١٤) التقرير السنوي للبنك المركزي العراقي لسنة ١٩٦٣، ص ٩ - ١٤، ٢٣ - ٢٦.

الزراعة:

لقد كان لانخفاض الإنتاج الزراعي بنسبة ٢٩٪ تقريباً عما كان عليه في سنة ١٩٦٢، وهبوط إنتاج وفعاليات قطاع الصناعة التمويلية والنقل والمواصلات وتجارة الجملة والمفرد وقطاع الصيرفة أثره المواضح في هبوط الدخل القومي في هذه السنة بنسبة ٢,٠٪ بالأسعار الجارية و٣,٠٪ بالأسعار الثابتة بالنسبة لعام ١٩٦٢.

إنتاج النفط:

أما بالنسبة للنفط فإن زيادة الانتاج كان بمقدار حوالي (٧,٢) مليون طن (أي بلغ ٥٥ مليون طن). وتعزى هذه الزيادة إلى تحسن العلاقات بين الحكومة والشركات المنتجة وتجميد الخلافات التي كانت قائمة بينهما منذ ١٩٦١ وفي ضمنها تخفيض الرسوم المفروضة على الشحن من ميناء البصرة مما أثر تأثيراً كبيراً على زيادة إنتاج حقول شركة نفط البصرة(١٥).

النقود:

وفي مجال الإصلاح الزراعي استمرت العمليات المتصلة به تتسم بالبطىء. وفي حقل النقود والمصارف اشتد تأثير العوامل التوسيعية على عرض النقد الذي إزداد بمقدار ١٣,٥ مليون دينار وبنسبة ١١,٠٪ عن العام السابق. وقد واكب الزيادة في عرض النقد زيادة في إرتفاع الأسعار. فقد سجل الرقم القياسي العام لأسعار الجملة زيادة بمقدار ٢,٦٪ قياساً إلى عام ١٩٦٢ وذلك لارتفاع أسعار الثمور والحبوب واللحوم والمنتجات الحيوانية والنباتية والمأكولات والمشروبات الأخرى لشحنها نتيجة رداءة الموسم الزراعي.

الوضع المالي:

لقد خمنت مصروفات الميزانية الإعتيادية للسنة المالية ١٩٦٣ -

---

(١٥) المصدر نفسه: ص٢٠ - ٢٣.

١٩٦٤ بمبلغ ١٣٤,٩ مليون دينار وإيراداتها بمبلغ ١٢٠,٣ مليون دينار وهي تظهر زيادة عن تخمينات ميزانية السنة المنصرمة سواء في المصروفات أو الإيرادات. ويلاحظ أن الميزانية قد نظمت على أساس عجز تخميني قدره حوالي (١٤,٦) مليون دينار وهذا ناشىء بالطبع من الإستمرار في التوسع في المصروفات وعدم مسايرة الزيادة في الايرادات. وقد انتهجت السلطات المالية عند إعداد التخمينات سياسة الحد من المصروفات غير الضرورية.

وقامت وزارة التخطيط بإلغاء الخطة الإقتصادية التفصيلية بعد ثورة ١٤ رمضان ووضعت بدلاً منها المنهاج الإستثماري لعام ١٩٦٣ - ١٩٦٤ لتأمين الإستمرار في الأنفاق على المشاريع التي بوشر بتنفيذها وتنفيذ المشروعات الزراعية والصناعية الأخرى الأجدى نفعاً للأقتصاد القومي وإتمام دراسات المشروعات المنتجة الأخرى. وقد تم تخمين الإستثمارات العامة لسنة ١٩٦٣ - ٦٤ بما يقارب من ٦٤,٩ مليون دينار يسدد جزء منها بقروض تقدر بحوالي ٧,٥ مليون دينار. أما إيرادات المنهج الإستثماري للسنة نفسها فقد كانت أكثرها من عائدات النفط كالمعتاد حيث بلغت (٥٣,٠) مليون دينار. ثم القروض بما فيها القرض السوفيتي التي بلغت حوالي (٨,٦) مليون دينار.

وارتفع رصيد الدين العام في نهاية السنة ١٩٦٣ إلى ٧٩,٨ مليون دينار مقابل حوالي (٥٨,١) مليون دينار في نهاية السنة التي قبلها بزيادة قدرها حوالي (٢١,٧) مليون دينار[١٦].

التجارة الخارجية:

وتابع حجم التجارة الخارجية ميله التصاعدي خلال العام متخطياً مستواه الذي سجله في السنة السابقة، فقفز مجموع قيمة تجارة الاستيراد والتصدير بما في ذلك إستيرادات شركات النفط وقيمة النفط المصدر،

(١٦) المصدر نفسه: ص، ٢٨ - ٤٣ وما بعدها.

باستثناء السلع المعاد تصديرها إلى (٣٨٦,٦) مليون دينار وذلك مقابل ٣٦٨,٥ مليون دينار للعام الماضي. وقد نشأت هذه الزيادة من ارتفاع قيمة النفط المصدر والصادرات المحلية كالسمنت والجلود والمنتجات الحيوانية الأخرى والسكاير والتبغ والدبس. هذا بينما انخفضت تجارة الإستيراد لعام ١٩٦٣، بمقدار ١٥,٦ مليون دينار. وقد شمل الهبوط كافة سلع الاستهلاك والانتاج ، إذ انخفضت أقيام سلع الاستهلاك بمقدار ١٢٪ عنه في سنة ١٩٦٢. وبلغ مجموع قيمتها ٤٧,٩ مليون دينار خلال العام.

وانتهجت الحكومة العراقية سياسة تعزيز العلاقات التجارية مع كافة الدول بغض النظر عن أنظمتها السياسية والاقتصادية على أساس المنفعة المتبادلة وقد وثقتها مع الدول العربية الشقيقة كالجمهورية العربية المتحدة والكويت. وعقدت اتفاقيات تجارية مع كل من إيطاليا والصين الشعبية والصومال. وفي حقل الاستيراد استهدفت السلطات في سياستها توفير متطلبات نمو حركة التصنيع وذلك بتسهيل استيراد المواد والآلات والأدوات الضرورية للطاقة من أجل تنمية الصناعات الناشئة القائمة أو المرغوب في إنشائها. واتجهت الحكومة إلى تقليل المستورد منها مع المحافظة على إشباع حاجات المستهلكين الضرورية. كما سعت إلى حماية الصناعات المحلية الجديدة وذلك بتقييد إستيراد بعض السلع المماثلة لها(١٧).

الأحوال الاقتصادية لسنة ١٩٦٤ :

لقد أعلنت الحكومة العراقية في ١٤ تموز ١٩٦٤، تغيرات إقتصادية بإعلان مجموعة من القوانين الاشتراكية شملت المصارف وشركات التأمين وثلاثين شركة من قطاعي التجارة والصناعة. وبموجب هذه القوانين تم تشكيل المؤسسة الاقتصادية التي تشرف على المؤسسة العامة للتجارة

---

(١٧) المصدر نفسه.

والمؤسسة العامة للصناعة والمؤسسة العامة للتأمين وكذلك أسست المؤسسة العامة للمصارف.

وكانت الأسس التي شرعت بموجبها القوانين هي:

١ - أن يكون قطاع البنوك وشركات التأمين في القطاع العام ولا مجال لانشاء شركات خاصة في هذين الحقلين. وقد تم تأميم البنوك على أساس نقل رؤوس أموالها إلى الدولة فقط.

٢ - وبالنسبة للقطاع الصناعي تقرر أن تكون صناعة السمنت والأسبست والسكاير في القطاع العام، ولا يجوز إنشاء شركات خاصة في هذه الحقول الصناعية. بينما تقرر أن يكون القطاع مختلطاً في المجالات الصناعية الأخرى كالغزل والنسيج والمواد الغذائية والصابون والدباغة والجلود والأحذية والطابوق والتجارة. وقد شمل التأميم المشاريع الصناعية الكبرى وتركت المشاريع المتوسطة والصغيرة إلى القطاع الخاص.

ولقد تحسن الوضع الأقتصادي في العراق خلال سنة ١٩٦٤ نسبياً وتميّز الانتاج الزراعي بجودته ووفرته. أما الانتاج الصناعي فقد حدثت فيها زيادات ملحوظة عن السنتين السابقتين وخاصة في صناعة المواد الغذائية والتبغ والمشروبات والمنسوجات. كما سجل إنتاج النفط الخام زيادة عن السنة السابقة إذ بلغ ٦٠,٣ مليون طن.

وارتفع عدد شركات ذات المسؤولية المحدودة إلى (٧٤) شركة برأسمال قدره (١,٩) مليون دينار. أما الشركات المساهمة فقد بلغ عددها (٩٥) شركة برأسمال قدره (٣٩,١) ألف دينار.

التجارة الخارجية:

أما التجارة الخارجية فيلاحظ أنها سارت بنفس الاتجاهات العامة للتجارة الدولية لعام ١٩٦٤، إذ سجل رقماً قياسياً. فقد إرتفع مجموع قيمة

تجارتي الإستيراد والتصدير، بما في ذلك إستيرادات شركات النفط، وقيمة النفط المصدر من ٣٨٦,٦ مليون دينار لسنة ١٩٦٣ إلى ٤٤١,٦ مليون دينار لسنة ١٩٦٤. أما الصادرات فقد سجلت ٢٩٩,٩ مليون دينار(١٨).

التطورات الاقتصادية لسنة ١٩٦٥:

لقد تميز عام ١٩٦٥، بارتفاع الانتاج في أغلب القطاعات الاقتصادية، خاصة القطاع الزراعي الذي كان له الأثر الواضح في تنشيط بقية الفعاليات الاقتصادية. وقد إتصفت السياسة الاقتصادية بزيادة الإنفاق الاستهلاكي ومحاولة تقليص الاستيرادات غير الأساسية في عملية التنمية بغية تحقيق التوازن الخارجي مع إستمرار تجاوب السياسة النقدية لمتطلبات السياسة المالية. فقد إرتفعت نفقات الميزانية الاعتيادية بمقدار لا يتناسب مع الزيادة المخمنة في الانتاج القومي. وتم تحويل العجز في الميزانية الاعتيادية عن طريق الجهاز المصرفي والاقتراض في ميزانية الخطة الاقتصادية وكان من أثر ذلك التمويل أن إرتفع مقدار عرض النقد إلى مستوى لم يسبقه من قبل، مما أدى إلى زيادة السيولة الداخلية والطلب الفعّال حيث أشبع قسم منه المنتجة محلياً، والقسم الآخر بزيادة الاستيرادات. وبالرغم من تخفيض البنك المركزي حجم منهاج الاستيراد فقد سجلت الاستيرادات الفعلية هي الأخرى مستوىً عال لم تبلغه من قبل. ولولا جودة الموسم الزراعي (الصيفي والشتوي)لكان الرقم القياسي لتكاليف المعيشة قد إرتفع كثيراً خاصة وإن القسم الأكبر من الطلب الفعّال ينصب على المواد الغذائية(١٩).

الزراعة والصناعة والبناء:

كان الانتاج في القطاعات السلعية حسناً خلال سنة ١٩٦٥. فالبنسبة للانتاج الزراعي يلاحظ أنه إرتفع بنسبة كبيرة قياساً بالسنة السابقة حيث

---

(١٨) التقرير السنوي للبنك المركزي العراقي لسنة ١٩٦٤، ص٩ - ٤٠.

(١٩) التقرير السنوي للبنك المركزي لسنة ١٩٦٥. ص٩ - ١٣.

سجل زيادة بنسبة ١٩٪. ويعزى ذلك بصورة رئيسية إلى تحسن الظروف المناخية وتوسع المساحات المزروعة وزيادة شكل وحجم الإستثمارات في مختلف مجالات القطاع المذكور. ومن الجدير بالاشارة أن إنتاج التمور قد هبط كثيراً، وكذلك التبوغ والتنباك من المحاصيل الصيفية، مما أدى إلى عدم تحقق رقم قياسي للصادرات العراقية النفطية.

أما بخصوص الانتاج الصناعي فبالرغم من عدم توفر معلومات دقيقة عنه فإن المؤشرات المهمة توضح أن نموه كان إعتيادياً بالنسبة للقطاعين العام والخاص. وفي حقل سياسة التصنيع للقطاع العام إستهدفت المؤسسة العامة للصناعة زيادة الانتاج والمبيعات، وساهمت الخطة الاقتصادية إلى حد ما في توسيع القاعدة الصناعية. أما الصناعة النفطية التي لها دور كبير في تحديد مدى نشاط الاقتصاد العراقي[٢٠] فقد حقق الانتاج فيها زيادة بنسبة ٨,٥٪ عن مستوى السنة السابقة.

وقد استمرت الحكومة في دعم حركة البناء في العراق عن طريق المصرفين العقاري والتعاوني وتوزيع الأراضي الأميرية الحكومية على الجمعيات التعاونية لموظفي الدولة ومستخدميها.

أما بخصوص تكوين مؤسسات الأعمال فيلاحظ أن المصرف الصناعي عمل على توسيع القطاع المختلط حيث استمر في سياسة المساهمة في الشركات مع القطاع الخاص. وقد شملت مساهمته خلال السنة المعنية تأسيس بعض المشاريع وزيادة المساهمة أو محاولة توسيع إنتاجية بعض الشركات. أما بالنسبة لعدد المشاريع الحكومية المجازة بالعمل فقد بلغ ٨ مشاريع مقابل مشروعين للسنة السابقة. وفي القطاع الخاص إنخفض عدد الشركات المساهمة المؤسسة بمقدار ثلاث شركات بالنسبة للسنة السابقة أو الشركات ذات المسؤولية المحدودة بمقدار ٣٩ شركة. ويعود ذلك إلى

(٢٠) المصدر نفسه. ص١٥ - ٢١.

إستمرار الآثار التي تركها التأميم على رجال الأعمال الذين ازداد ترددهم بإنشاء مشاريع برؤوس أموال كبيرة. وقد شهد عام ١٩٦٥، إنخفاضاً عاماً في معدلات الأسعار. كما أن المؤشرات النقدية تظهر استمرار إرتفاع عرض النقد خلال السنة المذكورة، إذ سجّل زيادة قدرها ١٥,٧ مليون دينار ليبلغ حوالي ١٤٤,٩ مليون دينار. ولولا الرقابة على التسهيلات الائتمانية التي تقدمها المصارف التجارية والاختصاصية إلى القطاع الخاص، وانخفاض حجم الذهب والموجودات الأجنبية لكانت الزيادة في عرض النقد أكبر من المقدار المبين أعلاه[٢١].

ويلاحظ بالنسبة للتبدلات التنظيمية الرئيسة صدور قانون المؤسسات العامة حيث حلت المؤسسة الاقتصادية وألغيت أغلب المواد من قانون تأميم البنوك والمصارف رقم ١٠٠ لسنة ١٩٦٤. وبموجب هذا القانون أنشأت مؤسسات عامة ذات شخصية معنوية واستقلال مالي على أن ترتبط إدارياً بالوزارة المعنية. فقد إرتبطت المؤسسة العامة للتجارة والمؤسسة العامة للتأمين بوزارة الاقتصاد، والمؤسسة العامة للصناعة بوزارة الصناعة. والمؤسسات العامة للمصارف بوزارة المالية.

أما الخطة الإقتصادية الخمسية للسنوات ١٩٦٥ - ٦٩، فقد بدأت وزارة التخطيط بتطبيقها في أول نيسان من العام المذكور. وتبغي الخطة تحقيق الأهداف الإقتصادية والاجتماعية والسياسية. وقدر مجموع إستثمارات الخطة بمبلغ (٨٢١) مليون دينار يساهم فيها الإستثمار الحكومي بمقدار (٦٤٠) مليون دينار، والاستثمار الأهلي بمقدار ١٨١ مليون دينار. وخمنت مصروفات المنهاج الاستثماري التخميني المنقح بمقدار (١٢٦) مليون دينار خلال سنة ١٩٦٥، في حين تشير الاحصاءات الدولية إلى أنها سجلت ٤٩,٧ مليون دينار، أي كانت نسبة التنفيذ أقل بكثير من المقدار المخمن[٢٢].

المصدر نفسه. ص٢١ - ٢٨.

(٢٢) المصدر نفسه.

الوضع الاقتصادي سنة ١٩٦٦:

بينت المؤشرات الاقتصادية الرئيسية أن هناك تحسناً في فعاليات معظم القطاعات الإقتصادية خلال عام ١٩٦٦ وبنسب متفاوتة. إلا أن الإنتاج الزراعي الذي بلغ معدل مساهمته في الدخل القومي للسنوات ١٩٦٢ - ٦٥ حوالي ٢٤،٥٪ قد هبط بنسبة ملحوظة عن هذا المعدل في سنة ١٩٦٦. وقد عمل هذا الإنخفاض على هبوط نسبة الزيادة في الدخل القومي إلى حوالي ٣٪ فقط مقابل ٦،١٪ لعام ١٩٦٥. وكان على أثر هذا الإنخفاض وزيادة السيولة الداخلية أن إرتفع الرقم القياسي لأسعار الجملة والرقم القياسي لأسعار المواد الإستهلاكية الضرورية للعمال غير الماهرين في بغداد. وقد أدت زيادة الإستيرادات خلال السنة بمقدار يزيد على تخصيصات منهاج الإستيراد إلى تحديد نطاق الارتفاع من معدلات الأسعار. ولم تساعد السياسة المالية في الحيلولة دون توسع الإنفاق الحكومي الاستهلاكي.

الزراعة:

يلاحظ بالنسبة للقطاعين السلعيين الرئيسين. الزراعي والصناعي، أن الانتاج قد انخفض من الأول في حين ارتفع في الثاني بصورة معتدلة. فقد هبط إنتاج المحاصيل الثانوية، كالذرة والدخن والباقلاء والسمسم واللوبيا، بسبب رداءة الظروف المناخية وخاصة الأمطار في غير أوقاتها الملائمة، وإصابة بعض المحاصيل بأمراض زراعية، وكذلك إنخفاض مناسيب نهر الفرات إلى مستويات واطئة مما أثر على الانتاج الزراعي في المنطقة الجنوبية بصورة خاصة.

الصناعة:

أما الانتاج الصناعي فقد استمر نموه الاعتيادي خلال السنة وساهمت صناعات القطاع العام بالنصيب الأكبر من هذا النمو بالرغم من إنخفاض إنتاج بعض الصناعات كالغزل والأسبست وغيرها. وكان للنشاط الملحوظ

في البناء والإنشاء أثره في الزيادات المحققة في الصناعات الإنشائية كالطابوق. كما توسع الطلب الخارجي بالنسبة للسمنت وارتفع إنتاج الأقمشة والصابون والمساحيق والزيوت النباتية والسجاد نتيجة لاجراء بعض التوسعات لرفع القدرة الانتاجية واستمرار زيادة الطلب المحلي. أما إنتاج صناعة النفط فقد إزداد بمقدار (٣,٤) مليون طن[٢٣] أي بنسبة ٥٪ خلال سنة ١٩٦٦، قياساً بمستوى السنة السابقة.

الوضع الاقتصادي العام لسنة ١٩٦٧:

ارتفع القطاع الزراعي نوعاً ما، في حين حقق القطاع الصناعي زيادة جزئية. ويعزى تحسن الانتاج الزراعي عام ١٩٦٧ إلى ملائمة الظروف المناخية وجهود وزارة الزراعة في مكافحة الآفات الزراعية، حيث نجحت في ذلك في أغلب الأحيان، باستثناء مكافحة حشرة الدباس التي أصابت النخيل. وكان يتوقع أن يكون الانتاج أعلى بكثير مما تحقق في السنة السابقة لولا سقوط أمطار غزيرة في فترة متأخرة أحدث أضراراً بالمحاصيل في بعض المناطق. أما عدم تحقق زيادة مهمة في الانتاج الصناعي فيعزى إلى الظروف الإستثنائية بسبب مقاطعة الدول التي تتعامل مع إسرائيل.

الزراعة:

حققت المحاصيل الشتوية زيادات طفيفة عام ١٩٦٧ عن السنة السابقة فقد ازداد إنتاج الحنطة بنسبة ٥٪ ليبلغ (٨٦٦) ألف طن، وإنتاج الشعير بنسبة ٣٪ ليبلغ (٨٦٠) ألف طن. وازداد إنتاج الكتان قليلاً، في حين حافظت بقية المحاصيل على مستويات إنتاجها للسنة السابقة. أما إنتاج المحاصيل الصيفية، فقد حقق زيادات أكبر من تلك التي حققتها المحاصيل الشتوية، إذ ازداد إنتاج الرز (الثمن) خلال الفترة بنسبة ٦٩٪ ليبلغ (٣٠٨) ألف طن بسبب إستعمال الأسمدة الكيماوية، كما ارتفع

(٢٣) التقرير السنوي للبنك المركزي لسنة ١٩٦٦. ص٧ - ٢٤.

إنتاج القطن إلى ما يزيد على (٣٥) ألف طن، مقابل (٢٩) ألف طن للعام السابق، بسبب توسيع المساحة المزروعة، ونجاح مكافحة حشرة (المن). غير أن إنتاج التمور هبط بمقدار كبير ليبلغ (٢٧٠) ألف طن مقابل (٣٨٠) ألف طن في السنة السابقة. أما المحاصيل الصيفية الأخرى فقد حققت جميعها زيادات تراوحت بين ٩٪ و ٢٣٪[٢٤].

الانتاج الصناعي:

وتشير الأرقام بخصوص الانتاج الصناعي إلى أنه حقق زيادة قدرها ٦٪ فقط خلال عام ١٩٦٧، وذلك مقابل (٢,٩) للسنة السابقة. وكان نمو إنتاج المنسوجات والملبوسات والأحذية، وتصفية النفط، والصناعات الكيماوية، والصناعات اللافلزية بمعدلات مختلفة تراوحت بين ١٪ من المنسوجات، و١٤,٨٪ في الصناعات الكيماوية. أما المواد الغذائية والمشروبات والتبوغ فقد انخفضت بنسبة ٨,٧٪ بسبب إنخفاض إنتاج السكاير، وفتور صناعة كبس التمور. وتحققت زيادة في مجموعة المنسوجات بمعدل ١٪ فقط بالرغم من الانخفاض الكبير في إنتاج المنشآت الصناعية المؤممة خلال السنة، وكذلك مجموعة الملبوسات والأحذية بمعدل ٦,٤٪، وقطاع تصفية النفط بمعدل ٦,٩٪. وتجدر الاشارة هنا إلى أنه قد تحققت نسبة عالية للنمو في مجموعة الصناعات الكيماوية، إذ بلغت ١٤,٨٪ عن السنة السابقة، إلَّا أن تأثيرها على الرقم القياسي كان ضئيلاً. أما الصناعات اللافلزية فعلى الرغم من فتور صناعة الإنشاء والبناء فقد حققت زيادة قدرها ٥,٢٪. أما المتنوعات الأخرى بمجموعها فقد انخفض رقمها القياسي بمقدار ١١,١٪.

وجابه قطاع النفط خلال سنة ١٩٦٧، ظروفاً غير طبيعية أدت إلى إنخفاضه بمعدل ١٢٪ عن السنة السابقة، إذ بلغ إنتاجه ٥٨,٩ مليون طن

---

(٢٤) التقرير السنوي لسنة ١٩٦٧. ص٧ - ١٧.

مقابل ٦٦,٦ مليون طن للعام السابق. وقد توقف إنتاج النفط في الحقول الشمالية في الثاني عشر من كانون الأول ١٩٦٦، حتى ٣ آذار ١٩٦٧، بسبب الخلاف بين الحكومة السورية وشركة نفط العراق حول العائدات[٢٥].

أما حركة البناء والإنشاء فشهدت إنخفاضاً ملحوظاً عن مستوى السنوات الثلاث السابقة. فقد سجلت إجازات النباء حوالي ٢٢,٤ ألف إجازة، مقابل حوالي ٢٧ ألف إجازة لسنة ١٩٦٦، وقد صاحب تقلص عدد الإجازات إنخفاضاً ملحوظاً في مجموع الكلفة التخمينية حيث سجل خلال السنة ٢٦,١ مليون دينار، بعد أن كان قد سجل حوالي ٣٠,٩ مليون دينار خلال السنة السابقة. ويعزى ذلك بصورة رئيسية إلى التطورات الاستثنائية التي سادت، وضعف حركة توزيع الأراضي على جمعيات بناء المساكن التعاونية وفرض ضرائب جديدة وارتفاع معدلات تكاليف البناء من المواد المستوردة. وواصلت سوق التأمين نموها المطرد بالرغم من فتور معظم الفعاليات الاقتصادية خلال السنة غير أن معدلات هذا النمو تقل عما كانت عليه في السنوات السابقة. فقد إرتفعت الأقساط المكتتبة لفروع التأمينات العامة (باستثناء التأمين على الحياة) تبلغ (٤) ملايين دينار مقابل ٣,٨ مليون دينار في السنة السابقة. كما ارتفعت الأقساط المكتتبة لفروع التأمينات العامة (باستثناء التأمين على الحياة) فبلغت ٣,٨١ مليون دينار مقابل ٣,٧٨ مليون دينار في سنة ١٩٦٦.[٢٦].

ويلاحظ بالنسبة لتكوين مؤسسات الاعمال أن المؤسسة العامة للصناعة تعتبر الموجه الرئيس حيث حاولت خلال السنة المعينة تحقيق توازن فعلي بين مختلف قطاعات الاقتصاد العراقي. فأسست صناعات زراعية لتشجيع نمو هذا القطاع كالشركة العامة للدواجن والمزارع الخاصة بتربية

(٢٥) المصدر نفسه: ص١٧ - ٢١، - ٢٧.

(٢٦) المصدر نفسه: ص٣١ - ٣٣.

المواشي. وحاولت المؤسسة توسيع الطاقة الانتاجية لبعض الصناعات الاساسية ذات القابلية التصديرية: كتوسيع صناعة السمنت والمنظفات والزيوت والسكاير. واستمر المصرف الصناعي خلال عام ١٩٦٧، في مزاولة نشاطاته الخاصة بمتابعة تطورات وتقدم شركات القطاع المختلط، كما انه قام بدراسة عدد من المشاريع الصناعية. ولم تؤسس في القطاع الخاص أية شركة مساهمة خلال السنة ومن جهة اخرى انخفض عدد الشركات ذات المسؤولية المحدودة فبلغ المؤسس منها عام ١٩٦٧، (٣٩) شركة، مقابل (٧٣) شركة خلال عام ١٩٦٦. وبلغت رؤوس الأموال المدفوعة للشركات خلال السنة ١٩٠,٣ الف دينار، قياساً بـ٣١٢,٥ ألف خلال سنة ١٩٦٦[٢٧].

وقد ارتفع الرقم القياسي للمواد الغذائية خلال عام ١٩٦٧ بنسبة ١١٪ بسبب تقليص الاستيراد، وردود فعل المستهلكين بعد العدوان الاسرائيلي، في حين حافظ الرقم القياسي لأسعار القهوة والشاي انحفاظاً جزئياً، وكذلك الرقم القياسي لاسعار المنتجات الحيوانية. اما الارقام القياسية للمواد التي حافظت على مستوياتها للعام السابق والتي امتازت بانخفاضات بسيطة فقد كانت لموادٍ أخذت مصلحة المبايعات الحكومية على عاتقها مهام استيرادها وتنظيم توزيعها.

التطورات النقدية والمالية:

أما بخصوص التطورات النقدية والمصرفية فالملاحظ انه لم يطرأ أي تغيير على السياسة النقدية خلال سنة ١٩٦٧، إذ حافظت معدلات أسعار الفائدة على مستوى العام السابق. ولم يتغير معدل إعادة الخصم لدى البنك المركزي، وكذلك سعر الفائدة على السلف قصيرة الأجل بعد ان تم زيادة كل منهما خلال العام السابق بمقدار ١٪.

(٢٧) المصدر نفسه: ص٣٦ - ٤١.

لقد سجل عرض النقد خلال السنة الحالية زيادة قدرها ٩,٩ مليون دينار قياساً بسنة ١٩٦٦. وقد تركزت معظم الزيادة في العملة المتداولة إذ ارتفعت بمقدار (٨) ملايين دينار، في الوقت الذي لم ترتفع فيه الودائع الجارية إلا بمقدار (١,٩) مليون دينار. وكان لكل من صافي الموجودات الاجنبية وصافي الموجودات الاخرى أثر توسعي في عرض النقد، إذا ارتفع رصيد الحساب الأول بمقدار (١,٩) مليون دينار قياساً بالعام السابق ليسجل (١١٥,٣) مليون دينار، والثاني بمقدار ٥,٩ مليون دينار ليسجل ٨,٦ مليون دينار. وازدادت الديون الحكومية أيضاً بمقدار (٢٣) مليون دينار في نهاية السنة.

أما بخصوص التطورات المالية، فيلاحظ أن ميزانية الدولة في بداية السنة وضعت بحيث تغطي الايرادات والنفقات الاعتيادية تقريباً. غير ان الظروف الاستثنائية التي حلت نتيجة العدوان الاسرائيلي دعت إلى إجراء عدد من التغييرات في مصروفات الميزانية والمبالغ المخصصة. فقد بلغت التخمينات (بعد التنقيح) للأيرادات الاعتيادية (٢١٤,١) مليون دينار قياساً إلى تخمينات السنة السابقة التي بلغت (١٦٩,٦) مليون دينار. أما التخمينات المنقحة للمصروفات الاعتيادية فقد بلغت (٢١٨,٢) مليون دينار بالقياس إلى تخمينات السنة المالية السابقة التي بلغت (١٨٤,١) مليون دينار. ولذا فان العجز المخمن في الميزانية الاعتيادية بلغ (٤,١) مليون دينار، بينما عجز السنة المالية ١٩٦٦، قدر بمبلغ (١٤,٥) مليون دينار. وانعكست الزيادة في مجموع الايرادات في زيادة مصادر إيرادات الميزانية، خاصة الضرائب؛ (عدا رسوم الكمارك)، ومنحه حكومة الكويت، وسلفة شركة نفط العراق بالاضافة إلى استخدام المبالغ المحولة إليها من ميزانية الخطة الاقتصادية ومن الميزانيات الاخرى على شكل حصص من أرباحها السنوية. أما بالنسبة للنفقات فبالرغم من محاولات وزارة المالية تخفيضها وتحديدها وفق خطتها في سياسة التقشف واتباع نظام المتابعة المنتظم لنفقات

الميزانية الاعتيادية، لكن تخميناتها ارتفعت عما كانت عليه في السنة السابقة إذ كان اتجاه الرواتب والمكافآت التقاعدية تصاعدياً. وكذلك المصروفات الادارية والمصروفات الاخرى.

والملاحظ بالنسبة لميزانيات المؤسسات ان عدد هذه الميزانيات من الميزانية الموحدة للسنة المالية ١٩٦٦، كان ٢٦ ميزانية اصبح ٢٧ ميزانية سنة ١٩٦٧ بزيادة ميزانية واحدة. وبلغت الايرادات المخمنة لسنة ١٩٦٧، حوالي (٣, ٨٠) مليون دينار. والمصروفات (٦, ١١) مليون دينار مقابل الأيرادات البالغة (٤, ٧١) مليون دينار والمصروفات البالغة (٦٥) مليون دينار خلال السنة السابقة. وبلغت الايرادات التخمينية للخطة الاقتصادية (٤, ١٠٠) مليون دينار خلال سنة ١٩٦٧، بينما المصروفات التخمينية بلغت ١٥٢,٥ مليون دينار هذا وقد بلغت التخمينات للسنة المالية ١٩٦٦. حوالي (١٣٦) مليون دينار للايرادات، وحوالي (٦, ١٥١) مليون دينار للمصروفات.

التجارة

وقد انخفضت التجارة الخارجية خلال عام ١٩٦٧، فانخفضت الاستيرادات بمقدار ٢٤,٧ مليون دينار عن مقدار الاستيرادات الفعلية لعام ١٩٦٦. فقد بلغت خلال الفترة موضوع البحث ١٥٠,٤ مليون دينار مقابل ١٧٥,١ مليون دينار للسنة السابقة. ويعود هذا الانخفاض في مقدار الإستيرادات الفعلية لعام ١٩٦٧، إلى اعادة النظر في منهاج الاستيراد السنوي خلال النصف الثاني من تلك السنة، واعادة تكييف حركة التجارة الخارجية بالشكل الذي يتناسب مع قرار مقاطعة الدول التي ساندت العدوان. وانخفضت أيضاً خلال العام الصادرات غير النفطية بمقدار ٢,٥ مليون دينار عن السنة السابقة لتبلغ ٢٠,٧ مليون دينار. أما قيمة النفط المصدر فقد سجلت ٢٧١,٩ مليون دينار مقابل ٣٠٨,٨ مليون دينار عام ١٩٦٦[٢٨].

(٢٨) المصدر نفسه.

- التطورات الاقتصادية في العراق خلال عام ١٩٦٨ :

ارتفع الانتاج الزراعي وارتفع انتاج النفط بشكل ظاهر وارتفع انتاج المحاصيل الشتوية خلال هذا العام، التي تعتمد إلى درجة كبيرة على كميات المطر وأوقاته، مثل الحنطة والشعير والباقلاء والحمص والعدس، وارتفع انتاج المحاصيل الصيفية أيضاً، وسجل الرز ارتفاعاً في انتاجه، وانخفض انتاج التمور إلى (٢٦٠) ألف طن وهكذا بالنسبة لانتاج القطن. أما انتاج النفط فقد ارتفع خلال هذا العام إلى (٧٢,٦) مليون طن، وارتفع مجموع انتاج المصافي العراقية من مختلف المنتجات بمعدل (٢,٧) مليون طن.

اما الانتاج الصناعي فقد شهد تبايناً كبيراً في انتاج المؤسسات المؤممة انخفض انتاج الطابوق ومجموعة المنسوجات والقرول وصابون التواليت وورق السكاير والطحين. . وارتفع انتاج صناعة السمنت. اما قطاع البناء والانشاء، فقد تميز بنشاط معتدل ارتفع عدد إجازات البناء الممنوحة للاهلين. . . اما بخصوص التطورات النقدية والائتمانية فقد سجل عرض النقد في نهاية هذا العام زيادة مقدارها (١٢,٨) مليون دينار. . وارتفع قيم القروض والسلف المقدمة من المصارف الاختصاصية. . وبسبب العدوان الاسرائيلي فقد حدث ارتفاع جزئي في الرقم القياسي لاسعار المستهلك وذلك بسبب حصر استيراد هذه المواد بالقطاع العام. . وبلغت الصادرات المنظورة للقطاعين النفطي وغير النفطي خلال هذا العام (٣٧٢,٦) مليون دينار. وسجلت الاستيرادات غير المنظورة (٢٠٩,٢) مليون دينار. واما صافي رؤوس الاموال الاهلية والقروض والالتزامات الرسمية الخارجة من العراق قد انخفضت إلى (١,٨) مليون دينار[٢٩].

---

(٢٩) التقرير السنوي للبنك المركزي العراقي لسنة ١٩٦٨ : ص٧ - ١٤.

الانتاج

أولاً: - الانتاج الزراعي:

ازداد الانتاج الزراعي خلال هذا العام بشكل ملحوظ في المحاصيل الرئيسية الحنطة والشعير والرز والقطن والتمور. وكان للظروف الجوية الملائمة كاستمرار سقوط الامطار في موسمها وقلة الافات الزراعية، وغمر مساحات واسعة بمياه الفيضان وجعلها صالحة لزراعة الرز، واتباع الاساليب الحديثة في التسميد. بلغ انتاج الحنطة (١٣٥٩) الف طن. ارتفع انتاج الحمص والعدس والباقلاء، وراتفع انتاج الرز إلى (٣٢٥) الف طن. وانشأت الحكومة خلال هذا العام المؤسسة العامة للانتاج الزراعي والحيواني، غرض هذه المؤسسة تأسيس وادارة المشاريع الزراعية العامة الانتاجية والتسويقية وذلك لزيادة الانتاج وتوفير المحاصيل والحيوانات المحسنة، وتضم إليها الشركة العامة للدواجن ومصلحة قصب السكر بالعمارة ومصلحة مشروع المسيب الكبير... وبموجب نظام رقم ٢١ سنة ١٩٦٨ توسعت زراعة الرز بلا تحديد في لواء الرمادي ولم يسمح بموجب هذا النظام بزراعة الرز في الأراضي المحيطة بالمدن والقصبات ومعسكرات الجيش. أما بالنسبة للاراضي المؤجرة إلى الفلاحين فقد تم تأجير ما يقارب (٠,٢) مليون دونم. وفي مجال الحركة التعاونية الزراعية نشطت حركة تأسيس الجمعيات التعاونية وتم تأسيس ١٠٠ جمعية ضمت (٧,٩) الف عضو.

ثانياً: - الانتاج الصناعي:[٣٠]

أ - الرقم القياسي للانتاج الصناعي:

اطرد التقدم في مجال الصناعة نتيجة تنفيذ بعض المشروعات كما يظهر ذلك من استعراض أرقام انتاج بعض الصناعات العامة. فقد سجل الرقم القياسي العام الانتاج الصناعي خلال عام ١٩٦٨ (١٢٩,٥)

---

(٣٠) المصدر نفسه: ص١٧ - ٢١.

(١٩٦٢=١٠٠) بلغ المعدل السنوي للرقم القياسي لمجموعة المواد الغذائية والمشروبات والتبغ (١١١,١). وارتفع انتاج السكاير بنسبة ٢٪ بسبب انخفاض كميات السكاير المعروضة في الاسواق بعد القيود المفروضة على السكاير الاجنبية المهربة المستوردة في الاسواق. وحققت زيادات كبيرة في الانتاج في حقل الصناعات اللافلزية والكيماوية وتضم معامل الطابوق ومعامل صناعة السمنت والكاشي والموزائيك. ويرجع نسبة النمو المتحققة في مجموعة الصناعات اللافلزية إلى نشاط حركة البناء. وبالرغم من فتور حركة البناء التابعة للقطاع الحكومي إلا ان النشاط الذي ساد فعاليات القطاع الخاص قد اضفى طابعه على الفعاليات الانشائية بصورة عامة.

ب - تخصيصات المنهاج الاستثماري للقطاع الصناعي:

بلغت تخصيصات القطاع الصناعي في المنهاج الاستثماري لسنة ١٩٦٨ المالية ما يقارب (٣٩,٥) مليون دينار، خصص منها للصناعات الكيماوية (١٠,٩) مليون دينار، ولمشاريع النفط والغاز (٥,٤) مليون دينار. ولمشاريع توليد ونقل القدرة الكهربائية (٨,٢) مليون دينار. وان معمل الورق في البصرة ومعمل الحرير الاصطناعي في سدة الهندية ومعمل الاسمدة الكيماوية في البصرة استحوذت على الجزء الاكبر من تخصيصات المنهاج الاستثماري. أما تخصيصات مشاريع توليد ونقل القدرة الكهربائية فقد وزعت معظمها على مشروع محطة كهرباء الدورة ومشروع كهرباء سدة سامراء... وبلغت النفقات الاولية للخطة الاقتصادية عن القطاع الصناعي لغاية اذار عام ١٩٦٨ حوالي (٩,٥) مليون دينار..

ثالثاً: - انتاج النفط:

(أ) انتاج النفط الخام..

ارتفع انتاج النفط في العراق خلال عام ١٩٦٨ إلى حوالي (٧٢,٦) مليون طن، وقد احتل العراق المرتبة الرابعة في انتاج النفط بين بلدان الشرق الاوسط.. ايران كانت في مقدمة الدول المنتجة تليها المملكة

العربية السعودية ثم الكويت، وخلال عام ١٩٦٨ تعاقد العراق مع شركة ومؤسسة الاستكشافات والنشاطات البترولية الفرنسية (ايراب) وبوشر باعمال الحفر في بئر السيبة جنوب العراق.

(ب) تصفية النفط والاستثمارات النفطية:

ازدادت كمية المنتجات النفطية لمصافي النفط الحكومية خلال عام ١٩٦٨ إلى حوالي (٢,٧) مليون طن. بلغت نسبة زيادة النفط الابيض (٨٪) وزيت الغاز (١٧,٠٪) والزيت الاسود الثقيل ووقود الطائرات التوربينية بمعدل (٢٠٪) وانخفض كل من البنزين وزيت الديزل بنسبة (٢,٠٪) للاول و (٨,٠٪) للثاني.. ومن المشاريع المصافي المهمة، مشروع وحدة معاملة النفط الابيض بالهيدروجين والذي يستهدف تحسين انتاج النفط الابيض ونفط تربابين الطائرات.. ومشروع توسيع مصفى الدورة، ومشروع مستودع وادي حجر في الموصل. ومشروع تنفيذ انشاء شبكة انابيب لنقل وتوزيع المنتجات النفطية في العراق على ثلاث مراحل تتمثل الاولى في ربط بغداد والبصرة بانبوبين لغرض التوزيع ونقل الفائض إلى البصرة، أما المرحلة الثانية فتقرر تنفيذها خلال السنوات ١٩٧٥/١٩٨٠، والثالثة في غضون الفترة ١٩٨٠/١٩٨٥.

رابعاً: - البناء والانشاء:

تميزت حركة البناء والانشاء خلال عام ١٩٦٨ بنشاط ملحوظ قياساً بما كانت عليه خلال عام ١٩٦٧، إلا انها ما زالت على العموم اقل من المستوى الذي ساد عام ١٩٦٦. فقد بلغ عدد الاجازات البناء الجديد الممنوحة خلال العام حوالي (٢٣,٧) الف اجازة بكلفة تخمينية تبلغ (٢٩,٤) مليون دينار.. وشهد عام ١٩٦٨ اتجاهاً متزايداً نحو تشييد العمارات ذات الشقق والدكاكين ولا سيما في الاحياء الجديدة في بغداد. نشطت حركة بناء الدور في هذا العام وازداد عمليات بناء الدكاكين....

اما بالنسبة للتوزيع الجغرافي لاجازات البناء في العراق فلواء بغداد

يأتي في مقدمة الألوية ولواء الموصل بالمرتبة الثانية ولواء البصرة المرتبة الثالثة. ثم كركوك وكربلاء والناصرية والحلة وديالى والكوت والديوانية والعمارة[٣١]..

التطورات الاقتصادية في العالم - خلال عام ١٩٦٧-

أولاً: - الاتجاهات الاقتصادية العامة..

شهد الاقتصاد عام ١٩٦٧ بصورة عامة نفس المشكلات الثلاث الكبرى التي دأب على مجابهتها منذ بداية العقد السادس من هذا القرن. اولى هذه المشكلات الانخفاض في المعدل العام للنمو الاقتصادي في العالم. والمشكلة الثانية دوام الانكماش في نمو حجم التبادل التجاري الدولي. المشكلة الثالثة بقاء العجز الكبير في موازين المدفوعات الدولية لكل من الولايات المتحدة الاميركية والمملكة المتحدة وظهرت تحديات عديدة للنظام النقدي الدولي منها تخفيض قيمة الباون الاسترليني والاقبال على شراء الذهب.. وفي هذا الجو المضطرب توسع الانتاج المحلي القائم في العالم بنسبة (٤,٠) بالمائة في الفترة بين ١٩٦٦ - ١٩٦٧. وفي الأقطار السوقية انخفضت نسبة النمو في الانتاج المحلي من (٨,٠) بالمائة إلى (٧,٠) بالمائة في الاقطار الاشتراكية ازداد الانتاج الزراعي في العالم خلال عام ١٩٦٧ بنسبة (٤,٠) بالمائة. وكذلك تميز الانتاج الزراعي في الاقطار السوقية المتقدمة بانخفاض نسبة نموه إلى (٢,٠) بالمائة في هذا العام. وكان التباطؤ في التجارة الدولية خلال عام ١٩٦٧ اكثر وضوحاً من الفتور الذي اصاب الانتاج العالمي حيث بلغت قيمتها (٢١٤) مليار دولار شذت الاقطار الاشتراكية عن هذا الاتجاه العام فسجلت زيادة ظاهرة في التبادل التجاري فيما بينها بلغت (٩,٠) بالمائة. بعكس انخفض التبادل التجاري بين الدول الاشتراكية والاقطار النامية إضافة إلى فتور الفعاليات الاقتصادية السوقية المتقدمة. وتعرض النظام النقدي إلى هزات عنيفة، انخفض الباون

(٣١) المصدر نفسه: ص٢١ - ٣٦.

الاسترليني ومضاربات قاسية ضد الدولار الامريكي والعملات الرئيسة الاخرى. وفي صيف ١٩٦٦ وضعت الحكومة البريطانية الاجراءات الجذرية لتصحيح وضع الاقتصاد البريطاني. وسرعان ما أدت عوامل عديدة في بداية الصيف إلى عودة المشاكل في وضع موازين المدفوعات الدولية بحيث اخذت ثقة العالم بمستقبل الباون الاسترليني تضعف تدريجياً اضطرت الحكومة البريطانية إلى تخفيض قيمة عملتها بمقدار (١٤,٣) بالمائة في عام ١٩٦٧. ونظر لدوام العجز في ميزان المدفوعات الامريكي اصبحت العملة الاميريكية معرضة إلى ضغط شديد انعكس في الاقبال على شراء الذهب وارتفاع سعره في سوق لندن فعمدت المصارف المركزية الكبرى إلى التعاون وتنسيق جهودها لاجل التخفيف من الآثار السيئة التي تركها الاندفاع غير الاعتيادي لشراء الذهب. ابدت الحكومة الاميركية في أواخر عام ١٩٦٧ عزمها على اتخاذ الاجراءات الجذرية لمعالجة العجز الكبير في ميزان مدفوعاتها..

ثانياً: - التطورات الاقتصادية في الاقطار النامية:

تميزت التطورات الاقتصادية في الاقطار النامية خلال عام ١٩٦٧ بالزيادة الكبيرة التي حققها الانتاج الزراعي فقد تركز التحسن في الانتاج الزراعي في الأقطار الواقعة في هذه المناطق برما. كمبوريا. وسيلان والهند وفرموزا واندونيسيا وغرب ماليزيا والباكستان والفلبين وكوريا وفيتنام وتايلند وكذلك سجلت اقطار آسيا الغربية (ايران والعراق وفلسطين المحتلة والاردن ولبنان وسوريا.) انتعاشاً في الانتاج الزراعي. أما أقطار القارة الافريقية باستثناء اتحاد جنوب افريقيا فلم تتجاوز الزيادة في إنتاجها الزراعي (٢,٠) بالمائة. وعانى الانتاج الصناعي في الاقطار النامية فتوراً ظاهراً وذلك لتباطؤ النشاط الاقتصادي في معظم الاقطار السوقية المتقدمة من ناحية وضيق قابلية الاقطار النامية على الاستيراد من ناحية اخرى. وبلغ نسبة النمو في الانتاج الصناعي أكثر من (٤,٠) بالمائة.

ولقد كان للفتور في الانتاج والطلب العالميين اثره في انخفاض التجارة الخارجية في الأقطار النامية .. اما الصادرات فقد انخفضت نسبة الزيادة في صادراتها إلى (١,٣) بالمائة وهكذا في امريكا الجنوبية والوسطى وفي اقطار الشرق الاوسط. واستمرت الاقطار النامية خلال عام ١٩٦٧ في مساعيها لدعم وتعزيز مناهجها ألانمائية ورفع الطاقة الأنتاجية ومراقبة نمو السكان بالإضافة إلى تشجيعها الدول المتقدمة والمؤسسات الدولية على زيادة وسائل التحويل وتخفيف شروط الاقتراض وعبء الديون الخارجية والعمل على تثبيت اسعار المواد الاولية في الاسواق العالمية وتوسيع نصيب الاقطار النامية.

ثالثاً: - التطورات الاقتصادية في الدول الأشتراكية:

ان الانتاج الزراعي في اقطار أوروبا الشرقية في سنة ١٩٦٦ حققت زيادة كبيرة ولكن في عام ١٩٦٧ عملت الظروف غير المؤاتية على تحقيق زيادة واطئة في الانتاج الزراعي في الأقطار الاشتراكية. ولكن بعكس الانتاج الصناعي فقد حققت توسعاً كبيراً في كل من الاتحاد السوفيتي حيث انخفض الانتاج الزراعي إلى (١,٠) بالمائة في عام ١٩٦٧ وسجل الانتاج الصناعي زيادة بمقادر (١٠,٠) بالمائة ويرجع إلى التحسن الكبير في الانتاجية للعامل الواحد. وكذا الحال في كل من جيكوسلوفاكيا والمانيا الشرقية والمجر. وارتفع الانتاج الصناعي في رومانيا وبلغاريا خلال هذا العام. بعكس الانتاج الزراعي فقد انخفض نموه بصورة واضحة في اقطار أوروبا الشرقية كافة باستثناء البانيا. وارتفعت قيمة التجارة الخارجية في الاقطار الاشتراكية مع العام (٢٥ مليار دولار) في عام ١٩٦٧. اما التبادل التجاري بين الاقطار الاشتراكية والاقطار السوقية فقد تدهور تدهوراً ملحوظاً خلال هذا العام وهكذا الحال بين الدول الاشتراكية والدول النامية. واستمرت الدول الاشتراكية في أوروبا الشرقية بانتهاج سياسة منذ عام ١٩٦٦ السيطرة اللامركزية في بعض القطاعات وتشجيع الكفاءة الانتاجية عن طريق زيادة المكافآت الحقيقية ورفع مستوى المعيشة

لذلك كانت زيادة انتاجية الأيدي العاملة والتركيز على الصناعة الاستهلاكية وانتاجها ابرز مظاهر المناهج الاقتصادية المرسومة والمنفذة في الاقطار الاشتراكية الواقعة في أوروبا الشرقية.

رابعاً: - التطورات الاقتصادية في الاقطار السوقية المتقدمة:

شهدت الأقطار السوقية المتقدمة في عام ١٩٦٧ بصفة عامة فتوراً واضحاً في نشاطها الاقتصادي وانخفاضاً كبيراً في نسب نمو ناتجها القومي. وقد نجم عن هذا التدهور الاقتصادي تقلبات اقتصادية انعكست في إرتفاع الأسعار والأجور علاوة على اختلاف الموازنة في حقلي التبادل التجاري والمدفوعات الدولية. ولمعالجة هذه الأوضاع عمدت معظم الأقطار السوقية إلى تخفيف أو إلغاء القيود في سياساتها الاقتصادية فخفضت أسعار إعادة الخصم ورسمت السياسات الإئتمانية والمالية لأجل إنعاش الوضع الاقتصادي. ولكن هذه الاجراءات لم تحقق الاتجاه التصاعدي الذي كان من المرقب حدوثه في النشاط الاقتصادي، وذلك لسبب فتور الطلب الاستهلاكي وارتفاع المخزون وقلة الاستثمار.

ففي الولايات المتحدة الاميركية إنخفض حجم الاستثمارات خلال النصف الأول من هذا العام. غير إنه اتجه فيما بعد نحو الارتفاع كل ذلك أدى إلى نشوء فجوة تضخمية في الولايات المتحدة الاميركية. واقترحت الحكومة زيادة الضرائب غير أن الكونغرس لم يوافق على ذلك. والمشكلة الرئيسية التي واجهت أميركا إستمرار العجز الكبير في ميزان مدفوعاتها الدولي بسبب الحرب الفيتنامية وضعف الثقة في الدولار كعملة إحتياطية. وتجاه هذا التدهور وتأزم الوضع قامت الحكومة الاميركية بتقيد الاستثمارات الأهلية المباشرة وتقليص النفقات الحكومية والسياحية والقروض المصرفية في الخارج وتشجيع الصادرات الاميركية والحركة السياحية إلى أمريكا.

ولم تشهد المملكة المتحدة تحسناً كبيراً في وضعها الاقتصادي ولكن

أخذت البوادر في وضع هذا الميزان بنشر في أوائل عام ١٩٦٧ بتحسن نسبي وأصبح من الواضح في فصل الصيف أن بريطانيا مقبلة على تدهور كبير في ميزان مدفوعاتها وذلك لسببين رئيسين انعكس أحدهما في التطورات الغير ملائمة في تجاراتها الخارجية بنتيجة عوامل عديدة في مقدمتها الغاء الرسوم الأضافية على الاستيراد وعدوان الخامس من حزيران واضراب عمال الموانىء. أما السبب الآخر فقد ظهر في التغير الذي طرأ على حركة الأموال قصيرة الأجل في إتجاهها نحو الدخول إلى بريطانيا وضعف الثقة في الباون الأسترليني .... وسارعت المصارف المركزية الكبرى في العالم الغربي إلى تقديم قروض كبيرة إلى بريطانيا لكي تتمكن من دعم الثقة في الباون الأسترليني وقامت الحكومة البريطانية بتخفيض قيمة الباون الأسترليني.

أما الحكومة الفرنسية فقامت بتنشيط الوضع الاقتصادي ومع ذلك فقد كان الفتور ظاهراً في الوضع الاقتصادي خلال النصف الأول من السنة لا سيما في القطاع الصناعي غير أن النشاط الاقتصادي مال إلى التحسن في النصف الآخير من عام ١٩٦٧.

ولكن بتدهور الوضع الاقتصادي في المانيا الغربية أرتفع الانتاج الصناعي في هذه السنة وازدادت الصادرات وأخيراً اتجهت الاستيرادات إلى الارتفاع في أواخر السنة .... أما في هولندا وإيطاليا ودول الاسكندنافية كانت الزيادة الظاهرة في حركة بناء المساكن التي ساعدت على تنشيط الوضع الاقتصادي - أما اليابان فقد حققت أعظم نسبة في النمو الاقتصادي بين الاقطار السوقية المتقدمة خلال هذا العام.

وفي حقل السياسة النقدية قادت المانيا الغربية بقية أقطار السوقية المتقدمة خلال هذا العام إلى تخفيض الضغط الحاصل في النظام النقدي الحاصل وهكذا الحال في بريطانيا خفضت سعر إعادة الخصم تدريجياً وكذلك أمريكا وكندا والسويد وإسبانيا وداغمارك وسويسرا واليونان وكانت

فرنسا والبرتغال الدولتين الوحيدتين من دول السوقية المتقدمة اللتين بقى سعر إعادة الخصم فيها على مستواه خلال هذا العام.

خامساً: - التكتلات الاقتصادية الدولية:

في عام ١٩٦٧ تم الاتفاق بين (٤٦) دولة على تخفيض التعريفات الكمركية المفروضة على عدد كبير من السلع المتبادلة بينها وقد تم التوقيع على هذا الاتفاقية في ٣٠ حزيران ويشمل البروتوكول الاتفاقية تتعلق بالمواد الكيماوية وخطة عامة لتنظيم تجارة الحبوب العالمية وكذلك اتفاقية حول مكافحة الأغراق وقررت أقطار السوقية الأوروبية إقامة مجلس واحد وهيئة تنفيذية واحدة الخاصة بالفحم والفولاذ والطاقة الذرية والشؤون التجارية والاقتصادية - واتفقت هذه الأقطار أيضاً على تنظيم سوق زراعية موحدة للحبوب وبعض المنتجات الحيوانية وطلبت كل من المملكة المتحدة والدنمارك والنيروج رسمياً الانضمام إلى السوق الأوروبية المشتركة . وفي القارة الأوروبية عقدت أقطار افريقيا الغربية إجتماعين خلال العام وذلك لأجل دعم تعاونها الاقتصادي اما عن طريق سوق مشتركة أو إتحاد كمركي.

أما الأقطار العربية فقد حققت تقدماً كبيراً في دعم سوقها المشتركة وذلك عن طريق تخفيض التعريفات الكمركية المفروضة على المنتجات الزراعية ونصت الاتفاقيتان التجاريتان المعقودتان بين مصر وسوريا والعراق من جهة وبين العراق والأردن من جهة اخرى العمل على توحيد التعريفات الكمركية و لتعزيز التبادل التجاري بين الأطراف المعنية.

ويؤكد ميثاق (الجزائر) التي عقدت بين أقطار النامية، (٧٧) دولة في الجزائر، على المصاعب العملية محذراً من أن الأقطار النامية يجب أن لا تعاني من تعميم ترتيباتها الامتيازية الحاضرة ويشير الميثاق أيضاً إلى ضرورة معاملة الدول الفقيرة جداً معاملة استثنائية.

سادساً: - **الاحتيطات النقدية والذهب ووضع العملات الرئيسة**:

إنخفض احتياط الذهب بمقدار (١٤٠٠) مليون دولار وانخفض قيمة الباون الأسترليني. أما بالنسبة للتغيرات التي شهدتها الاحتياطات النقدية من حيث توزيعها بين الدول خلال هذا العام فيلاحظ أن صافي الأحتياطات النقدية للولايات المتحدة الأميركية قد انخفض بمقدار (٥١) مليون وذلك نتيجة للانكماش في احتياط الذهب وتدهورها في الاحتياطات النقدية في بريطانيا بعد إنخفاض احتياطي الذهب إنخفاضاً بمقدار (٦٤٩) مليون دولار. واقترن هذا الانخفاض في إنتاج الذهب خلال هذا العام زيادة هائلة في الكميات المطلوبة في أسواقه الحرة. والعوامل الرئيسية لهذه الظاهرة سؤ وضع ميزان المدفوعات في كل من بريطانيا وامريكا لا سيما انخفاض قيمة الباون الاسترليني.

وكان سعر الذهب في سوق لندن خلال هذا العام بدأ بالانخفاض دون ٣٥/١٥ دولار وقد استمر الضغط الغير الاعتيادي على الدولار والباون الاسترليني بعد حزيران وانخفض قيمة الباون الاسترليني مع الدولار الاميركي.

وقد حذت ٢٥ دولة حذو المملكة المتحدة في تخفيض عملتها خلال عام ١٩٦٧.

سابعاً: - **المؤسسات المالية الدولية**:

خلال عام ١٩٦٧ شهد صندوق النقد الدولي تطورات عديدة ساهمت في زيادة فعالياته وتعزيز دوره في القضايا النقدية والمالية الدولية وكان في مقدمة هذه التطورات ارتفاع قيمة المسحوبات القائمة إلى ٥/٢ مليار دولار. وسجل الصندوق نشاطاً كبيراً في مساعداته المالية التي إمتدت إلى عدد كبير من الاعضاء. إرتفع عدد الأقطار الاعضاء في صندوق النقد الدولي خلال السنة إلى ١٠٦ أقطار بعد إنضمام غيانا وسنغافورة. وعودة

الأندونسيا إلى الصندوق. وحقق البنك الدولي للأعمار والانماء توسعاً كبيراً في خدماته للأقطار إذ سجلت القروض التي منحها البنك رقمًا قياسياً قدره (٨٧٦,٧٥) مليون دولار وازداد رأسمال البنك إلى ٢٢,٨٥٠ مليار دولار. أما مؤسسة الانماء الدولية فقد ازداد عدد الأقطار الأعضاء فيها أي من ٩٥ إلى ٩٦ خلال السنة[٣٢].

التطورات الاقتصادية في العالم
خلال عام ١٩٦٨

أولاً - الاتجاهات الاقتصادية العامة:

جابه الاقتصاد العالمي ثلاث مشكلات اساسية هي أولاً: إستمرار الانخفاض في النسب المئوية للنمو الاقتصادي في معظم الدول، (٢) دوام الانكماش في نمو حجم التبادل التجاري ،(٣) تعرض النظام النقدي الدولي إلى هزات عنيفة بسبب ضعف الثقة في الدولار والباون الاسترليني .. وكانت الزيادة الكبيرة في الانتاج الصناعي أدى إلى إنتعاش الأوضاع الاقتصادية في الدول الرأسمالية. وسجل الانتاج الصناعي في الأقطار النامية زيادة كبيرة بلغت نسبيها (٨,٠) بالمائة .. وهكذا في الدول الاشتراكية .. ،أما الانتاج السزراعي في الدول الاشتراكية فازداد أيضاً (باستثناء الصين الشعبية). وانخفض الانتاج الزراعي في الدول النامية إلى (٢,٣) بالمائة بعكس الدول الاشتراكية ارتفعت إلى (٢,٩) بالمائة. وازداد الانتاج الزراعي في الدول الرأسمالية إرتفاع جزئي..

استمر النظام النقدي الدولي في تعرضه إلى الصعوبات بسبب اضطراب الأوضاع في سوق الذهب والعملات الرئيسية في السنوات الأخيرة .. وتميزت هذا العام ببلوغها درجة لم يسبق لها مثيل في الشدة والخطورة. وانخفض قيمة الباون الاسترليني في المملكة المتحدة وكذلك غيرت الولايات

(٣٢) التقرير السنوي للبنك المركزي العراقي لسنة ١٩٦٧. ص١٤١ - ١٦٠.

المتحدة الاميركية سياستها الخاصة بالذهب والمبنية على أساس التدخل في أسواق الذهب لمساندة سعره الرسمي البالغ (٣٥) دولار للأونس الواحد. وقرر محافظو البنوك المركزية لدول مجمع الذهب في الاجتماع أن لا تشتري البنوك المركزية الذهب من الأسواق الحرة لتنمية إحتياطاتها منه نظراً إلى الثقة المتزايدة بقرب إتفاق الدول الأعضاء في صندوق النقد الدولي على إنشاء وسيلة جديدة لزيادة الاحتياطات النقدية الدولية بـ (حقوق السحب الخاصة).

ثانياً: السياسات النقدية والمالية:

اتسمت سنة ١٩٦٨ بالتباين الكبير في الأوضاع الاقتصادية وتغيرها السريع أن تنهج الدول سياسات نقدية ومالية مختلفة خلال السنة نفسها. في الأقطار الرأسمالية كفرنسا حيث كانت سياساتها النقدية والمالية قد إنطبعت في بداية السنة بخصائص توسعية انعكست في تخفيض بعض الضرائب وزيادة استثمارات الحكومية وتعجيل العمل بمشروع بناء المساكن ذات الكلفة التخمينية.. وبعد الأزمة النقدية في تشرين الثاني أعطيت الاولوية إلى تثبيت القيمة الخارجية للفرنك بدلاً من السعي إلى تحقيق نسبة عالية للنمو الاقتصادي وقامت الحكومة الفرنسية بتشديد القيود على التمويل الخارجي وتخفيض مصروفات الميزانية العامة وزيادة الضرائب ورفع سعر الخصم..

أما في الولايات المتحدة الاميركية إزداد إهتمام الحكومة بتصاعد الضغط التضخمي في النظام الاقتصادي والانخفاض الكبير في الميزان التجاري. قامت بتقليص سيولة المصارف التجارية ورفعت سعر إعادة الخصم مرات عديدة. وكان الغرض من هذه الزيادة معالجة مشكلة التضخم المتزايد في الداخل من ناحية وحماية الدولار الأميركي من التدهور من ناحية اخرى. وواصلت السياسات النقدية والمالية في المملكة المتحدة

نهجها التقييدي الذي سارت عليه منذ تخفيض الباون الاسترليني في تشرين الثاني ١٩٦٧ فقامت الحكومة باتخاذ إجراءات إضافية لتقييد الطلب المحلي وتوجيه الموارد المتاحة في البلاد نحو زيادة الاستثمار وتنشيط حركة التصدير. وعلى أثر الأزمة النقدية الدولية في تشرين الثاني بذلت الدولة مزيداً من الجهود لتحسين عملية منح الائتمان للمصدرين وللتأثير بصورة مباشرة على الاستيراد.

أما في المانيا الغربية اتصفت سياستها النقدية والمالية بنهجها التقييدي بغية حصر إرتفاع الطلب المحلي والخارجي في مستوى معين. وفرضت ضرائب إضافية بمقدار (٤,٠) بالمائة على قيمة الصادرات ومنح إعانات بنفس النسبة للمستوردين. كما أجرت الحكومة ترتيبات معينة لاعادة تصدير قسم من رؤوس الأموال التي سبق توافدها من الخارج وبقي سعر إعادة الخصم على مستواه السابق (٣,٠) بالمائة.

أما الأقطار الاشتراكية في أوروبا الشرقية فقد واصلت سياساتها النقدية والمالية على ضوء أهداف خططها الاقتصادية المرسومة. وواصل في الوقت نفسه بنك التعاون الاقتصادي الدولي في موسكو أعماله كجهاز للمقايضة المتعددة الأطراف وبالروبلات الحرة بين الأقطار الاشتراكية . . . وقامت سياسات النقدية والمالية في الدول النامية في مواصلة السعي لدعم وتعزيز المناهج الانمائية ورفع الطاقة الانتاجية ومراقبة نمو السكان، بالاضافة إلى حث الدول الكبرى على تثبيت أسعار المواد الاولية في الأسواق العالمية وتوسيع الأقطار النامية من هذه الأسواق. . . . الخ.

ثالثاً : التبادل التجاري والسياسات التجارية الدولية:

إرتفع قيمة صادرات العالم من (٥,٠) بالمائة إلى (١٢,٠) في الفترة بين ١٩٦٧ و ١٩٦٨. وظهر تحسن وضع الصادرات بصورة خاصة في مجموعة الأقطار الرأسمالية وكذلك الأقطار الاشتراكية. وحققت الدول النامية زيادة ظاهرة في صادراتها إلى العالم خلال هذا العام. ولكن استمر

التدهور في وضع الحساب الجاري في الولايات المتحدة الامبركية وفرنسا وكذلك بريطانيا والمانيا الغربية وإيطاليا بسبب توافد الأموال الأجنبية وخروجها وخاصة خلال الأزمات المتكررة في أسواق التمويل الخارجي . . وحققت كل من إيسلندا وإيرلندا وفنلندة واليونان والبرتغال وإسبانيا وتركيا ويوغوسلافيا تحسناً ملحوظاً في ميزان مدفوعاتها الخارجية. خلال عام ١٩٦٨ انعقد مؤتمر الأمم المتحدة الثاني للتجارة والتنمية في - نيودلهي - بحضور (١٣١) دولة ولم تستجب قرارات المؤتمر لمتطلبات الدول النامية اعدتها بشكل توصيات سميت (ميثاق الجزائر) وأوصى المؤتمر بالاسراع في تأليف لجنة خاصة للامتيازات تتولى جميع القضايا المتعلقة بوضع نظام عام منح الامتيازات من قبل الدول المتقدمة بعدالة وبدون إمتيازات مقابلة من جانب الدول النامية . وأيدت الدول زيادة المساعدات المالية إلى الدول النامية . . وحققت أقطار السوق الأوروبية المشتركة إتحادها الكمركي في أول تموز عام ١٩٦٨ في إتفاقية - روما - وتتلخص الاجراءات التي اتخذت اعتبار من بداية تموز .

(أ) - إلغاء المتبقي من التعريفات الكمركية المفروضة على تبادل السلع الصناعية بين الأقطار الاعضاء .

(ب) - إلغاء المتبقي من التعريفات الكمركية على تبادل بعض المنتجات الزراعية والبدء بمرحلة التسويق المشترك.

(ج) - تنفيذ النظام الموحد للتعريفات الكمركية بالنسبة إلى السلع الصناعية المستوردة من خارج السوق بعد إلغاء ٤٠٪ منها.

(و) - تنفيذ التعليمات الخاصة بمكافحة الأغراق في السوق.

وعملت منظمة التعاون الاقتصادي لأقطار أوروبا الشرقية (كوميكون) تنفيذ القرارات التي اتخذتها المنظمة وأهمها وضع المرحلة التمهيدية لتنسيق مناهج التنمية الاقتصادية في الأقطار - الاعضاء وعمل البنك الدولي على دعم العلاقات التجارية والمصرفية بين الأقطار الأعضاء. وواصلت أقطار

أمريكا اللاتينية والأقطار الافريقية والآسيوية جهودها الايجابية للتعاون الاقتصادي بين الأقطار المجاورة. وحققت الدول النامية تقدماً في دعم سوقها المشتركة وتكاملها الاقتصادي. وعقد المجلس الاقتصادي العربي دورته في أيار اتخذ قرارات مهمة أهم هذه القرارات إنشاء الصندوق العربي للانماء الاقتصادي والاجتماعي.

رابعاً: الاحتياطات النقدية الدولية والذهب ووضع العملات الأجنبية:

إزدادت القيمة الاجمالية للاحتياطات النقدية الدولية أي الموجودات الرسمية للدول من الذهب والعملة الأجنبية وصافي حساباتها الاحتياطية مع صندوق النقد الدولي خلال هذا العالم بمقدار (٢٨٨٠) مليون دولار. إستأثرت الولايات المتحدة الاميركية بأكثر من (٤٢) بالمائة من الزيادة الحاصلة في موجودات العملة الأجنبية خلال عام ١٩٦٨. إن صافي احتياطات النقدية في أمريكا قد إرتفع (٨٨٠) مليون دولار ... وفي بريطانيا إنخفض إلى (٢٧٣) مليون دولار. وتدهور صافي الاحتياطات النقدية في فرنسا بمقدار (١٣٥٧) مليون دولار. وفي المانيا الغربية وإيطاليا وبلجيكا ولوكسمبرغ وهولندة وسويسرا والنمسا والدانمارك والنرويج والسويد وكندا واليابان فقد إزدادت بمقدار (٧٤١٦) مليون دولار. وسجلت الأقطار النامية زيادة قدرها (٥٤٠) مليون دولار. واشتد الطلب على الذهب، والعامل الرئيسي في إشتداد الطلب على الذهب تكرار الازمات في أسواق التحويل الخارجي بسبب إستمرار التدهور في وضع ميزان المدفوعات الخارجية في أمريكا والمملكة المتحدة وفرنسا .. الخ. أما سعر الذهب فقد إنخفض في الأسواق بمقدار (٣٥,١٤) دولار للأونس الواحد على أثر إتخاذ الولايات المتحدة الأميركية إجراءات عديدة بشأن ميزان مدفوعاتها الخارجية. وشهدت أسواق التحويل الخارجي أوضاع مضطربة وتعرضت إلى ثلاثة أزمات حادة...

١ - عندما انتشرت إشاعات بقرب تغير أمريكا لسياستها الخاصة بالذهب، فازداد الاقبال على شراء الذهب.

٢ - تعرض الفرنك الفرنسي إلى ضغط مفاجىء وذلك سبب زيادة حركة الأموال قصيرة الأجل . . .

وبعد إنتهاء عقد مؤتمر - بون - (٢٣ تشرين الثاني) أعلنت فرنسا عزمها في عدم تخفيض قيمة الفرنك وشددت بريطانيا إجراءاتها لحماية وضع الباون الاسترليني. وساعدت هذه القرارات فيما بعد على خروج مبالغ ثابتة من الأموال قصيرة الأجل من المانيا الغربية.

سابعاً: المؤسسات المالية الدولية:

شهد صندوق النقد الدولي نشاطاً كبيراً خلال سنة ١٩٦٨ حيث بلغ عدد الاجتماعات التي عقدها المدراء التنفيذيون أكثر من أية سنة اخرى. وواصلت عمليات الصندوق ومعاملاته مع الدول الأعضاء توسعها في السنة الحالية ١٩٦٧ - ١٩٦٨ حيث اشترك ٣٦ دولة وما يعادل (١٣٤٨) مليون دولار من العملات القائمة لدى الصندوق. حققت كندا أعظم نصيب من هذه المشتريات وتلتها في ذلك أمريكا . . وانخفضت قيمة القروض التي منحها البنك الدولي للأعمار والإنماء من ٨٧٧ إلى ٨٤٧ مليون دولار وشمل هذا المبلغ ٤٤ قرضاً وزعت على (٣١) دولة. أما بالنسبة للتوزيع الجغرافي لقروض البنك الدولي فقد إحتلت دول امريكا اللاتينية المركز الأول ثم تلتها أقطار آسيا الجنوبية والشرق الأوسط فأوروبا وإفريقيا. وحققت شركة التحويل الدولية الملحقة بالبنك الدولي خلال سنتها الحالية ١٩٦٨ رقماً قياسياً في قيمة إرتباطاتها المالية التي إرتفعت إلى (٤٩,١) مليون . . . الخ.

وانضمت كل من فيتنام الشمالية وموريتانيا واندونيسيا إلى عضوية الشركة خلال السنة. بلغ عدد الأعضاء (٨٦) دولة. أما مؤسسة الانماء

الدولية التابعة للبنك الدولي أيضاً فقد سجلت القروض التي منحتها خلال السنة الحالية انخفاضاً ظاهراً من (٣٥٤) مليون موزعة على (١٤) دولة إلى (١٠٧) مليون دولار قدمت إلى (١٨) دولة[٣٢].

لقد تقدم العراق تقدماً محسوساً خلال هذه المدة لكن التقدم الكبير حدث بعد ذلك.



(٣٢) التقرير السنوي للبنك المركزي العراقي لسنة ١٩٦٨. ص١٣٣ - ١٤٨.

جزر البحر الأحمر الأفريقية

إعداد
الدكتور/ رأفت غنيمي الشيخ
أستاذ التاريخ المعاصر والمساعد
جامعتا عين شمس وقطر

مقدمة

إستأجرت الولايات المتحدة الأمريكية منذ سنوات قليلة من إثيوبيا في عهد الأمبراطور هيلاسلاسي جزيرتي «دهلك كبير» و «حالب» الأريترية لكي تقيم عليها منشآت عسكرية، وهذا يعني اهتمام الولايات المتحدة الأمريكية بمدخل البحر الأحمر الجنوبي الذي يعتبر بحراً عربياً صرفاً نظراً لأن سواحله الشرقية عربية كلها، كما أن شواطئه الغربية عربية كلها أيضاً باعتبار ارتيريا أرضاً عربية.

وجاء حصول الولايات المتحدة الأميريكية على عقد تأجير هذه الجزر تأكيداً للعلاقات الطيبة بين إثيوبيا والولايات المتحدة الأمريكية التي بدأت - وأعني العلاقات بين الطرفين- بعقد معاهدة صداقة بين البلدين تم التصديق عليها في ٧ سبتمبر ١٩٥١م، وزيارة الأمبراطور هيلاسلاسي إلى نيويورك في نفس العام واستقبال المسئولين بوزارة الخارجية الأمريكية له استقبالاً حافلاً.

وتمشياً مع العلاقات الطيبة بين الولايات المتحدة وإثيوبيا عيّنت الحكومة الأثيوبية خبيراً أميريكياً في الشئون المالية لتنظيم مالية الدولة

الأثيوبية، فقام بتعديل نظام العملة بربط الدولار الحبشي بالدولار الأمريكي، كما استعانت الحكومة الأثيوبية بأحدى الشركات الأمريكية لتنظيم شئون الطيران المدني بالحبشة.

وعندما ضمت إثيوبيا ارتيريا لأراضيها - سواء كان هذا الضم في نطاق الاتحاد الفيدرالي كما حدث أولاً أو كان بعد إلغاء الاتحاد الفيدرالي وجعل الاقليم كأحد ولايات إثيوبيا الأخرى- صار لها أي للحبشة ساحل طويل على البحر الأحمر ومن ثم صارت دولة «بحر أحمرية»، وصارت تتحكم في أراضي إريتريا وجزرها فتسمح للولايات المتحدة بأقامة منشئات عسكرية على أجزاء من الأرض الأريترية وعلى الجزر الأريترية في البحر الأحمر.

وبالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية فقد حصلت على قاعدة للرادار في شمال الأرض الأريترية، وعلى قواعد جوية وبحرية في جزر «دهلك» و «حالب» إلى جانب محطة «راديو مارينا» في «كانيو» بمنطقة أسمرة. وتبعد جزيرة حالب عن مدخل البحر الأحمر الجنوبي بحوالي خمسين ميلاً، ومن هنا تتضح تأثيرات هذه القواعد العسكرية الأمريكية على الجزيرة العربية وبقية الأقطار «البحر أحمرية».

كانت التسهيلات العسكرية التي أعطتها إثيوبيا للولايات المتحدة الأمريكية في أراضي وجزر إريتريا استكمالاً للخطوات الأمريكية التي بدأت بالتواجد في إثيوبيا ككل بما فيها إقليم إريتريا، وحيث اتجهت الجهود لأعداد خطوط ملاحية حبشية برؤس أموال أمريكية، وذلك من خلال إتفاقية تمنح إثيوبيا بمقتضاها للولايات المتحدة مزايا تجعل ثغر مصوع الأريتري ميناء حراً ذا قيمة تشرف عليه الولايات المتحدة الأمريكية ويكون لها كما هو حال ميناء عدن - قبل استقلالها عن بريطانيا عام ١٩٦٧م- بالنسبة لبريطانيا.

وجاء تركيز الولايات المتحدة الأمريكية على جزر دهلك وميناء مصوع باعتبار الميناء المرفأ الأخير لرحلة الأسطول السابع في جنوب شرقي آسيا[1]. كما شجعت الولايات المتحدة الأمريكية إثيوبيا على تقوية علاقاتها باسرائيل، فأعطت إثيوبيا لاسرائيل الحق في إنشاء قواعد عسكرية لها في ميناء «فاطمة» بالساحل الأريتري، إلى جانب قاعدة لتدريب المغاوير بوسط إريتريا.

ونتيجة للتهديد الأجنبي لأمن البحر الأحمر وأقطاره العربية وفي مقدمتها أقطار الجزيرة العربية: المملكة العربية السعودية، والجمهورية العربية اليمنية وجمهورية اليمن الديمقراطية، جاء اهتمامي في هذه الدراسة بإبراز دور الجزر الأفريقية في البحر الأحمر في التأثير على أمن الجزيرة العربية في التاريخ الحديث خاصة في الفترات التي تتصارع فيها الدول الخارجية «غير البحر أحمرية» حول النفوذ والسيطرة على مدخل البحر الأحمر الجنوبي، والسيطرة على جزر البحر الأحمر.

فاذا تناولنا جزر «دهلك» الأريترية، فلنا أن نبدأ بذكر امتداد الشاطىء الأريتري مسافة ألف كيلو متر من «رأس قصّار» عند الحدود السودانية شمالاً إلى رأس راحيتا أو «رهيطة» عند باب المندب في جمهورية جيبوتي الحالية.

وعلى امتداد هذا الشاطىء تتوفر بعض الموانىء الطبيعية وأهمها ميناء «مصوع» وهو ميناء إريتريا الرئيسي، وميناء «عصب» ثاني موانىء إريتريا من حيث الأهمية، كما تتبع إريتريا ١٢٦ جزيرة أكبرها جزيرة «دهلك كبير» تليها جزيرة «نورا». ويعتقد بوجود بترول في أراضي جزيرة «دهلك كبير»[2]. ومنذ سنوات تم اكتشاف بعض الآبار البترولية فيها، كما اكتشف فيها أيضاً الغاز الطبيعي[3].

وإلى جانب جزر «دهلك» توجد مجموعة جزر «الدناكل» ومجموعة

الجزر الساحلية التي تتناثر قرب الساحل الارتيري من «رأس قصار» في الشمال إلى «درعبو» في الجنوب(٤). وهذه الجزر تتفاوت من حيث المساحة، كما أنها تختلف من حيث القرب من الساحل الأريتري، إلا أنها جغرافياً وتاريخياً جزء من اريتريا.

***

جزر دهلك

تعرف جزر دهلك بأرخبيل دهلك وتتكون من ١٢٦ جزيرة ذات تكوين مرجاني، وتقع في مواجهة خليج مصوع(٥)، وتصل مساحتها الكلية إلى حوالي ٤٥٠ ميلاً مربعاً، وتبعد الجزيرة الرئيسية (دهلك كبير) عن ميناء مصوع بحوالي ٣٥ ميل(٦). وتتمتع تلك الجزر بمناخ غير مستقر، وتنبت فيها أعشاب برية، ويبلغ عدد سكانها ٢٥٠٠ نسمة كلهم مسلمون، وهم سلالة إحدى الموجات العربية المهاجرة من الجزيرة العربية عبر البحر الأحمر، وهم يعملون في صيد السمك الذي يبيعونه في مصوع، ويتحدث هؤلاء السكان اللغة التيجرينية.

وهذه الجزر لم تكن معروفة للجغرافيين حتى احتلها المسلمون في القرن السابع، وقد خضعت لسلطات متعددة على مر السنين حتى صار يحكمها سلاطين محليون في القرن الخامس عشر الميلادي، وفي القرن السادس عشر خضعت جزر دهلك للدولة العثمانية أثناء الزحف العثماني نحو أقطار الوطن العربي وأصبحت جزءاً من ولاية «الحبش» العثمانية، ثم خضعت لمصر في عهد الخديوي إسماعيل عام ١٨٦٥م وظلت تديرها مصر حتى استولى عليها الايطاليون عام ١٨٨٥م وقد ظلوا بها حتى استولت عليها بريطانيا عام ١٩٤١م بعد استيلاء الحلفاء على إريتريا من إيطاليا(٧).

وعندما انتهى الحكم البريطاني لأرتريا وسيطرت عليه إثيوبيا خضعتْ جزر دهلك- وغيرها من الجزر الأريترية- لسلطة الأحباش الذين أعطوا وكما رأينا، للولايات المتحدة وإسرائيل قواعد في إريتريا، وصارت جزر دهلك تمثل تهديداً أمريكياً إسرائيلياً للأقطار العربية «البحر أحمرية» ومن هنا يأتي اهتمامنا بها.

ولم يكن اكتشاف الأهمية الاستراتيجية لجزر دهلك الأريترية قد حدث فجأة أو حدث مؤخراً على يد الولايات المتحدة الأمريكية، إذ أن بريطانيا كانت أسبق في تقدير تلك الأهمية لجزر دهلك، ذلك أنه منذ افتتاح قناة السويس للملاحة العالمية عام ١٨٦٩م أدركت بريطانيا أن البحر الأحمر هو الطريق الطبيعي إلى الشرق الأقصى، أو على حد تعبير اللورد «سالسبوري» هو وتر بريطانيا الحساس Our Road of communication with the Indies, our senstive nerve—string [٨].

ولما كانت انجلترا قد استولت على عدن عام ١٨٣٩م، فأنها أخذت تعمل على إيجاد ممتلكات لها في شرق وشمال شرق أفريقيا[٩]، حتى إذا افتتحت قناة السويس للملاحة العالمية أخذت بريطانيا تعمل على الانفراد بالسيطرة على البحر الأحمر من جنوبه حيث تحتل عدن إلى شماله في مصر خاصة بعد أن اشترت الحكومة البريطانية نصيب مصر من أسهم شركة قناة السويس أواخر السبعينات من القرن التاسع عشر.

ومن الأمور الجديرة بالملاحظة أن إنجلترا كانت تهتم بالسيطرة على مداخل البحار والجزر ذات الموقع الاستراتيجي، والمتتبع لنشاطها الاستعماري ولما حصلت عليه بعد الحروب وفي مؤتمرات الصلح يجد ذلك واضحاً، فقد حصلت في مؤتمر فينا عام ١٨١٥م عقب الحروب النابليونية على جزر «هليجولاند» و «مالطة» و «الأيونيان» و «سيلان» و «توباجو»

و«ترينداد» و «سان لوسيان» إلى جانب «جوايانا» و «مستعمرة الرأس الأفريقية».

كما أن إنجلترا من خلال اهتمامها بالانفراد بالسيطرة على الجزر والمواقع ذات الأهمية الاستراتيجية في العالم بصفة عامة وفي البحر الأحمر بصفة خاصة - باعتباره موضوع دراستنا- كانت تنظر بعين القلق وعدم الرضا بل وأحياناً بعداء نحو أية قوة أخرى غيرها تحاول أن تفرض نفوذها وسيطرتها على أي موقع في منطقة البحر الأحمر سواء كان بحرياً أو على الأرض.

وانطلاقاً من حساسية إنجلترا لكل نشاط إستعماري آخر يفرض وجوده في البحر الأحمر، فأنها من موقعها في عدن وجزيرة «بريم» عند مضيق باب المندب أخذت ترقب تحركات الايطاليين أثناء نشاطهم لتحقيق مطامعهم في إقليم إريتريا، منذ توقيع الاتفاقات بين إيطاليا وشيوخ الدناكل المحليين لكي تحصل شركة «روبا تينو» الايطالية على قطعة أرض أخرى مجاورة على الساحل تقع بين «رأس لوما» و «خليج علالا» و «جبل جانجا»، ورفع العلم الايطالي على هذه البقعة من ساحل خليج عصب لأول مرة في ١٣ مارس ١٨٧٠م(١٠).

وحينما أبلغ المسؤلون البريطانيون في عدن حكومتهم في لندن عن النشاط الايطالي في إقليم إريتريا المصري إستاءت الحكومة البريطانية وأبلغت إيطاليا أن خليج عصب أرضاً مصرية، وأن إنجلترا لا ترحِّب بامتداد النفوذ السياسي لايطاليا في منطقة البحر الأحمر ذي الأهمية الاستراتيجية والاقتصادية لمستعمرتها في الهند، وفي نفس الوقت أعطى وزير الخارجية البريطاني تعليماته لقائد القوات البحرية البريطاني في عدن بمراقبة تحركات الايطاليين في ساحل البحر الأحمر ومنعهم من وضع أقدامهم

هناك، وخلال عام ١٨٨٠م بذل المسؤولون في عدن جهوداً متوالية من أجل إعاقة أية مشروعات إستعمارية لايطاليا في إريتريا أو في جزرها الساحلية وفي مقدمتها جزر دهلك.

وفي أواخر عام ١٨٨١م ضمت إيطاليا أراضي سلطنة «راحيتا» أو «رهيطة» إلى مناطق نفوذها في إيريتريا مما أدى إلى امتداد السيطرة الايطالية في إريتريا ليصبح طول المنطقة التي تسيطر عليها إيطاليا خمسون ميلاً، ومتوسط عرضها خمسة أميال، علاوة على عدة جزر مجاورة، وذلك في وقت كانت فيه آمال الايطاليين في إمكانية تحويل تجارة إثيوبيا من مصوع إلى عصب لا تزال قوية، وفي وقت أهملت فيه إيطاليا حقوق السيادة التي لمصر على هذه الأراضي الأريترية، ثم أعلنت في عام ١٨٨٢م أن عصب صارت مستعمرة إيطالية.

ورغم أن بريطانيا كانت تشعر بالقلق من نشاط إيطاليا الاستعماري في ساحل البحر الأحمر الغربي فأنها ما لبثت بعد عام ١٨٨١م أن غيرت من موقفها نحو إيطاليا، والسر في هذا التغيير تكشف عنه مذكرة في سجلات وزارة الخارجية البريطانية كتبت في شهر سبتمبر من هذا العام تقول إن الفرنسيين يبذلون أقصى جهد لاخراج مصر من قبضة إنجلترا[١١] كما أن انجلترا كانت تخشى من وقوع موانىء ساحل البحر الأحمر الغربي في قبضة المهديين[١٢] أو أية قوة أوروبية معادية لبريطانيا وبخاصة فرنسا.

ونتيجة لموقف إنجلترا الجديد من نشاط إيطاليا في الساحل الغربي للبحر الأحمر سمحت الحكومة البريطانية لايطاليا بأن تسبق في احتلال ميناء مصوع الذي كان المصريون قد تنازلوا عنه لملك الحبشة يوحنا الرابع نظير تسهيله مرور القوات المصرية المنسحبة من السودان الشرقي، وبالفعل بادر الطليان باحتلال الميناء في ٥ فبراير ١٨٨٥م، ثم استولوا على «سنهيت»

ورفعوا علمهم عليها في عام ١٨٨٨م، وفي العام التالي إحتلوا «أسمرة»، وفي أول يناير ١٨٩٠م صدر مرسوم ملكي إيطالي بإنشاء مستعمرة إريتريا(١٣). كما أن إنجلترا سمحت لايطاليا باحتلال مدينة كسلا السودانية التي تقع في منتصف الطريق بين مصوع والخرطوم احتلالاً مؤقتاً.

وتمشياً مع تأييد الحكومة البريطانية لنشاط إيطاليا الاستعماري في الساحل الغربي للبحر الأحمر عقدت بين الطرفين عدة معاهدات في مارس وأبريل ١٨٩١م إعترفت إنجلترا فيها بخضوع أكبر جزء من أراضي السودان المصري التي تقع بين هضبة البحيرات و «رأس غردافوي» للنفوذ الايطالي، كما اعترفت بكل إثيوبيا وجزء من «التاكا» و «سنار» التابعتين لمصر داخل منطقة النفوذ الايطالي في شرق أفريقيا(١٤).

ورغم هذا الموقف الودي من جانب بريطانيا نحو نشاط إيطاليا الاستعماري في البحر الأحمر، فقد كانت حساسيتها لكل ما يحدث في البحر الأحمر يدعوها إلى متابعة كل نشاط تقوم به إيطاليا، فنجد المسئولين البريطانيين، سواء في عدن أو في القاهرة، يكتبون التقارير عن هذا النشاط.

فنجد مثلاً برقية مرسلة من القنصل البريطاني العام في القاهرة سير «إيفلن بارنج» (Evylen Baring) يكتب لوزير الخارجية البريطانية اللورد «جرانفيل» (Granville) تقول: إن الكولونيل «تشر مسيد» (chermside)أبرق من عدن بأن الايطاليين احتلوا جزر دهلك المواجهة لميناء مصوع(١٥).

كما تجلّ اهتمام الحكومة البريطانية بنشاط إيطاليا الاستعماري في إريتريا، في تكليف وزارة الخارجية البريطانية لسفيرها في روما لاستطلاع الموضوع بصفة رسمية مع وزير الخارجية الايطالي، وبالفعل قام السفير البريطاني بإثارة قضية احتلال إيطاليا لجزر دهلك مع الوزير الايطالي، ثم

أبرق بنتيجة اللقاء إلى اللورد «جرانفيل»، وجاء في برقية السفير البريطاني ما نصه:

«لقد انتهزت فرصة أول لقاء بالسنيور «ملفانو» (Malvano) - وزير الخارجية الايطالية- وطلبت منه إيضاحات حول احتلال قوات إيطالية لجزر دهلك الأريترية، فأجاب بأن الظروف التي دعت إلى احتلال هذه الجزر كانت ظروفاً اقتضتها اعتبارات صحية محضة، بهدف جعل تلك الجزر مقراً للوقاية الصحية للايطاليين.

«وتفصيل ذلك- من وجهة نظر الايطاليين- أن حالة بعض جنود الجيش الايطالي العامل في إريتريا تستدعي بالضرورة مغادرة ميناء مصوع للاستجمام، وليس هناك مكان مناسب لتحقيق هذا الغرض أكثر من جزر دهلك القريبة من ميناء مصوع، كما أن هذه الجزر غير مأهولة بالسكان فيما عدا بعض صيادي السمك الذين يتناثرون بإعداد قليلة في هذه الجزر، وإقامتهم ليست دائمة، وأن هذه الجزر لم يسبق للقوات المصرية أن احتلتها[١٦].

وتعليقنا على تبريرات الوزير الايطالي تنبع من أقواله، حيث أنه ادعى أن الظروف الصحية للجنود الايطاليين كانت وراء احتلال جزر دهلك، وأن هذه الجزر هي أكثر الأمكنة مناسبة لهؤلاء الجنود أثناء فترة استجمامهم، وهذا القول مردود عليه بأن احتلال الايطاليين لميناء مصوع يدفعهم إلى احتلال الجزر المواجهة للميناء لأسباب استراتيجية إستعمارية وليست لأسباب صحية كما ادعى الوزير الايطالي.

كما أن القول بأن جزر دهلك لم تكن مأهولة بالسكان فيما عدا بعض صيادي السمك قول غير حقيقي، لأن هذه الجزر شهدت حضارة إسلامية مزدهرة وشهدت حكمًا مستقراً لسلاطين محليين، وخضعت لسلطة دولة أثناء الحكم العثماني لأريتريا، وأثناء الحكم المصري لنفس الاقليم.

فلا يمكن الموافقة على رأي الوزير الايطالي لأنه لم يكن من المتصور أن يهجر هذه الجزر أهلها جميعهم ويتركوا ما بها من مقومات حضارية، وأما القول بأن جزر دهلك لم تحتلها قوات مصرية قبل مجيىء الايطاليين إليها فهو تبرير يقصد به إشاعة أنها كانت أرض خلاء أو ملك مباح أو أرضاً لا مالك لها يستطيع الاستحواذ عليها من يسبق.

وفي اعتقادي أنه مع اهتمام إنجلترا بمراقبة النشاط الايطالي في ساحل البحر الأحمر الغربي وفي احتلالها لجزر دهلك إلا أنها لم تأخذ موقفاً عدائياً من هذا النشاط بل إنها كانت تقبل التبريرات الايطالية دون مراجعة مما أطمع إيطاليا أكثر فأكثر حتى اتسعت ممتلكاتها في إريتيريا والصومال.

وبهذا ظلت مجموعة جزر دهلك خاضعة لايطاليا طالما ظلت إريتريا ذاتها خاضعة لايطاليا، فلما انتهى الوجود الايطالي من إقليم إريتريا كان من الطبيعي أن ينتهي من تلك الجزر وغيرها من الجزر الأريترية.

وعندما سيطر الأحباش على إريتريا سيطروا بالتالي على جزر دهلك وبقية جزر الأقليم. ومن هنا جاء منحهم قواعد عسكرية في هذه الجزر للولايات المتحدة الأمريكية ولاسرائيل مهدداً لأمن واستقرار الأقطار العربية «البحر أحمرية» على الشاطئين الأفريقي والأسيوي.

وعندما نستعيد درس حرب رمضان/أكتوبر ١٩٧٣م نجد أن سيطرة الأساطيل العربية على البحر الأحمر وخاصة عند مدخله الجنوبي قد دفع بالولايات المتحدة وإسرائيل إلى تأكيد وجودهما في الجزر الأرتيرية في الوقت الذي أخذت فيه إثيوبيا تتعاطف أكثر فأكثر مع المطالب الاسرائيلية في مياه البحر الأحمر قرب مضيق باب المندب.

وبينما تقف إثيوبيا هذا الموقف نجدها تنظر بعين الشك إلى كل دعوة عربية تهدف للعمل على ضمان الأمن والاستقرار في البحر الأحمر في مواجهة محاولات التدخل الخارجي.

كما يجب أن نتذكر أنه بينما تواجدت بريطانيا عند مدخل البحر الأحمر الجنوبي وقرب الساحل الأريتري لمدة قرن من الزمان تقريباً فأنها مع اعترافها باستقلال عدن عام ١٩٦٧م قد أنهت وجودها الفعلي هناك تقريباً ليحل الوجود الأمريكي الاسرائيلي قرب باب المندب.

وقد ازداد الوجود الأمريكي الاسرائيلي عند مدخل البحر الأحمر الجنوبي تكريساً بعد انسحاب القوات الأمريكية من فيتنام، وبعد حرب رمضان أكتوبر ١٩٧٣م وبينما كان مركز الوجود البريطاني في عدن ثم امتد إلى الساحل الأفريقي للبحر الأحمر تواجدت القواعد العسكرية الأمريكية في جزر دهلك الأرترية لتباشر تأثيراتها ليس فقط على الساحل الأفريقي للبحر الأحمر بل وعلى الساحل الأسيوي لذلك البحر.

جزر الأخوة

وكانت هناك مجموعات من الجزر القريبة من مدخل البحر الأحمر الجنوبي مثار سباق وتنافس بين إنجلترا وفرنسا إثناء التسابق الاستعماري الأوروبي في أفريقيا خلال القرن التاسع عشر ونظراً لأن هذه الجزر ذات تأثير من حيث موقعها الاستراتيجي قرب مضيق باب المندب فقد حرصت على تسجيل التنافس الانجليزي الفرنسي حولها لادراك أهميتها وتأثيراتها على الأقطار العربية في الجزيرة وفي أفريقيا.

ومن بين هذه المجموعات: مجموعة جزر «موسى» و «أوباد» عند مدخل خليج تاجورة والتي حاولت فرنسا عام ١٨٨٤م احتلالها أثناء بداية تأسيسها لمستعمرتها في «أوبوك» ولكن الحكومة البريطانية سارعت إلى الاعلان بأن هذه الجزر صارت لبريطانيا العظمى منذ عام ١٨٤٠م بموجب تنازل من شيوخ «تاجورة وزيلع»[١٧]، وأنه يجب اتخاذ خطوات بريطانية لاثبات الوجود الانجليزي في هذه الجزر دفعاً للمطامع الفرنسية[١٨].

وإذا كان هذا الصراع الانجليزي الفرنسي حول جزر «أوباد

وموسى» قد ارتبط بالنشاط الاستعماري لكلا الطرفين في الأرض الصومالية القريبة من مضيق باب المندب، فإن إنجلترا التي يرجع وجودها في هذه المنطقة إلى سنوات إبعد من الوجود الفرنسي قد اتخذت بالفعل خطوات لاثبات الوجود البريطاني على هذه الجزر.

وقد تأكدت هذه الخطوات من رسالة الميجور هنتر (Hunter) قائد البحرية البريطانية الذي أعلن بأن وجوداً بريطانياً قد تأسس فعلاً في هذه الجزر(١٩) ثم أخطرت الحكومة البريطانية على لسان نائب الملك في الهند بأن العلم البريطاني قد تم رفعه على تلك الجزر في الوقت الذي احتلت فيه القوات الفرنسية تاجورة(٢٠).

وكانت مجموعة الجزر السبع المعروفة بجزر الأخـوة الواقعة عند المدخل الجنوبي للبحر الأحمر مثار تنافس أيضاً بين إنجلترا وفرنسا فعندما تقدمت سفينة حربية فرنسية نحو هذه الجزر، أبدى وكيل الوزارة لشئون الهند استياءه من هذا العمل وطلب من وكيل الوزارة للشئون الخارجية إبلاغ اللورد «كمبرلي» وزير الحربية واللورد «جرانفيل» وزير الخارجية، بنص مذكرة المقيم البريطاني في عدن بهذه الخصوص(٢١).

وكان المقيم البريطاني في عدن أبرق بالمعلومات التي وصلته من قائد جزيرة «بريم» الواقعة عند مدخل البحر الأحمر الجنوبي بأن رجلاً عسكرياً فرنسياً وصل من السويس أبحر حول «جوبلة» (Gubellah) أكبر جزر الأخوة ويبدو أنه جاء لاكتشافها ثم عاد عن طريق البوغز الكبير- بوغاز بـاب المندب- ثم تقدم باتجاه ميناء عصب الأريتري(٢٢).

وفي هذا المجال نسجل بداية النشاط الفرنسي في شرق أفريقيا منذ عام ١٨٥٦م عندما تلقى الوكيل القنصلي الفرنسي في عدن تعليمات من حكومته للبحث حول إمكانية إنشاء محطة تجارية فرنسية في عدن، فاقترح

العلاقة بين جدة وسواكن
خلال فترة الحكم العثماني

بقلم
الدكتور/ أحمد إبراهيم دياب
جامعة أم درمان الاسلامية

مقدمة

لما كانت الوثائق كمصدر أصيل ومنبع بكر في الدراسات التاريخية على اختلاف أنواعها تحتم على المؤرخ أن يرجع إليها منقّباً وباحثاً وجامعاً ذلك لأن دراسة التاريخ تقوم في الدرجة الأولى كعلم على النقد والتحليل والتفسير لما ورد في الوثائق التاريخية كما فعل مؤرخو الغرب وما زالوا.

على أن حركة تجميع الوثائق وإنشاء دور (الأرشيف) في العالم العربي بدأت تتضح معالمها وصولاً لما وصلت إليه وصيفاتها في العالم الغربي الذي سبق الشرق في هذا الميدان وقطع شوطاً كبيراً حيث اعتبر الوثائق مصدراً أصيلاً للبحث التاريخي كما يجدر بنا أن لا ننسى الدور العظيم الذي قام به الخط العربي منذ أن كان خطاً كوفياً بسيطاً في العهد الأموي إلى أن صار خطاً كوفياً مزدهراً في العصر الفاطمي حيث انقسم إلى قسمين خط المغرب وهو الخط الذي عرف فيما بعد بالخط القيرواني الذي أنسخ منه الخط الأندلسي والخط السوداني «خط تمبكتوا أو الصحراوي» وخط المشرق وهو الخط الكوفي الذي تطور فأصبح فيما بعد يعرف بالخط الفارسي والديواني ولا ننسى أهمية هذا الخط في نشر ودراسة الوثائق العربية في مختلف العصور.









الرسمي متصرف جدة والحبش أو والي أيالة الحبش ومتصرف سنجق جدة أو شيخ الحرم المكي وحاكم الحبش ومتصرف جدة أو والي جدة والملحقات(١٢).

وكانت التجارة مستمرة بين سواكن وجدة وكان التجار في كل من الميناءين وكلاء في الميناء الآخر، بل أن معظم الأسر والعائلات مرتبطة سواء بالمصاهرة أو القربى(١٣). واستمرت سواكن أو السودان الشرقي الممتد حتى مصوع تابعاً لوالي جدة حتى بعد أن دخل الحكم التركي المصري السودان في سنة ١٢٣٥هـ الموافق ١٨٢٠م.

وأغفل الفرمان الذي صدر بتولية محمد علي للسودان. ضم السودان الشرقي إلى الادارة المصرية في السودان مما جعل تلك الادارة تواجه نوعين من المشكلات.

فالنوع الأول من هذه المشكلات يتعلق بالحدود بين حكومة السودان التابعة لوالي مصر وأيالة الحبش «منطقة السودان الشرقي» التابعة لوالي جدة. وأهمية رسم هذه الحدود متصلة بجمع الأموال الأميرية - أي الضرائب- لأن قبائل الرعاة من الهدندوة تسكن الاقليم وترعى الشعب في مراعي مديرية تاكه «منطقة كسلا الحالية» وهي المديرية المستجدة التي أنشأها حكمدار السودان بعد موافقة والي مصر لتدعيم سلطة الحكومة في تلك المناطق. ومعروف أن حياة الرعي تتنافى مع الاستقرار فلأي الجهتين ينبغي أن تدفع الضرائب.

والنوع الثاني من المشكلات يتعلق بالحاجة إلى منفذ بحري تشرف عليه الادارة المصرية في السودان. ولما كانت سواكن أقرب الموانىء إلى

---

(١٢) دار الوثائق القومية بالقلعة: محفظة ٤ بحر برا وثيقة رقم ٨٤ بتاريخ ١١ صفر ١٢٣٢ من محمد نجيب إلى مصر.

(١٣) محمد صالح ضرار: تاريخ السودان - اقليم البجة ص١٢٩.

مديرية تاكه وأنسبها لتصدير غلات السودان الأوسط فقد تطلعت أنظار والي مصر إلى السودان الشرقي أو أيالة الحبش.

ويبدو أن والي مصر أراد أن يتصرف في حل هاتين المشكلتين من تلقاء نفسه فأمر بتحصيل الضرائب من الهدندوة بالقوة وأدعى حكمدار السودان أحمد باشا، أن الجهات الواقعة على ساحل بحر القلزم[١٤] والممتدة إلى مغرب الشمس، واقعة في نطاق إدارة السودان وأن الناحية الأخرى تابعة لولاية جدة، وطُلب إليهم تعيين وكيل عنهم يقيم في بربر ويباشر مصالحهم ويؤدي له الميري الذي يفرض عليهم. ولذلك لجأ أفراد القبيلة إلى سواكن وقدموا التماساً إلى والي جدة يطالبون فيه وضع أراضي سواكن وما جاورها كلها تحت إدارة ولاية جدة. ومن ثم كتب الصدر الأعظم رؤوف باشا إلى والي مصر يطلب منه أن يأمر حكمدار السودان ورجاله بكف يدهم ومنع تداخلهم[١٥].

ورد والي مصر بأنه رجع إلى دفتر البلاد السودانية فوجد القبيلة المذكورة «قوماً مشرّدين ليس لهم ارتباط بأحد الجانبين المذكورين مجردين من قيد الحكومة وليس لهم انضباط بدفع بارة واحدة بإسم الضرائب»[١٦]، ثم

---

(١٤) أطلق هذه التسمية (بحر القلزم) كل من ابن حوقل - صور من الأرض ١٩٣٨ ص٤٤ وناصري خسرو ونفر نامه القاهرة ١٩٤٥، ص٤٥ والادريسي - نزهة المشتاق القاهرة ص٥ والقلقشندي في صبح الأعش ج٣، القاهرة ١٩١٥، ص٢٤١ نسبة إلى مدينة القلزم التي تقع في طرفه الشمالي. أما تسمية البحر الأحمر فمرجعها إلى الاسم القديم بحر الملـ الأحمر ثم اختصر إلى البحر الأحمر.

ولم يطلق المؤرخون والجغرافيون المسلمون هذه التسمية عليه بل سماه الهمداني البحر الكبير وبحر الغزما وسماه الاصطخري بحر فارس هذا بالاضافة إلى بحر القلزم (القوصي ص١٠) مصطفى مسعد المكتبة السودانية العربية - مطبوعات جامعة القاهرة - الخرطوم - ١٩٧٢.

(١٥) دار الوثائق القومية بالقلعة: محفظة رقم ١١٧ وارد عابدين ملف الصدارة بتاريخ ٢٧ جمادي الأول ١٢٥٩هـ من الصدر الأعظم إلى والي مصر.

(١٦) دار الوثائق القومية بالقلعة. دفتر٨ عابدين وثيقة رقم ٢٦٩ بتاريخ ١٩ جمادي الأخر ١٢٥٩ هـ من والي مصر إلى الباب العالي.

يذكر كيف أنه أنشأ مديرية تاكه لتوطيد هيبة الحكومة في تلك الجهات وأكد أن هذه القبيلة من أهالي تاكه ولكنهم يتهربون من الضرائب، ثم يتساءل كيف صدق والي جدة دعواهم بينما هو لم يجمع منهم «بارة» واحدة من قبل، ليريد أن يستغل هيبة الحكومة السودانية فيجمع بإسمها الضرائب أم يريد أن يسخر الجيش المصري في مديرية تاكه لكي يوطد نفوذه[١٧]، ثم أخذ والي مصر بعد ذلك ينتقد الادارة في مرفأي سواكن ومصوع. وكيف أن والي جدة عهد بالادارة في كل منهما إلى «وكيل من ضعاف التجار يتعاطى الرشاوي بإسم الهدية، وأنه لما كانت مصر في ذلك الوقت في أمسّ الحاجةإلى الماشية نظراً للوباء الشديد الذي فتك بالماشية فقد أمر حكمدار السودان أحمد باشا بإرسال ثمانية ألف رأس من الماشية ورد أحمد باشا بأن المواشي متوفرة في مديرية تاكه ولكن إرسالها متعذر عن طريق البر، والتمس إرسالها عن طريق البحر من مينائي سواكن ومصوع[١٨].

وفي نهاية الرسالة إقترح والي مصر على الباب العالي حلًا مناسباً والتمس الموافقة عليه، وهو يتلخص في أن يلحق المينائين بمديرية بربر وجعليين على أن يقوم والي مصر بإدارة جمركي سواكن ومصوع، فيرشح من جانبه لكل منهما أحد الضباط المصريين برتبة «البكباش» ويرسلهما إلى والي جدة فيزود كل منهما بأمر تعيين على أن تصحب كل منهما قوة حربية لا تقل عن خمسمائة جندي وفي ٢٠ صفر ١٢٤٦هـ أوصل المجلس العالي خطاب إلى الديوان الخديوي برقم ٣٨/٢٢/٧٧٠ بصورة إلى محافظ جدة بإرسال التعريفة الجمركية ودفتر الايراد والمنصرف المتعلق بمينائي سواكن ومصوع إلى طرف مأمور بربر والجعليين[١٩].

---

(١٧) دار الوثائق القومية بالقلعة: دفتر٨ عابدين وثيقة رقم ٢٨٥ بتاريخ ١١ شوال ١٢٥٩هـ قائمة إلى الباب العالي.

(١٨) المرجع السابق.

(١٩) دار الوثائق المركزية الخرطوم ملف (Misc IM82/I422 من المجلس العالي إلى الديوان الخديوي برقم ٣٨/٦٢/٧٧٠. بتاريخ ٢٠ صفر ١٣٤٦هـ.

وذلك حسب رأيهم لقرب سواكن من منطقة الجعليين ومركز بربر أكثر من جدة، كما أن على آغا مأمور مركز بربر قد تعهد بتدبير إيراد سنوي قدره خمسة الف كيس، كما جاء في الخطاب المرسل من مأمور ديوان الخديوي إلى علي آغا مأمور بربر والجعليين ورشوان بك محافظ جدة بتاريخ ٢٤ صفر ١٢٤٦هـ برقم ٣٤٠/١٤١/٧٦٩[٢٠]. وكانت موافقة الباب العالي مبنية على أن يقوم والي مصر بإدارة جمرك سواكن ومصوع ويرشح كما سبق وذكرت من جانبه ضابطاً ويرسله إلى والي جدة الذي يعينه ويرده بقوة حربية من عنده حسب ما جاء في القرار رقم ١٦٦/١٥٦ بتاريخ ١٤ رجب ١٢٥٣هـ الصادر من مجلس جدة. وكانت شروط الباب العالي كالآتي: [٢١]

أولاً: يقدم والي مصر لوالي جدة إيراد الجمرك السنوي بحيث لا يقل عن ١٥٠٪ مائة وخمسين في المائة من إيراد الجمرك الراهن وذلك حسب الخطاب رقم ٣٨/٢٢/٧٧٠ بتاريخ ٢٠ صفر ١٢٤٦هـ من المجلس العالي إلى الديوان الخديوي وصورة نفس الخطاب إلى محافظ جدة، والخطاب رقم ٣٤٠/١٤١/٧٦٩ بتاريخ ٢٤ صفر ١٢٤٦هـ من مأمور ديوان الخديوي إلى علي آغا مأمور بربر وجعليين ورشوان بك محافظ جدة.

ثانياً: على والي مصر أن يضمن استمرار النشاط التجاري في المنطقة وأن يلاحظ إرسال المواشي بانتظام لجدة حسب الخطاب رقم ٦٧/- /٤٧٠ بتاريخ ٤ رمضان ١٢٥١هـ من الجناب العالي إلى عسكر الحجاز.

ثالثاً: تمد سواكن بالقوة الحربية اللازمة في حالة الحاجة إليها لاقرار الأمن في الحجاز كما جاء في الخطاب رقم ٦٧/- /٩١٤ سنة ١٢٥١هـ من

---

(٢٠) دار الوثائق المركزية الخرطوم ملف (Misc I/89/I422) من ديوان الخديوي إلى مأمور بربر ومحافظ جدة.

(٢١) دار الوثائق القومية بالقلعة: دفتر٨ عابدين وثيقة رقم ٦٩٨ بتاريخ ١٩ رمضان ١٢٥٢هـ رسالة من والي مصر إلى القبو كتخدا.

الجناب العالي إلى وكيل ناظر الجهادية. والخطاب رقم ٦٧/- /٢٨٨ سنة ١٢٥١هـ من الجناب العالي إلى وكيل ناظر الجهادية، والخطاب رقم ٦٧/- /٣٣٨ بتاريخ ١٥ شعبان ١٢٥١هـ من الجناب العالي إلى وكيل ناظر الجهادية، والخطاب رقم ٦٧/- /٨٥٣ بتاريخ ٢٥ رمضان ١٢٥١هـ من الجناب العالي إلى حكمدار السودان، والخطاب رقم ٧٧/- /١٤٧ بتاريخ ٢٣ ربيع ثان ١٢٥٢هـ من الجناب العالي إلى وكيل ناظر الجهادية. وكل هذه الخطابات بخصوص إرسال جنود من السودان إلى جدة لحفظ الأمن في الحجاز[٢٢].

وفي رسالة أخرى كرر والي مصر التماسه واقتراحه الخاص بضم سواكن ومصوع وختم رسالته بقوله «وهكذا فان مرادي من طلب الحاق المينائين المذكورين ليس بقصد استغلالهما أو لأجل الانتفاع بهما في التجارة بأي ضرب من ضروبها وانما لأجل المحافظة على ولائي واخلاصي للدولة ومن اعتداءات العرب الطائشين[٢٣].

وازاء قوة الحجة التي أدلى بها والي مصر فقد وافق السلطان «الباب العالي» على الاقتراح الخاص باحالة ادارة مينائي سواكن ومصوع إلى الجانب المصري على النحو السابق. وبالفعل أرسل والي مصر يخبر والي جده بهذه الموافقة وبأنه عين البكباش حقي أفندي مديراً لمصوع ومحمد أمين افندي مديراً لسواكن وطلب اليه تزويدهما بأمر التعين والعمل على تيسير وصولهما إلى مقر عملهما[٢٤].

غير أن أحوال السودان الشرقي لم تستمر على هذا الوضع بعد وفاة

---

(٢٢) الخطابات المشار إليها بدار الوثائق المركزية بالخرطوم تحت رقم. Miso I/89 & Misc I/90.

(٢٣) دار الوثائق بالقلعة: دفتر ١٠ عابدين وثيقة رقم ٦٤٢ رقم بتاريخ ١١ ذي الحجة ١٢٦٢هـ رسالة أمن والي مصر إلى والي جدة.

(٢٤) المرجع السابق الرسالة نفسها.

والي مصر محمد علي باشا في ١٢٦٤هـ، إذ عادت الأمور فيها يختص بهذا القسم من السودان فيها بين عامي ١٢٦٥هـ - ١٢٨٢هـ إلى الوضع الذي كانت عليه قبل إلحاقه بالادارة المصرية. فقد رأى عباس والي مصر أن تكف الحكومة المصرية يدها عن ادارة هذين الميناثين ابتداء من المحرم ١٢٦٥[٢٥]. وان كان سعيد قد فكر في استعادة الميناثين عندما كون الشركة المجيدية للملاحة في البحر الأحمر ويبدو أن وجهة النظر التي أبداها والي مصر في احدى رسائله إلى الباب العالي ومؤداها أن والى جده يريد استغلال هيبة الحكومة المصرية والادارة المصرية في السودان لمصلحة ولايته صحيحة، لأن والي جده بعد أن أرجعت إليه ادارة سواكن ومصوع أرسل يرجو والي مصر الجديد عباس باشا أن يأمر ببقاء الأميرالاي خليل بك الذي كان مرشحاً من قبل والي مصر «ومعيناً من قبل والي جده» ومعه الأورطة المصرية بدعوى أن الجنود المصرية تعتبر من الجنود السلطانية كما أن السواحل المشار إليها من البلاد المحروسة الشاهانية[٢٦] غير أن والي مصر صمم على استرداد الأورطة المصرية وقائدها وأصر على ضرورة انسحابها إلى مديرية تاكه[٢٧]. وخوفاً من أن تتكرر مشاكل الحدود بين سواكن مديرية تاكه، كما كان حادثاً قبل ضم سواكن للادارة المصرية، فقد عمل والي مصر من جانبه على جعل الأمور واضحة لا لبس فيها ولذلك أمر مدير مديرية تاكه أن يتوجه إلى سواكن حيث اجتمع بالقاضي والمفتي ووجوه البلد ومشائخ العربان وأصحاب الخبرة وقاموا بتحديد الحدود وذلك حسب ما جاء في خطاب مندوب والي مصر إلى الوالي في ١١ شعبان ١٢٦٦هـ حيث قال:

«ووافق على ذلك وجوه البلد ومشايخ العربان، ووضعوا أختامهم

(٢٥) دار الوثائق القومية بالقلعة: الدفتر الأول ص١٢٠٧ بتاريخ ١٤ المحرم سنة ١٣٦٥هـ من ارادة سنية إلى جمرك سواكن.

(٢٦) المرجع السابق محفظة رقم ٢٣: عابدين بتاريخ ١٥ ربيع الأول ١٢٦٥ هـ من محمد حسيب والي جدة إلى والي مصر.

(٢٧) المرجع السابق رسالة بتاريخ ١٥جماد الآخرة١٢٦٥هـ منوالي مصر إلىحسيب والي جده.

على ذلك القرار الخاص بالحدود»[٢٨].

ولعلنا نتساءل عن العوامل التي دفعت عباس إلى التخلي عن ادارة سواكن ومصوع «شرق السودان» وهذه العوامل مع أنها تحتاج إلى دراسة وثائقية كاملة متكاملة لموضوع العلاقة بين سواكن وجده ولكن يمكن الاشارة إليها: وهي تبدو واضحة إذا تبينا اتجاهات الوالي الجديد الذي كان يشعر أن مصر، التي أنهكتها حروب محمد على التوسعية من أجل اقامة امبراطورية، في حاجة إلى الهدوء والاستقرار، وأن سياسة التوسع التي تتطلب المصروفات الباهظة ينبغي أن تتوقف لتحل محلها سياسة تقوم على الاقتصاد في المنصرفات والابتعاد عن المشكلات السياسية والحربية. فتخليه عن سواكن ومصوع كان نتيجة لادراكه مدى قدرة مصر على تحمل أعباء الحكم والادارة في هذه المناطق الشاسعة مع بعدها من عاصمتي مصر والسودان، كما كان يخشى أن يؤدي احتفاظه بهما إلى الاحتكاك بالحبشة.

والواقع أن وجود الادارة المصرية في السودان الشرقي خلق مجالا للاحتكاك بين مصر والحبشة. ونظراً لأن المنطقة التي تفصل بينهما يسكنها رعاة رحل فقد أدى ذلك إلى تعدد مشكلات الحدود بين البلدين[٢٩].

وحدثت أحداث تاريخية في الفترة بين سنتي ١٢٦٥ و١٢٨١هـ أدت إلى أن يطلب والي مصر من الباب العالي ان يعيد الحاق سواكن ومصوع للحكومة السنية المصرية. وقد صدر فرمان على شرط أن يدفع والي مصر لوالي جدة مبلغاً سنوياً قدره ٧٥٠٠ كيس وذلك كما جاء في الخطابات الآتية الموجودة صورة منها بدار الوثائق المركزية بالخرطوم[٣٠].

---

(٢٨) المرجع السابق رقم ١٢٩ عابدين بتاريخ ١١ شعبان ١٢٦٦هـ من محمد سرجاوش مندوب الوالي إلى والي مصر.

(٢٩) لدراسة مشاكل الحدود بين الحبشة ولادارة المصرية في السودان في هذه الفترة يمكن الرجوع إلى الملفات رقم: Misc. I/89/I43I Misc. I/90/I432, Misc. I/90/I436، بدار الوثائق المركزية بالخرطوم.

(٣٠) دار الوثائق المركزية الخرطوم = وثائق من دار الوثائق القومية بالقلعة تحت رقم Misc ١/٨٩ من رقم ١٤١٧ إلى ١٤٣١ وتحت Misc I/90 من رقم ١٤٣٢ إلى ١٤٤٢.

رقم الخطاب	تاريخه	من	إلى	موضوعه
١٣٣/٢١/٥٢٣	٤/شوال ١٢٨١	المعية	على جودة بك المعين لمأمورية بمكة المكرمة	يتفاوض مع والي جدة حول ميناء سواكن ومصوع.
١٣١/٧١/٥٣٧	٢٤ محرم ١٢٨٢	أمر كريم	ممتاز بك المعين محافظ سواكن	يوضح فيه انشاء محافظة لسواكن ومثلها لمصوع والحاقهما بمصر وتعيينه محافظاً لسواكن.
١/٥٨/٥٣٨	٢٤ محرم ١٢٨٢	أمر كريم	جعفر باشا مدير قنا سابقاًوالمعين حكمدارا لكردفان ودنقلة وبربر	يوضح تقسيم السودان إلى ثلاث مناطق الأولى تاكه وسواكن ومصوع وملحقاتها.
١٣٠/٧١/٥٣٧	٢٤ محرم ١٢٨٢	أمر كريم	جعفر باشا وكيل حمكدارية السودان	يتضمن تعين جعفر باشا وكيلاً لحكمدارية السودان وارساله إلى جدة لاستلام سواكن ومصوع بعد مقابلة والي جدة.

رقم الخطاب	تاريخه	من	إلى	موضوعه
١٣٢/٧١/٥٣٧	٢٤ محرم ١٢٨٢	أمر كريم	حسن بك محافظ مصوع	يفيده بالحاق سواكن ومصوع لادارة السودان وبتعيينه محافظاً لمصوع ويخبره بذهاب وكيل الحمكدارية إلى جده لاستلام سواكن ومصوع.
٣٢٠/٥٥/٥٥٣	١٩ صفر ١٢٨٢	شريف باشا	حكمدار السودان	يخبرهما بصدور فرمان بترك مرفأي مصوع وسواكن للحكومة المصرية.
٣١٦/٥٤/٥٥٣	١٩ صفر ١٢٨٢	« «	ناظر المالية	
٣٣٥/٥٨/٥٥٣	٢٦ صفر ١٢٨٢	شريف باشا	وكيل حكمدارية السودان	عبارة عن صورة المكاتبة الصادارة إلى والى الحجاز وشيخ الحرمين الشريفين بشأن تعيينه لمهمة تسلم مرفأي مصوع وسواكن.
٣٣٤/٥٨/٥٥٣	٢٦ صفر ١٢٨٢	شريف باشا	ناظر المالية	يخبره فيها بترك مرفأي سواكن ومصوع للحكومة المصرية بشروط وبدلات، والبدلات هي ٧٥٠٠ كيس

رقم الخطاب	تاريخه	من	الى	موضوعه
				تدفع لخزينة والى الحجاز وشيخ الحرمين الشريفين وحدد في الخطاب الشهور التي تدفع فيها وطريقة الدفع والحساب الجاري بينهما.
٣٥١/٦١/٥٥٣	٤ربيع أول ١٢٨٢	شريف باشا	ناظر المالية	يطلب منه تجهيز كتبه ودفاتر للوكيل العام لحكمدارية السودان الذي يسافر إلى جده ومكة والطائف للمداولة في أمر تسليم مصوع وسواكن من والي الحجاز.
٣٥٥/٦٢/٥٥٣	٤ ربيع أول ١٢٨٢	شريف باشا	ناظر الشركة العزيزية.	يطلب منه تجهيز باخرة من السويس لجده ومنها لسواكن ومصوع لنقل جعفر باشا وكيل حمكدارية السودان وموظفيه ليتسلم مرفأي سواكن ومصوع من الحجاز.

رقم الخطاب	تاريخه	من	إلى	موضوعه
٣٥٢/٦١/٥٥٣	٤ ربيع الأول ١٢٨٢	شريف باشا	ناظر المالية	يوصى بصرف مبلغ لوكيل حمكدارية السودان كبدل سفرية في سفريته لجده ومكة
٨/٨٠/٥٣٧	٢٨ ربيع أول ١٢٨٢	أمر كريم	حمكدار السودان	يوضح فيه صدور أمر إلى إسماعيل صادق بك بالحجاز لارسال مساعدات عسكرية للسوادن إذا طلبها منه الحمكدار.
٣٢/٥٦/٥٥٨	٢٨ جماد آخر ١٢٨٢	أمر كريم	وكيل حمكدار السودان	يأمره فيه بأن يسير وابورات بين مينائي سواكن وجده كل اسبوعين.

نتائج البحث

لا تزال العلاقات بين الدول المختلفة وخاصة ما ارتبط منها بحكم الجوار تشغل حيزاً كبيراً من اهتمام الباحثين. وأن العلاقة بين جدة وسواكن التي كانت تعتبر من مدن الحرمين الشريفين علاقة أزلية أثبتتها كتب الرحالة العرب وغيرهم ممن زاروا منطقة البحر الأحمر منذ فجر الاسلام.

أما عن أثر العلاقة بين سواكن وجدة فهو ظاهر في تلك الآثار الاسلامية التي تأثرت بها المدينة السودانية إلى درجة أن - طابعها مطابق لجدة في

كل شيء من حيث المباني والحارات والطرق المعيشة، ويظهر هذا في الصور القديمة لكل من المدينتين. وربما استطاع دارسو فن العمارة الاسلامية أن يخرجوا بدراسة تؤكد عمق العلاقة من ناحية الآثار الاسلامية وارتباطها في كل.

وكذلك نجد الأسر مقسمة بين سواكن وجدة أي أن العلاقات الأسرية مرتبطة مترابطة وكذلك العلاقات التجارية لأن جدة في فترة الحكم العثماني (١٥٣١ - ١٩١٥) كانت المركز السياسي والاداري والتجاري وكان لتجار جده وكلاء وفي معظم الأحيان أبناء في سواكن لرعاية مصالحهم التجارية.

أما من حيث وثائق هذه الدراسة فان الموجود منها في دار - الوثائق المركزية بالخرطوم فهو جزء من وثائق السودان في عهد الحكم التركي والادارة المصرية وهي ضمن مجموعة Mise وتحمل رقمي ١/٨٩ و١/٩٠ وتبدأ الأرقام المسلسلة ١٤١٧ إلى ١٤٤٢ وهذه الوثائق الخاصة بالمراسلات بين ادارة السودان ووالي مصر. وكذلك نجد في دار الوثائق ملفات مجموعة بور للسدوان رقم٢ وهي أوراق قلم المخابرات في سواكن في الفترة التي ضمت فيها السودان وهي فترة لا تدخل في مجال الدراسة ولكنها مهمة لدراسة تاريخ الجزيرة العربية لأن هذه المجموعة فيها تقارير المخابرات والمراسلات بين القنصلية البريطانية في جدة وسواكن وتمتد فترتها من ١٨٨٥ إلى ١٩٣٩. وتعالج بعض ملفات مجموعة بور سودان التجارة وغيرها من المشاكل والأحوال بين جدة وسواكن وسواحل البحر الأحمر حتى عدن وجزره مثل كمران وفرسان.

أما وثائق القاهرة فهي عبارة عن المراسلات الخاصة بشئون السودان في فترة الحكم التركي والادارة المصرية والمراسلات بين والي جدة ووالي مصر بخصوص ضم سواكن ومصوع للادارة المصرية والتي جاء ذكرها في

هوامش البحث وكذلك المراسلات بين والي مصر والاستانة بخصوص نفس الموضوع.

وفي رأيي أن أهم وثائق لهذه الدراسة أو لأي باحث يود أن يقدم بحثاً أكاديمياً عن هذا الموضوع، هي الوثائق التركية وأقصد بها المراسلات بين والي جدة وملحقاتها منذ سنة ١٥٣١ حتى سنة ١٨٦٥ والموجودة حالياً في تركيا ومعظمها باللغة التركية المتكوبة بالحروف العربية.

ومن الوثائق المهمة أيضاً الوثائق الموجودة في مركز المحفوظات العامة - لندن PUBLIC RECORD OFFICE وهي تشمل الفترة من ١٨٢٠ حتى ١٩٣٤ وما بعدها.

دار الوثائق المركزية، الخرطوم مرجع رقم Mise I/89/I429-52

١٢٨٢ ٢٦ صفر، شريف باشا ناظر المالية، ٣٣٤/٥٨/٥٥٣

انه من المعلوم أن مرفأي سواكن ومصوع وملحقاتها قد تركا للحكومة المصرية السنية بالشروط والبدلات المعروفة وأنه قد وردت مكاتبة من والي الحجاز ووجيهي باشا شيخ الحرمين الشريفين رداً على الافادة الصادرة إليهما من الحضرة الفخيمية تفيد أن بدلات المرفأى المنوه عنهما هي ٧٥٠٠ كيس تدفع إلى خزينة الحجاز في أشهر حزيران وأيلول وكانوني ثاني من كل سنة بواقع ٢٥٠٠ كيس في الشهر وحيث أن هناك بين كل من خزينة مصر وخزينة الحجاز «حساب جاري» بسبب الذخائر التي ترسل إلى الحجاز والارساليات الأخرى فقد كتب لوالي الحجاز بشأن قبول فكرة خصم المبلغ المذكور من ارساليات مصر للحجاز وإذا لم تف هذه الارساليات بالمبلغ كله يسدد حينئذ نقداً.

دار الوثائق المركزية - الخرطوم - مرجع رقم Mise I/89/1426-I52

١٢٥٣ ١٤ رجب قرار صادر من مجلس جدة ١٥٦/ - /١٦٦

بالموافقة على تعيين حسن أفندي محافظ مصوع محافظاً لمحافظة مخا وأميناً لجمركها وإحالة إدارة محافظة مصوع إلى عهدته ووكيلها وتعين عبد الله أفندي كاتب مجلس جدة محافظاً لبندر تعز وتعين على افندي مترجم المجلس وكيل كاتب مع إبقائه في خدمة الترجمة.

صدر أمر عال بتاريخ٥ رجب ١٢٥٣ إلى محافظ جدة بتعين حسن أفندي المذكور أميناً لجمرك مخا فقط حيث أن صالح أغا تعين محافظاً لمحافظة مخا.

دار الوثائق المركزية الخرطوم مرجع رقم Misc I/89/I422

١٢٤٦ ٢٠ صفر المجلس العالي الديوان الخديوي ٧٧٠/ ٢٢/ ٣٨.

خلاصته بأن يبلغ علي آغا مأمور بربر والجعليين موافقة المجلس على إلحاق ميناء سواكن وجمركها إلى عهدته ويطلب من محافظ جدة إرسال تعريفة جمرك الميناء المذكور ودفاتر إيرادها ومصروفها المتعلق بالعام السابق إلى طرف الأغا المشار إليه وأن يكلف الأغا المشار إليه بوضع قائمة مفصلة ببيان تعريفة الجمرك وسائر الترتيبات التي يقصد العمل بها لأجل الحصول على إيراد مبلغ ألف وخمسمائة كيس نقدية حسب زعمه ويرسلها إلى هذا الجانب بغاية السرعة لقيدها في دفاتر الخزينة وأنه إذا رأى لزوم اقامة القائمقام حسين أفندي المعين من طرف محافظ جدة لادارة الميناء المذكور

فيقيله ويعين آخر بدلاً عنه ولذا وجد القائمقام المذكور كفء الخدمة اخرى فيعينه ولا يستغني عنه بالكلية.

الشرح الوارد بأعلاه:
إلى محافظ جدة
بارسال التعريفة ودفتر الايراد والمصروف المتعلقين بميناء سواكن إلى طرف مأمور بربر والجعليين.

صورة منه إلى مأمور بربر والجعليين باجراء حكم خلاصة المجلس.

دار الوثائق المركزية - الخرطوم - مرجع رقم: Misc I/90/I436-

١٢٨١/٢١ ذو القعدة أمر كريم حكمدار السودان ٥٣٧/ ٤٩/ ١٥

يفيد بورود إفادة من دولة والي الحجاز وشيخ الحرمين المحترمين تدل على أن علي أفندي يوزباشي العساكر المرسلة لتحصيل الاموال المقررة من العربان بجهة سواكن اعتدى على العربان الطائعة بحيث اعدم بضعة أشخاص ونهب أغنامهم ثم إن العساكر التي بمعيته قائمين بالاعمال المؤذية نحو أهالي سواكن. فحيث أن هذه الأمور لا ترضي سمو الخديوي فإذا كان حدث شيء من ذلك يجب منعه مع اجراء التحقيق بشأن الذين يتجاسرون على قتل النفوس وغصب الأموال وبيان الحقيقة بسرعة.

(*) هناك نسخة أخرى من هذا الأمر معنون إلى مدير تاكه بتاريخ ٢٢ ذو القعدة ١٢٨١ رقم ٥٣٧/٥٣/١٠٤.

دار الوثائق المركزية - الخرطوم مرجع رقم: Misc I/89/I422

١٢٤٦ ٢٤ صفر - مأمور ديوان الخديوي إلى علي أغا مأمور بربر وجعليين ورشوان بك محافظ جدة - ٧٦٩/ ١٤٦/ ٣٤٠

ان علي رشوان بك الموصى إليه أن يتولى عن إدارة جمرك سواكن لعلي أغا مأمور بربر - جعليين - الموصى إليه لقرب سواكن من بربر وجاعليين (جعليين) أكثر من جدة ونظراً لأن على اغا المذكور قد تعهد بتدبير إيراد سنوي قدره خمسة آلاف كيس من النقود من الجمرك المذكور في حالة اسناد ادارته إلى عهدته وأن يرسل له كذلك دفتر إيراد ومصروف وتعرفه ذلك الجمرك عن العام الماضي وأن على علي أغا الموصى إليه كذلك أن يدير الجمرك المذكور حسب تعهده ويستبقي القائمقام حسين أفندي المأمور المعين بذلك الجمرك من قبل المحافظ الموصى إليه إذا كان يرى فائدة ما لاستبقائه في وظيفته وان يرسل كذلك إلى الخزينة كشفاً ببيان التعريفة الجديدة التي سيحصل بها الرسوم وبياناً بكل ما يتعلق بالترتيب الجديد الذي سيدير به ذلك الجمرك طبقاً لقرار مجلس الملكية الصادر في ٢٢ صفر ١٢٤٦ بشأن ما تقدم.

المراجع

المصادر:

مصادر ومراجع العلاقة بين جدة وسواكن في التاريخ الحديث.

(أ) من دار الوثائق المركزية الخرطوم: تشتمل دار الوثائق على كثير من الوثائق التي تخص تاريخ الجزيرة العربية الحديث والمعاصر ففيها:

١ - الوثائق الخاصة بالمراسلات بين حكمدارية السودان أثناء الادارة المصرية في السودان وبين والي مصر وبعض المكاتبات بين والي مصر ووالي الحجاز وهي عبارة عن ٢٦ كراسة تحت رقم: (Misc I/89/ & Misc. I/90) وتبدأ من رقم ١٤٢٧ إلى ١٤٤٢.

٢ - أوراق وكلة السودان بالقاهرة وفيها جزء خاص عن السياسة البريطانية في بلاد العرب.

٣ - مجموعة بور سودان ورقمها٢ وتشتمل على ٢١٦ ملف موزعة على ٣٥ صندوقاً - يختص الصندوق رقم١ التجارة المحرمة بين سواكن وجدة في الفترة بين ١٨٨٥ - ١٨٩٤. ويختص الصندوق رقم٥ بالحدود والسواحل وتقرير لمدير الأمن عن الحجاج سنة ١٩٢٦ وصندوق رقم٦ به تقارير عن تجارة الرق بين الساحلين أما الصناديق من ١٢ حتى ٣٣ فانها تهتم بفترة الحرب العالمية الأولى من ١٩١٤ حتى ١٩١٨ والدفاع عن البحر الأحمر.

والصندوق رقم ٣٤ به ملفات ٢٠٣ و ٢٠٤ بهما مراسلات بين القنصل البريطاني في جدة ومدير بور سودان وأجهزة الأمن عن أحوال الحجاز بعد الحرب العالمية الأولى حتى سنة ١٩٣٦ وانتصار جيوش عبد العزيز آل سعود.

والملف رقم ٢٠٥ يتناول الحديث عن اليمن والمراسلات بين المخابرات البريطانية في عدن وبور سودان وتقارير الأمن.

أما الصندوق رقم ٣٥ ففيه ١١ ملفاً يتناول تقارير جزر البحر الأحمر مثل فرسان وكمران.

(ب) **من دار الوثائق القومية بالقلعة:** وهي تشتمل المراسلات بين الصدر الأعظم في الاستانة ووالي مصر ومن الباب العالي إلى والي مصر ومن والي مصر إلى الباب العالي وإلى الصدر الأعظم وكذلك من والي مصر إلى والي جدة وإلى محافظ أو أمين جمرك سواكن ومن والي جدة إلى والي مصر. مثل:

١ - محفظة رقم ١١٧ - ٢٧ جماد الأول ١٢٥٩ من الصدر الأعظم إلى والي مصر.

٢ - محفظة رقم ١٢٣ - ١٥ ربيع الأول ١٢٦٥ من محمد حبيب والي جدة إلى والي مصر.

٣ - رسالة بتاريخ ١٥ جماد الآخرة ١٢٦٥ من والي مصر إلى حسيب والي جدة.

٤ - دفتر٨ وثيقة رقم ٢٨٥ - ١١ شوال ١٢٥٩ قائمة إلى الباب العالي.

٥ - دفتر٨ وثيقة رقم ٢٦٩ - ١٩ جماد الآخر ١٢٥٩ من والي مصر إلى الباب العالي.

وهذه الوثائق تنقسم إلى الأنواع الآتية:

١ - دفاتر عابدين ٢ - محافظ عابدين ٣ - دفاتر معية تركية. ٤ - محافظ معية تركية ٥ - دفاتر معية عربي ٦ - محافظ بحربرا ٧ - دفاتر صادر ديوان الكتخذا ٨ - دفاتر صادر ديوان المعية. ٩ - محافظ أوامر الجهادية ١٠ - دفتر معاونة إيرادات.

(ج) وثائق دار المحفوظات البريطانية - لندن وهي تشمل الآتي:

I - F.O.686-JEDDA AGENCY PAPERS I913-25.

2 - F.O.882-ARAB BUREAU PAPERS.

3 - F.O. 685«EMBASSY AND CONSULAR ARCHIVES TURKEY JEDDA -1856-1914.

4- F.O.905«SAUDI ARABIA» 1914-1934.

5 - p.r.o. 30/57- KITCHENER PAPERS I877-I959 GOVERNOR GENERAL OF EASTERN SUDAN I886-I888.

وكذلك: محفوظات، وزارة الخارجية الأمريكية التي تبدأ في عام ١٨٣٣ وتقع في ثلاث مجلدات بالآلة الكاتبة. ومحفوظات وزارة الخارجية الفرنسية المراسلات السياسية ومحفوظات وزارة الخارجية النمساوية.

ولعل أهم من هذه كلها الوثائق التركية وأقصد بها المراسلات بين والي جدة وملحقاتها سواكن ومصوع ١٥٣١ حتى ١٨٦٦ ومعظم هذه الوثائق باللغة التركية القديمة المكتوبة بالحروف العربية.

* * *

المراجع العربية:

(١) الرافعي عبد الرحمن: تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر ج٣ القاهرة ١٩٣٠.

(٢) الشامي صلاح الدين: الموانىء السودانية، القاهرة ١٩٦٣.

(٣) القوصي، عطية: تجارة مصر في البحر الأحمر من فجر الاسلام حتى سقوط الخلافة العباسية - القاهرة ١٩٧٦.

(٤) رمضان، محمد رفعت: وضع السودان في نطاق العلاقات بين مصر والدولة العثمانية حتى ١٨٦٣ - مارس ١٩٥٥.

(٥) حسن عثمان: منهج البحث التاريخي - القاهرة ١٩٦٥.
(٦) شقير، نعوم: تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته ٣ أجزاء - القاهرة ١٩٠٣.
(٧) شكري، فؤاد: الحكم المصري في السودان.
(٨) شكري، فؤاد: مصر والسيادة على السودان القاهرة ١٩٤٦.
(٩) صبري، محمد: الأمبراطورية السودانية في القرن التاسع عشر - القاهرة ١٩٤٨.
(١٠) ضرار، محمد صالح: تاريخ السودان البحر الأحمر - اقليم البجة بيروت ١٩٦٥.
(١١) مسعد، مصطفى: الاسلام والنوبة - القاهرة ١٩٦٠.
(١٢) مسعد، مصطفى: المكتبة السودانية العربية - مطبوعات جامعة القاهرة الخرطوم - ١٩٧٢.
(١٣) محمد عوض محمد: السودان الشمالي سكانه وقبائله - القاهرة ١٩٥١.

* * *

(أ) وثائق منشورة:

(١) تقويم النيل لأمين سامي جزء٢ الطبعة الأولى مطبعة دار الكتب سنة ١٩٢٨.
(٢) مجموعة الفرمانات الشاهانية الصادرة إلى ولاة مصر وخديوها من ١٠٠٦هـ إلى ١٣٢٢هـ (١٥٩٧ - ١٩٠٤) في سبعة أجزاء وملحق - القاهرة ١٩٣٣.

* * *

المراجع الأفرنجية:

SNR004Sudan Notes & Records
(I) Bloss, J,F,E.: The story of Suakin,; SNR, No, I9-I936 PP. 27I-300.
(2)Burchhardit,J,L.: Travels in Nubat, London I8I9.
(3) Cooke,B.K.: The Red Sea Coast, I540, SNR No. I6,I939, PP. I5I-9.
(4) Combe, E.T.: Four Arabic inscriptions from the red sea, SRR, No.B. part2, I930.
(5) Crowfoot,J,W,: Some Red Sea Ports in the Anglo-Egyption Sudan; Geographical Journal vol. 37, I9II.
(6)Hassan, Y.F.: The Arabs and the Sudan, Edinburgh I966
(7) Heyd: Histoire due commerce, Leipzig I923.
(8) Hill, R.: Egypt in the Sudan I8 20-I88I-London I959.
(9) Hill, R.: Sudan Transport, London I965.
(10) Mecmichael H.A: A history of the Arabian in the Sudan 2 Vols. Cambridge I922.
(11) Nahoum: Recueil de Firmans Imperiaux Ottlomans. Adresses aux Valiset Aux Khedives D'Egypte.
(12) Neiobold: The crusaders in the sudan sea and the Sudan, SNR NO. 26. parts2 1945.
(13) Mathews, D.H.: The red sea style, Kushi-1953.
(14) Paul, A.: Aidhab, A Medieval Red Sea Port, SNR, No. 36. I955.
(15) Paul, A.: A history of the Beja Tribes of the Sudan, Cambridge I954.
(16) Stwart, D. H.: Report on the Soudan, London I883.
(17) War Office: Report of the Egyptian provinces of the Sudan Red Sea and Equator. London I884.
(18) Wulde, A,B.: Modern Abyssinia-London I90I.

«الأمة العربية في مسارها التاريخي»

الدكتور/ ابراهيم خليل أحمد
مدرس في كلية التربية – جامعة الموصل

توطئة:

تتناول هذه الدراسة الموجزة تاريخ الامة العربية بصورته العامة الشمولية منذ أن وجد العرب في التاريخ وحتى أربعينات القرن الحالي. وعلى الرغم من أن أقدم إشارة تاريخية مدونة وردت فيها كلمة «عرب» والتي تدل على ساكن البادية يعود تاريخها فقط إلى سنة ٨٥٣ قبل الميلاد[١]، إلا أن تعبير عرب وعروبة أصبح يستخدم للاشارة للتمايز العام لمجموعة بشرية بعينها عن غيرها من المجموعات. وهو تعبير حضاري - ثقافي ولغوي أساساً يشكل الطابع المميز لمنطقة شاسعة ممتدة من شواطىء المحيط الأطلسي حتى الخليج العربي[٢]. ومع أننا لا نود الدخول في تفاصيل الإجابة على أسئلة تتعلق بأصل كلمة عرب أو عربي، لكن ينبغي

---

(١) وردت أول إشارة صريحة للفظة العرب في نقش الملك الآشوري شلمناصر الثالث ٧٤٢ - ٧٢٧ق.م. ويلاحظ أن هذه التسمية جاءت مقرونة مع الجمل والصحراء. للتفاصيل أنظر: د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ص١، (بيروت، ١٩٧٦)، ص١٦ - ٣٦.

(٢) نزيه أبو نضال، مدخل نحو قراءة مادية للتاريخ العربي، مجلة قضايا عربية، السنة (٦) العدد (١)، كانون الثاني - نيسان ١٩٧٩، ص٧١.

أن نقرر حقيقة أساسية وهي أن الأمة العربية، امة متجانسة الأفراد لغة وحضارة وتاريخاً، وهي تسكن أرضاً ذات امتداد جغرافي واحد متصل ومتكامل في الوقت نفسه وهي ذات آمال والآم مشتركة وأهداف موحدة ونضال في سبيل غايات متفق عليها[٣].

تمتلك الأمة العربية مزايا عديدة ضمن المجموعات البشرية التي تعيش معها. فهي امة عريقة في الحضارة، وحضارتها في تجدد مستمر وتاريخها الذي يتمثل في مجموعه تأثير البيئة وطبيعتها ودورها في تحديد خصائص الوطن العربي الجوهرية والاحتياجات المتطورة من اقتصادية وسياسية وفكرية واجتماعية، هو على كل حال تاريخ متطور[٤]. لذلك يكتسب الوعي بتاريخ امتنا العربية المتماسك أهمية استثنائية لأنه مقوّم عظيم من مقومات القومية العربية في العصر الحديث، وعامل موحد للعرب في رقعتها الجغرافية المتميزة. والأمة التي تشعر بوحدتها وقوة تماسكها في الماضي تشعر بضرورة وحدتها وقوة تماسكها في الحاضر والمستقبل وهذا بحد ذاته يساعد الامة في مقاومة التحديات التي تواجهها من كل صوب[٥].

إن من أبرز الحقائق الأكيدة في التاريخ العربي، أن الوطن وفكرة الوطن لم تكن معنىً مجرداً، بل انها الواقع، بكل مقتضاياته ومكوناته. فأرض العرب هي تلك التي كانت مجالاً لانسياحهم المختلف عبر التاريخ، ذلك الانسياح الذي تفرضه إمكانات الحياة الاقتصادية والذي تفرضه إمكانات الحياة والبيئة التي تسمح بها طبيعة التضاريس والواقع الجغرافي[٦].

---

(٣) ابراهيم بيضون وسهيل زكار، تاريخ العرب السياسي من فجر الاسلام حتى سقوط بغداد، (بيروت، ١٩٧٤)، ط٢، ص١٠.

(٤) سلسلة وحدة حرية اشتراكية، البعث العربي ضرورة تاريخية، (بيروت، لا.ت) ص٧ وسنشير إليه «البعث ضرورة تاريخية».

(٥) انظر ما دار في ندوة القاهرة في كانون الثاني ١٩٧٩ وموضوعها «نحو رؤية جديدة لتاريخ العرب الحديث» مجلة المستقبل العربي، السنة (٢) العدد (٥)، ١٩٧٩، ص١٦٩.

(٦) البعث ضرورة تاريخية، ص٦.

أقام العرب حضارات مزدهرة ما تزال آثارها قائمة حتى اليوم وهي تشهد مدى التقدم الحضاري والعلمي والادبي الذي بلغته الامة العربية. ومما ساعدهم على إقامة تلك الحضارات، تميز أرضهم أو بيئتهم الجغرافية بظاهرتين أولاهما تتعلق بساعات الصحو الطويلة وانعكاساتها على حياة الإنسان وإتاحتها المجال له للممارسة والتأمل. والثانية تتعلق بموقع الوطن العربي المتوسط بين القارات الثلاث: أوروبا وآسيا وافريقيا وسعة المساحات المائية التي يطل عليها والمساحات الصحراوية الواسعة التي يحويها وهذا سهل لسكانه الاتصال بالشعوب المجاورة لهم حيث جعلت الوطن العربي بيئة حضارية مؤثرة فيما حولها وجعلت سكانه أقدر على التعامل مع الحضارات الاخرى(٧).

لقد أسهمت تلك الحضارات في تقدم الإنسان ورقيه إسهاماً كبيراً ومؤثراً. فبقدر ما اتيح للعرب أن يكون لهم وطن أصيل فانه لم تكن لهذا الوطن حدود نهائية لا يتجاوزونها. غير أنه بمرور الزمن ترك في المدى الجغرافي الذي بلغوه آثاراً ثابتة تدل عليهم ولوناً أصيلاً مرتبطاً بهم ونوعاً من الاقامة الثابتة، مكن أخيراً لمعنى الوطن الحديث من أن يأخذ مفهوماً قومياً وواقعياً، فوطن العرب بقدر ما هو الجزيرة العربية والعراق، هو أيضاً بلاد الشام وكل الشمال الافريقي وشمال شرق افريقيا. إن الوطن والأرض بالنسبة للشعب العربي، كانا دائماً مساري الحضارة من منابث العرب في جنوب الجزيرة ووادي الرافدين إلى كل اجزاء الجزيرة العربية وهلالها الخصيب والسودان ومصر وكل الساحل الافريقي الشمالي وبعبارة اخرى ان حركة القبائل العربية ما كانت لتعترف بأن مداها يتحدد بصحراء أو أنهار أو جبال ولكنها سارت أبداً في مجرى طبيعي بدهي(٨).

---

(٧) للتفاصيل انظر: مشروع ورقة العمل المقدمة إلى ندوة بغداد لكتابة التاريخ العربي، (بالرونيو)، ص٦ - ٧ وسنشير إليها «ندوة بغداد لكتابة التاريخ العربي».

(٨) البعث ضرورة تاريخية، ص.ص١٠ - ١١.

مرحلة ما قبل الاسلام:

تعد الجزيرة العربية، المصدر الأول للهجرات السكانية العربية المتعاقبة (والتي درج العديد من الدارسين على تسميتها خطأً بالسامية)[٩] منذ أكثر من أربعة آلاف سنة قبل الميلاد إلى الشام والعراق ومصر والشمال الافريقي. ولقد كان للعوامل الاقتصادية في الجزيرة العربية والتخلخل السياسي في أطرافها أثر كبير في تعميق الصلة بين العرب والأرض التي انساحوا إليها. إذ خرج العرب من جزيرتهم على شكل موجات متعاقبة، تبلغ الحقبة منها زهاء ألف عام، فكانت الجزيرة تقذف ابناءها، كلما زاد عددهم أو قلّ طعامهم[١٠]. كانت الهجرات البشرية التي تفيض عن قدرة الجزيرة العربية الصحراوية على الاستيعاب تنقل معها إلى مواطنها الجديدة، حضارتها وثقافتها ولهجاتها القبائلية المختلفة فتلتقي بالحضارات السابقة، تمتزج بها وتتمثلها وتطبعها بالتدريج وبتوالي الهجرات بطابعها العربي المميز[١١].

لقد لعبت العوامل الجغرافية المتعلقة بالمناخ والتضاريس وتوزيع المياه دوراً مهمًا في تاريخ الجزيرة العربية وأطرافها. إذ اتسمت مساحة واسعة من أراضيها (تتجاوز المليون ميل ربع) بالطبيعة الصحراوية. وليس من شك في أن لتلك الطبيعة أثراً كبيراً في تقليص إمكانات التطور الاقتصادي للجزيرة. أما أطرافها الحضارية فقد كانت تمثل الوجه المقابل للجانب الصحراوي من الجزيرة العربية. وقد تطور كل من هذين القطاعين تطوراً مستقلاً. بيد أن التفاعل بين البداوة والحضارة لم ينقطع.. لا بل استمر يتزايد حتى نشأ

---

(٩) د. جواد علي، المصدر السابق، ج١، ص. ص٨، ٢٤٠ - ٢٥٤.

(١٠) درويش المقدادي، تاريخ الأمة العربية، ط٢، (بغداد، ١٩٣٩) ص١١.

(١١) نزيه أبو نصال، المصدر السابق، ص٧٢.

شريان في وسط الجزيرة استطاع أن يحقق الربط بينهما وأن يتجاوزهما معاً في ثورة الاسلام[١٢].

إن التاريخ المدوّن يحفظ لنا منذ منتصف الألف الرابع قبل الميلاد سلسلة متواصلة من الهجرات منها هجرة الكنعانيين حوالي ٢٥٠٠ قبل الميلاد إلى غرب بلاد الشام ومنهم الفينيقيون والآراميون حوالي ١٥٠٠ قبل الميلاد. ثم الاكديون والبابليون والآشوريون والكلدانيون وذلك على التوالي في حوالي منتصف الألف الثالث والثاني والأول: وثمة هجرات اخرى كنعانية نهضت على أرضها ممالك الادوميين والحاصوريين والمؤابيين وهؤلاء أقاموا دولتهم في منتصف الألف الاول قبل الميلاد[١٣]. واثر انفجار سد مأرب العظيم في اليمن حوالي منتصف القرن الخامس للميلاد حدثت هجرات عربية واسعة إلى الساحل الافريقي الشرقي وكذلك إلى بلاد الشام (الغساسنة) وإلى العراق (المناذرة). كما هاجرت قبائل عديدة إلى شمال الجزيرة العربية وشرقها[١٤].

لقد أسس العرب المهاجرون إلى الأطراف الخصيبة المجاورة للجزيرة العربية دولاً، وكيانات سياسية كانت لها شهرتها في التاريخ ولعل من أبرزها الأمبراطورية الآكدية التي شملت معظم أراضي الوطن العربي وكان لها دورها الحضاري البارز وخاصة في عهد ملكها العربي سرْجون الآكدي. ثم العمّوريون الذين اتجه فرع منهم نحو السواحل المطلّة على البحر المتوسط واستقر فيها وعرف بالفينقيين الذين ازدهرت حضارتهم في السواحل العربية للبحر المتوسط وحتى المحيط الأطلسي وكان من أشهر مدنهم قرطاجنة في تونس. ثم اتجه فرع آخر منهم نحو العراق كان له دور

---

(١٢) للتفاصيل انظر: د. الياس فرح، مقدمة في دراسة المجتمع العربي والحضارة العربية، (بغداد، ١٩٧٩)، ص٥٠.

(١٣) نزيه أبو نضال، المصدر السابق، هامش ص٧٢.

(١٤) المصدر نفسه، ص٧٢.

حضاري متميز ذلك هو الذي أقام الأمبراطورية البابلية، وحمورابي صاحب القوانين والتشريعات المعروفة في العالم كان واحداً من قادتها العظام. لقد نجح حمورابي في تحقيق الوحدة الوطنية وتأسيس دولة واسعة امتدت بين الخليج العربي والبحر المتوسط. أما الآشوريون الذين سكنوا شمالي الجزيرة العربية والشام في أول الأمر ثم اتجهوا إلى شمال العراق، فقد أسسوا دولة قوية، وبنوا حضارة عظيمة قبل حوالي (٤٠٠٠) سنة قبل الميلاد وكانت نينوى، القريبة من الموصل عاصمتهم. وقد امتدت دولتهم لتشمل مناطق واسعة من العالم القديم[١٥]. ولقد أقام ورثتهم الكلدانيون بين سنتي ٦٢٦ - ٥٣٩ ق.م دولة عظيمة عاصمتها مدينة بابل وبنوا حضارة متقدمة، وكان نبوخذنصر، القائد العربي المعروف الذي تحققت على يديه وحدة العراق وسوريا وفلسطين من أشهر ملوكها[١٦].

كما قدّم العرب في هذه المرحلة، بضعة منجزات للبشرية، أبرزها مساهمتهم في تطوير أدوات الإنتاج والمعرفة الإنتاجية. ثم انهم حلوا أولاً معضلات الملاحة في البحر الأحمر والمحيط الهندي بامتلاكهم قيادة السفن في مواجهة تقلب الرياح الموسمية. بينما كان إسهامهم الآخر في امتلاك الجمل وتدجينه كأعظم واسطة نقل بري عرفها التاريخ القديم[١٧].

تحرّك العرب ثلاث حركات، بايقاعات مختلفة، فبالإضافة إلى حركتهم الموضعية للبحث عن مصادر المياه والكلأ، وحركة الهجرات التاريخية التي أشرنا إليها آنفاً، ثمة حركة ثالثة قائمة على أساس عمليات

---

(١٥) البعث ضرورة تاريخية، ص٩.

(١٦) د. أحمد سوسه، حضارة العرب ومراحل تطورها عبر العصور، (بغداد، ١٩٧٩)، صص١٥٩ - ١٦٢.

(١٧) كميل داغر، نقد كتاب منير شفيق «في الوحدة العربية والتجزئة، (بيروت، ١٩٧٩)، مجلة المستقبل العربي، السنة (٢) العدد (٧) ايار ١٩٧٩، ص١٧٧.

الضم والتوحيد، ولا شك في أن تلك الحركات كانت تشهد باستمرار عمليات اتصال لغوية واقتصادية وثقافية[18].

لقد انطلقت من العراق إلى بلاد الشام وصحراء سيناء وشمال الجزيرة العربية والبحرين غرباً وجنوباً حركات للضم والتوحيد الآتية:

- **٢٣٥٠** ق.م سرجون الاكدي يوحد آسيا الغربية تحت حكمه ويصل ابنه نرام سين إلى سيناء.
- **٢٣٠٠** ق.م قبائل الهكسوس العربية تحتل معظم مصر ويتراجع الفراعنة إلى الصعيد ويستمر حكم الهكسوس لمصر إلى سنة ١٨٠٠ ق.م.
- **٢٢٥٠** ق.م حمورابي البابلي يصل إلى شواطىء البحر المتوسط.
- وفي زمن الملوك الآشوريين تشهد حركات الضم والتوحيد الآتية بين العام **٨٥٠** إلى **٦١٢** ق.م:
- شلمناصر الثالث: سوريا ولبنان.
- سرجون الثاني: السامرة في فلسطين.
- سنحاريب: يستكمل تحرير فلسطين من اليهود.
- سرجون: مصر.
- آشور بانيبال: يعيد توحيد مصر والشام والمناطق الشمالية للجزيرة العربية ومناطق البحرين واليمامة.
- **٦١٢** ق.م نبوخذنصر البابلي الكلداني يواصل الدور نفسه في غرب آسيا ويعاود السيطرة على فلسطين.
- **٦٠٠** ق.م ظهر الأقباط وازدهرت عاصمتهم البتراء وامتد نفوذها إلى المناطق المجاورة حوالي ٤٠٠ ق.م.

---

(١٨) نزيه أبو نضال، المصدر السابق، ص٦٩.

١٠٠ ق.م امتد حكم الأنباط إلى دمشق وسهل البقاع والحجاز في ٢٦٥ - ٢٧٢م.

- مملكة تدمر في عهد اذينة وزنوبيا يمتد نفوذها وتحكم سيطرتها على آسيا الغربية وشمال الجزيرة العربية وتتم طرد الرومان إلى أنقرة وتضم مصر[١٩].

وفي المرحلة ذاتها شهدت اليمن، عصراً من الازدهار والتقدم الحضاري، إذ استطاع السبئيون تكوين دولة ١١٠ق.م وامتد نفوذ دولة سبأ المعاصرة لدولة معين من ٧٥٠ - ١١٥ق.م أخضعوا خلالها معظم المنطقة الجنوبية المعينية والقتبانية وحضرموت[٢٠].

وفي زمن المملكة الحميرية (الاولى والثانية) ٣٠٠ - ٥٢٥ ق.م نعرف مناطق نفوذ هذه المملكة من تغير أسمائها. ١١٥ ق.م - ٣٠٠م مملكة سبأ وذي ريدان. وفي ٣٠٠ - ٣٧٨م مملكة سبأ وريدان وحضرموت وقتبان ثم أضيف إليهم (عربهم) في الجبال وتهامة[٢١].

إن الحقب المزدهرة من تاريخ الحضارة العربية، في المشرق كما في المغرب لم تنطبع في بداية الأمر بأنجازات زراعية كبرى، ولكن على العكس بازدهار للتجارة والمدن إلى درجة أن العرب ظلوا مسيطرين على حركة التجارة العالمية حتى القرن الخامس عشر الميلادي[٢٢]. فقد رافقت مرحلة النهوض السبئي والحميري مثلاً ازدهار عظيم لخطوط المواصلات والقوافل التجارية، من اليمن مروراً بالقاطع الغربي الساحلي للجزيرة العربية. شمالاً نحو مكة فمملكة الأنباط العربية فسوريا وشواطىء البحر المتوسط.

(١٩) المصدر نفسه، ص٧٢.

(٢٠) المصدر نفسه، ص٧٣.

(٢١) المصدر نفسه، ص٧٣.

(٢٢) سمير أمين، الأمّة العربية: القومية العربية وصراع الطبقات، (بيروت، ١٩٧٨)، ص٢٦.

أو شرقاً إلى العراق أو من اليمن مروراً بالقاطع الجنوبي للجزيرة العربية وصولاً إلى البحرين فبلاد فارس شرقاً أو شمالاً إلى العراق[٢٣].

ان تلك الشبكة الهائلة من المواصلات التجارية وما يصاحبها من عمليات التبادل الاقتصادي واللغة الضرورية لهذه العمليات، ثم ما يعنيه هذا الازدهار من نهوض المدن والممالك والثقافات والعلاقات وامتدادها إلى المناطق المحيطة بها سياسياً ولغوياً وثقافياً. ان هذا كله قد ترك آثاره الواضحة المؤكدة في تلك المرحلة بصورة عالية الفعالية[٢٤].

لذلك إن معظم الدول التي ظهرت في أطراف الجزيرة العربية كانت نهضتها وتقدمها عائدين إلى طرق التجارة البرية والبحرية. فان أقطار الجزيرة العربية واقعة بين ثلاث قارات وتمر بها طرق تجارية منذ أزمنة قديمة. ولما كانت أقطار الشرق الأقصى والوطن العربي تختلف في حاصلاتها اختلافاً كبيراً عن بلدان البحر المتوسط والدول الاوروبية، فان بلدان أوروبا كانت بحاجة ماسة إلى حاصلات الشرق مثل التوابل والعاج والقطن والحرير والاطياب.. وكانت سفن الشرقيين تجلب هذه الحاصلات منذ عصور كثيرة قبل الميلاد فتأتي بها إلى سوقطره والسواحل الجنوبية الشرقية من الجزيرة العربية وتنقل من سواحل الخليج العربي إلى مدن ومرافىء الهلال الخصيب. وكذلك كانت القوافل تنقل هذه الحاصلات من حضرموت واليمن إلى بلاد الشام ومصر. ومن ثم صارت السفن تنقل الحاصلات الشرقية من الهند ولا تنزلها إلى اليمن بل تسير بها رأساً إلى مرافىء البحر الأحمر الشمالية. وكانت الطرق التجارية يقل أو يزداد استعمالها أو تتحول فيؤثر ذلك في حياة الأقطار التي تمر بها تلك الطرق[٢٥].

ونتيجة لما كان يحويه الوطن العربي من امكانات اقتصادية وما كان

---

(٢٣) نزيه أبو نضال، المصدر السابق، ص ص٦٩ - ٧٠.

(٢٤) المصدر نفسه، ص٧٠.

(٢٥) المقدادي، المصدر السابق، ص١٦.

يتمتع من أهمية ستراتيجية فقد أصبح محطّ أنظار القوى الاستعمارية. إذ استطاع بعض الغزاة من الأقوام المجاورة للوطن العربي أن يتسللوا إلى داخله ومن هؤلاء الكاشيون، وهم أقوام شرقية جبلية اجتاحت العراق في أواسط القرن السادس قبل الميلاد وأفلحت في احتلال بابل سنة ٥٣٨ ق.م وامتدت باحتلالها إلى الشام ومصر فيما بعد ومنذ سقوط بابل تعاقبت على الوطن العربي قوى استعمارية حكمت طوال الفترة وحتى أوائل القرن السابع الميلادي. فقد لاح في الافق خطر شرقي أخر استطاع التسلل عبر العراق وهم الفرس الاخمينيون الذين تقدّموا نحو الشام ومصر[٢٦] ثم تعرض الوطن العربي للغزو اليوناني بقيادة الاسكندر الذي احتل الشام ومصر والعراق، وأعقبه غزو الرومان في ١٤٦ ق.م لبلاد المغرب العربي واحتلالهم قرطاجنة. وفي ٦٤ ق.م احتل الرومان الشام ثم مصر. ولقد عزمت روما على احتلال دولة سبأ وعاصمتها مأرب وإلحاقها بامبراطوريتها فارسلت في عهد اغسطس في ٢٥ - ٢٤ ق.م حملة بقيادة اوليوس كاليوس التي انتهت بفشل ذريع بسبب المقاومة الباسلة التي أبداها عرب اليمن للغزاة ولكن شأن سبأ سرعان ما بدأ بالضعف، فورثتها دولة حِمْيرَ التي أسقطها الأحباش واستولوا على اليمن وتقدموا عبر الجزيرة في محاولة لإخضاعها دون أن يكتب لهم النجاح (هزيمة جيش أبرهة وغزوة الفيل ٥٧١م). أما العراق فقد احتله الفرس الساسانيون. وقد احتلت الدولة البيزنطية الشام ومصر والمغرب العربي[٢٧].

وهكذا شهد الوطن العربي مرحلة استعمار طويلة وعميقة لم تقتصر نتائجها على احتلال أطرافه الشمالية وبعض المناطق الاخرى إنما امتدت إلى جزيرة العرب نفسها. واستمر الصراع بين هذه الأقوام الغازية، وكانت كل منها تمارس دورها في النهب الاقتصادي والحضاري وتهدف إلى طمس

(٢٦) د. نزار الحديثي، محاضرات في التاريخ العربي، (بغداد، ١٩٧٧) (بالرونيو)، ص١٣.
(٢٧) د. فرح، المصدر السابق، ص٥٠ وكذلك بيضون وزكار، المصدر السابق، ص١٤.

الشخصية العربية. كما أن جهود المحتلين تضافرت في تحقيق تخلف الامة العربية وتحلل الفرد والمجتمع وسيادة قيم التجزئة[٢٨].

لقد أدى سقوط دول اليمن، واحتلال الدولة البيزنطية للشام ومصر والمغرب العربي والدولة الساسانية للعراق، إلى إنسحاب العرب إلى داخل جزيرتهم وبقي بعضهم في الأراضي المحتلة. بيد ان عرب مكّة نجحوا في أن يحلوا محل اليمن في التجارة الداخلية إلا أنهم لم يستطيعوا أن يقيموا لهم كياناً سياسياً فبدت الحيوية العربية في مرحلة خمود وبدأت تركد الروح العربية والثقافة العربية مما جعل الفرد ضعيفاً عرضة لتأثيرات الثقافة الأجنبية[٢٩]. وقد عدت بعض الدراسات الغربية قوى الاحتلال، المحتل الحضاري للوطن العربي، فجعلت الحضارة في زمن الاسكندر وحلفائه من البطالسة، والسلوقيين إغريقية أو هلنستية. كما جعلت الحضارة في زمن سيطرة الساسانيين على العراق فارسية والحضارة في زمن السيطرة الرومانية على الشام ومصر والمغرب العربي رومانية[٣٠].

وبالرغم من ظهور مملكة كِنْدَة في القرن الرابع الميلادي ومحاولتها الحد من الصراع القبيلي وتحقيق نوع من الاتحاد السياسي العربي في وسط الجزيرة وشمالها وتوثيق صلتها باليمن، إلا أنها سرعان ما سقطت تحت ضربات الروح القبلية. ولم يتحول سقوط كندة إلى ظرف يخدم السيطرة الاستعمارية الساسانية والبيزنطية، فالتقدم الذي بدأ داخل الجزيرة العربية، رغم ما أصابه سياسياً استمر وفي مجال أخطر وأكثر أهمية فقد كانت المعتقدات الدينية تتطور نحو التوحيد في اليمن والحجاز وشرق الجزيرة [٣١]. إذ ظهر (الأحناف) في مكة وتطورت نظرة العرب من تخصيص كل قبيلة في عبادة

(٢٨) الحديثي، المصدر السابق، ص١٣.

(٢٩) المصدر نفسه، ص١٦.

(٣٠) ندوة بغداد لكتابة التاريخ العربي، ص١٠.

(٣١) الحديثي، المصدر السابق،ص‌ص١٧ - ١٨.

الهة فردية معينة إلى اشتراك القبائل في عبادة آلهة عامة شاملة وإلى تخصيص بيت مقدس وهو (مكة) التي كانت تتطور فيها الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية على شكل أشبه بدول المدن(٣٢).

أما في المناطق المستعمرة فكأن التقدم في أوضاع العرب في الجزيرة العربية وجد له هناك انعكاس تمثل في زيادة التناقض بين المستعمرين والعرب في الأراضي المحتلة فتسوء علاقة امراء الحيرة ١٣٨ - ٦٢٨م بالفرس ويعود تدهور العلاقات إلى معركة حاسمة بين العرب والفرس وهي معركة «ذي قار» التي سجل العرب فيها أروع إنتصار على قوى الساسانيين(٣٣).

وما أن حل القرن السابع الميلادي حتى كان واضحاً أن العرب قد نَمَتْ بينهم عوامل النضج والتهيؤ، وأن مرحلة المخاض قد بدأت قوامها الشعور المشترك والإحساس بالذات والتحفز. إذ بدأت مكة تتطور إجتماعياً وثقافياً وإقتصادياً وسياسياً(٣٤).

لقد ازدهرت أحوال مكة، مما أدى إلى الصراع حولها حيث إنتزعتها قبيلة «خزاعة» من جرهم. وبعد زمن بعيد طردت قبيلة قريش بزعامة قصي بن كلاب خزاعة من مكة. ونظم قصي شؤون مكة العامة وأنشأ دار الندوة التي كانت تقع قرب الكعبة من جهة الشمال ويجتمع فيها «الملأ»وهم من كان له حق إبداء الرأي في هذا المجلس على طريقة الرأي والمشاورة، وصارت هذه المشاورة قاعدة للحكم فيما بعد(٣٥) كما كانت الصفوة المتزعمة التي كانت تمثل بطون قريش تتوزع مهمات تنظيم الحج،

---

(٣٢) المصدر نفسه، ص١٧.

(٣٣) المصدر نفسه،ص‌ص١٧ - ١٨، فرح، المصدر السابق، ص٥٩.

(٣٤) الحديثي، المصدر السابق، ص١٨.

(٣٥) د. جواد علي، الفكر السياسي العربي قبل الاسلام ضمن كتاب: صدام حسين، حول كتابة التاريخ، (بغداد، ١٩٧٩)، ص٤٩.

والأمن والحرب والعدل والتموين والأوقاف والخارجية. على النحو الآتي[٣٦]:

بنو هاشم - السقاية (وزارة الري) يمثلهم العباس بن عبد المطلب.
بنو أمية - الراية (الحرب) يمثلهم أبو سفيان.
بنو نوفل - الرفادة (التموين) يمثلهم الحارث بن عامر.
بنو عبد الدار - السدانة والندوة ويمثلهم عثمان بن طلحة.
بنو أسد - المشورة العليا (المحكمة) يزيد بن زمعة الاسود.
بنو تميم - الرايات والغرم (العدل) أبو بكر الصديق.
بنو مخزوم - القبة والاعنة (الجيش) خالد بن الوليد.
بنو عدي - السفارة (الخارجية) عمر بن الخطاب.
بنو جمح - الأيسار (الكهانة) صفوان بن امية.
بنو سهم - الأموال الموقوفة (الأوقاف) الحارث بن قيس.

ومنذ أيام قُصَي أخذ القرشيون يمارسون التجارة بشكل نشط، ولم تكن تجارتهم محلية فقط، بل كانت عالمية كذلك. وكانت الاسواق تعقد قرب مكة وهي عكاظ وذو المجنة وذو المجاز. وهذه الأسواق رغّبت الناس بزيارة مكة، وكانت مواسم البيع والشراء والدعاية وحل الخصومات وانشاد القصائد[٣٧].

ولقد مكنت تلك الأسواق قريش من السيطرة الاقتصادية على شمال الجزيرة وساعدت على توحيد اللهجة العربية الشمالية التي ستتدعم بظهور الاسلام وبنزول القرآن الكريم[٣٨].

كما نشط المكِّيون في سبيل تنمية تجارتهم. فكانوا يسافرون إلى كافة أنحاء العالم المحيط بهم. ولقد عقدوا مع سادة البلدان والمناطق في الجزيرة

(٣٦) فرح، المصدر السابق، ص٦١ وكذلك د. صالح أحمد العلي، محاضرات في تاريخ العرب قبل الاسلام، (بغداد، ١٩٦١)، ص ص١١٢ - ١٢٠.
(٣٧) بيضون وزكار، المصدر السابق، ص٢٩.
(٣٨) المصدر نفسه ص ص٢٩ - ٣٠.









القبلية إلى (مدينة) فاضلة لها دستور جديد. فقد كانت الصحيفة التي وضعها الرسول على شكل ميثاق بين المؤمنين (مهاجرين وأنصار) ترجمة حية للمبادىء والاسس الثورية الجديدة التي تجاوزت الرابطة القبلية ودافع التخلف ومنطق التجزئة وعلاقات الاستغلال الاجتماعي وارتفعت إلى مستوى يتجاوز أرقى ما عرف من شرائع في ذلك العصر[٥٩].

لقد ابتدأ المستقبل العربي عندما هاجر الرسول العربي إلى المدينة حيث مارست الأداة الثورية بقيادته الفئة عملية توحيد الامة في الجزيرة العربية ثم التواصل مع أبنائها المقيمين في الأراضي المحتلة، ووضع العرب في الجزيرة في عملية حمل دائم للمبادىء كما حددها الرسول والتي لم تتوقف إلا باكمال الشخصية القومية للعرب أرضاً وامة ومستقبلاً[٦٠].

وإذا كان الرسول العربي في حياته قد حقق هذا الهدف في الجزيرة فان المسلمين الأوائل تابعوا بعد وفاته إكمال تحقيقه من خلال الحروب التي خاضوها لتحرير البلاد من الاحتلالين الساساني والبيزنطي ومن ثم بناء الدولة القومية[٦١]. لقد شعر العرب في صدر الاسلام برابطة قومية، بكيان متميز، فالدولة عربية واللغة عربية والعرب كما وصفهم عمر بن الخطاب «مادة الاسلام»[٦٢].

ارتكزت الدولة منذ قيامها على وحدة في العقيدة، وفي النظرة الكونية والمثل الخلقية والعادات الاجتماعية التي تشد الافراد إلى الامة فتجمعهم دون أن تفقدهم كيانهم وبفضل هذه الوحدة انتظم كيانهم وقوي تماسكهم وازدادت قوتهم فاستطاعوا تحقيق الانجازات الحضارية الرائعة وظفروا بتصرفاتهم وسلوكهم بتقدير الشعوب الاخرى فاقبلوا على الاسلام يعتنقونه،

---

(٥٩) فرح، المصدر السابق، صص٧١ - ٧٢.

(٦٠) ندوة بغداد لكتابة التاريخ العربي، ص١٣.

(٦١) المصدر نفسه، ص١٣.

(٦٢) الدوري، المصدر السابق، صص٣٧ - ٣٨.

وعلى اللغة العربية يتعلمونها كوسيلة للتفاهم والاستزادة من المعرفة واستكملت الدولة مؤسساتها عبر الزمن ولعب أبناء الامة دوراً بارزاً في عملية البناء[٦٣].

أكّدت الدولة على ما بين الفرد والمجتمع من تناسق يمكن إرجاع اصوله إلى العهود الاولى في حياة المجتمع العربي، فكان للفرد كيانه الذاتي المتمثل في مسؤولياته الخاصة في العبادات وفي الميادين الأخلاقية والقانونية. غير أن الفرد جزء من المجتمع، ترتبط مصلحته به وهذا الترابط يلقي عليه مسؤولية العمل على خير الامة وتقدمها وبفضل هذا التناسق، والشعور بفوائده ثبتت المثل العليا في المجتمع وأسهمت في نموه وتقدمه وبلورة تقاليده العامة التي تأثرت كثيراً بالأسس العامة المتشابهة في الحضارة. ورافق ذلك نمو أساليب متشابهة في التفكير والبحث وطرز متماثلة في الفن وصور متقاربة في الآداب. ولعل من أبرز سمات هذه الحضارة العربية في اصولها ومقوماتها هو الطابع الانساني وسمة العدل والحرية فمثلها ونظمها سمحة واسعة، وهذه النظرة الانسانية في أسسها العالمية في نطاقها هي مما تميز به العرب منذ أقدم الأزمنة فثبّتها الاسلام وعمقها ونشرها ورافق انتشار مبادىء الاسلام تحقيق «السلام الاسلامي» وسيادته في العلاقات البشرية محل الاحتلال والظلم[٦٤].

لقد كان الاسلام في حياة الانسان العربي وفي واقع الجزيرة العربية ثورة في الفكر السياسي جعلت الشورى فلسفة نظام الحكم، (في دولة الخلافة) وثورة لتحرير ذات الانسان العربي من الجبر والقدر وظواهر الطبيعة والاطار الضيق للتعصب القبلي وثورة لتحرير المرأة والارتقاء بها كي تلحق بالرجل وثورة لتحرير الرقيق تدريجياً ولدمجهم (بالولاء) قومياً مع العنصر العربي في اطار العروبة بمضمون إنساني مستنير. وثورة لتحرير

---

(٦٣) ندوة بغداد لكتابة التاريخ العربي، صص١٣ - ١٤.

(٦٤) المصدر نفسه، صص١٤ - ١٥.

الانسان من العوز والاستغلال، بالانحياز للمجموع، وتقرير «الاشتراك العمومي» في ثروات الامة وجعل «العمل» معياراً للكسب الحلال وللتفاوت في الأرزاق. ولقد ظل هذا المضمون الثوري لثورة الاسلام العربية محور الصراع في المجتمع العربي بين تيار الثورة، بفرقها وتياراتها وتنظيماتها وطبقاتها وبين أعدائها. فالذين انتكسوا بهذا المحتوى الثوري لثورة الاسلام كانوا هم دائمًا أعداء «الثورة» كوسيلة من وسائل التغيير[٦٥].

في ٨حزيران ٦٣٢م (١٢ ربيع الاول ١١هـ) توفي الرسول العربي محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم. وقد نجح أصحابه في تجاوز أزمة خلافته فانتخبوا أبا بكر الصديق الذي قدم في يوم ٩حزيران الخطوط العريضة لسياسته والتي تتلخص بما يلي[٦٦]:

١ - دعا إلى التجنيد العام كي يعمل على توسيع حدود الدولة ويحميها من التعديات الخارجية.

٢ - أعلن رغبته في اتباع الدستور الاسلامي المتمثل بالقران وسنة الرسول.

٣ - انه أراد اتباع المساواة التامة في معاملة أفراد الشعب بدون تمييز بين القوي والضعيف.

٤ - انه أظهر استعداده لقبول النقد والاحتجاج على أعماله وخطته إذا خالف الدستور[٦٧].

لقد تعرضت الأمة العربية إلى خطر جديد بعد وفاة الرسول تمثل بظهور بعض الحركات الانشقاقية وخاصة في اليمن واليمامة فقد عادت

(٦٥) د. محمد عمارة، الاسلام: الثورة الاجتماعية، مجلة المستقبل العربي، السنة (١) ج(٥)، ١٩٧٨: صص٤٢ - ٥٦.

(٦٦) الحديثي، المصدر السابق، صص٦٠ - ٦١.

(٦٧) المصدر نفسه، ص٦٠.

القوى القديمة المؤدية إلى التفكك والاستقلال القبلي واستياء غيور من أية سيطرة ذات صبغة مركزية. فخلال السنوات القلائل التي عاشها الرّسول بعد فتح مكة سنة ٦٣٠م كان العرب، بما جبلوا عليه من احترام النجاح على استعداد تام لقبول دعوته. ولكن بعض القبائل لم تكن، بالتأكيد متحمسة للنظم التي سعى بها الرسول إلى تغيير الواقع الاجتماعي والاقتصادي وعدّتها تدخلاً ليس له ما يبرره ومن ذلك تحريم الاسلام القاطع للحرب بين المسلمين، وهو التحريم الذي حدد لعبتهم التي درجوا على ممارستها طويلاً وهي لعبة القتال بين القبائل. لذلك بدأت بعض القبائل في وسط الجزيرة وشرقها تتنصل عن الاسلام(٦٨). إلا ان الخليفة أبا بكر الصديق استطاع خلال فترة وجيزة من الزمن القضاء على حركات الردة فإليه يعود الفضل في توطيد أركان الدولة العربية وتوحيد كلمة العرب والمحافظة على الاسلام(٦٩).

لقد أفاد العرب من حروب الردة فوائد متعددة لعل في مقدمتها أنهم أصبحوا يمتلكون قوات عسكرية مدربة وكاملة الاستعداد فنياً وقتالياً تعرف قيمة النظام وتدرك أهمية الطاعة. كما أنها ثبتت الوحدة السياسية المركزية وضمنت سيادة المثل الاسلامية على كل الجزيرة العربية ولم تتأخر عن تنفيذ الخطوات اللازمة لتحرير الأراضي العربية(٧٠).

فبعد حروب الردة اتجه العرب لتحرير إخوانهم في العراق والشام ومصر وشمال افريقيا. فحدثت معركة القادسية بين الجيش العربي بقيادة سعد بن أبي وقاص والجيش الفارسي في تشرين الأول ٦٣٥م وكانت المعركة حاسمة إذ سقطت على اثرها دولة الفرس وفتحت أبواب المشرق

---

(٦٨) Anthony Nutting. The Arabs, from the Birth of Mohammed to the Rise of Gamal Abdel Nasser, (New York, 1964).P.41.

(٦٩) المقدادي، المصدر السابق، ص١٣٨.

(٧٠) الحديثي، المصدر السابق، ص٦٢.

للعرب[٧١]. ثم حرر العرب بلاد الشام بعد انتصارهم على البيزنطيين في معركة اليرموك الخالدة (١٥هـ - ٦٣٦م) بقيادة خالد بن الوليد وأبي عبيدة عامر بن الجراح[٧٢]. وفي أواخر سنة ١٨ هجرية ٦٣٩م حرر الجيش العربي بقيادة عمرو بن العاص مصر لتكون قاعدة الانطلاق لتحرير الشمال الافريقي والاندلس. وقد تم ذلك بقيادة كوكبة من القادة العظام أمثال عقبة بن نافع وموسى بن نصير وطارق بن زياد. وسرعان ما اتسعت دائرة الفتوحات في البر والبحر فتقدم العرب وهم يحملون الرسالة الاسلامية القائمة على العدل والحضارة نحو فارس وارمينيا والقوقاز[٧٣].

لقد استقبل العرب في العراق والشام ومصر وفي كل مكان اتجهوا إليه من أرض العروبة كمحررين وذلك ليس بسبب الاتجاهات الديمقراطية والمساواة والطابع الانساني للرسالة الاسلامية فحسب، إذ أن تلك الاتجاهات كانت تستجيب لحركات الثورة الاجتماعية والدينية لدى هذه الجماعات، بل لوجود الشراكة اللغوية والثقافية والحضارية التي أشرنا إليها فيما سبق. ولم يكن العرب غريبين عن المناطق التي حرروها[٧٤]. لذلك أدى انتشار الاسلام والتأكيد على التعليم والالتفاف المتزايد إلى الأرض إلى تحول المراكز العربية خلال القرن الأول الهجري إلى مراكز حضرية عربية لها مصالح وارتباطات بالارض. وبصورة عامة أصبحت الأمصار مراكز نشاط وإشعاع في التعريب وأدى كل ذلك إلى انتشار العربية وإلى التعريب اللغوي الثقافي[٧٥].

---

(٧١) المقدادي، المصدر السابق، ص١٤٢.

(٧٢) المصدر نفسه، صص٣٧٢ - ٣٧٣.

(٧٣) المصدر نفسه، ص١٨٥.

(٧٤) نزيه أبو نضال، المصدر السابق، ص٧٤ وكذلك موريس لومبار، الاسلام في عظمته الاولى، ترجمة ياسين الحافظ، (بيروت، ١٩٧٧)، ص٧.

(٧٥) الدوري، المصدر السابق، ص٣٨.

كان انتشار العربية والاسلام واسعاً ومتلازماً تقريباً في العراق والشام ومصر والمغرب[٧٦]. وكان توسع الحياة المدنية يعني توسع العربية إذ أن اقتصار لغة الثقافة، والحضارة على العربية أوجد تلازماً قوياً بينهما. كما أن العرب حيث تحضروا، وحيث سادت البيئة الحضرية المستقرة لم يبق للقبيلة أو للانساب ذلك الدور. ويلاحظ كذلك أن انتشار الاسلام كان عاملاً أساسياً في انتشار التعريب لأكثر من سبب. فتعلم القرآن كان ضرورة لفهمه. كما أن الثقافة التي نشأت في إطاره عربية، وللعرب الدور الرئيسي في كل نشاط ثقافي[٧٧].

لقد كانت نشأة الثقافة العربية في الاسلام أساسية في تكوين الامة. كانت الدراسات الاولى تتصل بالاسلام (تفسير، حديث، فقه) وبالعربية (نحو، دراسات لغوية، تاريخ). وقد قامت في المراكز العربية. وهكذا فان اصول الثقافة العربية نشأت بصورة طبيعية في اطار المجتمع الاسلامي[٧٨].

واصل الخليفة عمر بن الخطاب مهمة بناء الدولة وسجّل عهده إنجازات كثيرة أبرزها الاهتمام بشؤون الرعية، وتدوين الديوان وفرض العطاء أولى الخطوات على هذا الطريق. فقد حدد الديوان طبيعة ونظام المؤسسة العسكرية. بينما حدد العطاء المقاييس الاجتماعية التي تحدد مكانة الفرد في المجتمع وكل المقاييس المثبتة في الديوان أو العطاء وضعت على أسس الأسبقية في الدين والمساهمة في نشر الدعوة[٧٩]. وكان العرب هم الجند والمقاتلة، خرجوا بالفتوح وبأعداد متواضعة بين خراسان والأندلس واستقروا في المراكز وادى ذلك إلى تكوين مجتمعات عربية موحدة في كل مصر من الأمصار وكان خطوة أولى في التكوين العملي للأمة. وكان ديوان

---

(٧٦) المصدر نفسه، ص٣٨.

(٧٧) المصدر نفسه، ص٣٨.

(٧٨) المصدر نفس، ص٣٨.

(٧٩) الحديثي، المصدر السابق، صص٦٦ - ٦٨.

الجند قد انشىء لتنظيم أمورهم وفرض العطاء والرزق لهم. وبعد حروب التحرير كانت الهجرة أوسع وخاصة إلى العراق والشام ومصر، وفيما بعد إلى الشمال الافريقي. وكانت سياسة الدولة تشجيع الهجرة في صدر الاسلام وجعلها رمز الانتماء الكلي للامة. وفي الثلث الأخير للقرن الأول بدأ تحديد أعداد المقاتلة في الديوان، وبدأ بعض العرب يتجه لمهن اخرى ابتداء بالتجارة ثم الاتجاه للاستقرار في الريف من أواخر القرن الأول الهجري وبصورة واضحة في القرن الثاني. وكان العرب في هذه الفترة مقاتلين واداريين وأصحاب ملكيات زراعية[٨١].

ان فلسفة الدولة كما تؤشرها أعمال الخليفة عمر بن الخطاب تعتمد على معادلة فحواها ان الانسان المؤمن بعقيدة يعمل دفاعاً عنها والدولة تهيء له فرص العمل والمعيشة الكريمة، فالحرص على العقيدة يستوجب الولاء للدولة. والدولة يجب أن تعكس مبادىء العقيدة وسماتها[٨٢]. أما بقية أعمال عمر فقد انصرفت لتعزيز الاتجاهات الانسانية التي تضمنها الاسلام فالاهتمام بالرعية وتطبيق العدل الاجتماعي ومحاسبة الولاة باستمرار كان الهدف منها إبقاء الدولة وجهاً ناصعاً يرى الفرد فيه نفسه ويرى مبادئه وينشد إليها[٨٣]. وقد حرص الخليفة عمر على حفظ التوازن بدقة متناهية لذلك لم يكن يتساهل إطلاقاً إزاء أي تصرف يخل بالمعادلة. وكانت أبرز وسائله في ضغط التوازن التأكيد على المركزية الديمقراطية في إدارة الدولة ضمن حلقات متداخلة تبدأ بالمصر وتنتهي بالمدينة.. وكان العرب والمسلمون في المصر هم القاعدة الاجتماعية للعلاقة الديمقراطية[٨٤].

---

(٨٠) الدوري، المصدر السابق، ص٣٨.

(٨١) المصدر نفسه، ص٣٨.

(٨٢) الحديثي، المصدر السابق، ص٦٧.

(٨٣) المصدر نفسه، ص٦٨.

(٨٤) المصدر نفسه، ص٦٨.

لقد استمر تطبيق سياسة عمر بن الخطاب بعد وفاته خاصة السنوات الاولى من حكم خليفته عثمان بن عفان أما بعد ذلك فقد حدث اختلاف في التطبيق. ولم يستطع الخليفة عثمان لا المحافظة على التوازن المطلوب في ادارة الدولة لصالح تلك السياسة ولا إكمالها بايجاد نظام مالي ينظم استقرارها الاقتصادي ويضمن سيادتها وبناء ثرواتها القومية ضمن سيادتها ولا في تحقيق الوحدة الثقافية للمجتمع العربي. وأدّى عدم إكمال هذه الجوانب في السياسة التي بدأها عمر إلى عدم ضبط التوازن في تطور الأبعاد الاجتماعية المتعددة. لذلك لم تترسخ التقاليد الاجتماعية والسياسية المطلوبة التي تفرز الديمقراطية وتنظم مسألة السلطة فاضطربت الأحوال السياسية ولم تفلح جهود الإمام علي بن أبي طالب في التمسك بسياسة عمر بن الخطاب(٨٥).

لقد تعرّضت الأمّة لخطر الانقسام واشتد الصراع بين الامام علي ووالي الشام معاوية بن أبي سفيان في صفين وظهر الخوارج وتوقف القتال، وأخيراً حصلت مؤامرة ١٧ رمضان ٤٠ هجرية التي استشهد فيها الإمام علي في مسجد الكوفة. وفي هذه المؤامرة إصبع للفرس ولعلهم شجعوا القتلة على اغتيال زعماء العرب. إذ أنهم كانوا يتحينون الفرص للتفرقة بينهم. ولم تطل خلافة الحسن بن علي، إذ أنه بايع معاوية وعاش في المدينة ومع معاوية انتقلت عاصمة الدولة إلى دمشق(٨٦).

وفي عهد حكم الأمويين اجتاحت الجيوش العربية آسيا وأفريقيا وأوروبا لتبني أعظم دولة في تاريخ العالم امتدت سنة ٧١٥م من حدود الصين إلى المحيط الأطلسي ومن فرنسا إلى حدود الهند الحديثة، ومن بحر الخزر حتى النوبة. وأصبحت الدولة العربية الاسلامية تضم الأندلس وجميع

---

(٨٥) المصدر نفسه، ص٦٨.

(٨٦) المقدادي، المصدر السابق، ص١٨٦.

الساحل الافريقي الشمالي والجزيرة العربية والشام والعراق وفلسطين ونصف الأناضول وفارس وأفغانستان وباكستان وما يشكل الآن أراضي التركمان وأزبكستان والقرغيز بالاتحاد السوفيتي. وبذلك حرر العرب ونشروا الاسلام فيما بين سنتي ٦٣٢ و٧١٥م ما يزيد على أربعة ملايين ونصف المليون من الأميال المربعة بمعدل تقدم بلغ (١٥٠) ميلاً في اليوم لمدة ثلاثة وثمانين عاماً. ولقد كان لتلك الحروب العربية أثر كبير في تغيير وجه العالم إذ أخرجت المؤثرات اليونانية والبيزنطية والفارسية من الشرق والمغرب العربي[٨٧].

إلا أن مسيرة الدولة في عهد حكم الأمويين ٦٦١-٧٥٠م (وقد حولوا النظام السياسي في الدولة من نظام قائم على الشورى إلى نظام ملكي أوتوقراطي باتباعهم اسلوب ولاية العهد) لم تخل من بعض التناقضات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفكرية التي رافقها تحسّس قومي لدى بعض شعوب الدولة من غير العرب مما أدّى إلى ظهور اتجاهات وتيارات عملت ضد الأمّة وتحدّت وحدتها وأدت بها إلى حالة من الضعف[٨٨]. ومما ساعد على ذلك إعطاء ولاية العهد إلى أكثر من واحد وما يترتب على ذلك من إثارة البغضاء وانقسام الآراء بين أفراد الاسرة الحاكمة وعودة ظهور روح العصبية بين القبائل ومسؤولية بعض الخلفاء عن تفجير الصراع القبلي الذي كان ينخر في جسم الدولة وحياة البذخ والترف التي عاشها عدد من الخلفاء في وقت كان فيه الاثر الديني قوياً في النفوس. زيادة على ذلك عدم استقرار النظام المالي واستئثار فئة قليلة بخيرات البلاد. إن تألب أسباب الضعف والانهيار هذه في الشام سرعان ما تحولت إلى نقاط قوة إذ نمت جذور الحضارة قوية فتية في بغداد وذلك بقيام الثورة العباسية[٨٩].

---

(٨٧) Nutting, op. cit., p-80.

(٨٨) ندوة بغداد لكتابة التاريخ العربي، ص١٥.

(٨٩) بيضون وزكار، المصدر السابق، ص٢٠٩.

لقد نشبت الثورة العبّاسية سنة ١٣٢ هجرية/٧٥٠م وشعارها تصحيح الأوضاع السائدة والمساواة وإنصاف المظلومين[٩٠]. وحدثت معركة الزّاب الفاصلة التي انتهت بسقوط حكم الامويين بعد تسعين سنة من تسلمهم السلطة وانقسام الدولة العربية إلى قسمين أولهما يشمل الدولة العربية المغربية في الأندلس وعاصمتها قرطبة وثانيهما يشمل الدولة العربية المشرقية وعاصمتها بغداد[٩١]. وقد اتخذ العبّاسيون مدينة الكوفة عاصمة لهم ثم أقام أبو العباس في الأنبار والهاشمية. ومن بعده تولى المنصور، وهو من قادة العرب العظام، فوطد الدولة في الشرق وأسس بغداد سنة ١٤٥هـ وسماها مدينة السلام وجعلها عاصمة الدولة العربية الاسلامية واتبع سياسة اقتصادية رشيدة وعمر البلاد. وفي خلافة حفيده الرشيد عظم شأن الدولة في العالم[٩٢]. وشجع المأمون بن الرشيد الحركة العلمية والأدبية فازدهرت في عهده وبعده تولى الخلافة أخوه المعتصم فأسس سامراء واتخذها عاصمة الدولة وحارب الروم واستولى على عمورية[٩٣]. وقد خلد الشاعر العربي أبو تمام حبيب بن أوس الطائي هذا الانتصار في قصيدته البائية ومطلعها:

السيفُ أصدق أنباءً من الكتبِ   في حدِّه الحدُّ بين الجدِّ واللعبِ

لقد أكملت الدولة العربية في عهد حكم العباسيين مسيرة الاسلام الحضارية وساعدت على تمازج شعوب الدولة الاسلامية وتكوين الأمَّة العربية. كما ضربت الثورة العبّاسية القبلية، واشركت غير العرب في السّلطة وفي الجيش وكان ذلك نتيجة طبيعية للتحول الاجتماعي والاقتصادي ولتأكد الحياة المدنية. وقد قلصت الدولة العربية هذه لفترة

(٩٠) ابراهيم بيضون، بواكير الصليبيات الغربية في حملة شارلمان على سرقسطة، مجلة تاريخ العرب والعالم، السنة (٢) العدد (١٦) شباط ١٩٨٠ ص٤.

(٩١) المقدادي، المصدر السابق، ص٤٦٧.

(٩٢) المصدر نفسه، ص٣٧٨.

(٩٣) المصدر نفسه، صص٣٧٧ - ٣٧٨.

العرب من الديوان إبتداءً، ثم أسقطتهم كلياً من الديوان أيام المعتصم. وهكذا اتجه العرب وعلى نطاق واسع للفعّاليات الاقتصادية (تجارة - زراعة - ملكية اراضي) وادّى ذلك إلى توحد المصالح الاقتصادية وإلى انتشار العرب فيها وهذا واضح في القرنين الثاني والثالث للهجرة (الثامن والتاسع الميلادي). كما كان لانتشار العرب في الريف دور بالغ في تثبيت عروبة البلاد. أما حيث اقتصر العرب على سكنى المدن فقد كان الاثر مؤقتاً وتبين بعدئذ أنه طارىء (فارس، الاندلس)[٩٤].

لقد سيطرت في تكوين ظروف الدولة العربية سمتان أساسيتان إحداهما توحيد الاسلام للعرب والاخرى واقع الاقتصاد الذي حكمه عاملان حاسمان هما:

١ - كون المنطَقة عقدة مرور التجارة العالمية.

٢ - إعتماد المراكز الأساسية فيها على ري الأنهار في الزراعة، مما استتبع قيام سلطة سياسية مركزية تؤمن التجارة وتنظم الري[٩٥]. وعلى هذا الأساس قامت الوحدة الكبرى الاولى وهي ملأى بالحيوية والنشاط والتقدم والنهضة، فانتظمت الحكومة والوزارة وكثرت واردات الدولة وفتحت الترع وعمّت الرفاهية وتنظم الشعب[٩٦]. ونبغ العلماء والفلاسفة في مختلف العلوم فاشتهر بالفلسفة الكندي والفارابي وابن سينا والغزالي وبالطب علي بن عيسى الكحال والرازي وفي الكيمياء جابر بن حيان وفي الطبيعيات ابن الهيثم وفي النبات ابن البيطار وفي علم المثلثات ابو الوفاء وفي الجغرافية اليعقوبي والاصطخري والادريسي وفي التاريخ الواقدي والطبري والمسعودي وابن الأثير ونبغ غيرهم كثيرون في اللغة والأدب والتشريع والتفسير. وفي عهد حكم العباسيين انشئت المعاهد والمدارس

---

(٩٤) الدوري، المصدر السابق، ص٣٩.

(٩٥) كميل داغر، المصدر السابق، ص١٧٨.

(٩٦) المصدر نفسه، ص٤٧.

كالنظامية والمستنصرية في بغداد[٩٧]. من هذا يتضح أن الأمة العربية «حسبت... أدق الصفحات والاحتمالات في كافة شؤون الحياة والعلم في الوقت الذي كانت فيه جميع الامم تعيش في دياجير الظلام والتخلف»[٩٨].

أما في الأندلس حيث استمر الحكم العربي بين سنتي ٧٥٦ - ١٤٩٢م فقد بلغت الحضارة العربية فيها منزلة عالية وكان لها أثر كبير في النهضة الاوروبية[٩٩].

لقد كان للتغيرات الاجتماعية بعد مجيء العباسيين أثرها الكبير، فقد تحولت المجتمعات العربية إلى مجتمعات حضرية وأدّت التطورات الاقتصادية إلى التحول من مجتمع زراعي (تسوده الملكية للاشراف) إلى مجتمع تجاري شمل بنشاطه العالم القديم كله بين الشرق الاقصى وحوض البحر المتوسط وبيده طرق التجارة الدولية وعزز ذلك نشاط واسع للمؤسسات الصيرفية وأصبح دور التجارة أساسياً في توفير الرخاء وفي تطور الحضارة[١٠٠].

ورافق هذا التطور توسع المدن بشكل ملفت للنظر. وتوسع فئة العامة وبروز دورها في حياة المدن وظهور تنظيمات حرفية وأخرى ثورية (العيارين والشطار) ومع بقاء أهمية النسب لدى الكثيرين في الحياة الاجتماعية، فقد أصبح دور المال أساسياً، بل وصارت الفوارق المالية أساس تكتلات وحركات اجتماعية. ومع الايغال في الحضارة والتوسع في التجارة تضاءل دور النسب في الحياة العامة وسيطر الجند وتعثرت التجربة السياسية واتجاهها من نوع فن الشورى إلى الاستناد وإلى أشراف القبائل ممثلين لقبائلهم ثم إلى ارتباك ذلك بالتكتلات والمنافسات القبلية على السلطة مع خفوت الروح القتالية نتيجة التحضر فكان التخلي عن القبائل كأساس

---

(٩٧) المقدادي، المصدر السابق، صص٣٧٩ - ٣٨٠.

(٩٨) صدام حسين، المصدر السابق، ص٢٤.

(٩٩) فرح، المصدر السابق، ص٧٩.

(١٠٠) الدوري، المصدر السابق، ص٤٠.

وحيد للجيش من قبل العباسيين وإسناد مصدر السلطة إلى الله والاعتماد على جيش نظامي مختلط وإلى البيروقراطية واتجه الحكم إلى الاستبداد ثم جاء التخلي عن الجيش النظامي والاعتماد على المماليك مما عزل السلطة كلياً عن الامة[١٠١]. وأخيراً كان أن تراجع السلطان العربي في القرن الثالث فبدأت التجزئة وتعرضت الدولة العربية لخطر الانقسام حين ضعفت السلطة المركزية في بغداد وسيطر الجند ومعظمهم من الأعاجم على الامور، فأخذت كثير من مقاطعات الدولة تنفصل لتقيم كيانات سياسية مستقلة أو شبه مستقلة عن الخلافة في بغداد[١٠٢]. ومن أبرز هذه الكيانات التي ظهرت في مشرق الوطن العربي ومغربه[١٠٣]:

الدولة الطاهرية ٢٠٥ - ٢٥٩هـ/٨٢١ - ٨٧٣م.
الدولة الصفارية ٢٥٣ - ٢٩٨هـ/٨٦٧ - ٩٠٩م.
الدولة السامانية ٢٠٤ - ٣٩٥هـ/٨١٩ - ١١٠٠م.
الدولة القراخانية ٣٨٢ - ٦٠٧هـ/٩٩٢ - ١٢١١م.
الدولة الغرثوية ٣٦٦ - ٥٨٢هـ/٩٧٧ - ١١٨٦م.
دولة طبرستان ٢٥٥ - ٣٥٥هـ/٨٦٨ - ٩٦٥م.
الدولة الحمدانية في الموصل ٢٩٣ - ٣٨٩هـ/٩٠٥ - ٩٩١م.
الدولة الحمدانية في حلب ٣٣٣ - ٣٩٤هـ/٩٤٥ - ١٠٠٤م.
الدولة المراونية في ميافارقين وديار بكر ٣٧٢هـ - ٤٧٨هـ / ٩٨٣-١٠٨٥م.
الدولة العقيلية في الموصل ٣٨٠ - ٤٨٩هـ/٩٩٠ - ١٠٩٦م.
الدولة المرداسية في حلب ٤١٤هـ - ٤٧٢هـ/١٠٢٣ - ١٠٧٩م.
الدولة الطولونية في مصر ٢٥٤هـ - ٢٩٢هـ/٨٦٨م/٩٠٥م.

---

(١٠١) المصدر نفسه، صص٤٠ - ٤١.

(١٠٢) بيضون وزكار، ص٣٠٩.

(١٠٣) بيضون وزكار، ص٣٠٩.

ثم الدولة الأخشيدية ٣٢٣ - ٣٥٨هـ/٩٥٣ - ٩٦٩م.
ثم الدولة الفاطمية ٢٩٧ - ٥٦٧هـ/٩٠٩م - ١١٧١م.
والدولة الزنكية في الموصل وبلاد الشام ٥٢١-٦١٩هـ/ ١١٢٧-١٢٢٢.
ثم الدولة الأيوبية ٥٦٤ - ٦٢٦هـ/١١٦٩ - ١٢٢٩.
الدولة الأموية في الأندلس ١٣٨ - ٤٢٢هـ/٧٥٦ - ١٠٣١.
الدولة المدرارية ١٤٠هـ - ٢٩٦هـ/٧٥٧ - ٩٠٩م.
الدولة الرستمية ١٦٢هـ - ٢٩٦هـ/٧٧٩ - ٩٠٩م.
دولة الادارسة ١٧٢هـ - ٣١٤هـ/٧٨٩ - ٩٢٦م.
دولة الأغالبة ١٨٤ - ٢٩٦هـ - ٨٠٠م - ٩٠٩م.
دولة الموحدين ٤٤٨ - ٥٤١هـ/١٠٥٦ - ١١٤٧م.
ودولة المرابطين ٥٢٤ - ٦٦٧/ ١١٣٠ - ١٢٦٩م(١٠٤).

لقد شهدت الدولة العربية خلال هذه الفترة صراعاً ثقافياً دينياً بين حملة التراث والديانات الايرانية القديمة وبين الاسلام والعرب وكان اختباراً لهما وجاء الرد من حملة الثقافة العربية الاسلامية بصرف النظر عن نسبهم وفي الدفاع عنها وفي تأكيد اللغة العربية وفي التركيز على اعتبار اللغة العربية والثقافة العربية إطار النسبة للامة (١٠٥). لقد نشط العرب في المعركة الثقافية فقام المثقفون القوميون بدور بارز في الدفاع عن الامة وحمايتها وافلحوا في إيقاف الشعوبية رغم أن العرب لم تعد لهم، كما أشرنا آنفاً نفس المكانة السابقة في الجيش والإدارة والسياسة. غير أن استخدام الأعاجم في الجيش زود أخطر مؤسسة في الدولة بأقوام لم تتشبع بالحضارة العربية وأدى هذا إلى قيامها باعمال من شأنها أن تؤدي إلى إلغاء البناء الاجتماعي وتخريب التراث وإضعاف الخلافة التي هي رمز لوحدة الامة وسيادتها(١٠٦).

---

(١٠٤) المصدر نفسه، ص٣٠٩.
(١٠٥) الدوري، المصدر السابق، ص٤١.
(١٠٦) الحديثي، المصدر السابق، ص٤١.

إن ظاهرة تفكك الدولة العربية الإسلامية في عهد حكم العباسيين وبروز كيانات كثيرة في المشرق وفي المغرب لم يكن إنتقالاً إلى حالة التفتت الاقطاعي وتجزئة العصور الوسطى كما حدث في اوروبا، إنما كان ذا طابع خاص جعل التجزئة تلك لا تستقر، بينما تجري باستمرار عملية إعادة التركيب، حيث أن الريح الأساسية هي الانجذاب نحو المركزة، إن الانتقال من الوحدة إلى التفتت فالوحدة... لم يكن ليمس الأساس الاقتصادي لقوى الانتاج وعلاقات الانتاج، بل كان مصدر هذه العملية الأساسي ينبع من عوامل في البنى الفوقية - لذلك كانت التجزئة تشكل، والحالة هذه حالة عابرة مؤقتة «بسبب إفتقارها للأساس الاقتصادي ومعارضتها للاسلام» بما يدفع إلى الوحدة والمركزة باستمرار. كل طرف يخرج من الوحدة كان يقاتل بضراوة ليصبح الدولة المركزية الموحدة. ولم يكن يأخذ الانقسام شكل اقطاعات بل وحدات كبيرة تسعى إجمالاً لأخذ الشرعية من مركز الخلافة في بغداد(١٠٧).

لقد تبينت محصلة تلك التطورات في بلورة مفهوم العروبة وبالحديث عن امة عربية واحدة على أساس اللغة الواحدة والتاريخ المشترك والأخلاق والسجايا الواحدة مع تقدير أثر البيئة كعامل في ذلك. وبعد أن كان تعبير الأمة يقتصر على من يرتبطون برابطة دينية صار في كتابات المفكرين أمثال الجاحظ وابن تيمية والفارابي والمسعودي يستعمل للعرب لتمييزهم عن غيرهم. ولا غرابة بعد هذا أن يلاحظ أن العروبة والإسلام وإن تمثل الوعي في أحدهما فانه إنما يعبر عن وعي الامة الواحدة بسبب التحديات التي تواجهها خارجية أم داخلية (١٠٨).

لذلك كان أعداء الامة العربية يدركون خصوصيات الامة وشخصيتها

(١٠٧) كميل داغر، المصدر السابق، ص١٨٣.

(١٠٨) الدوري، المصدر السابق، ص٤١.

الحضارية الواحدة. ويدركون أنها امة واحدة ووطنها واحد، لكنهم وانطلاقاً من المصالح المتحكمة بمواقفهم وفي خلفيتهم التاريخية يتعامون عنها مفترضين القدرة على طمسها، ومن هنا نراهم رغم إختلاف عقائدهم السياسية ومظاهر الصراع السائدة بينهم يلتقون عندما يبرز في مسيرة الامة العربية ما يؤثر على روحها الحقيقية وتتجه معاولهم معاً نحو البؤرة القومية ويحاولون هدمها وهذه الحقيقة كانت ماثلة عبر التاريخ. فكما التقى البويهيون الفرس والسلاجقة الأتراك على ضرورة إحتلال بغداد في توالٍ زمني (٣٣٤هـ -٥٧٠هـ)ومارسوا نفس الأدوار التخريبية التقى الصليبيون والمغول على حرب الامة العربية[١٠٩].

مرحلة الانهيار:

في القرن الثاني عشر (السادس الهجري) ظهرت قوتان غريبتان مثلتا تحدياً عنيفاً للامة العربية من شأنه تفويض الحضارة العربية ووحدتها. وقد تقدمت كل من هاتين القوتين وهما القوة الصليبية القادمة من أوروبا والمغول القادمون من سهوب تركستان نحو الوطن الغربي وهم يقتلون ويفتكون ويخربون ولعل مما ساعدهم حالة التجزئة وذلك أننا كنا نرى في كل بقعة أميراً وفي كل قطر ملكاً وخليفة[١١٠].

لقد تقدم الصليبيون باسم المسيحية بحجة تخليص بيت المقدس من أيدي المسلمين إلا أن حركتهم هذه لم تستطع إخفاء دوافعها الحضارية والاقتصادية وقد اقتصر نشاطها على مسيحيي أوروبا الكاثوليك ولم تلق تأييداً ولا ترحيباً من نصارى الوطن العربي[١١١].

أما الغزو الاخر الذي اجتاح النصف الشرقي من الوطن العربي فقد قام به المغول من سكان منغوليا في أواسط آسيا حيث كان لهم دين ونظم

---

(١٠٩) جريدة الثورة العربية، السنة (١١)، العدد (١١)، تشرين الثاني، ١٩٧٩، ص٢٠.

(١١٠) ندوة بغداد لكتابة التاريخ العربي، ص١٩.

(١١١) المصدر نفسه، صص١٩ - ٢٠.

ولغة غريبة كلياً عن الحضارة العربية فاتخذوا موقفاً يخالف موقف عدد من الشعوب التي جاءت من أواسط آسيا أيضاً ولكنها دخلت الوطن العربي تدريجياً وتقبلت حضارته. لقد أحرز المغول انتصارات عسكرية كبيرة، واجتاحوا الأقاليم الشرقية من الدولة العربية وهم يدمرون كل ما في طريقهم واحتلوا بغداد سنة٦٥٦هـ/١٢٥٨م وقضوا على الخلافة العباسية التي كانت في أدنى حالات ضعفها محل تقدير كرمز للوحدة السياسية(١١٢).

إن قوى الظلام هذه لم تتمكن من الارض العربية إلا لأنها كانت متخلفة ومجزأة، فلقد بدأ الوهن يتطرق إلى كيان الحضارة العربية وتذبل شعلتها بفعل عوامل داخلية ولعل في مقدمتها هزيمة رجال العقل أمام رجال النقل وسيادة التفكير الغيبي والخرافي على قطاع كبير من المجتمع العربي، وكانت نكبة الامة تكمن في تقييد الحرية وتعطيل العقل، هذا بالاضافة إلى استبداد الحكام واستئثار الأغنياء والمالكين الاقطاعيين بخيرات البلاد ومرافقها. وقد يسرت تلك العيوب للمحتلين النفاذ إلى الوطن العربي(١١٣).

لقد كان الصليبيون ساعداً قوياً للمغول في هجومهم الشامل على الدولة العربية وتدميرهم العاصمة بغداد. وكان المبشرون الاوروبيون يقومون بدور الوسيط بين ملوك أوروبا وخانات المغول. ومما يذكر أن الصليبيين كانوا يرقصون طرباً وهم يشاهدون مناظر التعذيب والتشفي من العرب والمسلمين(١١٤).

---

(١١٢) المصدر نفسه، ص٢٠.

(١١٣) المقدادي، المصدر السابق، ص٤٦٨ وكذلك د. محمد الهاشمي، علة ركود حضارة العرب في العصور الوسطى، مجلة المؤرخ العربي، العدد (١١)، ١٩٨٠، صص٤٨ - ٥١.

(١١٤) عون الشريف قاسم «العرب وعبرة التاريخ» مجلة العربي، العدد (٢٥٥)، شباط ١٩٨٠، صص١٣ - ١٧.

لقد دفع العرب من أنفسهم ومن تاريخهم الكثير قبل أن يقضوا على تلك الموجة الطاغية من المد الاستعماري الاوروبي وكان ظهور عماد الدين زنكي حاكم الموصل ١١٢٧ - ١١٤٦ بدايةإنحسارمد الصليبين لصالح العرب والمسلمين والذي بلغ نهايته بالبطل العربي صلاح الدين الأيوبي الذي وحد العراق والشام ومصر وانتزع بيت المقدس من الصليبيين سنة ١١٨٧ بعد انتصاره في معركة حطين(١١٥).

ان وحدة مصر وسوريا والعراق والتفاف الأقطار العربية حولها كان نقطة الانطلاق نحو تحطيم الغزوات الخارجية، سواء التي قام بها الصليبيون أو المغول. كان يعقب ذلك «مد وحدوي جارف» وكل خطوة يتحقق فيها انتصار ولو جزئي على الغزاة كانت تصنع القوة القائدة لها في مواقع فرض الوحدة على الاخرين وهذا مما يؤكد أن تيار الوحدة كامن في تكوين الامة العربية وفي مسارها التاريخي(١١٦).

وبعد موت صلاح الدين واستشراء الخلاف بين أبناء أيوب رجعت معظم المدن التي استردها المسلمون إلى الصليبيين واستمرت الحروب سجالاً بين الجانبين، وببروز الظاهر بيبرس ١٢٦٠ - ١٢٧٧ إلى الميدان تتابعت مجموعة صامدة من الامراء أبلت بلاءً حسناً في تقويض نفوذ الصليبيين كان آخرهم الملك الأشرف خليل ١٢٩٠ - ١٢٩٣ الذي حطم آخر معقل للعدو في عكا ودمر استحكاماته على المدن الساحلية وبذلك وضع حداً للنفوذ الأوروبي المباشر على المشرق العربي لمدى أكثر من ستة قرون(١١٧). أما بالنسبة للمغول فقد تمكن العرب من إيقاف هجماتهم بعد الانتصار الحاسم عليهم في موقعة عين جالوت ٦٥٨هـ - ١٢٦٠م(١١٨). وقد

---

(١١٥) المصدر نفسه، صص١٣ - ١٧.
(١١٦) كميل داغر، المصدر السابق، ص١٨٤.
(١١٧) عون الشريف قاسم، المصدر السابق، صص١٣ - ١٧.
(١١٨) للتفاصيل انظر ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ط٢، (بيروت، ١٩٧٧)، صص٢٢٠ - ٢٢٢.

استطاعت الامة العربية، بالرغم من كل الظروف أن تخضع لها الفاتحين البرابرة من المغول رغم ما لهم من قوة عسكرية. لقد مرت الغزوات المغولية والصليبية وأثبتت الامة العربية أنها امة واحدة ومصيرها ومستقبلها واحد كما كان ماضيها في لغتها وتاريخها وإيمانها وواقعها الجغرافي وفي الضمير السائد بينها وهذا ما يؤكد قدرتها في الوقت الحاضر على مواجهة التحديات الامبريالية والصهيونية والرجعية(١١٩).

ما أن فترت الجذوة الصليبية في أوروبا حتى اشتعلت مكانها نار عارمة أذكتها الثورة التجارية ثم الصناعية في القرون الثلاثة الاخيرة. وعاد أمل أوروبا القديم في السيطرة على الأرض العربية إلى الحياة من جديد. وكان الخطر هذه المرة متمثلاً بالاستعمار الاوروبي(١٢٠).

فمنذ بداية العصور الحديثة من أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر تعرض وطننا العربي لمحاولات المستعمرين الاوروبيين للسيطرة على أقطاره الممتدة من المحيط الاطلسي غرباً حتى الخليج العربي شرقاً. وكان البرتغاليون والاسبان، نتيجة لقيادتهم حركة الاستكشاف الجغرافية في القرن الخامس عشر، من أوائل القوى الاستعمارية التي اصطدم بها العرب للذود عن وطنهم(١٢١). وقد تركزت نقاط الصدام في جبهتين الجبهة الاولى على ساحل افريقيا الشمالي العربي والجبهة الثانية على سواحل العرب الجنوبية والخليج العربي والبحر الأحمر. وقد وقفت مجموعة كبيرة من العوامل وراء هذا الغزو لعل من أبرزها الروح الصليبية التي تجلت في طرد العرب في الأندلس ومطاردتهم حتى أقطار المغرب العربي

---

(١١٩) ندوة بغداد لكتابة التاريخ العربي، ص٢١.

(١٢٠) عون الشريف قاسم، المصدر السابق، صص١٣ - ١٧.

(١٢١) للتفاصيل انظر: د. عبد الأمير محمد أمين، دور القبائل العربية في صد التوسع الأوروبي في الخليج العربي خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، بحوث المؤتمر الدولي للتاريخ، آذار ١٩٧٣، ص٦٥٠.

والرغبة في تحطيم التجارة العربية في البحر المتوسط والمحيط الهندي والحصول على مواقع ستراتيجية في هذه المناطق تساعد أساطيل الدولة الغازية على تحقيق أهدافهابسهولةويسر وسرعة.

لقد غزا البرتغاليون المغرب العربي وعملوا على تطويق واحتلال موانيه المطلة على البحر المتوسط. ففي ١٤١٥ استولوا على سبته وفي ١٤٧١ احتلوا مدينة طنجة. اما الأسبان فقد احتلوا الجزائر سنة ١٤٦٣ وطرابلس ١٥١٠ وتونس ١٥٣٥: وقد حاول المستعمرون البرتغاليون والاسبان طمس معالم الحضارة العربية الاسلامية. إلا أن الشعب العربي في المغرب لم يقف مكتوف الأيدي تجاه هذا الغزو وانما قاومه بكل ما اوتي من قوة[١٢٢].

وفي منطقة الخليج العربي والبحر الأحمر تغلغل البرتغاليون واستطاعوا فرض سيطرتهم عليه طيلة القرن السادس عشر. وتميزت سياستهم هناك بالعنف والقسوة والتعصب الديني والعنصري[١٢٣]. وقد خاض عرب الخليج نضالاً لا هوادة فيه ضد المحتلين البرتغاليين وبعد سنة ١٦٢٤ تمكن العرب من تصفية الوجود البرتغالي على الشاطىء الغربي للخليج العربي[١٢٤]. وقد رافق تلك التطورات ظهور دول أوروبية اخرى منافسة للبرتغاليين في الخليج العربي كالهولنديين والفرنسيين والانكليز إلا أن عرب الخليج تحملوا عدة مرات عبء المقاومة وتصدوا للمحتلين في أروع كفاح عرفه التاريخ. وكان لقبائل كعب والقواسم دور حاسم في ذلك الكفاح[١٢٥].

لقد استغل العثمانيون الاتراك، الذين أسسوا دولتهم في الأناضول

---

(١٢٢) للتفاصيل انظر: صلاح العقاد، المغرب العربي، ط٣، (القاهرة، ١٩٦٩).

(١٢٣) عبد الأمير محمد أمين، المصدر السابق، صص٦٥١ - ٦٥٢.

(١٢٤) المصدر نفسه، صص٦٥١ - ٦٥٢.

(١٢٥) لتفاصيل ذلك انظر: عبد العزيز عبد الغني ابراهيم، بريطانيا وإمارات الساحل العثماني، (بغداد ١٩٧٨).

منذ القرن الثالث عشر ومدوا سلطانهم في أوروبا الشرقية حتى وصلوا إلى أسوار أثينا، ضعف العرب وانشغالهم في مقارعة القوى الاوروبية الاستعمارية المتصارعة للسيطرة على سواحل الوطن العربي الجنوبية والشرقية فتقدمت جيوشهم في أوائل القرن السادس عشر نحو الوطن العربي واستولت على الشام ومصر والحجاز واليمن سنة ١٥١٦ والعراق ١٥٣٤ وأقطار المغرب العربي خلال الفترة ذاتها مستفيدين من اعتناقهم الاسلام ونشرهم له في أنحاء جديدة إلا أنهم أهملوا اللغة العربية وشؤون البلاد فطغت البداوة على المدن التي ضمرت وضعفت مؤسساتها(١٢٦). وعاش العرب، خلال السيطرة العثمانية التي استغرقت قرابة أربعة قرون، أخطر مرحلة من مراحل انهيارهم، إذ واجهوا محاولات طمس الشخصية القومية. وبدأ في هذه المرحلة طور من أكثر الأطوار تخلفاً في نظام الانتاج المادي، توقف فيه تطور التكنولوجيا وصودرت الحريات وذبل الابداع وانحطت القيم ودخلت الحضارة العربية في مرحلة الظلام والانهيار(١٢٧).

لقد تعاون الأتراك والفرنسيون (الذين سيطروا على الجزائر سنة ١٨٣٠ وتونس ١٨٨٢ ومراكش ١٩١٢) والانكليز (الذين سيطروا على مصر والسودان ١٨٨٢ - ١٨٨٣) والايطاليون (وقد احتلوا ليبيا سنة ١٩١١) أدواراً متفاوتة في محاولة طمس الشخصية القومية والقضاء على اللغة العربية. كما حاول المستعمرون إعادة ترتيب حقائق الماضي العربي بشكل يخدم أغراضهم الاستعمارية ويشوه حقيقة الامة العربية وتاريخها. وهو دور استنفروا من أجله كل قواهم بدءاً من المبشرين إلى معظم المستشرقين(١٢٨). ومن أبرز النقاط التي جرى التركيز عليها:

---

(١٢٦) للتفاصيل انظر: ساطع الحصري، البلاد العربية والدولة العثمانية، (القاهرة، ١٩٥٧).

(١٢٧) د. عزت حجازي، نحو استراتيجية للتطوير الحضاري في الوطن العربي، مجلة المستقبل العربي، السنة (١٢)، العدد (١٠)، تشرين الثاني ١٩٧٩، ص١٢.

(١٢٨) جريدة الثورة العربية، العدد (١١)، السنة (١١)، تشرين الثاني ١٩٧٩، ص١٦ - ١٧.

١ - إلغاء الوحدة الطبيعية للوطن العربي وصرف نظر المواطن عنها عن طريق إبراز المدن التاريخية عبر العصور المختلفة باعتبارها بيئات جغرافية مستقلة.

٢ - إلغاء الوحدة الاجتماعية للامة العربية عن طريق إبراز المسيرة الحضارية للوطن العربي على أنها مسيرة أقوام مختلفة، وإهمال خصوصيتها الواحدة وسماتها المشتركة ونمطها المتميز.

٣ - إلغاء فكرة وجود تاريخ عربي واحد للامة العربية وقتل روح الولاء لها بابراز مواقف الانكسار في تاريخها وتصويره على أنه تاريخ تناصر وانقسامات وهزائم فحسب.

٤ - إفراغ التاريخ العربي من روح الثورة، بالغاء الدور الاجتماعي للثورات والتمويه عليه. كما حصل في التعامل مع الاسلام باهمال دور الرسول كقائد وتصوير صيغ إنجازه للثورة على أنها مجرد أحاديث يختلف في صحتها.

٥ - إفراغ التاريخ العربي من روح المجتمع ودور الجماهير ومحاولة تصويره كتاريخ سياسي للاسر والخلفاء فحسب، خلافاً للحقيقة.

٦ - إلغاء سمة العقلانية والتنظير والتنظيم (المنهجية) في التاريخ، وتشجيع النظرة العفوية والسطحية المستسلمة[١٢٩].

إن خلاصة تلك الجهود تتركز، بالاضافة إلى ما أشرنا إليه من محاولة طمس الأصالة القومية للامة وتفتيتها وأساليب فرض الولاء لها، في العمل العدواني.. مرحلة تعزيز نتائج الفعل الاستعماري القائم على تجزئة الأرض العربية الشرط الضروري لاستمرارية ذلك الفعل والحيلولة دون قيام حركة تحديث حقيقية ناجحة في المنطقة التي أريد لها أن تدمج كتابع في نظام

(١٢٩) المصدر نفسه، صص١٦ - ١٨.

الاقتصاد الاوروبي الجديد «اقتصاد السوق» فتكون مصدراً للمواد الخام بأسعار رخيصة وسوقاً مضمونة للمواد المصنعة وطريقاً آمنة بين أوروبا ومستعمراتها الاخرى في الشرق[١٣٠].

إلا أن ثقة العرب بالمعالم الموحدة لحضارتهم من لغة وأدب وثقافة ومثل أخلاقية لم تتزعزع بالرغم من كل تلك التحديات ولم يستسلموا لها ولم يستبدلوا ولاءهم بل إن هذه الجوانب ظلت عنصراً أساسياً في كيانهم ومقومات أساسية لهم وعامل وحدة شاملة في جياتهم رغم ما بدا عليهم من تفكك وجمود ظاهري. وما أن حل النصف الثاني من القرن التاسع عشر حتى ظهرت ملامح نهضة حديثة في الوطن العربي عبرت عن نفسها بأشكال متعددة وبدرجات متفاوتة بالنسبة إلى علاقة الأقطار العربية بمراكز الحضارة المعاصرة[١٣١].

مرحلة النهضة الحديثة:

لقد حملت النهضة العربية المعاصرة معنى الجواب على تحدي الهوية والمصير. لأن السيطرة الأجنبية في الوطن العربي قد تجاوزت حدود الاحتلال والاضطهاد والاستغلال في الوطن العربي إلى جدود طمس الشخصية القومية، كما أشرنا انفاً ومقاومة عوامل اليقظة في الامة العربية. فمحاولة التتريك في المشرق كمحاولة الفرنسة في المغرب، كغيرها من محاولات الاستعمار البريطاني في فلسطين والاستعمار الايطالي في ليبيا... كلها تتركز على تفتيت الوطن العربي وتعميق التجزئة فيه واقتطاع أجزاء تسلب منه وقطع الصلة بين ماضي العرب وحاضرهم وبين واقعهم وآمالهم وبين حياتهم الراهنة وتطور العالم المعاصر[١٣٢].

---

(١٣٠) حجازي، المصدر السابق، ص١٢.

(١٣١) من أحدث الدراسات التي تناولت أبعاد النهضة العربية، كتاب الدكتور فهمي جدعان «اسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث، (بيروت، ١٩٧٩).

(١٣٢) د. الياس فرح، الوطن العربي بعد الحرب العالمية الثانية، (بيروت، ١٩٧٥)، صص١١ - ١٢.

لقد اتخذت اليقظة العربية الحديثة ملامحها الأساسية في عديد من الأحداث، منها داخلية ومنها خارجية. وقد كان لهذه الأحداث أثرها في تنبيه الشعور القومي العربي. ولعل من أبرز تلك الأحداث:

١ - غزو نابليون لمصر سنة ١٧٩٨ وما خلفه هذا الغزو من مشاعر الصدمة والأسى للتخلف وآمال الخلاص منه[١٣٣].

٢ - قيام محمد علي في مصر وتأسيسه أول دولة حديثة في الوطن العربي ورفعه راية الثورة ضد السيطرة العثمانية ومحاولته توحيد الأراضي العربية في دولة واحدة[١٣٤].

٣ - الآثار التي تركتها حركة التنظيمات والإصلاحات التي بدأت في الدولة العثمانية منذ أواخر القرن الثامن عشر والمرتكزة على الاتجاه الذي يدعو إلى الأخذ بأساليب العلم التطبيقي الأوروبي وطرائق التنظيم الأوروبية في المجالات العسكرية والاقتصادية ثم مجالات الادارة والقانون والتعليم فيما بعد. وقد ارتبطت تلك الإصلاحات في مصر بإسم محمد علي وفي العراق والشام بإسم مدحت وفي تونس باسم خير الدين التونسي[١٣٥].

٤ - ظهور بعض حركات التجديد في الوطن العربي مثل الحركة السنوسية والحركة المهدية والحركة الوهابية. وكان هدف هذه الحركات الرجوع بالإسلام إلى نقائه الأول وتطهير مما علق به من البدع والخرافات والوقوف بوجه التغلغل الاستعماري الاوروبي. ولقد ظهرت هذه الحركات حيث نمت التوترات الداخلية في المجتمع العربي بعيداً عن أي مؤثرات خارجية سواء من الشرق أو من الغرب[١٣٦].

---

(١٣٣) المقدادي، المصدر السابق، ص٤٨٩.

(١٣٤) للتفاصيل انظر: جوزف حجار، أوروبا ومصر... الشرق العربي، ترجمة بطرس الحلاق وماجد نعمة، (بيروت، ١٩٧٦).

(١٣٥) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى، حركة التجديد الاسلامي في العالم العربي الحديث، (القاهرة، ١٩٧١). صص٢٦ - ٢٧.

(١٣٦) المصدر نفسه، ص٢٤.

كما بدأت من الفترة ذاتها نهضة ثقافية في الوطن العربي بعد فترة طويلة من الركود الفكري. وقد تجلت هذه النهضة في ازدياد عدد المدارس الحديثة، وانتشار الطباعة والصحافة وكثرة الجمعيات العلمية والأدبية[١٣٧].

لذلك كله فقد طرح الفكر العربي في بدء حركة النهضة هذه جملة من التساؤلات التي تتعلق بطبيعة التناقضات الأساسية في حياة العرب وواقعهم. وقد تمثلت الإجابة بظهور عدة نزعات فكرية ذات اطر سياسية واجتماعية مختلفة أهمها ما يأتي[١٣٨].

١ - النزعة الدينية - المدنية الإصلاحية التي مثلها الرواد الأساتذة رفاعة رافع الطهطاوي ١٨٠١ - ١٨٧٣ وجمال الدين الأفغاني ١٨٢٩ - ١٨٩٧ ومحمد عبده ١٨٤٩ - ١٩٠٥ ومحمد رشيد رضا ١٨٦٥ - ١٩٢٥ وتلاميذهم وخاصة خارج مصر في تونس والجزائر والشام، والمثال على ذلك أفكار كل من عبد الحميد بن باديس في الجزائر وطاهر الجزائري وأصحاب جمعية العلماء بتونس. وقد كانت هذه النزعة محاولة لتجاوز نزعتين متعارضين:

(أ) النزعة الدينية - التقليدية التي تمثل النظرة الشكلية غير الجوهرية للإسلام فتطمس جوهره الحضاري وتأسر الفكر ضمن إطار التقليد والمحاكاة للقديم وتغلق باب الاجتهاد وتبعد المجتمعات الاسلامية عن التفاعل مع التطور العلمي والحضاري الحديث.

(ب) النزعة العقلانية - العلمانية التي تنطلق من نظرة خارجية إلى الواقع وتتجاهل الصلة الطبيعية بين الماضي والحاضر وتقفز إلى مستقبل لا صلة له بهذه الديمومة التاريخية الواقعة

(١٣٧) المقدادي، المصدر السابق، صص٤٨٩ - ٤٩٠.

(١٣٨) د. الياس فرح، الأبعاد الفكرية والنضالية لتأسيس البعث، (بيروت، ١٩٧٥) صص٣ - ٧.

فتتخذ تصوراتها الإصلاحية طابعاً طوباوياً مغرقاً في رد الفعل وفي الذاتية وتورتدي أحلاماً تقدمية.

٢ - النزعة القومية - الدينية التي مثلها الرائد عبد الرحمن الكواكبي ١٨٥٤ - ١٩٠٢ في كتابيه (طبائع الاستبداد و (ام القرى) وهو الذي عدّ العرب (الامة الجديرة بحفظ الاسلام من الفساد) ودعا إلى (خلافة عربية) وإلى (نقل ميزان القوة من الديار العثمانية إلى الجزيرة العربية) ووجه فكرة الإصلاح الديني بشكل يتفق مع الفكرة العربية القومية.

٣ - النزعة القومية - التاريخية التي انعكست ملامحها في كتابات الجيل الأول من المفكرين العرب أمثال الشيخ ناصيف اليازجي ١٨٠٠ - ١٨٧١ وبطرس البستاني ١٨١٩ - ١٨٨٣ الذين استنهضوا همم العرب عن طريق التذكير بماضيهم الحضاري وبعظمتهم الماضية وأشادوا بالعزة العربية واعتزازهم بالحضارة العربية وعملوا على إحياء وعي العرب لتاريخهم.

٤ - الفكر الاجتماعي - التقدمي الذي تمثل في كتابات رواد الاشتراكية في الوطن العربي أمثال شبلي شميل ١٨٥٠ - ١٩١٧ الذي كان يعظم أهمية العلم ويدعو لنظرية التطور الداروينية والذي كان أول من وضع منهاجاً للحزب الإشتراكي في مصر سنة ١٩٠٨. وكذلك كتابات أحد تلامذة الشيخ محمد عبده وهو قاسم أمين ١٨٦٥ - ١٩٠٨ عن حرية المرأة والذي أولى في كتابيه (تحرير المرأة) و (المرأة الجديدة) عناية كبرى للمسألة الاجتماعية والتقدم الاجتماعي.

هذا بالإضافة إلى رواد الفكر الاجتماعي التقدمي في العراق والذين لعبوا دوراً كبيراً في الدعوة إلى تحرر المرأة وخاضوا في مسائل تتعلق بالسفور والحجاب وامور اخرى كحرية الرأي والفكر والتعبير أمثال جميل صدقي الزهاوي ومصطفى علي ومحمود أحمد السيد وحسين الرحال وغيرهم. ويمكن

أن ندخل الافكار الموجهة للانتفاضات الفلاحية في الوطن العربي وخاصة العاميات اللبنانية ١٨٥٨ - ١٨٥٩ التي نادت بقيام جمهورية شعبية.

٥ - النزعات الاقليمية التي اكتفت بالرابطة القطرية (الوطنية الاقليمية) أو بالإطار الجغرافي المباشر (الهلال الخضيب) و (وادي النيل) وأخذت شكل نظرة قومية تجزيء الامة العربية إلى امم (كالقومية السورية) التي هربت إلى إطار جغرافي أوسع في حدود الوطن (النزعة الشرقية والنزعة المتوسطية) حيث تهيمن فكرة القارة الأسيوية بمفهومها الحضاري الشرقي أو المفهوم الثقافي الجغرافي (ثقافة بلاد حوض المتوسط) وكالنزعة السلفية (النزعة الفرعونية والنزعة الفينيقية) وهي كلها نزعات مصدرها رد فعل إنكماش إقليمي ضد أخطار حقيقية أو موهومة تتسلح بمختلف الحجج والنظريات لحجب الدوافع الكامنة وراء موقفه السلبي.

٦ - الإتجاهات القومية الخالصة: وهي التي تتمثل في آراء نجيب عازوري (٠٠٠ - ١٩١٦) صاحب كتاب «يقظة الامة العربية في آسيا» والذي صدر في باريس سنة ١٩٠٥. وقد أنشأ عازوري في باريس سنة ١٩٠٤ رابطة باسم الوطن العربي جعلت شعارها «أرض العرب للعرب» وفي أول بيان أذاعته الرابطة على الدول الغربية قالت فيه بصراحة «إن العرب الذين لا يستبد بهم الأتراك إلا بفضل سياستهم القائمة على إبقائهم منقسمين بأسباب واهية من المذهب أو الدين فقد وعوا وحدتهم القومية والتاريخية والجنسية وانهم قد عقدوا العزم على الانفصال عن الدولة العثمانية وتكوين دولة مستقلة بهم».

---

٧ - الفكر الامي اللاقومي والذي بدأ في مرحلة العشرينات والذي يكتفي بطرح القضية الاجتماعية طرحاً نظرياً لا يعتمد على تحليل الواقع

الاجتماعي المباشر، قافزاً من فوق القضية القومية متجاهلاً أحد التناقضات الأساسية في الواقع العربي وهو تناقض التجزئة[١٣٩].

لقد نتج عن الوعي القومي الذي نما في القرن التاسع عشر أن تطورت الحركة العربية القومية من مجرد دعوات لمعلمين ومشاعر تجيش في صدر الأحرار إلى حركة منظمة لها أنصارها وبرامجها السياسية. ومما زاد في بلورة الناحية التنظيمية في حركة القومية العربية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين التطورات التي حدثت في الدولة العثمانية التي كان من أبرزها الإنقلاب العثماني الدستوري لسنة ١٩٠٨ الذي خلع السلطان عبد الحميد الثاني سنة ١٩٠٩[١٤٠]. وقد ساهم أحرار العرب إلى جانب أحرار الأتراك في الإنقلاب أملاً بحصول العرب على حقوقهم المشروعة. وقد قام العرب الموجودون في اسطنبول بتأسيس جمعيات عربية تتعاون مع الإتحاديين. إلا أن الإتحاديين، بدلاً من أن يحققوا للعرب مطامحهم فانهم اتجهوا نحو تطبيق مركزية شديدة وتمجيد النعرة الطورانية واستخدموا لتحقيق ذلك الإرهاب[١٤١].

كذلك كان لفشل السلطات العثمانية في الدفاع عن طرابلس العربية ضد الغزو الإيطالي لها سنة ١٩١١ أن أحس العرب بضرورة إبراز كيانهم السياسي الخاص المتميز، ومن ثم ظهرت فكرة اللامركزية كأول تعبير عن ذلك الإتجاه المستقل للحركة العربية ثم اتجه أحرار العرب إلى تنظيم أنفسهم في جمعيات وحركات سياسية سرية لمواجهة الأخطار الجديدة منها جمعية العهد وجمعية العربية الفتاة[١٤٢].

---

(١٣٩) المصدر نفسه، صص٣ - ٧.

(١٤٠) للتفاصيل انظر: جورج انطونيوس، يقظة العرب، تاريخ حركة العرب القومية، ترجمة ناصر الدين الاسد وإحسان عباس، (بيروت، ١٩٦٦).

(١٤١) المقدادي، المصدر السابق، صص٤٩٣ - ٤٩٥.

(١٤٢) المصدر نفسه، ٤٩٣.

ثم عقد العرب مؤتمرهم الأول في باريس في حزيران ١٩١٣ وحضره مندوبون عن معظم الأقطار والجمعيات العربية [١٤٣]. وقبيل الحرب العالمية الاولى لعبت الجمعيات القومية وخاصة جمعيتي العهد والعربية الفتاة دوراً كبيراً في القضية القومية ومن ذلك تعاونها مع شريف. مكة الحسين بن علي والقيام بثورة العرب الاولى في الحجاز سنة ١٩١٦[١٤٤]. وقد ساهمت هذه الثورة في تقويض أركان الدولة العثمانية وسقوطها. إلا أن الانكليز والفرنسيين عقدوا فيما بينهم معاهدة سايكس - بيكو (١٥ ايار ١٩١٦) لاقتسام الوطن العربي فيما بينهما. وفي الوقت ذاته قدم الانكليز للصهيونية العالمية تصريح بلفور الذي وعدهم باقامة كيانهم الاستعماري الاستيطاني الغريب في فلسطين للحيلولة دون قيام الوحدة العربية[١٤٥]. ولا شك فان هذين المشروعين يخالفان اتفاقهم مع الشريف حسين والمتعلق بمساعدتهم للعرب على تحرير أقطارهم من النير العثماني وتحقيق وحدتهم القومية[١٤٦].

وبعد انتهاء الحرب العالمية الاولى وقع المشرق العربي في يد دولتين أجنبيتين قسمتاه إلى كيانات سياسية متعددة. وهكذا قامت تحت السيطرة البريطانية كيانات العراق وشرق الاردن وفلسطين. وقامت تحت السيطرة الفرنسية سوريا ولبنان. وإذا تركنا مشرق الوطن العربي ونظرنا إلى مغربه، نرى أنه كان خاضعاً عند نهاية الحرب العالمية الاولى للسيطرة الاستعمارية الغربية كما أشرنا إلى ذلك من قبل[١٤٧].

---

(١٤٣) للتفاصيل انظر: محب الدين الخطيب (جمع ونشر) المؤتمر العربي الأول، صادر عن اللجنة العليا لحزب اللامركزية، (القاهرة، ١٩١٣).

(١٤٤) للتفاصيل انظر: خيرية قاسمية، الحركة العربية في دمشق بين ٨-١٠-١٩٠٠، (القاهرة، ١٩٧١) صص٢٤-٢٨.

(١٤٥) للتفاصيل انظر: د. عبد الوهاب الكيالي، الموجز في تاريخ فلسطين الحديث، (بيروت، ١٩٧١)، ص٣٤.

(١٤٦) قاسمية، المصدر السابق، صص٣٦-٤٥.

(١٤٧) خلدون ساطع الحصري، حول الوحدة العربية، مجلة المستقبل العربي، السنة (٢) العدد (١٠) تشرين الثاني ١٩٧٩، ص١١٤.

إن الظاهرة الاستعمارية قد جعلت المجتمع العربي في الأقطار العربية جميعها بعد الحرب العالمية الاولى خاضعاً خضوعاً كاملاً للنظام الرأسمالي. فهو أحد نقاط المحيط التابعة للمركز المتمثل بـأحد العـواصم الأوروبية الكبرى، فالقطاعات الأساسية للبناء الاجتماعي في الوطن العربي وهي: القطاع البدوي والريفي والحضري ظلت طيلة المرحلة الاستعمارية خاضعة لأنواع من الاستغلال والتوجيه الاستعماريين الأمر الذي أدى إلى سيطرة الإقطاع وتحكم النظام القبلي وارتفاع نسبة السكان في القطاعين البدوي والريفي وانخفاضها في القطاع الحضري ثم إلى غلبة الصفة الإنقسامية بين المجتمعات العشائرية ونشوء نوع من العزلة بينها وبين المدن وإلى إنعدام تقسيم عمل الريف بالمعنى الحديث للكلمة وبقاء الـريف يعمل حسب الأساليب البدائية، وإلى عدم نشوء طبقة عاملة، أو صناعة وطنية إنتاجية تلبي حاجات التطور الداخلية، وإلى اتساع الشقة بين الريف والمدينة، وإلى إنتشار الامية وإلى تعطيل دور المرأة(١٤٨).

كما انعكست الظاهرة الإستعمارية بوجه خاص على الواقع التعليمي والتربوي في الأقطار العربية، فهي بالإضافة إلى الحد من التعليم بشكل لا يسمح لأبناء الطبقات الشعبية بالدخول إلى المدارس وهي كذلك إلى جانب محاربتها المراكز الثقافية التاريخية القديمة والحيلولة دون تطويرهـا، كانت تهدف من خلال المدارس القليلة التي كانت في معظمها مدارس تبشيرية، والتي نشأت في هذه المرحلة محاولة تكوين جيل مؤمن بالثقافة الإستعمارية متطلع إلى خدمة النظام الإستعماري بكل تفان وإخلاص، مبتور الصلة بماضيه القومي وبتطلعات شعبه(١٤٩).

لقد تميزت هذه المرحلة بعنف الصـراع بين الـدول الإستعماريـة والقوى العربية. فقامت سلسلة متلاحقة من الثورات الوطنيـة في طول

---

(١٤٨) د. الياس فرح، الوطن العربي بعد الحرب العالمية الثانية، (بيروت، ١٩٧٥)، صص١٢-١٣.

(١٤٩) المصدر نفسه، ص١٥.

الوطن العربي وعرضه منها ثورة مصر سنة ١٩١٩ ضد الإحتلال البريطاني[١٥٠]. وفي سوريا وقفت الحكومة العربية في دمشق وقفتها الشهيرة في ميسلون تحاول صد العدوان الفرنسي[١٥١]. أما في العراق فقد اندلعت ثورة العشرين الكبرى ١٩٢٠ ضد الإستعمار البريطاني[١٥٢]. ثم عاودت سوريا الكرة مرة اخرى ضد الفرنسيين سنة ١٩٢٥.[١٥٣]. وأما في فلسطين، فإن تاريخها خلال العشرينات والثلاثينات من هذا القرن حافل بأخبار الإنتفاضات والثورات (ثورات ١٩٢٠، ١٩٢٩، ١٩٣٦ ...) ضد الوجود الصهيوني وحليفه الرئيس جيش الاحتلال البريطاني[١٥٤]. وقد شهد المغرب العربي منذ بداية القرن الحالي تنوعاً في أساليب النضال ضد الغزو الأمبريالي تفاوتت بين المقاومة السياسية والمقاومة المسلحة ولعل من أبرز هذه الثورات، ثورة الجزائر ١٩٢٠ بقيادة الأمير خالد حفيد الأمير عبد القادر الجزائري وثورة ١٩٣٤ في تونس وثورة ليبيا بقيادة المجاهد العربي عمر المختار في الثلاثينات من هذا القرن[١٥٥].

لقد تجلت وحدة الكفاح العربي من خلال التفاعل بين أطراف الحركة القومية العربية ولقد عبر عن ذلك تعبيراً بليغاً المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي الذي كتب يقول حين رفض المغاربة في إرسال جنود لهم للمحاربة ضد

---

(١٥٠) للتفاصيل انظر: عبد العزيز نوّار «ثورة ١٩١٩ وأثرها في الحركات النضالية»، مجلة الهلال، السنة (٧٤) العدد (٤) أول نيسان ١٩٦٦ صص٧٤ - ٨٣.

(١٥١) للتفاصيل انظر: ساطع الحصري، يوم ميلسون، (بيروت، ١٩٦٤).

(١٥٢) للتفاصيل انظر: عبد الرزاق الحسني، الثورة العراقية الكبرى، ط٣ (صيدا، ١٩٧٢).

(١٥٣) للتفاصيل انظر: وليد قزّيها «القومية العربية في مرحلة ما بين الحربين العالميتين» مجلة المستقبل العربي، السنة (١)، العدد (٥) ١٩٧٩، ص٥٥.

(١٥٤) المصدر نفسه، ص٥٥، وللتفاصيل انظر: الكيالي، المصدر السابق، صص٣٥-١٧٣.

(١٥٥) للتفاصيل انظر: نبية الاصفهاني، «تطور الحركة السياسية في منطقة المغرب العربي» مجلة المستقبل العربي، السنة (٢) العدد (١٤) نيسان ١٩٨٠، صص٨٢-٩٨.

إخوانهم عرب دمشق سنة ١٩٢٥ بجوار فرنسا «إن الحركات الوطنية في مصر وفلسطين وسوريا تجد لها أصداء في تونس والجزائر». كما كان الشيء نفسه صحيحاً بالنسبة للأحداث الوطنية في كل قطر عربي[١٥٦].

لم تمتلك الحركة العربية في تلك المرحلة نظرة ثورية متبلورة. وتميزت بالعفوية، والإفتقاد إلى التنظيم والتخطيط. ولم يكن لديها برنامج للتغيير الاجتماعي والاقتصادي بسبب طبيعة قياداتها البرجوازية. كما أن الطبقة العاملة كانت آنذاك في مرحلة التكوين ولم تكن منظمة ولم يكن لها أي دور مهم في حياة المجتمع. وقد انعكس جدل الصراع بين الظاهرة الاستعمارية وبين حركة التحرر العربي على الحياة العربية بكل مظاهرها الاقتصادية والاجتماعية والفكرية. ذلك أن تحالف الاقطاع ورأس المال الوطني مع رأس المال الأجنبي والسلطات الاستعمارية في معظم الأقطار العربية كانت له نتائج مؤثرة على البنية الطبقية وعلى الوعي الطبقي والقومي. لأن هذه الظاهرة قد وضعت الغالبية العظمى للشعب العربي في صف (العمال والفلاحين والجنود والمثقفين الوطنيين) والطبقة الحاكمة المستغلة المتحالفة مع المصالح الإستعمارية في صف آخر[١٥٧]. لذلك اشتد تحالف الطبقات والشرائح الاجتماعية خاصة بعد تحول بعض قيادات الحركة العربية من صفوف الثوار والمناضلين من أجل الاستقلال إلى صفوف الطبقات التي استطاع المستعمرون كسبها إلى جانبه. وقد حققت تلك النشاطات للطبقة البرجوازية النامية مجالات أكبر للنمو والتوسع ورسخت في كثير من المواقع وجود الطبقة الإقطاعية ولكنها من جهة أخرى زرعت بذور الصراع الطبقي[١٥٨].

إن وعي تلك الطبقات لحدود إمكاناتها في مواجهة القوى

---

(١٥٦) المصدر نفسه، ص٨٨.

(١٥٧) فرح، الوطن العربي بعد الحرب العالمية الثانية، ص٢١.

(١٥٨) جريدة الثورة العربية، السنة (٢)، العدد (٣)، ١٩٧٠، صص١٠٢-١٠٣.

الإستعمارية جعلها أكثر تقبلاً لصيغة المشاركة بالسلطة وبذلك ضمنت لها. تلك المشاركة بعضاً من المكاسب التي أدخلت الارتياح في نفوسها وجعلتها أكثر تقبلاً للوجود الإستعماري. فعلاوة على تثبيت وتوسيع قاعدة تلك الطبقات الاقتصادية عملت السلطات الاستعمارية على توفير مناخ صالح لنمو وتطور مصالحها[١٥٩].

وبذلك واجهت الحركة العربية القومية مهام ذات طابع جديد، ودخلت مرحلة جديدة حاسمة من مراحل تطورها فبرزت الحاجة إلى تكوين أحزاب سياسية جديدة تعكس الأهداف القومية والطبقية التحررية الاستقلالية. وقد ظهرت حركات وأحزاب وطنية في كل قطر[١٦٠]. ولكن تلك الأحزاب والحركات لم تقم على أسس ثورية وتنظيمية دقيقة، بل كان يغلب عليها إلى حد بعيد طابع اللبرالية والإصلاحية وتفتقر إلى القيادات الصلبة الواعية وإلى العقيدة الواضحة ذات البعد الاجتماعي - القومي - الإنساني. كما كان يعوزها التنظيم الثوري المعاصر. ومن هنا فقد ظهرت الحاجة إلى قيام حركة جديدة تتجاوز الاتجاهات القومية اللاإشتراكية والإشتراكية اللاقومية والدينية والإقليمية. ولم تكن تلك الحركة سوى حزب البعث العربي الاشتراكي الذي جاءت ولادته تعبيراً عن حاجة الامة العربية واستيعاباً لحركة التاريخ الصاعدة.

إن حركة الثورة العربية التي يمثلها حزب البعث العربي الاشتراكي التي تقوم في امتنا كواقع قوي، إنما تمثل في حقيقتها وفي اتجاهاتها بذور النهضة الفتية، تمثل إدارة الحياة الجديدة القومية، تمثل متطلبات النهضة والصمود، تمثل صورة القمة التي تتوق إليها الامة العربية[١٦٠].

---

(١٥٩) قزيها، المصدر السابق، صص٥٥-٥٩.

(١٦٠) فرح، الوطن العربي بعد الحرب العالمية الثانية، ص٢١.

(١٦١) البعث العربي ضرورة تاريخية، ص١٥.

لقد رافق ذلك التحول النوعي في حركة الثورة العربية، تحولات وطنية وقومية في أقطار عربية متعددة. وأصبح القرن الذي نعيشه يشهد التجدد القومي الجديد للامة العربية[١٦٢].



(١٦٢) ندوة بغداد لكتابة التاريخ العربي، ص٢٨

حضارة البدو

بقلم
الدكتور/ حسين مؤنس
جامعة القاهرة

البدو: طبيعة جغرافية ونمط اجتماعي:

البدواة طراز من الحياة البشرية معروف، ومعناها الحياة في المساحات الشاسعة التي لا تتوفر فيها مطالب الحياة الأساسية من مياه ونبات إلّا بقدر ضئيل جداً لا يعين الجماعة البشرية على القيام بصورتها المنتظمة المتآلفة ولا يمكنها من الحصول على المقادير الكافية من الغذاء ووسائل الحياة لتمارس الجماعة حياة راضية عاملة منتجة تتحصّل لها فيها مقادير زائدة عن الحاجة من الطعام والكساء ومواضع السكنى، وهي البيوت بشتى أشكالها وأنواعها وطبقاتها.

ويطلق لفظ البدو في العادة على الصحاري المجدبة التي تنبت فيها زروع قليلة جداً وجافية لا يسهل تناولها على الإنسان ومعظم الحيوان ويطلق لذلك على سكان هذه الصحاري وفي العادة لا تظهر هذه الزروع أو النباتات إلّا في مواسم معينة، في الخريف والشتاء والربيع خاصة، وهي تظهر لفترات قصيرة ثم تجف وتتلاشى. وعلى هذه النباتات تعيش حيوانات وهوام تعودت بطبيعتها الاكتفاء بالقليل جداً من الطعام والقدرة على أكل النبات الجاف القريب من الشوك والصبار ومضغه وهضمه أو أكل النبات

الجاف القاسي مثل الغاب الجاف وبعض الجذور الصلبة والاكتفاء بأقل قدر ممكن من الماء والرطوبة. وقد تلاءمت طبائع هذه النباتات والحيوانات والهوام مع تلك الطبيعة القاسية وألفتها، وعاشت فيها حياة قاسية ولكنها مستقرة هادئة وآمنة إلى حد بعيد.

وهذا الأمن هو الميزة الكبرى لهذا النوع من الحياة، فإن حيوان البدو وهوامه أصلها حيوانات وهوام عادية. كانت تعيش في نفس البقاع قبل أن تجف ويغيض خيرها شيئاً فشيئاً، لأن كل صحاري الأرض كانت في أحقاب ماضية أراض وافرة المياه والخصب كثيرة الزروع، ثم تغيرت الأحوال بدخول الأرض في عصورها الثلجية المعروفة وخروجها منها، فغاضت مياهها وقلت أمطارها واختفت شيئاً فشيئاً زروعها وتغيرت طبيعتها واشتدت عليها حرارة الشمس فاحترقت بقية الزروع وتبخر الماء، فلم يبق من الزروع إلاَّ الجس القاسي ذو الجذور الطويلة التي تصل إلى الأعماق حيث الماء أو الرطوبة أو الذي يتغطى بطبقات سميكة من اللحاء تحفظ الرطوبة الداخلية كما نرى في نباتات الصبار. وعلى هذا النبات القليل يعيش حيوانات وهوام هي بقايا حياة زاخرة، وقد رضيت هذه الحيوانات والهوام بهذه الحياة القاسية ولم تهاجر من مواطنها في طلب غذاء أيسر ومياه أوفر. وهي عندما بقيت في مواضعها تلك حافظت على حياتها وبقيت أنواعها، فإن أعداءها في هذه الطبيعة القاسية قليلة، ثم إن مأويها باطن الأرض إذا كانت صغيرة الحجم أو الكهوف والغيران إذا كانت كبيرته.

وأراضي البدو هذه أنواع، فمنها الصحارى وهي أنواع مختلفة.

فهناك صحاري الرمال. وهي التي فقدت غشاءها المتماسك الذي ينبت فيه النبات فجفت تماماً وتفتتت وتحولت إلى رمال لا ينبت فيها شيء لأن أي ماء يسقط عليها يغيض في باطنها، ثم إن تفكك رمالها لا يسمح لأي نبات بأن يضرب فيها جذوراً.

وهذه هي صحاري كثبان الرمال التي تتموج تمُوّج أمواج البحر في حركة بطيئة جداً لا يلحظها الانسان إلّا في حالات الأعاصير.

وهناك صحاري الصخور، ذات الأرض الصخرية التي لا ينبت عليها ماء ولا يتخللها منه شيء وهذه هي أقسى الصحاري وتعرف بالحمادات وتعرف بأراصي الموت.

وهناك صحاري الرمال والصخور، أي تتعاقب فيها مساحات الرمال ومساحات الصخور، وقد تقوم فيها مرتفعات بازلتية تسمى الحرات جمع حرة أو جبال من الحجر الرملي أو الحجر الجيري، وكل هذه لا ينمو فيها إلّا نبات ضئيل جداً، وتعيش عليه أحياء لا يكاد يراها الانسان، فهي إما غزلان أو نبات أو ضباع أو ضباب أو أرانب وما إلى هذه من الحيوان الشديد الخوف البالغ الحرص على حياته فهي تألف هذه البيئة الطبيعية الخالية القاسية لأنها تأمن فيها على حياتها.

وأهم هذه الحيوانات وأكبرها هي الجمال، فهي على ضخامة أحجامها حيوانات شديدة الخوف لأنها لا تملك أي وسائل فعالة للدفاع عن النفس. ولهذا فهي توغل في القفز طلباً للأمان، وهي لم تتوغل في القفار دفعة واحدة بل تم لها ذلك مع الزمن الطويل، وخلال هذه الأزمان تكيفت أجسادها مع طبيعة القفار، فنما فيها الخف الذي لا يغوص في الرمال ولا تنال منه الصخور كثيراً، وتهيأت أجهزتها الهضمية وبقية تكوينها على نحو يمكنها من إختزان المياه في أجوافها، وهي لا تختزن هذا الماء بل يتحول إلى مادة هلامية في مجار خاصة في أجسادها، ونما فيها السنام أو السنامان لاختزان الشحوم وما إلى ذلك.

وسنتحدث عن الجمال فيما بعد ولكننا نقول هنا أنها مرَّت في تطورها بمراحل شتى فقد عثر الباحثون على أحافيرها التي ترجع إلى ملايين السنين، إذ أن الجمال من أقدم الحيوانات ظهوراً على وجه الأرض، وكانت في أول

أمرها صغار الأحجام صغيرة السنام والاخفاق لأن بيئات حياتها كانت غنية بالمياه والنبات وعندما أخذت البيئة في الجفاف وهاجر منها غيرها من الحيوان بقيت هي بفضل طلقتها الطبيعية وما ملكت من سنام صغير وخف أصغر ومع بقائها زادت السنم والاخفاق وكبرت أحجام الجمال وأخذت أشكالها القريبة من أشكالها اليوم.

صحاري الأستب والحشائش القصيرة:

وهناك أراضي بدو أخرى أقل شظفاً من الصحاري وهي مناطق الأستيب أي الحشائش القصيرة وهذه الأراضي تدخل ضمن الصحاري لأن نباتها قليل ومياهها ضئيلة. فهي لا تعيش على الحياة المستقرة ولا تسمح للجماعات البشرية التي تعيش فيها بالتدرج مع العمران إلى مسافات طويلة ولكن هذه السهوب أو الاستب غنية بحيوان الرعي من الغزلان بأنواعها والأعناز وربما عاشت فيها أبقار وحشية صغيرة ولهذا فهي مناطق الرعي والصيد.



الحصان:

وأهم حيوان نشأ في هذه المناطق هو الحصان الذي عثرنا على أقدم أحافيره في صحراء جوبي جنوبي منغوليا وهو حيوان قوي سريع العدو قليل الذكاء وقد أستأنسه الانسان من عشرات الألوف من السنين ووجد فيه سلاحاً مفيداً جداً وخاصة في الحروب، فركبه واستخدمه في الهجوم والفرار أي الكر والفر، وزادت عنايته به وبتربيته وابتكر له السروج واللجم ووسائل العناية بالحافر وهو ظلف الحصان، وهو في البيئة الطبيعية للحصان وهي الاستب يكفي الحصان لمطالبه ولكن عندما أستأنسه الانسان واستخدمه في عنف إزداد تآكل الظلف، فابتكر الانسان تركيب الحدوة المعدنية لحماية ظلف الحصان من التآكل التام مع الاستعمال الكثير والسير على الأراضي الصخرية الصلبة.

وفي أراضي السهوب أو الأستب هذه توجد من حين لحين بحيرات هي في الحقيقة برك ومستنقعات، مياهها تكفي للشرب ولكنها لا تكفي للري إلا بقدر ضئيل جداً، وهذه البقع المائية هي مراكز الحياة البشرية في أراضي السهوب إذ يجد الناس وحيوانهم ما يكفي من ماء الشرب. وعماد حياتهم على الرعي والصيد: رعي الحيوان المستأنس وصيد الحيوان البري. وحياة الناس هناك بدوية تقوم على التجول وسكنى الخيام والاكتفاء بأقل الطعام واللباس والسكنى.

أراضي الاعشاب الطويلة: السفانا

أما أراضي السفانا أي الأعشاب الطويلة فلا تدخل في البدو لأن مياهها أوفر ونباتها أغزر، ومن الممكن أن تنشأ فيها حياة مستقرة أي حضرية بعيدة عن البداوة، وخاصة وهي في الغالب، أرض أشجار متناثرة لا غابات متلاحمة. والحياة فيها بين البداوة والحضارة وقد اعتمدت فيما مضى على الصيد ورعي الأبقار وسكنى الخيام، وبيوت الخشب، ولم تتحول هذه البيئات إلى بيئات حضر إلا في العصور الحديثة وعندما تمكن الانسان من استخراج مياه وافرة من باطنها أو تخزين مياه أمطارها كما نرى في سيبريا وكندا وإستراليا.

آراء ابن خلدون في البدو والبداوة:

هذه البيئات الطبيعية وما ينشأ فيها من أنماط الحياة يدخلها ابن خلدون ضمن ما يسميه بالبدو وهو يستعمل اللفظ لمن يعيش حياة البداوة ويستعمله أيضاً للبيئة الصحراوية فيهو يقول: مثلاً: «وهؤلاء القائمون على الفلح والحيوان تدعوهم الضرورة ولا بد إلى البدو لأنه متسع لما لا تتسع له الحواضر من المزارع والفدن والمسارح للحيوان وغير ذلك فكان اختصاص هؤلاء بالبدو أمراً ضرورياً لهم.

ولا يتسع المجال هنا لايراد كلام ابن خلدون عن البداوة لكي نقوم

بدراسته وتحليله ثم إنه مطبوع متداول في المقدمة ولهذا فإننا سنكتفى هنا بإيجازه والاتيان بأهم نقطة.

يعقد ابن خلدون في مقدمته أربعة فصول في موضوع البداوة والحضارة ثلاثة فصول من الباب الثاني وعنوانه العمران البدوي والأمم الوحشية والقبائل وما يعرض في ذلك من الأحوال » وهي:

الفصل الأول عنوانه: في أحد أجيال البدو والحضر طبيعية وأهم الآراء التي يقررها فيه ما يلي:

١ - يستعمل ابن خلدون لفظ البدو «للأرض الفضاء المتسعة خارج الأمدن أو الأمصار أي أنه يستعمله للدلالة على المكان لا على ساكن المكان في حيث أننا إذا استعملنا اللفظ قصدنا به ساكن الفلوات.

٢ - يقسم ابن خلدون سكان البدو إلى الزراع (فمنهم من يستعمل الفلح من الفراسة والزراعة) والرعاة (ومنهم من ينتحل القيام على الحيوان من الغنم والبقر والمعز والنحل والدود لنتاجها واستخراج فضلاتها).

٣ - فأما الفلاحون أو أهل الفلح منها فإنها إذا اتسعت أحوالهم وحصل لهم ما فوق الحاجة من الغنى والرفه «تحولوا إلى حضر وأصابهم الترف» وتكون مكاسبهم أنمى وأرفه من أهل البدو لأن أحوالهم زائدة على الضروري على نسبة وجدهم[1].

ويختم الفصل بقوله: «فقد تبين أن أجيال البدو والحضر طبيعية لا بد منها كما قلناه.

والفصل الثاني من نفس الباب عنوانه: في أن جيل العرب في الخلقة طبيعي:

---

(١) أي على نسبة ما يجدونه.

ويعرض فيه الأفكار التالية:

٤ - إن من كان معاشه في الزراعة والقيام بالفلح (أي الفلاحون) كان المقام (أي الاستقرار) به أولى من الظعن أي أنهم مستقرون في «المدار[١] والقرى والجبال» وهم عامة البربر والأعاجم.

٥ - أما الرعاة الذين يعيشون على تربية الغنم والبقر فهم ظعن في الأغلب لارتياد المسارح والمياه لحيواناتهم. ويسمون شاوية والقائمون على الشاه والبقر[٢] ولا يبعدون في القفر لفقدان المسارح الطيبة وهؤلاء مثل البربر والترك وإخوانهم من التركمان والصقالبة.

٦ - أما البدو الخلفى مثل العرب من يجرى مجراهم من ظعون البربر وزناته بالمغرب والأكراد والتركمان والترك بالمشرق فهم الجمالة لأن معاشهم على الإبل فهم أكثر ظعناً وأبعد في القفر مجالاً لأن مسارح التلول[٣] ونباتها وشجرها لا تستغني بها الإبل في قوام حياتها عن مراعي الشجر بالقفر، وورود مياهه الملحة ولهذا فهم يبعدون في القفر «فكانوا لذلك من أشد الناس توحشاً وينزلون من أهل الحواضر منزل الوحش غير المقدور عليه والمفترس من الحيوان العجم وهولاء هم العرب، ومن في معناهم من ظعون البربر وزناته بالمغرب والأكراد والتركمان والترك بالمشرق، إلا أن العرب أبعد نجعة وأشد بداوة لأنهم مختصون بالقيام على الإبل فقط وهولاء يقومون عليها وعلى الشياه والبقر معها، فقد تبين لك أن جيل العرب طبيعي لا بد منه في العمران والله سبحانه وتعالى أعلم».

وفي الفصل الثالث من نفس الباب الذي عنوانه «في أن البدو أقدم

---

(١) المدر هي الأرض الزراعية.

(٢) هنا يجمع ابن خلدون كبار الرعاة من أهل السفانا أي الحشائش الطويلة وهم المعروفون عندنا بالبقارة أو البحارة بالفرنسية والرعاة الصغار هم الشاوية نسبة إلى الشاه بالفرنسية.

(٣) يستعمل ابن خلدون لفظ التلول في معنى المرتفعات والهضاب ذات الحشائش والشجر مثل السفوح الشمالية لجبال الأطلس والمفرد تل.

من الحضر وسابق عليه وأن البادية أهل العمران والأمصار، مدد لها » يقول ابن خلدون.

٧ - إن البدو أصل للمدن والحضر وسابق عليهما لأن أول مطالب الانسان الضروري ولا ينتهي إلى الكمال والترف إلا إذا كان الضروري حاصلاً فخشونة البداوة قبل رقة الحضارة ولهذا تجد التمدن غاية للبدوي يجري إليها.

٨ - إن البدو أصل للحضر ومتقدم عليه وإذا فتشنا أهل مصر من الأمصار وجدنا أولية أكثرهم من أهل البدو الذين بناحية ذلك المصر . . وذلك يدل على أن أحوال الحضارة ناشئة عن أحوال البداوة وأنها أصل لها[٢].

فلنعرض الآن الرأي الذي انتهى إليه الانثروبولوجيون أي علماء الانسان الباحثون في شؤون البشر عامة وتطور أحوالهم وآراء هولاء العلماء في ذلك الموضوع يمكن أن نوجزها فيما يلي:

١ - إن البداوة ليست مرتبة توحش وبدائية في سير تطور المجتمعات البشرية، بل هي طراز حضاري قائم بذاته له ظروفه التي تدعو إليه وقواعده الحضارية المادية والمعنوية التي يقوم عليها.

ذلك أن أقاليم الصحاري الموجودة في النصف الشمالي لكرة الأرض كانت في نهاية العصر الثلجي الأخير أراضي خضرة وزروع وكانت جماعات الناس تعيش فيها زراعاً على طريقة الزراعة البدائية أي التي لا تقوم على الري بماء الأنهار المحمل بالطمي الذي يعوض الأرض ما تفقده بالزراعة عاماً بعد عام.

كان الناس يزرعون قطعاً من الأرض على ما تيسر لهم من مياه

---

(١) ابن خلدون المقدمة، ص٢١٠ - ٢١٤.

أو على ماء المطر، فإذا قل إنتاجها أو هبط هبوطاً شديداً بسبب توالي الزرع واستنفاذ ما في الأرض من معادن وأغذية ضرورية للزرع انتقلوا إلى قطعة اخرى وهكذا أتلفت هذه الجماعات البدائية مساحات واسعة من تلك الأراضي التي تحولت إلى صحارى فيما بعد. وكان ذلك قبل أربعين أو ثلاثين ألف سنة تقريباً.

ثم أخذت الأرض في الجفاف واستمر ذلك حتى أصبح الناتج الزراعي لا يعين على الاستمرار في الحياة في تلك المناطق (الحزام الصحراوي في نصف الكرة الشمالي) ووقف أهلها أمام خيارات أربعة.

١ - الهجرة إلى الشمال أي إلى الأراضي التي لا زال الماء فيها كافياً للزراعة على الطريقة التي ذكرناها.

٢ - الانسحاب إلى الجنوب صوب المناطق الاستوائية حيث المطر الوفير والجو دافىء والخضرة دائمة والغابات تغطي الأرض وهؤلاء ارتدوا إلى الوراء حضارياً بانسحابهم إلى الجنوب لأن الظروف الدافعة إلى العمل تلاشت فمالت الجماعات البشرية إلى التراخي والتكاسل وقد إقتصرت بعض هذه الجماعات على قدر من الزراعة بسيط وبعضها تركها نهائياً وارتد إلى مرحلة الصيد، ومثال ذلك بعض الجماعات السوداء البدائية التي تعيش في قلب مناطق السفانا.

٣ - إقتحام أحواض الأنهار والعمل على تجفيف الأرض والانتقال من الزراعة البدائية إلى الزراعة المنتظمة وهولاء هم أهل الحضارات الأولى بن المعربين وأهل الرافدين وأهل الهند والصين.

٤ - البقاء حيث هم ومحاولة تغيير نظام حياتهم بما يلائم الظروف الجديدة بدلاً من تغيير مواطنهم فأما الأولون فقد غيروا مواطنهم لكي يحافظوا على حياتهم الذي إعتادوا عليه.

وأما الثانون فقد أرادوا الاحتفاظ بطراز حياتهم فتراجعوا إلى الوراء، وارتدوا إلى طور الصيد وجمع الغذاء أي أنهم حافظوا على طراز حياتهم وغيروا مواطنهم.

وأما الثالثون فهم الذين أنشأوا الحضارات القديمة الكبرى.

وأما الرابعون الذين بقوا في مكانهم مع تغير الظروف واضطراد الجفاف وندرة الماء فهؤلاء هم الذين يعنينا الوقوف عندهم هنا.

فإن الأراضي التي بقوا فيها لم تتحول كلها إلى صحار على هيئة واحدة، بل ظلت فيها بقاع احتفظت بنسبة كافية من مياه المطر لظروف جغرافية محلية مثل مناطق جبال قرة فورم وجبال سليمان وهضبة التبت ومناطق جبال أطلس، ومناطق البحيرات الآسيوية مثل بايكال وبحر آرال وبحر قزوين فهذه تحولت إلى أراضي رعاة مستقرين يعيشون على ثمرات الأرض ويمارسون الزراعة البدائية على نطاق ضيق ويربون قطعاناً من الماشية الصغيرة (الشاوية) أو الماشية الكبيرة (البكارة) أو هما معاً وهذه هي مجتمعات الرعاة المستقرة التي تعيش متنقلة في مساحات واسعة فيها قرى صغيرة بدائية، وهؤلاء هم الذين يسميهم ابن خلدون بالظعن، ويقول أنهم لا يتوغلون في القفر، ويدخل فيهم البربر والترك وإخوانهم من التركمان والصقالبة.

ويسمى هؤلاء نصف مستقرين ويبدو أن هذه هي الصورة الانجليزية لمصطلح ظعن (جمع ظاعن) لأن الظعن هو التنقل في مساحات محدودة أي دون بعد كثير عن مراكز التجمع والاستقرار المؤقت ومن هؤلاء جماعات من الأتراك ممن كانوا يعيشون شرقي نهر المرغاب في شرق هضبة إيران وتمتد بلادهم إلى صحراء منغوليا وشمالي بلاد ما بين النهرين ويدخل فيهم البربر البرانس أو صنهاجية في بلاد المغرب.

وفي بلاد هؤلاء كانت هناك مناطق استقرار حقيقي ولكنها صغيرة تجدها في مجاري الوديان الصغيرة التي تحمل الماء في الشتاء والخريف وتجف بقية السنة وتجدها أيضاً حول البحيرات وفي مواقع الواحات.

وتبقى بعد ذلك الجماعات التي اختارت البقاء في الصحارى المطلقة التي تتكون تربتها من رمال وصخور كما قلنا ويوجد الماء فيها بكميات صغيرة إما سبحاً على الأرض أو في عيون (وهي الآبار الطبيعية) أو في آبار وهي التي يحفرها الناس. هنا أيضا لم توجد مشكلة حياة أو موت بالنسبة لمن عاش فيها من البشر لأن حداً معقولاً من ضرورات الحياة كان ميسوراً وعلى هذا الحد عاشت الجماعات الانسانية التي استمرت تقيم في هذه الجزائر وسط صحارى الرمال والصخور التي كانت تحيط بها. في هذه الصحاري بقيت جماعات هلك الكثير منها ولكن بعضها استطاع الثبات وعاش، وذلك بالتوصل إلى فكرة نشأت نتيجة لاستئناس الجمل.

عود إلى الجمل

والجمل كما قلنا حيوان قديم جداً، وأقدم ما وجدنا من أحافيره يرجع إلى ٤٠٠٠٠٠٠ سنة، وقد وجدت هذه الأحافير في أميركا الشمالية، ويظن أنها الموطن الأصلي للجمل. من هناك انتشر الجمل في أميركا الوسطى والجنوبية وآسيا وأفريقية، وأحافيره كثيرة في طبقات الأرض التي ترجع إلى ما قبل مليون سنة، وقد انعدم الجمل في العالم الجديد. ولم نعد نعثر على أحافيره بعد ذلك إلا في آسيا وأفريقية. وأقدم ما وجدناه من آثار في هاتين القارتين يرجع إلى مليون سنة وكانت تلك الجمال صغيرة الحجم في حجم الجحش الكبير في المتوسط.

وخلال العصر الجليدي اختفى الجمل، فلم نعد نعثر على آثاره في صحراء جوبي أو منغوليا أو في جزيرة العرب أو الصخرة الافريقية الكبرى إلا من بقايا قليلة عثر عليها أولبرايت في جنوب غربي العراق، على حافات الأهواز وشمالي اليمن نواحي نجران كما قلنا.

في هاتين المنطقتين ظهر الجمل مرة أخرى، قبل خمسين ألف سنة تقريباً، وهذا يعني أنه عاد إلى الظهور في بداية نهاية العصر الثلجي

الأخير، فتكاثرت أحافيره وهي أكبر حجمًا من أحافيره القديمة ربما لأن الانسان أستأنسه واستخدمه وحماه، والجمل من أقل الحيوان قدرة على الدفاع عن نفسه أمام الكواسر. ولذلك بقي على حافات القفار العربية وتربت فيه الخصائص التي تمكنت له من الهرب إلى داخل الصحراء والبقاء هناك في أمان إذ لا يستطيع أي حيوان مجاراته على الحياة في الصحراء. وحوالي ذلك الوقت إستؤنس أيضاً الجمل البختي ذو السنامين وانتشر في المساحة الممتدة من التركستان إلى منغوليا وهو أقوى بدنا وأثقل عظاماً من الجمل العربي ويشف عليه في الارتفاع قليلاً، وقد تهيأ بدنه للحياة في تلك الصحراوات الباردة في الشتاء الحارة في الصيف، ولذلك يتغطى بدنه بغطاء سميك من الصوف ينمو من أواخر الصيف ويكتف في الشتاء فإذا كان الصيف نزع عن نفسه هذا الثوب كله وتساقط صوفه حتى يصير عارياً تقريباً من الصوف، ويمتاز بسنامين ويستطيع أن يختزن نتيجة لذلك قدراً أوفى من الماء والغذاء ولكنه لا يزيد على الجمل العربي في احتمال العطش والتعب.

والجمل بنوعيه من أكثر الحيوان احتمالاً للعطش والتعب فهو يستطيع أن يصبر على العطش سبعة عشر يوماً في المتوسط والجمل العربي إذا استعمل للركوب فقط استطاع أن يسير بسرعة تتراوح بين ١٤ و ١٨ كيلومتراً في الساعة ثمانية عشر ساعة متوالية أما إذا حمل فهو يستطيع أن يحمل ٢٥٠ كيلو جراماً ويسير بها بسرعة ١٠ كيلو مترات في الساعة بمتوسط اثنتي عشرة في اليوم وفي هذه الحالة لا يصبر على ذلك المجهود أكثر من ثلاثة أيام متواصلة، ثم لا بد له من أن يرتاح يوماً كاملاً على الأقل. وقد تربى للجمل نتيجة احتمائه في الصحراء خفه المشهور وهو يمكنه من السير في الرمال وفي صحاري الثلوج في منغوليا على السواء، وتلك ميزة تكمل ميزته الأخرى في احتمال العطش والتعب.

ويبدو أن الفضل في بقاء الجمل بنوعيه يرجع إلى استئناس الانسان

لها وحمايته إياها من الانقراض وذلك لأننا لا نجد اليوم أي قطعان وحشية منها إلا الشوارد التي تضل في الصحراء وتتأبد في القفر وهذه لا تعمر طويلاً في الغالب والجمل ليس طويل العمر، فإن متوسط حياته يتراوح بين ثلاثين وأربعين سنة مع أنه لا يدرك سن البلوغ إلا بين العاشرة والثانية عشرة من عمره وهو من أصعب الحيوانات ولادة وفصالاً.

وخلال حياته القصيرة يعطي الجمل للانسان أضعاف ما يعطيه غيره فبالاضافة إلى مميزاته التي ذكرنا فإن الجمال تعطي صوفاً تنسج منه الثياب والخيمات ولبناً وفيراً عظيم القيمة الغذائية تستطيع القبيلة الاعتماد عليه عنصراً أساسياً من عناصر تغذيتها الثابتة ومع أن أنثى الجمل لا تلد إلا واحداً في السنة إلا أن القطيع الكبير من الجمال يقدم للجماعة مدداً منتظماً من اللحم الطيب والدهن الناصع ومن المعلومات المتفق عليها عند العرب الجاهليين أن الجزور يطعم الحانة إنسان لحماً كافياً في اليوم فإذا أضيف إلى ذلك قليل من اللبن وقبضتين من تمر كان ذلك غذاء كافياً للرجل في اليوم وقد وجد الانسان هذا الحيوان برياً على حافات الصحاري سواء في صحاري جوبي منغوليا أو على أطراف جزيرة العرب وفي كلتا المنطقتين كان الناس في أمس الحاجة إليه فقد كانت الحياة في نطاق الصحاري قد ضمرت واقتصرت على الواحات[1] المتناثرة فيها ومن الثابت في علم الاجتماع أن كل جماعة إنسانية صغيرة تنعزل عن الدنيا زماناً طويلاً إما في جزائر البحر أو جزائر البر تضمحل وتتوحش ثم تتلاشى لأن القرب

(١) المواد هنا الواحات الصغيرة مثل تلك التي توجد في جزيرة العرب وصحراء مصر الغربية وبقية الصحراء الكبرى أما الواحات الكبرى مثل وادي الرافدين ووادي النيل، فقد قامت بنفسها ونشأت فيها حضارات متميزة بخصائصها وجدير بالذكر هنا أن لفظ واحة مصري قديم، وهو لهذا لا يطلق إلا على واحات مصر. وهو في المصرية القديمة واح، ويستعمل هذا اللفظ بنفسه في الكلام عن واحات مصر. أما في غير مصر فيقال جزائر جمع جزيرة والصحراء كانت في نظر البدوي بحر الرمال حتى أن حافتها تسمى في الغرب بالسواحل.

من العمران ضروري للبدوي فمن مراكز العمران يحصل البدوي على أشياء ضرورية وأساسية لحياته لا يستطيع صنعها في صحرائه مثل السيوف والحراب الجيدة والمواعين وقرابيس الخيل وما يماثلها وبدون هذه يتدهور الحد الأدنى من الاطار الحضاري الذي تمكن الحياة معه ولهذا يحرص البدو دائمًا على الاتصال بالعالم الخارجي إما بمجاورة أراضي العمران أو السكنى قرب طرق التجارة وبدون هذا تتلاشى الجماعة البدوية تماماً من هنا جاء حرص جماعات البدو على العيش قرب مناطق العمران فهو لا يعزى إلى مجرد الرغبة في السطو والنهب، وإنما يعزى إلى إدراك البدوي أن قربه من أراضي العمران أساسي له. والبدوي في الغالب لا يسطو على ما يجاوره من أراضي العمران إلا في حالات ثلاث.

١ - ضعف الجماعات المستقرة المجاورة له مما يؤدي إلى خلق فراغ سياسي يجتذب البدو إما للغزو أو للاستقرار.

٢ - وتعرض الجماعة البدوية لمواسم محل تام وانقطاع أمطار متوالية مما يضطرها في النهاية إلى الغارة للحصول على الطعام وحاجيات الحياة.

٣ - ثم استنجاد الجماعات المستقرة بالبدو ومحاولة الاستغاثة بها في حروبها والاعتماد عليهم في الدفاع عنهم.

وفيما عدا هذه الحالات لا ينزع البدوي إلى العدوان والغارة إلا في النادر لأنه راض عن حياته مقتنع بها بل يراها أفضل من حياة الحضر، وهو على حق في ذلك في العصور الماضية خاصة كما سنرى.

ونتيجة لهذه الحقيقة ضمرت بقايا الجماعات البشرية في واحات الصحاري المنعزلة عن العمران تماماً وانتشر من بقي من أفرادها في الصحراء واستوحشوا وساء منظرهم وهاموا على وجوههم فلا يراهم الناس إلا في الليل أو هاربين في القفر، وهذا في الغالب هو أصل ما كان الناس في العصور القديمة والوسطى يقولون به من أن الصحاري مأوى

الشياطين والجن، وذلك معروف عند العرب الجاهليين أما في العصور الوسطى فقد ساد الاعتقاد بأن الغيانى مأوى الجن والشياطين وأصبح خروج المتعبدين والزهاد إلى القفر والتأبد فيه للقاء الشيطان عدو الله ومحاربته شيئاً مألوفاً والأب جولا منشىءالرهبانية المصرية وأول الرهبان في تاريخ المسيحية بارح قريته وخرج إلى الصحراء وعاش فيها منفرداً لهذا الغرض ولما كان ذلك أمراً بالغ القسوة فقد لجأت جماعات من الزهاد إلى التأبد في القفر لمحاربة الشياطين جماعة، وهؤلاء هم الديارون الذين يبنون لنفسهم ديراً عند مصدر ماء وسط الصحراء للتعبد لله بمحاربة إبليس.

الانسان يغزو الصحراء معتمداً على الجمال

وقد قلنا أن الجفاف عندما اشتد في مناطق الحزام الصحراوي في نهاية العصر الثلجي الأخير إنحسر الناس إلى حافات هذا الحزام، وهناك تم استئناس الجمل على حافات صحراء منغوليا أول الأمر ثم على حافات صحراء جزيرة العرب بعد ذلك بقليل ولم يلبث الانسان أن تنبه إلى خصائص هذا الحيوان وعرف أنه يستطيع بالاعتماد عليه التوغل شيئاً فشيئاً في الصحراء.

ولم تكن الصحراء إذ ذاك بلاقع جرداء خالية من النبات، بل كانت غنية بنباتات صحراوية جافية لا يستطيع أكلها والاغتذاء بها إلا الجمل، فهو يستطيع أن يأكل نبات الشوك والصبار والقصب الجاف ولا يجد صعوبة في مضغ ذلك كله وهضمه والاكتفاء بقدر قليل من الماء إلى جانب ذلك.

وبمعاونة الجمال بدأ الناس يدخلون الصحاري ويتخذون لهم مراكز في الأماكن التي يتوفر فيها مقادير من الماء تعين على الحياة المستمرة فاستقر الناس شيئاً فشيئاً في هذه المواقع، وهنا اهتدى ذكاء الناس إلى فكرة تدل على أن نشوء البداوة ينطوي على تفكير سليم وعميق في نفس الوقت وهي أنهم إذا كانوا لا يستطيعون العيش على نبات الصحراء فإن الجمال تستطيع، فيربي الانسان الجمال ويطلقها في هذه الأعشاب لتعيش عليها ثم

يعيش هو على الجمال، أي أن الانسان بهذه الطريقة يحول هذه الأعشاب إلى لبن ولحم وصوف عن طريق الجمال فاتخذت كل جماعة من الداخلين لسكنى الصحراء لنفسها مركزاً صغيراً من مثل بئر أو عين أو ماء سائح على الأرض(١) ثم تطلق قطعانها في الفضاء المعشب حولها وتتنقل وراء القطعان من مكان لمكان داخل مساحة واسعة ولكنها محدودة على نحو ما وكلما رعت الجمال نبات موضع انتقلت إلى غيره والقبيل معها وتحرسها وتميضها المتفرق وتعيش عليها أو من هنا نشأ المجال المعروف للقبيلة وجمعه مجالات و يستعمل إبن خلدون هذا المصطلح كثيراً في كلامه عن البدو فيقول «مجالات القبائل ومسارح الأغنام» وشيئاً فشيئاً تكاثر دخول الناس للصحاري والعيش فيها على هذا الأسلوب فنشأت مجتمعات البدو المعروفة بخصائصها.

وعندما استقرت جماعات البدو في الصحاري نشأت مجتمعاتها على الأساس القبلي أي على أساس أن الأسرة وحدة سياسية واجتماعية قائمة بنفسها ثم تتفرع الأسر إلى أسر ويتحول المجموع إلى قبيلة وليس من الضروري أن يكون أفراد القبيلة كلهم من أصل واحد، بل يحدث في العادة أن تجتذب القبيلة الكبيرة أو النشيطة قبائل أصغر لسلطانها أو تتحالف معها ثم ينتهي الأمر باندماجها معاً وانتساب الكل إلى أب أو أصل واحد. واقتضت ظروف الحياة القاسية في الصحراء قيام تنظيمات خاصة تحدد العلاقات بين الناس داخل القبيلة وخارجها وهذه النظم ليست بدائية ولا خالية من المنطق أو معتمدة على القوة والعدوان أو على الايمان بقوى سحرية يخضع لها الأفراد وترهبها الجماعات بل كل هذه التنظيمات الصحراوية قائمة على المنطق والمنفعة المباشرة ولهذا تتميز المجتمعات القبلية على غيرها في العصور القديمة والوسطى بروح عملية واقعية يستدعي الاعجاب ومن هنا فإن البدو سواء في صحاري منغوليا أو صحراء العرب

(١) في الغالب ينبع هذا السح أو الماء السائح من عيون قريبة من السطح وقد يتجمع ماء المطر في قيضان الأدوية ويظهر في الحالتين على شكل برك موسمية أو دائمة.

أو الصحراء الأفريقية لم يعرفوا الطوطمية أو الأوثان إلا استيراداً من الخارج ومن المعروف لنا أن آلهة العرب في الجاهلية من مثل هبل واللات والعزى ومناة ترجع إلى أصول أجنبية.

لماذا سكن الناس الصحارى:

ونسأل الآن وما الذي يدفع الناس إلى الحياة في الصحراء ومعاناة شظف الحياة وقسوتها فيها وكانوا مستطيعين العيش في القرى والأرياف وفي بلاد الخصب المجاورة؟

والجواب على ذلك هو أن أولئك الناس الذين صاروا بدواً هم بقايا الزراع من أهل هذه الصحاري الذين أبادهم الجفاف فالأرض الصحراوية هذه كانت أرضهم عندما كان أجدادهم زراعاً أو عندما انحسر معظمهم إلى الريف، ثم دخل في الجماعات الزراعية المجاورة فبقيت منهم بقايا قليلة لم تستطع الدخول في المجتمعات المجاورة فظل أفرادها على حالهم محتفظين بشخصيتهم على حافة الصحراء حتى عادوا إلى الصحراء مرة أخرى مفضلين حياة الشظف والحرية على حياة الخصب والخضوع وذل العزم كما يقول ابن خلدون فيبدون اليوم أحفاد زراع كانوا يعيشون من آلاف السنين في تلك المناطق. وهنا نلاحظ أن ابن خلدون أخطأ هنا عندما ظن أن البداوة أصل والحضارة فرع إذ أن العكس هو الصحيح فالزراعة والاستقرار أي الحضر هي الأصل البعيد أو البداوة شكل اجتماعي أخذته هذه الجماعات تحت ظروف مناخية وطبيعية غالبة.

وعامل آخر من العوامل التي دفعت الناس إلى التماس العيش في الصحراء وتحمل مضانك هذا العيش وهي أن الحياة في الصحراء لم تكن دائماً ضنكاً بالصور التي نتخيلها نحن اليوم ونحن في هذا المستوى العالي من التطور الاجتماعي الحضاري فهي لم تكن أقسى بكثير من حياة سكان المدن أو القرى في تلك العصور فإن ما تسميه اليوم بالرفاهية كان أمراً مقتصراً على فئة قليلة جداً من الناس، أما عامة الحضر فكانوا يعيشون

حياة قاسية كلها شظف وجوع ومتاعب ومخاوف من الأمراض واللصوص وظلم الحكام وعدم الأمن وانعدام الاطمئنان على مورد الرزق وهبوط الأوبئة ونزول الأمراض وكل ما تجمعه العبارة البليغة غدرات الزمان ونكبات الأيام.

من معظم هذه الغدرات والنكبات كان البدوي في مأمن إلى حد بعيد فهو يعيش في مجتمع بسيط في حماية قبيلة كل جهدها مكرس للحرب والدفاع والمحافظة على سلامة أفرادها، هذه القبيلة ليست حكومة إنما هي تنظيم عائلي موسع أو مجتمع أبوي. وسيد القبيلة هو الأب الروحي لأفرادها في نفس الوقت، فلا ظلم ولا استبداد ولا إذلال ولا استغلال فحيث لا توجد ثروات لا توجد قوة أو سلطة، وحيث لا توجد سلطة لا يوجد ظلم أو استغلال ولهذا نجد البدوي في الغالب أنوفاً عزيزاً على نفسه وعلى غيره ونتيجة لذلك تجده سليم الشخصية أو لا شيء يحطم شخصية الانسان مثل الحكم العنيف الذي يضطر الناس إلى الخضوع له والانقياد لسلطانه وإلغاء شخصية المحكوم لتثبيت شخصية الحكم.

وإذا لم تكن هناك ثروات تتكدس فلا تفاضل بين الناس إلا في الصفات التي تعتز بها الجماعة كالبسالة والكرم والأباء والغيرة. حقاً إنه يوجد أثرياء في البدو ولكن ثرواتها لا تخزن ولا تركز بتحويلها إلى ذهب وفضة وإنما هي غابات نخيل وقطعان جمال وماشية وفيرة وسيلة لتأمين هذه الثروات هي إباحة الأخذ منها للمحتاج فيأخذ حاجته دون تسول ويأمن السيد المالك على بقية ماله. أما الأمراض- والأوبئة فإن البوادي أبعد البيئات عنها، فلا أوبئة ولا حميات تهلك الألوف وإنما هي الأمراض العابرة وما لا تخلو منه حياة البادية من جراح وإصابات في المعارك. لهذا كان البدو يتمسكون ببواديهم ويرون أنفسهم أسعد حظاً وأحسن حالاً من الحضر أهل المدن والقرى والمزارع وسواء أكنا في صحراء منغوليا أو صحراء جزيرة

العرب أو الصحراء الأفريقية فإن وضع البدو متقارب وإحساسهم بالتميز عن الحضر واحد.

لهذا كانت حياة البداوة نمطاً قائماً بذاته من أنماط الحياة لا مرحلة من مراحل تطورها فقد ظلت مجتمعات البدو قائمة على حالها قروناً متطاولة ولم يشعر البدو قط بالحسد لأهل الحضر والرغبة في أن يكونوا حضراً. إنما كان الذي يحدث هو أن تدهور النظام السياسي في بلد ما مجاور لمناطق البدو يحدث فراغاً سياسياً يجتذب البدو المجاورين لملئه. وكانوا يفعلون ذلك طلباً للسلطان والجاه وخيرات الحضر لا طمعاً في أن يكونوا هم أنفسهم حضراً.

والبدو الذين نعنيهم هم جماعات البدو الكبيرة المستقرة في البوادي والتي تتشكل نعمتها الاجتماعية على النحو الذي ذكرناه أما طوائف البدو الصغيرة التي تجاور الحضر في كل بلاد المنطقة الصحراوية فهم بدو انحطوا عن مستوى البداوة التقليدي وتحولوا إلى لصوص ونهابين وجماعات خطرة على الأمن وهؤلاء لا يحسب لهم حساب في هذه الدراسة فهم والذعار والشطار والعيارين وأهل الحرابة ومن إليهم من آفات مجتمع الحضر سواء وهم خلعاء في النظام القبلي كما أن الذعار والشطار واللصوص هم خلعاء مجتمع الحضر.

ونختم الكلام عن حضارة البدو بهذه السطور التي كتبها أرنولد توينبي في دراسته للتاريخ معلقاً بها على العمل الجريء الذي أقدم عليه البدو في كل مكان عندما قرر أجدادهم اقتحام الصحاري والعيش فيها على الماشية التي تعيش على ما لا يستطيع الانسان أكله من الحشائش الجافة. إنه يصف ذلك التحول بأنه عمل يجاوز الطاقة. ويرى أن اقتدار الانسان على ذلك إنتصار للمهارة الانسانية.

ثم يقول إن ذلك العمل الذي جاوز الطاقة الذي قام به البدوي تطلب مستوى عالياً من قوة الشخصية والقدرة السلوكية فإن البيئة الهائلة

التي نجح البدو في غزوها تمكنت في نفس الوقت من استعباده. فقد أصبح البدو مثلهم في ذلك مثل الأسكيمو أسرى لدورة مناخية ونباتية بطوق من حديد وإذا كان البدو قد ملكوا قوة المبادرة في بسط سيطرتهم على أرض الحشائش القصيرة (الأستب) فقد خسروا في مقابل ذلك القوة على المبادرة تجاه بقية العالم (أي أن ما بذلوه من جهد في تذليل بيئة الصحراء القاسية استنفذ كل جهدهم فأصبحوا عاجزين عن الحياة في بيئة أخرى) ومع ذلك فأنهم لم يغادروا مسرح تاريخ الحضارات دون أن يخلفوا فيه أثراً (أي أنهم لم يقطعوا صلتهم ببقية العالم تماماً) ومن حين لحين نراهم يندفعون من صحاريهم ويجتاحون أراضي الحضارات المستقرة إلى جوارهم وفي بعض هذه الحالات حرقوا كل شيء في طريقهم، ولكن هذه الاندفاعات لم تكن عفوية أبداً فإن البدوي عندما خرج من أرض الحشائش وتعدى على حديقة الفلاح، فإن ذلك لم يكن نتيجة تدمير بيت يرمي إلى فكاكه من دورة حياته العادية إنما هو اندفع مستجيباً لقوى لا سلطان له عليها...

وهناك قوتان خارجيتان من هذا النوع إحداهما تدفع البدوي والثانية تمسكه... ففي بعض الحالات تدفع به إلى خارج الأستب زيادة في الجفاف تتخطى قدرته على الاحتمال وفي أحيان أخرى يندفع من تجذبه قوة امتصاص نتيجة لفراغ إجتماعي حدث في بعض البلاد المجاورة بفعل عملية من عمليات التاريخ مثل إنهيار حضارة مستقرة وما يتبع ذلك من هجرة الناس وعندما تستعصي أخبار الغارات الكبيرة التي قامت بها المجتمعات البدوية على بلاد الحضارات المجاورة نجد أن الدافع إليها لا يخرج عن هذين العاملين.

وعلى هذا فعلى الرغم من هذه الغارات التي ترجع إلى ظروف معينة فان جماعات البداوة هي جماعات بدون تاريخ فإن البدو بعد أن استقروا في صحرائهم وأخذوا يتنقلون في نطاق هذه الصحراء وفق نظام معين تقرره فصول السنة، استمروا في هذه الحركة دون توقف ومن الممكن

أن يستمروا فيها إلى الأبد إذا لم يتعرضوا لقوة خارجة عن إرادتهم ترغمهم على الوقوف أمامها عزلاً فتتوقف حركتهم وتنتهي حياتهم وهذه القوة هي ضغط الجماعات المتحضرة المستقرة حولهم عليهم، لأن الله فضل هابيل على قابيل وقبل قربانه ورفض ما تقدم به قابيل. ويشير توينبي هنا إلى ما أشار إليه القرآن الكريم وفصله العهد القديم في سفر التكوين من أن آدم عليه السلام أنجب ولدين هابيل وقابيل وكان هابيل راعياً وقابيل زارعاً فتقدم هابيل بكبش غنم قرباناً لله فقبل الله منه. وتقدم قابيل بقربان مما تخرج أرضه، فلم يقبل منه فحقد قابيل الزارع على أخيه الراعي وقتله ويستعمل توينبي هذه القصة رمزاً على الصراع بين البدو والحضر ويقرر خلافاً لما ذهب إليه إبن خلدون أن النصر في النهاية يكون للجماعات المستقرة ذات الحضارات المتطورة على الرعاة أصحاب الحضارة الموقوفة.

ويستقصي توبني في هذه المناسبة أخبار الصراع الطويل بين البداوة والاستقرار وينتهي في كل حالة إلى القول بانتصار الحضارة على البداوة ثم يقول إن الأبحاث الجوية دلت على أن هناك في تاريخ الأرض الطويل تعاقباً منتظماً ربما شمل الأرض كلها لفترات الجفاف والرطوبة النسبية وهذا التعاقب هو السبب في غارات البدو على أرض الحضر ذلك أن الجفاف إذا وصل إلى درجة لا تستطيع الصحراء معها حمل قطعان إبل البدو وأغنامهم يضطرون إلى التوقف عن دورة الظعن والنجعة ثم الظعن التي يقومون بها وينقضون على أراضي الزراع المجاورة لهم باحثين عن الغذاء لهم ولقطعانهم، ويحدث العكس إذا تغير الجو ومال إلى الرطوبة حتى إذا بلغت حداً يجعل أرض البدو تحمل الزرع. إندفع الزراع في أرض البدو وغزوها وأخذوا في تحويلها إلى أرض زرع ويقول ان هجوم البدو، على أرض الزراع يختلف في طبيعته عن عدوان الزراع على البدو فإن البدو إذا عدوا على أرض الزراع إنقضوا عليها بغتة كأنهم فرسان يهاجمون، أما عدوان الزراع على أرض البدو فيأخذ شكل حركة بطيئة كأنها تقدم فرق المشاة ثم

يقول إن غزوات البدو قصيرة المدى قليلة الأثر، ويضرب أمثلة لذلك من غارات المغول والترك على الشرق الأوسط وأوروبا أما غزو المزارعين المستقرين لبلاد البدو فيكون في الغالب حاسمًا ونهائياً وهو يضرب مثالاً لذلك في غزو الروس لشرقي آسيا ومواطن البدو شمالي ما وراء النهر، وهي مواطن تمتد إلى منغوليا، وهي مهد فسيح من مهاد البداوة في التاريخ لا يضاهيها في ذلك إلا جزيرة العرب والصحراء الأفريقية الكبرى.

وواضح أن البداوة على وجه الأرض مصيرها إلى زوال لأن الاتجاه العام في الدنيا كلها الآن هو الاستقرار سواء في جزيرة العرب أو في الصحراء الأفريقية فإن الحكومات تعمل على إقرار البدو وتحويلهم إلى حضر بمد خطوط المواصلات في مواطنهم وتقديم المعونات لهم لكي يستقروا ويتحولوا إلى زراع ثم إن الغزو الحضاري لجماعات الاستقرار لا يمكن أن يدع البدو على حالهم، وإذا لم تسع الحكومات إلى تثبيتهم وإقرارهم فإن البدو أنفسهم اليوم يسعون نحو الاستقرار لأن الحضارة تغزوهم في أبعد مواطنها عن طريق الاذاعة وسبل المواصلات الكثيرة وآخر كبار البدو وأشهرهم في الصحراء الأفريقية هم الطوارق وهم بقايا بعض القبائل الصنهاجية الضاربة في الصحراء الكبرى بمحاذاة ساحل المحيط وهؤلاء الطوارق الذين كانوا يلقبون إلى حين قريب بأمراء الصحراء نظراً لاعتزازهم بأنفسهم وفروسيتهم واحتمالهم العيش في صحراء لا تكاد تنبت شيئاً، هؤلاء يتفاءلون اليوم بسبب الغزو الحضاري الآتي من الشمال والجنوب وخاصة في الجزائر حيث توجد آبار البترول والغاز قرب منازل الطوارق ثم إن الجفاف يشتد عاماً بعد عام ويضطر أولئك البدو ذوو الكبرياء والاعتزاز بحريتهم إلى الانتهاء لأوامر الدول التي تنشىء لهم مراكز تجمع وتجلب الماء لقطعانهم التي تزداد هزالاً وقلة يوماً بعد يوم.

وبهذا يتلاشى طراز لا يتميز بغنى أو تنظيمات معقدة أو منشآت باهرة وإنما يتميز بأنه مثل بديع وأمثلة ذكاء الانسان وقدرته على احتمال

الفتك في سبيل الحرية واستطاعته المحافظة على كيانه سليمًا وسط محل شاسع، وأنه لمن الغرائب أن بدو صحراء العرب كانوا هم الوحيدين الذين يقولون شعراً جميلاً حقاً، في القرنين الخامس والسادس الميلاديين في حين يلفت تعاسة بلاد الحضارة في مصر وإيران والعراق وبلاد الروم في نفس الوقت أن الناس لم يعودوا يقولون شعراً أو نثراً جميلاً أو غير جميل لأن جهدهم كله كان مضيعاً على الحفاظ على الرمق، والطفو على سطح سيل محزن من حيث حضارات ماتت وتحجرت بعد أن قتلتها حضارات أخرى ليست بأفضل منها ولا أعلى، وإنما هي أقسى وأبعد عن الانسانية في غالب الأحيان.

ولم نشر في دراستنا هذه إلى أضخم عمل قام به البدو في التاريخ وهو اندفاعهم من جزيرة العرب حاملين راية الاسلام وإنشاءهم عالم الاسلام، لأن هذا كان حادثاً وحيداً من نوعه في التاريخ وهو لا يرجع إلى طبيعة البدو وحضارتهم وإنما يرجع إلى قوة الاسلام التي بدلت طبيعة البدو تبديلاً ومكنت لهم من القيام بهذا العمل الضخم.

وجدير بالذكر أن العرب عندما خرجوا من جزيرتهم حاملين راية الاسلام فعلوا ذلك بقيادة حضر، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حضرياً وكانت الصفوة القائدة التي كونها حوله حضرية وقد تمثلت هذه الصفوة في قريش وهي جماعة حضرية احتفظت بفضائل القانون الخلقي البدوي وهو قانون المروءة، وعندما جاء الاسلام عرفت قريش كيف تحول مروءة الجاهليين إلى مروءة إسلامية تطابق ما سمّاه الرسول صلى الله عليه وسلم بمكارم الأخلاق وقال أنه إنما بُعث ليتممها. وشيئاً فشيئاً أصبحت المروءة مرادفة للدين فإذا قلنا أن فلاناً عنده مروءة كان معنى ذلك أن عنده ديناً. وقد أخذ الاسلام من البدو أحسن خصاله:

إكتمال الشخصية واعتزازه بنفسه وإنفته للقيم وبسالته وفصاحته

وإضاف إليها فضائله، فتحول العرب بذلك إلى قوة لا تغلب في عصر الفتوح الأولى.

وكما فعل الاسلام ببدو العرب كذلك فعل ببدو البربر وبدو الترك ثم بدو المغول فيما بعد، فجعل من هذه الشعوب البادية جميعاً شعوب حضارة وعمل تاريخي. وكما دخل العرب التاريخ مع الاسلام فكذلك دخله بدو البربر والترك والمغول مع الاسلام. فالاسلام هنا هو القوة الدافعة والبدوي هو الأداة ومع ذلك فقد كان لا بد للبدوي لكي يقوم بهذا الدور من رأس حربة حضرية تقوده وترشده وتحدد له مساره وتربط بينه وبين الاسلام.

وهذا لا يمس الحقائق التي ذكرناها عن حضارة البدو وطبيعة هذه الحضارة ولا يغير ما قلناه أن حضارة البدو حضارة قائمة بذاتها يمكن أن تستمر كما هي دهوراً وليست مرحلة من مراحل التطور الاجتماعي.

د. حسين مؤنس
الأستاذ بجامعة القاهرة



المراجع

- إبن خلدون، المقدمة، طبعة بولاق.
- الألوسي، محمود شكري، نهاية الأرب، القاهرة ١٩٢٦.
- أبو العباس المبرد، الكامل، طبعة القاهرة بدون تاريخ.
- إبن عبد ربه، العقد الفريد، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، أربعة أجزاء، القاهرة ١٩٤٦.

— W.E. Albright, From the stone — Age to christinity Baltimore, 1946.

— O. Antonius, grundzuege einer stanimes — geschichte der haustiere. Jena, 1922.

— D.M.A. Bates, the Fossil Antelopes of Pzlestine in Natuzian times with Description of New. In **giologic magazine, 77/1947.**

— **A.F. Beaston, the Ritual, in museon,** 61, 1948. PP. 189, FF.

— R.J. Braidwood, the near — east and the foundation of Civilisation, **london lectures**, no.5. Oregon, 1952.

— Y. Caton thompson and E.W. Gardener, the Desert. 2 vols london 1934.

— D. Clark, Die mithere steinzeit in E. valjavec's)ed(. **Historia mundi**, 1952.

— E. Flor, Haustiere and Hirtenkulturen, **wiener beitraege zur kulturgeschichte.** Vienna, 1930, band 1.

— E.E. Bacon, types of pastoral Nomadism in central and south—west—Asia in south western journal of Anthropology 10/1954.

— V.G. Childe, the argans, astudy of Indo — european origins. London, 1920.

— A. Gallus, the Horse—Riding Nomads in Human development. A study in Human destiny london, 1926.

— R. Lpousset, Empires des steppes — paris, 1948.

— R. Haenisch, die ljheim geschichte der mongolen leipsig, 1948.

— F. Hencar, das pferd in prachistorischer and Historischer zeit, wien and muenchon, 1956.

— E. Kussmaul, zur frvegeschichte des reiter — nomadentums E.B. tubingen, 1953.

— F. Walds chmidt, geschichte Asiens noenchen, 1950.

— A.F. Albright, zhur zaehmung der kamels, 1949.

— N. Von Oppenheim, die Beduinen, 1953.

المراكز الثقافية في العراق في القرنين الرابع والخامس الهجريين

بقلم
الدكتور/ محمد حسين الزبيدي
كلية التربية بجامعة بغداد
قسم التاريخ

مقدمة

شهد العراق في مطلع القرن الرابع ونهاية القرن الخامس الهجريين نهضة علمية كبيرة نضجت فيها العلوم على إختلاف أنواعها ونمت وازدهرت وصارت بغداد عاصمة الخلافة العباسية قبلة العلم والمعرفة على الرغم من تدهور الحالة السياسية وضعفت الخلافة، وفقدان السيطرة على الأقاليم والولايات، واستبداد الأمراء والولاة بالسلطة، وانفصالهم عن الخلافة في أغلب الأحيان. وظلت بغداد كعبة العلماء والأدباء يقصدونها من حدب وصوب حتى سقوطها سنة ٦٥٦هـ - ١٢٥٨م على يد المغول.

وقد عملت عوامل عديدة على إزدهار بغداد علمياً وأدبياً منها:

١ - تشجيع الأمراء البويهين للعلم والعلماء.

٢ - حاجة الوزراء إلى أساطين البيان والشعراء لأنهم وجدوا فيهم سبيلاً إلى إبلاغ الرغائب ولساناً به يتحدثون.

٣ - المجالس التي كان يعقدها العلماء في بيوتهم.

وبجانب هذه المجالس الزاهرة ورعاية الأمراء والوزراء للعلم والمعرفة ، هناك سبب آخر لازدهار الفكر في هذه الحقبة من الزمن هو تيسير الاطلاع والقرءاة وتيسير التعليم وحضور الدرس الذي أدى إلى ظهور مراكز لتدريس العلوم والمعرفة وهي أشبه بالمدارس اليوم وكان معظم هذه المراكز عبارة عن حلقات يجتمع فيها الطلاب حول مدرسيهم ويلقي المدرسون على طلبتهم ما يحذقون من علوم دينية ودنيوية. ثم تجري مناظرة بين الطلاب ومدرسيهم. وكانت معظم هذه الحلقات بصورة عامة تهتم بالمسائل الدينية بالدرجة الأولى ثم المسائل الدنيوية التي تتكون من دراسة اللغة العربية والفلسفة والمنطق والفلك وغيرها. ولم يكن نصيب العلوم البحتة كالطب والرياضيات والصيدلة بأقل من نصيب العلوم الدنيوية وكانت تجري دراسة الطب في أغلب الأحيان في المستشفيات التي أعدت لمعالجة المرضى.

وكان من أهم المراكز الدراسية في العراق هي:

١ - المساجد.

٢ - المستشفيات.

٣ - دور العلم والمكتبات.

٤ - منازل العلماء.

٥ - الربط.

أولاً: المساجد:

أدت مساجد العراق قسطاً كبيراً في نشر العلوم والمعارف فكانت بحق مراكز هامة للاشعاعات الفكرية. وقد اشتهرت مساجد عدة كانت أشبه بالجامعات العلمية اليوم وأهمها:

١ - جامع المنصور ببغداد[1]:

كان هذا الجامع عظيم المكانة في الحياة العلمية في بغداد وكان لا يفوز بالتدريس فيه إلا كبار العلماء الذين أوتوا من العلم والمعرفة حظاً كبيراً.

٢ - جامع البصرة:[2]

وكان هذا الجامع من أهم المراكز العلمية في العراق وقد شهد هذا الجامع حلقات المعتزلة التي أحدثت حركة الاعتزال. فلعبت دوراً كبيراً في الاتجاهات الفكرية والسياسية في العالم الاسلامي في العصر العباسي الأول.

٣ - المسجد الجامع في الكوفة[3]:

بني سنة ٤٠ هـ وقد أنشأه سعد بن أبي وقاص. وجدده زياد بن أبيه سنة ٥٠هـ (٧٦٠م) وقد كان لانتقال علي بن أبي طالب إلى الكوفة واتخاذه إياها عاصمة له أثر كبير في إذكاء النهضة العلمية بها.

٤ - النجف الأشرف:

لقد صار ضريح الامام علي بن أبي طالب من أكبر الجامعات الاسلامية في العالم الشيعي في العصر البويهي. وقد اهتم البويهيون به

---

(١) أنشأ هذا الجامع الخليفة العباسي المنصور عندما بنى مدينة بغداد سنة ١٤٦هـ وجعله ملاصقاً لقصره الشهير قصر الذهب وأعاد الرشيد بناءه مع زيادة مساحته سنة ١٢هـ ثم أضيف زيادات كثيرة في عهود الخلفاء العباسيين.

(٢) أنشىء هذا الجامع سنة ١٤هـ على يد عتبة بن غزران ثم جدده زياد بن أبيه سنة ٤٤هـ (٦٦٥م) وقد بناه بالأجر والحصى وسقفه بخشب الساج واتخذ له أعمدة من حجر.

(٣) بني سنة ١٤هـ وقد أنشأه سعد بن أبي وقاص. وجدده زياد بن أبيه سنة ٥٠هـ (٦٧٠م) وقد اتخذها علي بن أبي طالب عاصمة له وكان له أثر في النهضة العلمية أنظر/ محمد حسين الزبيدي: الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة في القرن الأول الهجري.

إهتماما عظيمًا فعمروه عمارة جليلة وأجزلوا العطاء والصلات للمقيمين به والمشرفين عليه. وصارت النجف الأشرف مركزاً لتدريس الفقه الجعفري وعلوم الدين في عصرهم.

واشتهرمن علماء النجف محمد بن الحسن الطوسي، وهو من أئمة الشيعة، وقد أجرى البويهيون له ولتلاميذه العطاء والنفقات الكثيرة.

ثانياً: المستشفيات:

حرص بعض الأمراء البويهيين على إقامة المستشفيات وجعلها معاهد علمية لتعليم الطب ودور للعلاج في نفس الوقت حيث ألحق بها مدارس للطب يتلقون فيها الطلبة علوم الطب، وكان الطلبة يجتمعون في القاعة الكبرى في المستشفى حيث كانوا يراجعون دروسهم وكان أساتذتهم يلقون عليهم الدرس من كتب الطب الشهيرة كمؤلفات جالينوس والرازي وأبن المجوسي وغيرهم.

وجاء في طبقات الأطباء أن الفيلسوف الامام العالم أبا الفرج بن الطيب كان يقرىء صناعة الطب في المستشفى العضدي ويعالج المرضى فيه في نفس الوقت، وابراهيم بن بكمى هو الآخر كان يدرس الطب في المستشفى العضدي عندما بناه عضد الدولة البويهي.

وقد ألحق بهذه المعاهد مكتبات كبيرة زودت بعدد كبير من الكتب الطبية إلى جانب الكتب العلمية الأخرى ورتب لها خزان يشرفون على تنظيم هذه الكتب وعمل الفهارس والجداول لها.

ثالثاً: المكتبات:

(أ) - المكتبات الخاصة

أنشأ الأمراء والوزراء البويهيون المكتبات الخاصة في دورهم فضلاً عن إهتمام العلماء والأدباء في بغداد فيها. وكانت أشهر هذه المكتبات مكتبة

الأمير عضد الدولة البويهي حيث حوت هذه المكتبة نفائس المخطوطات ونوادرها فضلاً عن تنظيمها تنظيمًا يندر أن تجد مثله في غيرها من المكتبات الخاصة.

واستطاع المقدسي أن يطلع على هذه (الخزانة) التي كانت في دار عضد الدولة وقد وصفها بأنها «حجرة على حدة عليها وكيل وخازن ومشرف من عدول البلد ولم يبق كتاب صنف إلى وقت عضد الدولة في أنواع العلوم إلا حصله فيها. وهي أزج طويل في صفة كبيرة فيه خزائن من كل وجه وقد الصق إلى جميع حيطان الأزج والخزائن بيوتاً طولها قامة في عرض ثلاثة أذرع من الخشب المزوق وعليها أبواب تنحدر من فوق والدفاتر منضدة على الرفوف لكل نوع بيوت وفهرستات فيها أسامي الكتب ولا يدخلها إلا كل وجيه»[٤].

ومن المكتبات الشهيرة أيضاً مكتبة الأمير حبشي بن معز الدولة البويهي وقد صودرت هذه المكتبة سنة **٣٥٧**هـ - ٩٦٧م عندما حاول عصيان أخيه أمير بغداد فكان من جملة ما أخذ منه خمسة عشر ألف مجلد سوى الأجزاء وما ليس بمجلد[٥].

ولما أراد البرقاني العالم البغدادي المتوفى سنة **٤٢٥**هـ - **١٠٣٣** م أن ينتقل، إحتاج إلى ستين من الأعدال وإلى صندوقين يحمل فيها كتبه عند إنتقاله[٦].

ومن المكتبات الخاصة الشهيرة مكتبة ابن العميد. وكانت تضم عدداً كبيراً من نفائس الكتب فضلاً عن احتوائها على أعداد هائلة من المجلدات وكانت المكتبة النفيسة هي أعز ما يملكها وقد ذكر مسكويه[٧] (بأن

---

(٤) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (ص٤٤٩).

(٥) مسكوية - تجارب الأمم (ج٢ ص٣١٤).

(٦) السبكي - طبقات السبكي - (ج٤ ص٢٣٠).

(٧) مسكوية: تجارب الأمم ج٢ ص: ٢٢٤-٢٢٥.

الجنودالخراسانية نهبت دار أبن العميد واصطبلاته وخزائنه وكانت موفورة فلما جاء الليل وانصرف الجنود الخراسانية وكان يومها الّي خزانة كتبه فسلمت من بين خزائنة ولم يتعرض بها ولما رجع إلى منزله ليلاً لم يجد فيه ما يجلس عليه، ولا كوزاً واحداً يشرب فيه ماءه، فأنفذ إليه أبن حمزة العلوي فرشاً وآلة، واشتغل قلبه بدفاتره، ولم يكن شيء أعز عليه فيها وكانت كثيرة فيها كل أنواع الحكم والآداب يحمل على مائة وقر وزيادة فلما رأى سألني عنها فقلت : هي بحالها لم تمسها يد فسر بي عنه وقال لخازنه: (أشهد أنك ميمون التقية، أما سائر الخزائن فيوجد منها عوض وهذه الخزانة هي التي لا عوض فيها ورأيته قد أسفر عن وجهه).

وفضّل الصاحب بن عبَّاد أن يبقى بجانب مكتبته على أن يتولى وزارة نوح بن منصور الساماني حين أرسل في طلبه لتوليته هذا المنصب ويرغب في خدمته ويبذل له المال السخي، فكانت مكتبته من جملة أعذاره فلا هو أستطاع الذهاب بدونها ولا كان من اليسير حملها معه[8].

كذلك مكتبة أبو الحسين عبد العزيز بن ابراهيم، وكان هذا كاتب ديوان السواد في عهد معز الدولة البويهي وكان أبو الحسين أحد أفراد الزمان في الفضل والنبل وقد جاء في كتاب الفهرست[9] أنه (لم يشاهد خزانة للكتب أحسن من خزائنه لأنها كانت تحتوي على كل كتاب ثمين وديوان فرد بخطوط العلماء المنسوبة).

ومن المكتبات الأخرى الشهيرة مكتبة على بن يحيى المنجم حيث كانت تقع في كركر في نواحي القفص - قرية قريبة من بغداد - في ضيعة له هناك وهي خزانة كتب عظيمة يسميها خزانة الحكمة يقصدها الناس في

(٨) ياقوت الحموي - معجم الأدباء - (ج٢ ص٣١٥).
(٩) ابن النديم - الفهرست (ص١٩٣).

كل بلد يقيمون بها ويتعلمون صنوف العلم والكتب مبذولة في ذلك لهم والضيافة مشتملة عليهم والنفقة في ذلك من مال علي بن يحيى(١٠).

وذكر أن أبو معشر المنجم قدم من خراسان يريد الحج وهو آنذاك لا يحسن كثيراً من علم النجوم فوصفت له الخزانة فمضى إليها وأقام بها وأعرض عن الحج وتعلّم النجوم وبرع فيها(١١).

كذلك مكتبة غرس النعمة الصابي المتوفى ببغداد سنة ٤٨٠هـ ١٠٨٧م وهو أبو الحسن محمد بن هلال الصابي فقد أوقف في شهر رجب سنة ٤٥٢هـ دار كتب في شارع ابن أبي عوف غربي بغداد ونقل إليها نحو ألف كتاب، وذكر أبن الجوزي أن الذي دفعه إلى وقف هذه الكتب أحتراق دار العلم التي أوقفها سابور بن أرد شير وظلت هذه الدار يفدها العلماء والأدباء سنين طويلة(١٢).

وجعل فيها خازناً يقال له ابن القاسم العلوي، لم يكن ابن القاسم هذا أمينا عليها فأساء استعمالها فسرف وباع كثيراً من هذه الكتب(١٣).

ومن المكتبات الخاصة خزانة (حكمة) للفتح بن خاقان جمعها له علي بن يحيى المنجم لم ير أعظم منها كثرة وحسناً(١٤).

وخزانة أبي حسان الحسن بن عثمان الزيادي وهي خزانة خسنة كبيرة حوت كتباً قيمة كثيرة(١٥).

---

(١٠) ياقوت الحموي - معجم الأدباء - (ج٥ ص٤٦٧).
(١١) ابن طاووس - فرج المهموم في علماء النجوم (ص١٥٧).
(١٢) ابن الجوزي - المنتظم (ج٨ ص٢١٦).
(١٣) الصفدي - الوافي بالوفيات. ج٢ ص١١٢.
(١٤) ياقوت الحموي - معجم الادباء (ج٦ ص١١٧) الفهرست (ص١٦٩-٢٠٥).
(١٥) ابن النديم - الفهرست (ص١٦٠).

(ب) - المكتبات العامة:

عني البويهيون بإنشاء المكتبات العامة في العراق وبذلوا لها المال الوفير فرتبوا لها المشرفين والمؤرخين والعمال لادارة شؤونها وقد سميت هذه المكتبات (بدور العلم) ويدل مجرد اسم هذه المكتبات عن الفرق بينها وبين دور الكتب القديمة فكانت دار الكتب قديماً تسمى خزانة الحكمة وهي خزانة كتب ليس غير. أما المكتبات الجديدة فتسمى (دار العلم) وخزانة الكتب جزء منه وعلى هذا فإن دور العلم عبارة عن دار كتب عامة تقام فيها الندوات العلمية وتجمع طوائف عديدة من العلماء يجتمعون فيها للمناظرة والدرس. ومن أشهر دور العلم هي:

١ - بيت الحكمة:

وقد أسس هذه المكتبة الخليفة العباسي هارون الرشيد وقد أشار ابن النديم[١٦] إلى ذلك في كلامه عن ابي سهل الفضل بن نوبخت فقال «أنه كان في خزانة الحكمة لهارون الرشيد» ولكن أهمية بيت الحكمة وصلت أوجها في عهد الخليفة المأمون حيث كان هذا الخليفة حر الفكر واسع الثقافة شغوفاً بالعلم والآداب والمعرفة وعلى هذا أعطى بيت الحكمة عناية خاصة. وقد صارت في عهده دار للترجمة والانتاج الفكري فقد جمع فيها كبار المترجمين من النصارى والصابئة[١٧] وأمرهم بنقل كتب الفلسفة اليونانية إلى اللغة العربية أمثال أبن البطريق والحجاج بن مطران وحنين بن أسحق وغيرهم ووكلت ادارة هذه المكتبة إلى (سلم) الذي كان يدعى صاحب بيت الحكمة كما عهدت خزانة كتبها إلى الشاعر سهل بن هارون وهو فارسي الأصل[١٨] وكان يقوم بتجليد كتبها أبن أبي الحريش[١٧] وقد

(١٦) ابن النديم - الفهرست (ص٣٨٢).
(١٧) ابن النديم - الفهرست (ص٨، ٢٩).
(١٨) ياقوت الحموي - معجم الأدباء (ج١١ ص٢٦٦).
(١٩) أبن النديم - الفهرست (ص٨-٢٩).

ضمت بيت الحكمة كتباً كثيرة نقل معظمها من لغات أجنبية عديدة كاليونانية والفارسية والهندية والقبطية والارامية وغيرها، وقد كان عصر المأمون أزهى عصور بيت الحكمة.

لقد ورث البويهيون هذه الدار عندما استولوا على بغداد وقد ذكر ابن النديم[٢٠] وجود بيت الحكمة في النصف الأخير من القرن السابع الهجري بقوله أنه (نقل نموذجاً لكل من خط الحميري والحبشي من هذه الخزانة) وقد ظلت هذه المكتبة تؤدي رسالتها العلمية حتى أستولى التتر على بغداد وقتل هولاكو الخليفة المعتصم آخر خلفاء بني العباس سنة ٦٥٦هـ فألقيت كتبها في نهر دجلة وذهبت معالمها وعفيت آثارها[٢١].

٢ - دار سابور:

ومن دور العلم الشهيرة أيضاً دار نصر بن سابور إردشير وزير بهاء الدولة البويهي وقد أنشأها سنة ٣٨٣هـ[٢٢] ببغداد بجانب الكوخ بين سورين وسماها دار العلم. ووقف فيها كتب كثيرة بلغت أكثر من عشرة آلاف مجلد على المسلمين والفقهاء ونقل إليها مائة نسخة من القرآن الكريم خطت بأيدي أحسن النساخ هذه إلى عشرة آلاف وأربعمائة مجلد أخرى معظمها بخط أصحابها أو من الكتب التي كان يملكها رجال مشهورون. وقد وصفها ياقوت قائلاً (لم يكن في الدنيا أحسن كتباً منها كانت كلها بخطوط الائمة المعتبرة وأصولهم المحررة)[٢٣] فضلاً عن أنه أوقف غلة كبيرة تغطي نفقات هذه الدار.

وكانت هذه الدار كعبة العلماء والأدباء يقصدونها في كل وقت للقراءة

---

(٢٠) ابن النديم - الفهرست (ص٨-٣٩).
(٢١) القلقشندي - صبح الأعشى (ج١ ص١٦٦).
(٢٢) ابن الأثير - الكامل (ج٩ ص٣٥).
(٢٣) ياقوت الحموي - معجم الأدباء ج١ ص٢٤٢.

والدرس وكثيراً ما كانت تعقد فيها المناقشات والمناظرات وكان أبو العلاء المعري من رواد هذه الدار فكان يتردد عليها كثيراً أثناء إقامته ببغداد وكانت مكانه المفضل وله فيها أبيات من الشعر طافحة بالشوق إلى مجالسها الزاخرة بالعلم والأدب أرسلها إلى عبد السلام البصري خازن دار العلم ببغداد لصداقة بينهم وفيها يقول:

أخازن دار العلم كم من تنوفةٍ أتت دوننا فيها العوازبُ واللغطُ

وقال أيضاً:

وغنت لنا في دار سابور قينة من الورق مطراب الأصائل ميهال.
رأت زاهراً غضاً فهاجت بمزهر مثانيه أحشاء لطقن وأوصال.

وقد وصف المعري هذه الدار بأنها أثمن مكان في الوجود جلس فيه، وتجلى ذلك واضحاً في الرسالة التي أرسلها من بغداد إلى خاله في البصرة يقول فيها (وأخلف ما سافرت أستكثر من النشب ولا أستكثر بلقاء الرجال ولكن اثرت الاقامة بدار العلم فشاهدت أنفس مكان لم ينصف الزمن بإقامتي فيه[٢٤].

وكان كثير من العلماء والمؤلفين يقفون من مؤلفاتهم إلى دار العلم. فقد أهدى أحمد بن علي بن خيران الكاتب المصري جزئين من شعره ورسائله وأبدى رغبته أن يرسل بقية ديوان الرسائل ان علم أن ما أنفذه منها أرتضى وأستجير[٢٥]. كما أوقف جبرائيل بن بختيشوع نسخة من كتابه الكافي على دار العلم في بغداد[٢٦].

وقد أشرف على هذه الدار مجموعة من جلة العلماء والأدباء منهم أبو الحسين بن السنية حيث صار ناظراً لها والقاضي أبو عبد الله الضبي وأبو

(٢٤) محمد سليم الجندي - الجامع في أخبار أبي العلاء المعري وأثاره (ج١ ص٢١٣).
(٢٥) ياقوت الحموي - معجم الأدباء - (ج١ ص٢٤٢).
(٢٦) ابن أبي‌أصيبعة: طبقات الأطباء ج١ ص١٤٦).

أحمد بن عبد السلام البصري سنة ٤٠٥هـ وكان هذا معاصراً وصديقاً لأبي العلاء المعري عالماً وأديباً قارئاً للقرآن عارضاً بالقراءات وكان من أحسن تلاوة للقرآن. أنشأداراً للشعر وكذلك الحسين بن أبي شبيبة[٢٧].

وكانت هذه الدار أول مدرسة أوقفت على الفقهاء والعلماء قبل المدرسة النظامية بمدة طويلة حيث درس فيها العلوم الدينية والدنيويةجنباً إلى جنب[٢٨].

وقد آلت هذه الدار بعد وفاة سابور بن أردشير إلى الشريف المرتضى أبي القاسم علي بن الحسن الموسوي نقيب الطالبين فرتب لها أبي عبد الله بن أحمد مشرفاً عليها[٢٩].

وقد ظلت هذه الدار مؤدية رسالتها حتى أحرقت سنة ٤٤٧هـ - ١٠٥٥ عندما أستولى السلاجقة على بغداد. ودخلها طغرلبك.

٣ - المكتبة الحيدرية في النجف:

وهي خزانة ضريح الامام علي بن أبي طالب، ويرجع تاريخ هذه المكتبة إلى عهد بعيد وتبعية المكتبة لهذا الضريح المقدس كانت سبباً لاهتمام الكثير من الأمراء والوزراء والعلماء وأعيان الشيعة.

وقد نمت هذه المكتبة وأتسمت بسبب ما كان يهدى إليها من كتب قيمة من قبل الامراء والوزراء وغيرهم. وقد أهدى عضد الدولة إلى هذه المكتبة كتباً ثمينة.

---

(٢٧) ابن الجوزي المنتظم - (ج٧ ص٢٤٠) الخطيب البغدادي - تاريخ بغداد ج٨ ص١٤٦).

(٢٨) ابن العماد - شذرات الذهب (ج٣ ص١٠٩).

(٢٩) ياقوت الحموي - معجم الأدباء (ج١٧ ص٢٦٧) ابن العماد - شذرات الذهب (ج١ ص١٠٤).

٤ - دار العلم في الموصل:

أنشأها أبو القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الموصلي المتوفى سنة ٣٢٣هـ وجمع فيها خزانة كتب من جميع العلوم وجعلها وقفاً على كل طالب علم ولا يمنع أحد من دخولها وإذا جاءها غريب يطلب الأدب وكان معسراً أعطاه ورقاً ورزقاً وكانت تفتح في كل يوم ويجلس فيها إذا عاد من ركوبة ويجتمع إليه الناس ويلقى عليهم من شعره وشعر غيره(٣٠) ومضمناته ثم يملي من حفظه الحكايات المستطابة وشيئاً من النوادر المؤلفة، وطرفاً من الفقه وكان بارعاً في النحو والكلام والجدل والفقه ومعرفة اللغة وبصيراً بعلم النجوم عالماً مطلعاً على علوم الأوائل وكان جيداً بمعرفة كتاب أقليدس وأشكاله وزيادات زادها عليه من مبتكراته وكانت له عدة مؤلفات(٣١).

٥ - مكتبة ابن سوار في البصرة:

أنشأ هذه المكتبة أبو علي ابن سوار الكاتب أحد رجال حاشية عضد الدولة البويهي المتوفى سنة ٣٧٢هـ - ٩٨٢م. وكان يدرس في هذه الدار العلوم الدينية والفلسفة إلى جانب مطالعة الكتب.

كما بنى ابن سوار داراً اخرى للكتب في مدينة رام هرمز في خوزستان (الأحواز) وقد أشار المقدسي(٣٢) إلى ذلك عند حديثه عن رام هرمز فقال (وبها دار كتب كالتي في البصرة والداران جميعاً اتخذها ابن سوار وفيها أجرا على من قصدها ولزم القراءة والنسخ فيها. إلا أن خزانة البصرة أكبر وأغمر وأكثر كتباً وفي هذه بدأ شيخ يدرِّس عليه علم الكلام على مذهب المعتزلة.

---

(٣٠) ياقوت الحموي معجم الأدباء (ج٢ ص٤٢٠).

(٣١) الفهرست (ص١٤٩).

(٣٢) المقدسي - (ص٤٦٣). ابن النديم - الفهرست (ص١٣٩).

وقد ذكر ابن الأثير[٣٣] أنها أول دار وقفت في الاسلام وقد رآها عضد الدولة فقال (هذه مكرمة سبقنا إليها وذكر ابن الجوزي[٣٤] أنها احترقت عندما أحترقت البصرة.

وقد وصف الحريري[٣٥] هذه الدار بقوله (فلما أبت من غربتي إلى منبث شعبتي حضرت دار كتبها التي هي منتدى المتأدبين وملتقى القاطنين منهم والمتغربين فدخل ذو لحية كثة وهيئة رثة فسلم على الجلاس وجلس في أخريات الناس ثم أخذ يبدي ما في وطابه ويعجب الحاضرين بفضل خطابه.

٦ - كذلك اتخذ الشريف الرضي سنة ٤٠٦هـ - ١٠١٥م نقيب العلويين والشاعر المشهور داراً سماها دار العلم وفتحها لطلبة العلم وعين لهم جميع ما يحتاجون إليه[٣٦].

٧ - وأنشأ الوزير منصور بن شاه مردان وزير عز الدولة أبو كاليجار داراً للكتب في البصرة أيضاً كان بها نفائس الكتب وقد نهبها وأحرقها أعراب الحسا في هجومهم على البصرة سنة ٣٤٨هـ[٣٧].

وقد حوت دور العلم هذه على عدد من الموظفين والعمال يديرون شؤونها ويساعدونها على أداء مهمتها وأهمهم:

١ - الخازن[٣٨]:

وهو يشرف على الناحية العلمية والادارية للمكتبة فهو يمدها بالكتب

---

(٣٣) الكامل - (ج١٠ ص١٨٤).
(٣٤) المنتظم - (ج٩ ص٥٣).
(٣٥) الحريري - مقامات الحريري - (ص١٥).
(٣٦) ديوان الشريف الرضى (ص٣). أدم متز - الحضارة الأسلامية (ج١ ص٣١٢).
(٣٧) ابن الأثير الكامل (ج٧ ص٢٣٠).
(٣٨) الخازن: يسمى اليوم أمين المكتبة.

الجديدة ويلاحظ دقة الفهارس وحسن تنظيمها وييسر القراءة للقراء فضلاً عن المحافظة علي الكتب من الضياع وترميم شعثها وحبكها عند أحتياجها للحبك والظن بها على من ليس من أهلها وبذلها للمحتاج إليها أن يقوم في العارية (الإعـارة) للفقـراء الـذين يصعب عليهم تحصيـل الكتب عـلى الأغنياء(٣٩).

ويكون عادة خازن واحد للمكتبة يقوم بهذه المهمة أما إذا كانت المكتبة ضخمة أو كثيرة الرواد يعين إثنان أو يعين للخازن مساعـد أو أكثر لتسهيل المهمة ومن هذه المكتبات دار سابور بن أردشير حيث نظر في أمرها الحسين بن شيبة وأبي عبد الله الضبي القاضي(٤٠) وقد آلت رعاية هذه الدار إلى المرتضى أبي القاسم نقيب الطالبين بعد وفاة سـابور. نـظم خازنها المعروف بأبي منصور إلى آخر يعرف بأبي عبد الله بن أحمد(٤١).

٢ - النسَّاخ:

عين في هذه المكتبات والدور نسَّاخاً عرفوا بالدقة وجودة الخط وقد أدى هؤلاء النسَّاخ خدمة كبيرة للعلم والمعرفة فضلاً عن إمداده المكتبات بكل نفيس وجديد وكان نادراً ما تخلو مكتبة ذات شأن خاصة أو عامة من ناسخ أو نساخ يعملون فيها. وليس أدل على ذلك من عـلي بن هلال المعروف بابن البواب سنة (٤١٣م) الذي كان خطاطاً شهيراً سمت به همته العالية وكفاءته حتى عهد إليه أمر مكتبة بهاء الدولـة بن عضد الـدولة البويهي وكان في نفس الوقت نساخاً في المكتبة إذا إحتاج إلى النسخ في مناسبة ما لبراعته وفنه وجودة خطه. وقد عثر في هذه المكتبة على تسعة وعشرين جزءاً من القرآن الكريم كتبها أبو علي بن مقلة وجعل كل جزء في مجال مستقل فكلف بهاء الدولة ابن البواب أن يكتب الجزء الناقص. وقد

---

(٣٩) السبكي - مفيد النعم (ص١٥٩) شلبي - تاريخ التربية الاسلامية (ص١٣٨، ١٣٩).
(٤٠) ابن العماد - شذرات الذهب (ج١ ص١٠٤).
(٤١) ياقوت الحموي - معجم الأدباء (ج٦ ص٣٥٦).

وفق أبن البواب في ذلك غاية التوفيق حيث استطاع أن يختار كاغداً وقلما وحبراً تشبه من جميع الوجوه تلك التي أستعملها أبن مقلة تقليداً دقيقاً بحيث لم يستطع بهاء الدولة أن يتعرف على الجزء الذي كتبه أبن البواب من بين الأجزاء الثلاثين[٤٢]

وقد عمل لهذه المكتبات والدور فهارس بأسماء الكتب لتسهيل مهمة القارىء في الحصول على الكتاب المطلوب وليس أدل على ذلك من قول المقدسي وهو يصف مكتبة عضد الدولة بشيراز فقال (لكل نوع من الكتب فهرستات فيها أسامي الكتب[٤٣] كما ذكر أبو الحسن البيهقي أنه رأى بنفسه فهارس كتب الصاحب بن عباد وأن تلك الفهارس كانت تقع في عشرة مجلدات[٤٤].

رابعاً: منازل العلماء:

لقد كانت منازل العلماء دوراً لتلقي العلم والمعرفة يؤمها عدد كبير من مريدي العلم ينهلون من معينه وكانت تعقد هذه الندوات العلمية في الليل ومن أشهر هذه المنازل في العصر البويهي منزل الرئيس ابن سينا[٤٥] وقد ضمت هذه الدار نخبة عظيمة من العلماء وذكر ابن القفطي[٤٦]: أن الجوزجاني (كان يجتمع كل ليلة في دار ابن سينا طلباً للعلم وكنت أقرأ معه كتاب الشفاء وكان يقرأ من القانون نوبة، وكان التدريس بالليل لعدم الفراغ بالنهار وخدمة الأمير شمس الدولة، وقضينا على ذلك زمناً).

ومن المنازل المهمة أيضا منزل أبو سليمان السجستاني (محمد بن طاهر بن بهرام) كان مقيلاً لأهل العلوم القديمة تصدى لقراءتها وقصده الرؤساء

---

(٤٢) ياقوت الحموي معجم الأدباء (ج٥ ص٤٤٦-٤٤٧).

(٤٣) المقدسي - (ص٤٤٩).

(٤٤) ياقوت الحموي - معجم الأدباء (ج٢ ص٣١٥).

(٤٥) ابن النديم - الفهرست (ص٢٩٩).

(٤٦) القفطي: تاريخ الحكماء ص١٨٥.

الأجلاء[٤٧] وانتهت إليه الصدارة في الفلسفة بعد يحيى بن عدي الذي كان تلميذاً له وهو بلا شك من أنبغ تلاميذه وكان فاضلاً في العلوم الحكمية متقناً لها مطلعاً على دقائقها واجتمع ليحي ابن عدي ببغداد وأخذ عنه[٤٨] تزعم الفلسفة ورجالها في النصف الثاني من القرن - الرابع يقول الشهرزوري[٤٩] «وآلت إليه صناعة المنطق في ذلك الحين» وقد كان موضع إحترام أهل الرأي في ذلك العصر يعظمونه ويجلونه فيقول القفطي[٥٠] «وتصدر الإفادة هذا الشأن وقصده الرؤساء الأجلاء وكان منزله قبلة لأهل العلوم القديمة».

وكان الوزراء يهتمون بما يدور في تلك الإجتماعات من مناقشات وجدل فكان ابن سعدان يسأل أبا حيان التوحيدي عن أخبار أبي سليمان وكيف يزوره رسل سجستان أيام الجمعة[٥١] وكان يعطيه رقعة بخط يده ليباحث أبا سليمان بما فيها من المسائل الفلسفية الخاصة بالنفس قائلاً (أعرضها على أبي سليمان ولا تدع عنده بل أنسخ له وحصل ما يجيبك به ويصدع لك بحقيقته ولخصه ورقعه بلفظك السهل وإيضاحك اللين»[٥٢].

ولقد نقل أبو حيان أهم ما كان يدور في مجلس أبي سليمان في كتابيه (المقابسات والأمتاع والمؤانسة)في كل علم وفن من أدب وفلسفة ومجون وأخلاق وطبيعة وبلاغة وتفسير وحديث وغناء ولغة وسياسة وتحليل شخصيات الفلاسفة في عصره والأدباء والعلماء وتصوير العادات وأحاديث المجالس وغير ذلك مما يطول شرحه[٥٣].

وكان الوزراء والأمراء البويهيون يحبون أصحاب هذه المجالس

---

(٤٧) القفطي (ص١٨٥).
(٤٨) ابن أبي أصيبعة (ج١ ص٣٢١).
(٤٩) مخطوط الشهزوري (ص٨٠).
(٥٠) تاريخ الحكماء (ص١٨٥، ١٨٦).
(٥١) الأمتاع والمؤانسة (ج١ ص٧٢).
(٥٢) أبو حيان: الأمتاع والمؤانسة ج١ ص٨٣.
(٥٣) أبو حيان - الأمتاع والمؤانسة. ص٢١٢.

ويشجعونها مادياً ومعنوياً فكان عضد الدولة يمد يـده بالمساعدة إلى أبي سليمان مادياً ويصله بالهبات والعطايا، وقد ذكر أبو حيان عن لسان أبي سليمان (لقد مضى الملك - يقصد عضد الدولة - رضوان الله عليه ومن يخلفه في مصلحتي ويجري على عادته معي؟ ومن يسأل عني ومن يهتم بحالي هيهات فقد بالأمس من يطول تلفتنا إليه ويدوم تلهفنا عليه ان الزمان بمثله بخيل[٥٤].

وأبو حيان التوحيدي يروي أن أبن سعدان عندما سمع ذم البديهي لأبي سليمان بأبيات من الشعر شنع فيها بعوره وبرصه قال «قاتله الله فلقد أوجع وبالغ ولم يحفظ ذمام العلم ولم يقضِ حق دينار[٥٥].

ويحدثنا كذلك أن هذا الوزير كان يمده بالمال فيقول للوزير أنك نعشت روحه وكان خفت وبصيرته وكان عشي وأنبت جناحه وكان قد خص بالرسم الذي وصل إليه فلما وصل إليه ذلك الرسم وهو مائة دينار[٥٦].

وكان الأمراء والوزراء والعلماء يجلونه غاية الاجلال فعضد الدولة مثلاً كان يكرمه ويفخمه والوزير ابن سعدان الذي كان أبو حيان يغشى مجلسه كان يطلب إلى هذا أن يسأل أبا سليمان في مواضع معينة وأن يدون إجابته بكل دقة لأنه كان يعتقد «أن الله قد وهب لهذا الرجـل - أبو سليمان مقاماً عالياً».

وأبو حيان التوحيدي يعظم أبا سليمان في جميع كتبه ويدعوه شيخنا أبو سليمان، حتى أن اعداءه لم يستطيعوا أن ينالوا من علمه وتفكيره وإن أخذوا عليه دمامة منظره وقبح صورته.

وقد اختلف عدد الطلبة باختلاف شهرة الاستاذ في فنه وعلمه فكان

---

(٥٤) أبو حيان - الأمتاع والمؤانسة. ص٢٠٠.
(٥٥) أبو حيان - الأمتاع والمؤانسة. ص٢١٠.
(٥٦) أبو حيان - الأمتاع والمؤانسة. ص٢١١.

يجتمع في حلقة الفارابي عدد كبير من الطلبة وقد يكون للاستاذ تلامذة تحتهم تلاميذ أيضاً وذكر أن أبا بكر الرازي الطبيب المشهور كان يجلس في مجلسه ودونه التلاميذ ودونهم تلاميذهم ودونهم تلاميذ أخر، فكان يجيء الرجل فيصف ما يجد لأول من يلقاه فإن كان عندهم علم وإلا تعداهم إلى غيرهم فإن أصابوا - وإلا تكلم الرازي(٥٧) وكان الاستاذ يزداد شهرة ونفوذاً بازدياد تلاميذه وإذا مشى مشوا حوله وكان من أكثر العلماء تلاميذ، الرازي والفارابي.

ومن المجالس العلمية المهمة الأخرى مجلس الشريف المرتضى علي بن الحسين العلوي. وكان يملي فيه ضروباً من المسائل وكتابه الذي سماه (الغرر والدرر) مجالس أملاها في فنون من معاني الأدب كالنحو واللغة وغيرها. وكان لأبي القاسم علي بن المحسن التنوخي حلقة يحضرها طائفة من العلماء والأدباء(٥٨).

ولأبي حامد الاسفرائيني مجلس يحضره ثلاثمائة فقيه، وقد أشار ابن السبكي إلى ما كان يقع بينه وبين غيره من المناظرات، وذكر شيئاً من المناظرات التي وقعت بين أبي إسحق الشيرازي والدامغاني وبين أبي الطيب الطبري وأبي عبد الله الصيمري وبين أبي أسحق وعبد الجبار المعتزلي وبين الطبري وأبي الحسن الطالقاني وبين الطبري والقدوري وغيرها(٥٩).

٣ - الربط:

لم تكن الربط دوراً مقصورة على التعبد والتزهد وإنما كانت فضلاً عن ذلك مواضع للتأليف والتصنيف والأقراء والتثقيف والاجازة والمحاضرة وغيرها. وكان من عادة واقف الرباط أن يجعل فيه وقفاً من الكتب

(٥٧) ابن النديم - الفهرست (ص٢٩٩).
(٥٨) القنفطي (ص١٨٥).
(٥٩) ابن السبكي - طبقات الشافعية - (ج٣ ص٢٤ فما بعد).

للمطالعة والدرس والاستنساخ والمراجعة والاستشهاد وكان لخزائن الكتب في الربط قوام يتولون خزنها وصيانتها ومناولتها وترتيبها ومن أشهر الربط في بغداد في العصر البويهي هي:

(أ) - رباط الزوزني المتوفى سنة ٤٥١[٦٠].

(ب) - رباط شيخ الشيوخ:

وقد بناه عميد العراق. وقد أشار إبن الأثير إلى ذلك بقوله (أما عميد العراق فقتله البساسيري وكان فيه شجاعة وله فتوة وهو الذي بنى رباط شيخ الشيوخ[٢]. وقد شيد هذا الرباط على نهر المعلى.

(ج) - رباط ابن رئيس الرؤساء الأول:

ويعرف برباط الدركاه أما رئيس الرؤساء فهو الوزير أبو القاسم علي بن الحسين بن أحمد المعروف بابن مسلمة وكان كاتباً للخليفة القائم بأمر الله فاستوزه (ولقبه رئيس الرؤساء شرف الوزراء جمال الورى) ولما احتل البساسيري بغداد باسم الدولة الفاطمية وقطع خطبة بني العباس وخطب للمستنصر بالله الفاطمي قبض على هذا الوزير وصلبه حتى مات مصلوباً سنة ٤٥٠هـ.

(٦٠) الخطيب البغدادي - تاريخ بغداد - (ج١٢ ص١١٥).

(٦١) ابن الأثير - الكامل - ج٨ ص٣٥٠.

مصاعب نقل وحفظ
التراث العلمي العربي

بقلم
سامي خلف حمارنة
أستاذ زائر
جامعة حلب

قلائل بين جماهير أرباب المهن والمثقفين عامة من الناطقين بالضاد من لديهم الخبرة الكافية في أمر مراجعة تراث حضارتهم الخطي ودرسه وتقييمه، ولا سيما في العصور الاسلامية الذهبية. ومع أن معظمهم فخور، وبحق، بآثار هذا التراث في العلوم وصنائع الحيل العلمية والفنية إلا أنه لا يعرف طريقاً لسبر غورها. فإذا وضعت أمامه نسخة من هذه المخطوطات الأصلية ولربما يراها ويتلمسها لأول وهلة، فأنه سريعاً ما يشعر بالانقباض والحيرة والارتباك ولا يعلم ماذا يفعل. وهذا التراث العلمي العربي لا يزال أكثره محفوظاً في ألوف من النسخ الخطية بعضها محفوظ في مكتبات عظيمة منظمة أعطته حقه من التعريف والانتباه وبعضها الآخر مكدس في مكتبات اخرى ليس لها حظ كبير من التنظيم يعبث فيها الغبار والحشرات والاهمال وماذا نقول في أمر التعريف بها وفهرستها بدقة؟[1].

---

(١) هناك محاولات هامة لحفظ التراث مثال ما يقوم به معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب منذ تأسيسه عام ١٩٧٦، والبعثات التي أوفدها معهد المخطوطات العربية (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم) إلى إسبانيا والبرتغال والمغرب وتونس ومصر والقدس ولبنان وسورية والعراق وتركيا وإيران والهند والسعودية واليمن وغيرها لدراسة وتصوير الهام من المخطوطات العربية في شتى العلوم والفنون وقد نشرت فهارس وتقارير في مجلة =

وحتى عام ١٩٥٦ كنت أنا نفسي أحد هؤلاء «الفخورين» بتراثهم الحضاري الرفيع ولكن دون إدراك حقيقي وتقدير فعلي لجزئياته، أو كلياته أو تفصيل محتوياته بوضوح وثقة. وتلك المخطوطات القديمة كانت تبدو لي أثراً «مقدساً» لا يلمس ولا يدرس، لأمجاد وعلوم ومعارف خلت واندثرت، وباختصار، كان الظن، أن لا صلة لها بثقافة النصف الثاني من القرن العشرين بعلومه المدهشة واختراعاته المحيِّرة وتقدمه السريع. ولكن موقفي هذا تغير كلياً بعدئذ. فمنذ ذلك الحين صرت أجد في هذه المخطوطات والنصوص دراسات هامة ساهمت في زيادة المعرفة البشرية وكان لها نصيب في بناء مدنية الانسان وتقدمه، وهذه الوثائق هي إحدى تلك الآثار الباقيات لتنطق وتعبر عن عبقرية حضارة القرون الماضية وفضلها على الأجيال اللاحقة. وهكذا أصبحت المكتبات الغنية بهذه النصوص محجة متى تيسر ذلك لي ولغيري من الباحثين، في الشرق والغرب لسبر كنوزها

= معهد المخطوطات العربية. أنظر مثلاً: «نفائس المخطوطات العربية في المكتبة الوطنية في تونس» إعداد هلال ناجي، مجلد (١٨، ١٩٧٢) ص٣-٨٠، ٢٠٩-٢٥٤ ومجلد (١٩٧٥) ص٥-٢٨، «ومخطوطات إيران»، نفس المرجع، ص١٥٧-١٩٥، و «التحف في مخطوطات النجف» إعداد محمد حسين الجلالي، ٢٠ (١٩٧٤) ٣-٤٩، «وتقرير مهمة استطلاع المخطوطات في ليبيا» بقلم محمد مرسي الخولي، نفس المرجع، ١٨١-١٨٩، «المكتبة الجزائرية وعنايتها بالكتاب العربي المخطوط، «١٨ (١٩٧٢)، ١٨٩-٢٠٤،» المخطوطات العربية في دار الكتب القطرية «٩ (١٩٦٣)، ٣ -٤٦، ١٠ (١٩٦٤) ٣-٢٧٢، إعداد عبدالبديع صفر ومحمد مصطفى الأعظمي، «ومخطوطات مكتبة المؤرخ محمد بن زيادة بصنعاء» ١٩ (١٩٧٣) ٣-٢٠، ٢٠ (نوفمبر ١٩٧٤)، ٣-٤٠، و ٢٢ (١٩٧٦)، ٣-٨١، إعداد عبدالله محمد الحبشي، و «تقرير عن بعثة معهد المخطوطات إلى إسبانيا» بقلم صالح أبو رقيق، ١٩ (١٩٧٣)، ٢٠٥-٢١٩»، وتقرير عن بعثة معهد المخطوطات إلى السعودية «بقلم قاسم الخطاط، ١٩ (١٩٧٣)٣٨٩-٤١٠»،ثم مؤلفات ابن سينا المخطوطة في تركيا «نفس المرجع، ٢٢٧-٢٨٧، بقلم مقداد يالجن،» و عناية معهد الأبحاث الاسلامية (باكستان) بالمخطوطات العربية «نفس المرجع، ١٤٣-١٥٦ بقلم أحمد فاروق، «وفهرس المخطوطات العربية في الخزانة الطلسية، ١٥ (١٩٦٩)، ٢٢٩-٢٦٨، و ١٧ (١٩٧١) ٣-٤٢ بقلم أسعد طلس.

وإخراج دفائنها النفيسة. وإن هذا يهيب بأبناء هذه الأمة، أن لا يتركوا الأمر للغربي المستشرق، بل ينبغي أن ينهضوا هم أنفسهم للبحث وتنظيم المكتبات والفهارس وللمحافظة على هذه الوثائق وتدارسها لإحياء هذا التراث على أسس علمية صحيحة وإتباع مناهج دراسية سليمة لتقييم حضارتنا الماضية في المعارف والمهن وصناعة الحيل العلمية والفنية على أوسع نطاق، ولا سيما في العلوم الطبيعية والبحتة.

إننا نعتقد أن هذه الوثائق الخطية النفيسة يجب أن تعطى المكانة الأولى من الاهتمام لتأمين صيانتها والتعريف بها وفهرستها وتجليدها إن كانت بحاجة إلى تجليد وجعلها جاهزة في أحسن شكل لدراسة الباحثين، كل في فرع تخصصه، لتقييمها وإعطائها نصيبها من التقدير. ولأجل تأمين أكبر قسط ممكن من الفائدة فإن هذا الجهد الكبير يحتاج إلى تعاون على أوسع نطاق وطنياً ودولياً، وهذا، كما نرى، هو السبيل الأفضل في التخطيط نحو تقييم هذا التراث العلمي الدفين[٢].

---

(٢) منذ عام ١٩٥٨ قمت بزيارة مئات المكتبات العامة والخاصة الحاوية للمخطوطات العربية، وحتى هذا التاريخ ليس من السهل إعطاء أرقام أكيدة عن عدد هذه الكتب الخطية الموجودة في العالم ولكن يعتقد أن العدد بين غث وسمين يربو إلى المليونين، أنظر صلاح الدين المنجد، **معجم المخطوطات المطبوعة**، بيروت، دار الكتاب الجديد، ١٩٦٢، ص٤. وإننا نرتقب خطوات هامة في الشرق والغرب للعناية بالمخطوطات العربية، أنظر محمد ماهر حمادة، المكتبات في **الاسلام**، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٥٠، ص١٤٨-١٨٠، قاسم الخطاط، «المخطوطات التي صورتها بعثة المعهد إلى المملكة السعودية» «**مجلة معهد المخطوطات**، ٢٣ (١٩٧٧) ٣-٢٣، وجزء ثاني، ٣-٤٨، عبدالله يوسف الغنيم «المخطوطات الجغرافية في المتحف البريطاني،» **نفس المرجع** ١٧ (١٩٧١)، ١٩٩-٢٣٤، سعيد الديوهجي «خزانة سعيد الدبوهجي «نفس المرجع، ٩ (١٩٦٣)، ٢٠٣-٢٣٠، وعبدالسلام محمد النجار «مخطوطات مكتبة روضة خيري» نفس المرجع، ٦ (١٩٦٠)، ٥٩-٨٠، ٧ (١٩٦١) جزء ثاني، ٧ وما يتبع، ٩ (١٩٦٣)، ٢٣١-٢٤٢، ومحمد قبيسي، **حضارة العرب في حفظ وثائقهم**، **بيروت**، دار الآفاق، ١٩٧٩.

حتى هذا الوقت نجد هناك الكثير من الفهارس المطبوعة والكشوف المشروحة والقوائم المبوبة لألوف من المخطوطات العربية (وأيضاً الفارسية والتركية) المحفوظة في مكتبات شرقية وغربية (أنظر الملحق الأول) ولو أن الكثير منها يحتاج الآن إلى المراجعة والتنقيح. ولكن بجانب هذا هناك مئات الآلاف من الكتب الخطية المخزونة التي لم تفهرس أو تبوب أو يعرَّف بها حتى الآن، وثمة أن منها ما هو مدرج في بطاقات تعريفية ولكن غير مستوفية لكل التعليمات والأوصاف اللازمة لتوفر على الباحثين كثيراً من الجهد. ونستطيع أن نقول إجمالاً أن هذه المصاعب تتضاعف حين نعالج موضوع الكتب الخطية العلمية، ولا سيما العلوم الحياتية والبحتة(٣).

في هذه المقالة سيحاول المؤلف كشف القناع عن المصاعب الخطيرة وإيضاح المشاكل المتعددة التي وقفت ولا تزال في وجه نقل الكتب الخطية العلمية وحفظها والاستفادة من تقييم هذا التراث العربي التليد. وفي الوقت ذاته سيشير إلى بعض السبل والمناهج العلمية الواجب اتباعها في كل فهرسة صحيحة، بما في ذلك تعيين إسم المؤلف لكل كتاب خطي، ومادة البحث والنقاط الهامة فيه بالاضافة إلى طرق حفظه وشرحه وتقييمه في ضوء مناهج البحث السليمة والتضلع في معرفتها واصطلاحاتها الفنية.

---

(٣) قام د. ديفيد كينج في القاهرة بدرس مستفيض ودقيق للمخطوطات العلمية العربية المتعلقة بالفلك وعلم التنجيم وما اليها وفي إلمانيا كانت محاولات لفهرست الكتب الخطية العربية المتعلقة بالكيمياء وذكر كلا من مانفرد أولمان وألبرت ديتريش العديد من المخطوطات الطبية والمتعلقة بالعلوم الطبيعية وقد خصص فؤاد سزكين قسماً لا يستهان به من كتبه في التراث العربي للمواضيع المتعلقة بالطب والصيدلة والكيمياء وعلم الحيوان، والرياضيات، والفلك والتنجيم، وقد تأسست عدة معاهد لا سيما في الشرق العربي لتحقيق ونشر التراث العربي، أما معهد المخطوطات العربية فقد خصص الجزء الثالث من **فهارس المخطوطات المصورة** لفن العلوم قسم الفلك والتنجيم والميقات ١٩٥٨ قسم٢ الطب والصيدلة قسم٣ الرياضيات ١٩٦٠ قسم٤ الكيمياء والطبيعيات ١٩٦٣ واشتمل الجزء الرابع على المعارف والفنون العامة ١٩٦٤، وصدر كتاب ثاني في مصورات المخطوطات الطبية عام ١٩٧٨.

المواد المستعملة في الكتابة

إن أهم المواد والوسائل اللازمة للكتابة الورق، لا سيما بخصوص الوثائق الخطية. وقد ظهرت في العالم العربي والاسلامي صناعة الورق حوالي القرن الثاني للهجرة، وقبل ذلك كانت النقوش والكتابة تدرج على ورق البردي والجلود والحجارة والرخام والفخار والعظام والأخشاب والأواني الخزفية وكلها عسر التداول. ولكن العرب تعلموا صنع الورق وأتقنوه عن طريق بعض مهرة الصناع الصينيين، الذين أسرهم المسلمون في فتوحات خراسان وما وراء النهر. ثم أنه بدأ في عهد الخليفة هارون الرشيد (٧٨٦ - ٨٠٩) صنع الورق في العاصمة العباسية[٤] ومن بغداد انتشرت هذه الصناعة الهامة شرقاً وغرباً على طول بلاد الاسلام وعرضها، حتى وصلت إلى المغرب ومنه إلى جزيرة الأندلس في القرن العاشر. ونستطيع أن ندرك أهمية هذا الكشف الخطير إذا تأملنا أن مثل هذه الصناعة لم تكن معروفة في الغرب قبل أواخر القرن الثاني عشر (أواخر القرن السادس الهجري)، وإن العرب والمسلمين استفادوا منها حوالي أربعة قرون قبل أن يتعلمها الغرب المسيحي من المسلمين أنفسهم الذين نقلوها إليه. ويكفي مقارنةً صعوبة حمل وتناقل ما يكتب على الجلود وغيرها بمزايا الورق الجيد الذي به جعل أمر إنتقال وتبادل العلم والعرفان في شرق البلاد وغربها أمراً ميسوراً وممتعاً وما آلت إليه كتابة المخطوطات من تطور الخط العربي.

وقد كان من حسن الحظ، أني فحصت بعض الوثائق العربية من القرنين التاسع والعاشر (الثالث والرابع الهجرين) فوجدت من جودة الورق

(٤) أبو الفرج محمد بن إسحق بن النديم، **الفهرست**، طبعة القاهرة، الاستقامة، ١٩٢٩، ص٣٧-٣٨ وأبو العباس أحمد بن علي القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج٢، القاهرة، وزارة الارشاد القومي، ١٩٦٣، ص٤٧٤-٧٧، ٤٨٧-٨، وجرجي زيدان، **تاريخ التمدن الاسلامي** ج٣، القاهرة، الهلال، ص٦٢-٦٣، وحمادة، **المكتبة**، ٧٢-٧٨.

وحسن صنعه ما يميزه ويجعله مفضلاً على بعض ما أخرجته دور الصناعة من ورق هش في أوروبا في القرن التاسع عشر الميلادي.

وفي حوالي منتصف القرن الخامس عشر استعمل يوحنا غوتنبرغ (١٤٠٠ - ١٤٦٨) بمينتز في المانيا أول آلة ميكانيكية متحركة للطباعة وقد انتشر بعدها أمر الطباعة في أوربا ثم في العالم أجمع على مراحل. واستطاع هذا النوع من الطباعة أن يؤمن إلى أكبر حد، وجود أعداد كبيرة من النسخ المطبوعة المتشابهة تماماً مما يسر أمر توفر العديد من الكتب العلمية والفنية المتجانسة.

ولكن بقيت في البلدان الاسلامية مشكلة نقل مثل هذه الكتب بخط اليد مهمة شاقة وعسيرة تزداد خطورة بمقدار دقة مواد الكتاب وما يحتويه من جداول وأقوال علمية ومصطلحات فنية حتى ما يقارب نهاية القرن الثامن عشر إذ استمرت الكتابة باليد لنشر المعرفة بالمكتوب هي الوسيلة الوحيدة المتبعة(٥).

وهناك نقطة أخرى ذات أهمية تجدر الاشارة إليها وهي أنه نشأت حرفة النسّاخ منذ القرن التاسع (الثالث الهجري) ولا سيما في المدن ومراكز التجارة - الذين كانوا يرتزقون من نقل الكتب واستنساخها وقد أصبحت جماعة لها أنظمتها وآدابها وتقاليدها التي تتقيد بها مع أنها تفسح المجال للحرية الفردية. ومن أصحاب هذه الحرفة قوم اتسع عملهم ونجح حتى أصبحوا يمتلكون المكتبات، سموا بالورّاقين. ومن خيرة من نذكر من

---

(٥) خليل سباط، **تاريخ الطباعة في الشرق العربي**، طبعة ثانية، القاهرة، دار المعارف ١٩٦٦، ص١٥-٢٦-٣٦-٥٠- ١٣٣ - ٤٨، وفيه ذكر حول دخول الطباعة إلى سورية ولبنان بحوالي قرن قبل دخولها مصر وبعض البلدان العربية الأخرى. أنظر بولس سباط، **مراجع للمخطوطات العربية**، القاهرة، فردريك، ١٩٢٨ في مجلدين (يذكر ١١٢٥ مخطوطاً) **والفهرس**، القاهرة، مطبعة الشرق في جزئين وملحق، ١٩٣٨-١٩٤٠ (بالفرنسية مع نقول عربية)، وعبد الستار الحلوجي، **لمحات من تاريخ الكتب والمكتبات**، القاهرة، دار الثقافة العربية، ١٩٧٨.

المتعلمين النابهين بينهم الورّاق أبـو الفرج محمـد بن اسحق بن النديم صاحب كتاب **الفهرست** في شتى العلوم والمعارف المترجمة والموضوعة في العربية مع الكتب وسير المؤلفين والمترجمين مما لا يستغني عنه باحث في هذه الحقبة والذي أتمه في بغداد عام ٣٧٧هـ/٩٨٧م.(٦).

قوانين حفظ المخطوطات وفهرستها:

إن أشهر المكتبات وتجار الكتب يقتنون ويحفـظون الكتب الخطيـة لا لقيمتها المادية والأدبية أو العلمية فحسب ولكن كرمز تراث للحضارات السابقة أيضاً. ولكننا نعلم أن هذه الوثائق طالما بقيت عرضة لأخطار كثيرة من جراثيم وكائنـات حية تعبث فيهـا فساداً بـالاضافـة إلى الاستعمال المجحف لها، زد على ذلك أمر وجود ما يؤدي إلى تلفها كتعرضها المستمر للضياء والحر والرطوبة والغبار والدخان وغيرها من عوامل الطبيعة المدمرة كالنار والأمطار.

لقد توصل الخبراء في المكتبات الحديثة إلى ضبط مقدار الحرارة داخل خزائن الكتب هذه لدرجة لا تزيد عن ٢١ درجة مئوية (٦٩ فهرنهايت) ورطوبة جوية لا تربو على ٥٥٪ أضف إلى ذلك ضرورة تنظيف المخطوطات بكل إنتباه من الغبار حيناً بعد الآخر، إذ تأكد أن الغبار يودي بسلامة ألوف المخطوطات المخزونة، كما هو جار مع الأسف حتى هذا الوقت في

(٦) إن كتاب **الفهرست** لأبي محمد بن إسحق بن النديم (ت٩٩٥) تم تحقيقه مع ترجمة للالمانية وملاحظات بواسطة غوستاف فلوجل في مجلدين طبع ليبزج (١٨٧١-١٨٧٢)، وبعدها ظهرت طبعة عربية جيدة في القاهرة، مطبعة الاستقامة ١٣٤٨/١٩٢٩، وقد ترجم الكتاب مع شروح إلى الانكليزية بواسطة بيارد دوج في مجلدين، جامعة كولومبيا، نيويورك ١٩٧٠. وهذا المرجع الهام الحاوي عشرة مقـالات (٣٣ فصلاً) يعـطي فيه المؤلف صورة مقتضبة ولكن واضحة لتحقيقات الحضارة العربية الاسلامية في العلوم والفنون والصناعات والآداب والترجمـات من شتى اللغات والتـآليف مع سير العلماء والنابهين مما لا يستغنى عنه باحث حتى فترة إكماله عام ٩٧٨م. وفيه عناوين كثير من الكتب العلمية التي لم تصل إلينا ويبدو أنها فقدت من أمد بعيد.

كثير من البلدان الاسلامية في آسيا وإفريقيا. فلمحاربة الهوام المؤذية لها مثلاً يوصى باستعمال مطهر يسمى الكاربوكسيد (وهو عبارة عن سائل أوكسيد الأتيلين مع ثاني أوكسيد الفحم) يرش في حجر مضبوطة مفرغة من الهواء الطلق. كما وتستعمل أقراص البارادى كلوروبنزين المعقمة موضوعة في أكياس قطنية دقيقة الصنع مع مركب زعتري ضد الفطريات.

أما لازالة اللطخات الملونة المسببة عن دخان المواد المحرقة فيستعمل فوق أوكسيد الهيدروجين، وضد اللطخات الزيتية تفرك بالبيريدين مع التهوية الكافية. أما في حالة وجود مخطوط رث قد لحقه العطب فيجدر عمل مصور شمسي له في الحال للحفظ قبل تسليمه لخبير يتولى أمر إصلاحه. وإننا في معرض هذا لنوصي بضرورة عمل صورة شمسية واحدة أو أكثر (في حجم الأفلام الصغيرة) لكل مخطوط هام ليسهل تداوله وإعارته أو عمل نسخ أخرى عنه لصيانة الأصل عن العطب بسبب كثرة المداولة. وأما من جهة السعي لعمل فهارس الكتب الخطية فتوجب الاشارة إلى النقاط الجوهرية التالية:

١ - ملاحظة حالة المخطوط الخارجية حيث ينظر إذا كان النص كاملاً أم لا ، وهل الأوراق منتظمة في مكانها الصحيح بعد التجليد (فإن أحد الأخطاء الشائعة في التجليد وضع ورقة أو ملزمة أو أكثر في غير موضعها) ونوعية الورق وعدده وحجمه وكذا الخط والحبر المستعمل وألوانه ونوعية التجليد (وإن كان الكتاب غير مجلد فيجب الإسراع في تجليده عند خبير في الحرفة بعد عمل صورة شمسية صغيرة له).

٢ - التعريف بمحتويات المخطوط العلمية والفنية وتاريخ التأليف أو النقل ومكانها والتملك والتجليد وعدد الأسطر في كل صفحة وترتيبها ورقم التسجيل أو التصنيف والحواشي والتشكيل أو التنقيط وعنوان الكتاب وفصوله وترتيب أبوابه وفقراته.

٣ - أهمية الاشارة إلى نقل المتن وتعيين إصالة المخطوط وهل هي بخط المؤلف أو قرئت عليه أم نقلت بعد موته وصحة النقل بالمقارنة مع نسخ اخرى للتوقي من مصادر الأخطاء أو تكرارها، وأسبابها كثيرة: الإهمال، وخطأ طريقة الاملاء وعدم الدقة في النقل الفردي، والعجز في تدبير الحواشي واختلاف الألفاظ والتصحيحات، وفوق كل ذلك فهناك حالات يجب التنبه إليها، يكون فيها تعمد مقصود للتحريف والتزوير .

المؤلف والعنوان الناسخ:

هناك مصاعب مبعثها رغبة الوصول إلى العنوان الحقيقي للكتاب المخطوط، إذ أن أعداداً ليست بقليلة من المؤلفات العربية تحمل أكثر من عنوان واحد إما في النسخ الموجودة أو في كتب المراجع والتواريخ والتراجم. ويعلم القارىء أنه في المخطوطات المعرضة للاهمال والتلف أول ما يفقد منها الورقة أو الورقات الخارجية في أول الكتاب وآخره وهي في الغالب، كما ينبغي، تحتوي على إسم المؤلف والكتاب والناسخ وتاريخ النقل ومكانه إلى آخر ما هنالك من المعلومات القيمة، وفي حالات كهذه يفضل مراجعة مخطوطات أكمل وأوفى تحتوي على هذه الأسماء والألقاب أو تساعد على اختيار ما هو الأصح.

وهناك حاجة اخرى ملحة ومن الضروري علاجها سريعاً ألا وهي مسألة الاتفاق بين عموم أصحاب المكتبات والباحثين والاخصائيين على كيفية كتابة إسم المؤلف أو الناسخ (بما في ذلك لقبه وكنيته وما يسمى في العصر

(٧) هناك مراجع عديدة حول أهمية دراسة المخطوطات وتصنيفها وتحقيقها في لغات عدة نذكر منها بعض ما صدر بالعربية، **دليل المراجع العربية والمعربة**، لعبد الجبار عبدالرحمن، البصرة، دار الطباعة الحديثة، ١٩٧٠، وعزيز سوريال عطية، **الفهارس التحليلية لمخطوطات سينا العربية** ترجمة نسيم يوسف، الاسكندرية، مطبعة نصر، ١٩٧٠، وعمر رضا كحالة، **معجم المؤلفين**، مصنفي الكتب العربية في ١٥ جزءاً، دمشق، المكتبة العربية، ١٩٥٧-١٩٦١.

الحديث باسم العائلة) ثم إن هذه يجب ترتيبها حسب أحرف هجاء الاسم الأخير (العائلي) وبذلك نعالج مشكلة كبيرة في تعيين هوية الأشخاص في المراجع والفهارس ومن المستغرب حقاً أنه حتى هذا الوقت هناك بعض المكتبات العصرية الشهيرة في الشرق والغرب تستعمل حتى الآن الاسم الأول أو اللقب للتعريف بالمؤلف. فمثلاً وجدت في مكتبة شهيرة أن مدخل الاسم في الفهارس وهو تحت محمد بدل الرازي لتعيين الطبيب أبو بكر محمد بن زكريا الرازي وهذا أمر وإن عمل فيه في أوقات مضت ولكنه لا يوافق عليه في عصرنا هذا لا سيما وهناك الوف التراجم التي تبدأ باسم محمد. وعلى هذا الأساس نوصي باستعمال الرازي كمدخل بدل الاسم الأول وإسم السمرقندي مثلاً بدل نجيب الدين أبو حامد محمد، وابن البيطار بدل ضياء الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد أو المالقي النباتي[٨].

أما بخصوص أسماء المؤلفين الأجانب الذين ترجمت كتبهم إلى لغة القرآن فإنه يجدر الاتفاق على صيغة موحدة لترجمة الاسم الحرفية آخذين بعين الاعتبار أفضل التهجئات التي جاءت في التراجم الأصلية في عصر الحضارة العربية الذهبي وأصحها. فعلى سبيل المثال نذكر إسم الطبيب اليوناني الذائع الصيت أبقراط والذي ترجمت أكثر الكتب التي تحمل إسمه إلى العربية فنجعله تحت حرف أ يتلوها باء مع ضمة. وجالينوس تحت ج متبوعة بألف وهكذا، مثلاً ديسقوريدس وبولس وأقليدس وسارتون توضع تحت د، ب، أ، وس بالتتابع ويتبع الأسلوب نفسه مع الأسماء الشرقية كالهندية والفارسية. ويمكن اللجوء إلى استعمال الرد في التهجئات المحتملة

(٨) أعتقد أنه حان الوقت لنلحق بموكب الحضارة الحقيقية ونطبق ما هو نافع ومعقول ونرفض ما هو بائد وسقيم ومغلوط. وهو وقت لتنظيم أسماء المؤلفين والنساخ والعلماء في ترتيب يضمن أكبر قسط ممكن من البساطة وسلامة الذوق والمنطق ليسهل الرجوع إليها وتعريفها وتبويبها والاشارة إليها في قوائم الكتب وجداول الأعلام وتآليفهم. وحسناً أن بعض مؤلفينا قد بدا الواحد بعد الآخر ينحو نحواً سليماً في هذا المضمار في فهارس كتبهم وجداول الأسماء والألقاب المطبوعة.

إلى ما استقر الرأي عليه فمثلاً تحت بقراط في الباء ينوه بالاشارة التالية: انظر أبقراط تحت الألف حيث يوجد المدخل كاملاً، وهكذا. وأخيراً نقدم هنا دعوة عامة إلى كل من يهمه الأمر إلى وجوب تبني طريقة نظامية لترجمة الأسماء وغيرها من الكلمات والمصطلحات من العربية وإليها لازالة التشويش والفوضى الموجودة حتى اليوم(٩).

الفهارس المنشورة والمعدة للنشر:

في الملحق الأول يجد القارىء قائمة إجمالية لمراجع وفهارس وجداول قد تم نشرها بخصوص الكتب الخطية العربية والتي بينها تفاوت كبير من حيث الجودة والدقة والنفع فبعض منها مفصل ودقيق يمكن الاعتماد على أوصافه وتعريفاته وبعضها الآخر خال من الدقة والتفصيل المفيد تعتوره الأخطاء، أضف إلى ذلك أن معلومات جديدة ظهرت وتظهر كل يوم تستوجب الادماج في الطبعات المقبلة.

ومع أن عدد ما نشر حتى الآن من الفهارس لا بأس به فأنها فقط بداية متواضعة لما توجب ويتوجب نشره بالنسبة لألوف المخطوطات التي تنتظر الوصف والإيضاح في مكتبات العالم. وأي مشروع للقيام بهذا الواجب يتطلب مجهودات جبارة ليس على مستوى الأفراد فحسب بل الجماعات والشعوب. لذلك يجب تشكيل فرق من الباحثين والمموِّلين والناشرين كل في فرع تخصصه يكرسون سنيهم ومواهبهم لمجابهة هذا التحدي الصارخ والحاجة الملحة إلى المزيد من الفهارس الوصفية المفصلة والموثوق فيها. فالتعاون بين الأفراد والجماعات والمؤسسات العاملة على إحياء التراث العربي واجب محتم مع توفير مواهب وإمكانيات اخرى

---

(٩) يقترح بالنسبة للأسماء الأجنبية المنقولة إلى العربية أولاً أخذ النقول الأولى في عين الاعتبار وما وجد غير مناسب فيمكن تغييره وتصحيحه، ولكن على العموم لا بد من الرجوع إلى الأصول والوثائق العربية التراثية الرائدة والاسترشاد منها في الترجمة والتأليف إذ فيها نجد هذه الأسماء مشاراً إليها باستمرار.

كمعرفة العديد من اللغات السامية والكلاسيكية واللاتينية والانكليزية وحتى الروسية لجمع كل شاردة وواردة من المعلومات الأساسية وما نشر وما هو قيد النشر بالاضافة إلى المراجع الأصلية نفسها.

ومعهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب بسورية بأهدافه وإمكانياته هو خطوة أولى في هذا الاتجاه، فيحتاج هو وامثاله من مراكز البحث إلى المعاضدة حكومياً وشعبياً على النطاق العربي الكبير. وإن كانت هناك مراكز اخرى عربية أو أجنبية مستعدة للتعاون في هذا السبيل فلا بد من أن يوفر لها ما تحتاج إليه من مراجع وفهارس ومعاجم في لغات عديدة، وثم مكتبات مزودة بالوثائق والمراجع اللازمة في شتى اللغات ومجهزة بمعدات للتصوير والنسخ مع مكبرات للصور الشمسية المصغرة وأعداد لحفظ الأفلام والمخطوطات[10].

التصنيف والتقييم:

لقد أشرنا إلى وجود توفير المراجع والفهارس والمعاجم وغيرها من المصادر اللازمة للبحث والدراسات الدقيقة في المكتبات والمعاهد والمراكز المخصصة لإحياء التراث مع حفظ المخطوطات وإنشاء مكتبة للمصور منها شمسياً على الأفلام المصغرة والتي لها مميزات عدة في توفير الوقت وصيانة الأصل الخطي وتيسير أمر عمل النسخ المطلوبة للدرس والنشر. وبذلك يتسنى للباحث المدقق والمختص اختيار ما يجده مناسباً وأهلاً للتحقيق

(١٠) يحتوي معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب على مكتبة تستهدف جمع الكتب والمخطوطات والدوريات والمراجع التي تمت إلى هذا التراث بصلة وفي لغات عديدة وتحتوي آلات لعمل صور شمسية مصغرة للمخطوطات أو نقولاً عنها طبق الأصل ونسخاً مكررة ومكبرات لقراءتها وأدوات تصوير ونواة متحف علوم ومطبعة جامعية مجهزة جيداً ومؤهلة للطباعة في عدة لغات وأحرف ورموز اصطلاحية، وتقوم بتحقيق كتب التراث وطبع النصوص وتصدر **مجلة تاريخ العلوم العربية** نصف سنوية على أعلى المستويات منذ عام ١٩٧٧ كما وتنشر رسالة دورية فصلية لحمل الأخبار والتقارير الخاصة بالتراث والمؤسسات وأنباء الباحثين فيه.

والتقييم والنشر، وكما تحتاج بذرة الزرع، كحبة الحنطة مثلاً، إلى التربة الصالحة والمناخ الموافق والمطر المتوفر لتنمو وتأتي بخصب الثمار، ثلاثين وستين ومائة ضعف، فهكذا يحتاج إحياء التراث ومدنية الحاضر علمياً وفنياً ومهنياً إلى البيئة الصالحة والامكانيات الضرورية والوسائل الإيجابية لتوفير إنتاج فكري خصيب وثروة ثقافية عميمة النفع.

ومن الناحية العلمية نضيف القول بأنه بعد الحصول على أي كتاب مخطوط وتسجيله في قيود المكتبة رسمياً يأتي أمر تصنيفه ووضع أوصافه الداخلية والخارجية التي سبقت الاشارة إليها. وفي حالة المصورات المصغرة الشمسية (الميكروفيلم) فيجب أن نضيف إلى العلبة أو البطاقة التي ترافق كلًا منها جميع المواصفات السابقة الذكر المأخوذة عن المخطوط الأصلي. ثم إنه بعد تعيين إسم المؤلف وعنوان الكتاب وإسم الناسخ وتاريخ النسخ، وأغلب الوقت تتوفر هذه في الصفحات الأولى والأخيرة في المخطوط الكامل، يأتي أمر تصنيفه بالنسبة لمحتوياته حسب الموضوع ومادة البحث. وقد وضعت أنا شخصياً على سبيل المثال والارشاد، لا على سبيل الحصر والتقييد بها، الرؤوس الخمسة عشر التابعة لتقسيم صنوف المواضيع والمواد بالنسبة للعصر الوسيط:

١ - تاريخ الفلاحة والبستنة والآلات المستعملة بهما وعلم النبات.

٢ - الكيمياء والمواد الكيماوية والمعدنيات والتعدين ومنتجات المناجم، ويضم هذا السحر والرقى والتعاويذ ودراسة الكف والرمل والطلاسم والأوفاق (المربعات السحرية).

٣ - علم الآثار والتاريخ الطبيعي للأجناس البشرية.

٤ - هندسة البناء وعمران المساجد والقصور وبناء التحصينات كالقلاع والربط.

٥ - علم الفلك والتنجيم والآلات المستعملة فيهما والمزولات (الساعات الشمسية وغيرها) والزيجات والتقاويم السنوية والشهرية وعلم نظام الكون.

٦ - الحرف والمصنوعات اليدوية والتجارية بما في ذلك أثاث البيوت والصناعات التقليدية كالزجاج والفخار والفسيفساء والورق والأقمشة والجلود والمسكوكات والصناعات المعدنية والخشبية وغيرها.

٧ - التاريخ الطبيعي والأراضة وتكوين طبقات الأرض والجغرافيا وصورة الأرض والمساكن والممالك وعلم الملاحة والرحلات براً وبحراً ومعرفة الأمصار والبلدان والآثار.

٨ - مواضيع عامة في تاريخ وفلسفة العلوم العربية وفلسفتها وتاريخها الثقافي والعمراني وعلاقة المجتمع والتربية والتشريع بالعلوم والمعارف النظرية والجدلية وغيرها.

٩ - علوم المكتبات بما في ذلك تنظيم المراجع والفهارس والمناهج وما يتعلق بعلم التاريخ والتدوين والكتابة والفهرسة ووضع التقاويم.

١٠ - الصناعة الطبية وما يتصل بها من فنون الجراحة وطب الأسنان والعيون وتجبير العظام والحجامة وفن المداواة ومهنة الصيدلة والنباتات الطبية والمفردات الدوائية والصحة العامة.

١١ - العلوم الرياضية من هندسة وجبر ومثلثات وما ينطوي تحتها من علم العدد والحساب وآلات الاحصاء ومسح الاراضي والتخطيط.

١٢ - علوم الطبيعة والبصريات والمغناطيسية وأيضاً نظرية الموسيقى والألحان.

١٣ - صنائع الحيل العلمية والفنية بما في ذلك كل أنواع الهندسة

الميكانيكية والمعدنية والحربية وبناء الجسور ومصادر الطاقة، وسقاية الأراضي وبناء الأقنية وصناعة الساعات والألعاب الآلية وما إلى ذلك.

١٤ - تفاعل الحضارات الشرقية والغربية والعلاقات الرابطة بينهما والتأثيرات المترتبة على هذا الانمزاج والتقارب، والنقل والترجمات والقائمون عليها ومدارسهم ومناهجهم ومشاربهم.

١٥ - علم الحيوان والطب البيطري وما يتبع ذلك من فنون البيطرة والزرطقة وأوصاف الحيوانات والطيور والأسماك وأحوالها ومنافعها[١١].

والآن نأتي إلى الكتب الخطية نفسها والتي مراراً ما تحوي أكثر من كتاب في مجلد واحد فهذه المجاميع لا بد من فحصها جيداً عند وضع الوصف والتصنيف الكامل للمخطوط لذكر كل كتاب في المجلد مع إسم مؤلفه وعنوانه ومادة بحثه وعدد أوراقه ووصفها والخط المستعمل وجودته ونوعه. ثم توضع الأرقام (١) و(٢) الخ بعد الرقم العام للمخطوط لتعيين مكان الكتاب من المجموع وبذلك نعده في الفهرسة، كما هو الواجب، كتاباً مستقلاً بذاته، على الرغم من أنه مجلد مع سواه. ثم إن وُجِدَت فهارس في مضمون المجموع فتحسن الاستفادة منها مع الانتباه لامكانية وجود خطأ أو سهو مما يدفعنا للتوصية بوجوب التأكد من صحتها شخصياً بفحص كل جزء من أجزاء المجموع لننجو من أي خطأ طالما تردد ويتردد لئلا نضل الهدف وتفوتنا الفائدة المنشودة. وفي حالة عدم توفر ذكر إسم المؤلف أو عنوان الكتاب فعلى المفهرس مقابلة محتوياته: مقدمته وفصوله وأبوابه، مع ما هو معروف في هذا الموضوع ليتسنى له الجزم في رأيه في التعريف والوصف (وللفائدة في هذا المجال يمكن مراجعة الملحق الثاني).

---

(١١) لقد رتبت هذه المواضيع بناء على دراسة شاملة لجميع حقول البحث في الحضارة العربية الاسلامية بما يختص بتاريخ العلوم وصنائع الحيل العلمية والفنية والصنائع التقليدية وفن الهندسة والعمارة.

ومن اختباري الشخصي أقول، ويمكن تأكيد هذا في إختبارات زملاء آخرين أيضاً، أنني فحصت كتاباً خطياً كان يظن أنه واحد، فوجدته بعد الاستقصاء مجموعاً يحوي ثمانية عشر كتاباً مختلفاً (موضوعة في مجلد واحد). ومحتويات المجموع قد تكون كتباً لمؤلف واحد حاوية مواضيع مختلفة أو لعدة مؤلفين، وقد تكون المحتويات تابعة لموضوع عام أو في عدة مجالات من العلوم والمعارف. فلذلك لا يوجد ضمانة أكثر إيجابية ونفعاً من أن يفحص كل مجلد بالتدقيق من أوله إلى آخره للتأكد من مادته ومحتوياته وأجزائه وأوصافه لفائدة المفهرس والقارىء معاً.

وبعد أن ينتهي أمر التنصيف تتقدم بعدئذ إلى الباحث الخبير في تقييم الموضوع المعين حسب تخصصه إن كيمياء أو طباً أو علم فلك أو تنجيماً مستمدين النفع والتوضيحات من خبرته في التحديد والتفسير ومن الكتب المعاصرة لهذا التراث.

وإذ قد أحسن الأجداد في عملهم وأتقنوه فمن واجبنا الاستفادة والاحتفاظ بما أجادوا به والاضافة إليه. فمثلاً نجد أن بعض المراجع التراثية المعرّفة بالعلوم والكتب تقتبس بجانب إسم المؤلف وعنوان كتابه، تلك العبارات التي يستهل بها الكتاب ويختم (أوله وآخره) وفي هذا نفع جزيل للتعريف بالمخطوط والتأكد من كمال نقله، مما يدل على ذوق سليم وأمانة في العمل، ويا حبذا لو يقتدي الخلف بالسلف فيما أحسنوا به إلينا وللعالم أجمع من علوم وصنائع.

مصاعب نقل المخطوطات العلمية وحفظها:

هنا نأتي إلى مركز الثقل بالنسبة لبحثنا هذا راجياً شرحه بالاختصار. فإنه جدير بالقول أن الكثيرين من المؤلفين العرب والمسلمين قد ساهموا فعلياً في نهجهم سبلاً علمية سليمة من تصنيف العلوم وصنائع الحيل العلمية والفنية وتحديدها. والحق يقال ان إنتاجهم العلمي كان خصيباً

وكان مفيدا، فأضافوا صفحات نافعة في تطور الحضارة والانسانية وتقدمها وفي التمهيد لسرعة ظهور عهد النهضة الأوروبية. وكتاباتهم شملت نواحي عديدة في المعرفة النافعة والصنائع والعلوم الحضارية. أضف إلى ذلك ما تميزت به مدنية الاسلام في العصر الوسيط من روح التسامح والاخاء مع التقدير النزيه للعلوم من أي مصدر جاءت والرغبة في قبول الحق من أي منبع جرى أو فاض، طالبين الحق لذاته[١٢].

وقد تميزت هذه الحقبة أيضاً بأعداد المحسنين الذين ناصروا العلم والعلماء وأكرموا وفادتهم وآزروهم في العمل والدرس والانتاج ولم يبخلوا عليهم في مسكن أو معهد أو آلة أو منصب ليعطوا من ملاحظاتهم ومدارساتهم ومعارفهم واختباراتهم ما فيه خير للأمة وإضافة للمعرفة البشرية النافعة. وهذا صحيح ليس في الآداب والشعر والتاريخ بل وفي العلوم جميعها أيضاً ولكن ماذا حدث حتى أن قسماً كبيراً (ولربما القسم الأكبر) من هذه الكتب الخطية الهامة في كافة العلوم والصنائع فقد ولا أثر له منذ زمان؟ وما هي المصاعب والأخطار التي جابهت أمر نقلها وحفظها حتى زماننا هذا؟

للجواب نقول: إن هذه العلوم ازدهرت بمساعدة أولي الأمر

---

(١٢) جون هيز، «محرر» **عبقرية الحضارة العربية، مقدمة للنهضة الأوروبية**، مطبعة جامعة نيويورك، ١٩٧٧، ونجد في كتابات الكثيرين من العلماء في الحقبة العربية الاسلامية تصاريح تفيد بتمسكهم في طلب الحق والسعي في أثره بغض النظر عن المصدر الذي جاء منه في أية أمة أمثال الكندي والرازي والزهراوي والبيروني وابن القف وابن النفيس وقد أثر هذا في طرق التعليم بينهم، أنظر ألبير زكي اسكندر، مدرسة الاسكندرية ومناهج التعليم الطبي في أوائل العصر الوسيط «**مجلة معهد المخطوطات**، ٢٣ (١٩٧٧) ٢٤-٥٦ وفؤاد سزكين «مكانة العرب في تاريخ العلوم» **أبحاث الندوة العالمية الأولى**، جامعة حلب - معهد التراث، ج١ (١٩٧٧) ص٤٥-٥٨. وفي ألمانيا الاتحادية مشروع نشر قوائم وفهارس جميع المخطوطات الشرقية والعربية منها في تلك البلاد، أنظر مجلد ١٧، فيسبادن ١٩٧٦، جمع والدواجنر باللغة الالمانية.

لأصحابها ولكن عنصر الفردية كان غالباً فيها بالرغم من أن جل المساعدة كان يأتي من بيت مال الأمة (خزينة الدولة) تحت إمرة الخلفاء وأعوانهم. لذلك حين أغدق الوالي (خليفة أو أميراً أو حاكمًا) عطاءه للعالم البحاثة لينتج ويكتب كانت الصفة الشخصية هي الغالبة حتى ولو كان ذلك في بناء مستشفى (بيمارستان) عام أو جامع لجميع عباد الله وفي أكثر الأحيان كان إسم المحسن يطلق على ما أنجزه من عمران، أو يتم بإهداء الكتاب إليه في حالة التأليف، فمتى توفي العالم وانقضى دور ذلك المحسن بانتهاء حكمه زال مصدر الاحسان وتوقف الانتاج والنقل واستمرارية العمل، لا سيما إن كان ذلك يتطلب جهداً فوق المعتاد، وأي كتاب علمي دقيق مفيد لا يحتاج إلى العمل المجد المتواصل مع الدقة والتخصص لفهم المصطلحات وتفسير معانيها؟ ونستطيع أن نطبق هذه الملاحظة على الكتب الطبية مثلاً وعلى المنشآت الخاصة بهذه الصناعة كبناء المستشفيات والمدارس. أما الأوقاف لضمان دخل وتسديد حاجات مؤسسة ما كان يعتور إدارتها والاشراف عليها الاهمال وسؤ الادارة فتقصر عن إسداء الخدمة المرهونة بها الموكولة إليها كاملة. فمن هذا المنطلق دعني أعدد أسباباً هامة أدت في رأيي إلى مصاعب نقل الكتب العلمية وحفظها وخاصة ما يتعلق منها بصنائع الحيل العلمية والفنية وبالتالي أدت إلى ضياع كنوز تراثية ثمينة، وقد آل ذلك إلى تأخر وضعف ثم إلى فقد الروح العلمية والابتكارية اللازمتين للابداع والتقدم فانتشر الخمول والتقليد والاتكالية والجمود الفكري بدلاً من ذلك[١٣] وهذه هي بعض تلك الأسباب:

١ - التكاليف المادية المضاعفة التي يتطلبها البحث والتحضير والنقل

---

(١٣) عبدالحميد صبرة: «تاريخ العلوم عند العرب، أهدافه ومشكلاته» **أبحاث الندوة**، المرجع السابق ج١، ص٥٩-٧٩، ونورمان دانيال، **العرب وأوروبة العصور الوسطى**، لندن، لنقمان، ١٩٧٥، ص٣١٩-٣٢٥ (بالانكليزية)، وخوان فرنيت «علوم الرياضيات والفلك والبصريات» في **التراث الاسلامي**، جوزيف شاخت (محرراً)، أكسفورد، مطبعة الجامعة، ١٩٧٤، ص٤٦١-٥٠٤.

والنشر لكل من الكتب الخطية في العلوم البحتة والطبيعية لصعوبة مادتها وأهمية اصطلاحاتها وجداولها ورموزها الأمر الذي يستلزم أضعاف التكاليف المستحقة لنسخ كتب ليست في هذا التعقيد والصعوبة. فعمل كهذا إذاً يتطلب مساندة الدولة أو المؤسسات العلمية والمراكز الحضارية القادرة على مساندة هذا النوع من الانتاج بكل ما يلزمه. وهذا ولا شك ينطبق حتى على واقع عصرنا الحاضر من جهة القيام بعمل البحوث الأصلية وإجراء التجارب العلمية والصناعية وإحياء التراث إذ جميع هذه يجب أن تعتمد كلياً على الامداد والعون المادي والمعنوي من الدولة ومن مؤسسات وطنية ودولية.

إن لدينا براهين عديدة من وثائق ونصوص عربية وإسلامية معاصرة تبرهن كيف أن هذه البحوث والتآليف الممدوحة للنابهين من العلماء والحكماء كانت تجد دعماً سخياً من الخلفاء والولاة ومناصري العلم لاكمالها وإذاعتها. ولكن في أغلب الأحيان كان هذا الدعم السخي للمشروع يتضاءل حالما يكمل المؤلف كتابه ويخرجه بخطه أو إملائه للناس أو يهديه لخزانة مولاه، ويتوقف نهائياً بموت المناصر أو الكاتب من دون تخطيط لما يلزم لذلك الكتاب من تكاليف لأجل نقله في نسخ عديدة وتوفير وجوده للقراء في البلدان الاسلامية. فندرة وجود نسخ خطية كان عائقاً كبيراً في توفير الفوائد المرتجاة منه للطالبين الذين حرموا منه وهم في حاجة إليه. فانعدام وجود اعتمادات مالية أو وقفية لتمويل نقل الكتاب بواسطة خيرة النساخ ومؤازرة هؤلاء كمحترفين ضروريين لنشر الحضارة والعلوم بنقولهم مهد السبيل إلى ندرة ما نسخ من هذه الكتب القيمة وبالتالي جعل أمر حفظها وتوفر بقائها أمراً عسيراً.

٢ - كانت هناك حاجة أيضاً لتمرين النساخ وتثقيفهم وتعليمهم

لتكون لديهم الخبرة والمعرفة بمواد الأبحاث والكتب التي ينقلونها، وما أقل النساخ الذين كانت تتوفر لديهم مثل هذه الخبرة والدارية آنذاك.

ثم إن ما كان يتقاضاه النساخ الماهرون المتدربون من أجرة كان لا يغني من عوز ولا يتكافأ مع أتعابهم ومجهوداتهم وشرف صناعتهم. مثال ذلك نجده اليوم في الدول النامية حيث المكافأة التي يتقاضاها ذوو الخبرة في عمل الطباعة والنقش والخط والتصوير وما إلى ذلك من الحرف الهامة والضرورية قليلة وحقيرة مما أدى إلى ندرتهم وفشل العاملين منهم في هذه الصناعات وأضحت المكتبات والمطابع تفتقر إلى العديد من الصناع ذوي الدراية والمعرفة في أمر حرفتهم. هكذا كان الحال في العصور الوسطى فالتجأ النساخ بدافع الحاجة إلى نقل الكتب الخالية من كل جديد وعسير فهمه ملتفتين إلى كل ما هو مألوف وسهل المأخذ ليزيد من دخله بزيادة الانتاج وهكذا كانت التكلفة قليلة والطلب متزايداً للكتب الشائعة مما أغرى هؤلاء النساخ بالمضي في هذا السبيل وإلى مسايرة زمنهم وطلب منفعة نفوسهم بالحري. وكان بين مجموع القراء كثيرون ممن لم يميزوا بين الغث والسمين وكان همهم ملء رفوف مكاتبهم بما حسن مظهره وكبر حجمه وقل ثمنه بغض النظر عن محتواه وقيمته العلمية الحقيقية. وكذا المكتبات كان رائدها إرضاء طلب عامة القراء وغير المتعمقين، والباحثون بينهم ممن هم قلة مهملة كان عليهم واجب السعي وراء نساخ الكتب العلمية والفنية النادرة والغالية الثمن. ثم إن الكتب الحاوية للرسوم والجداول والزيجات كان طالبها أقل، لزيادة أثمانها وتكاليفها بما يلزم نقلها من فن وفكر وإبداع ودقة ودارية فندر نقلها ووجودها. فمثلاً في مهنة الطب والمداواة نجد أن مفردات الأدوية لديسقوريدس[١٤] والصيدلة في

---

(١٤) ديسقوريدس العين زربي ألف كتابه في المفردات الطبية حوالي عام ٧٠م، ويحوي خمسة كتب أول من ترجمها للعربية هو إسطفان بن باسل (بسيل) تحت إشراف حنين بن إسحق العبادي حول ٨٥٤م في العاصمة العباسية ثم ترجمت بعد ما يقرب من قرن من =

الطب لأبي الريحان البيروني[١٥] وجامع مفردات الأدوية والأغذية للغافقي[١٦] أو الشريف الأدريسي[١٧] وإبن البيطار[١٨] قليلة الوجود. وفي العلوم الأخرى نجد هذه الندرة أيضاً: فمثلاً الكتب العلمية لأبي يعقوب يوسف الكندي، وكتاب المناظر لابن الهيثم في البصريات، وفي الفلك نجد كتب البيروني ونصير الدين الطوسي وفي الرياضيات كتب الكاشي والأقليدسي[١٩] قد لاقت جميعها هذا المصير نفسه. أما الكتب الحاوية

= الزمن في العاصمة الأموية بالأندلس وكلا الترجمتين ناقصة بعض الشيء، وقد تم طبع النص العربي في تطوان مع ترجمة وشروح بالاسبانية في خمسة مجلدات أخرى.

(١٥) تم تحقيق كتاب الصدنة في الطب لأبي الريحان البيروني تحت إشراف الحكيم محمد سعيد، رئيس مؤسسة همدرد الوطنية باكستان، كراتشي، جزئين، ١٩٧٣، وقد ترجم الكتاب إلى لانكليزية والروسية مع تعليقات وشروحات.

(١٦) أول من قام بدراسة جدية لتحقيق كتاب الجامع في الأدوية المفردة لأبي جعفر أحمد الغافقي مع ترجمة وشروح كان ماكس ما يرهوف وجورج صبحي على أساس مخطوط مختصر دبجه غريغوريوس إبن العبري وبعد صدور ج ٤، ظهرت مخطوطات غير مختصرة فتوقف العمل ولا شك أن هناك حاجة لتحقيق الكتاب كاملاً لا سيما وأنه معروف لدينا وجود مخطوطات ولو ناقصة من الأول أو الآخر في مكتبات الرباط والقاهرة واسطنبول ومنتريال وفي طرابلس الغرب (لا نعرف أين انتهى أمر هذا المخطوط الأخير).

(١٧) كذلك كتاب الشريف الأدريسي (١٠٩٩-١١٦٦) الجامع صفات أشتات النبات ودروب أصناف المفردات الخ، وتوجد منه نسخة راجعتها في اسطنبول وهو يحتاج إلى دراسة وتحقيق ولا سيما ذكره أسماء النبات في لغات عديدة مما يوجب على المحقق أن يكون عارفاً بهذه اللغات المستعملة أو على الأقل ملمّا ببعض الالمام بها، أنظر كتابي في أصول الصيدنة والمداواة (بالانكليزية)، طبع طوكيو ١٩٧٣، ص٣٠-٣٥، ٤٩-٥٠، ٦٧-٩٦.

(١٨) الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، أو جامع المفردات لضياء الدين عبدالله بن أحمد بن البيطار الأندلسي المالقي تم نشره في ٤ أجزاء (في مجلدين) في بولاق ١٣٠٦هـ وأعيد طبعه بواسطة الأوفست في العراق، مكتبة المثنى، بغداد.

(١٩) أنظر أحمد سليم سعيدان، الفصول في الحساب الهندي لأبي الحسن أحمد بن ابراهيم الأقليدسي، عمان، منشورات اللجنة الأردنية للتعريب والنشر والترجمة ١٩٧٣، =

لأسماء في لغات متعددة أو اصطلاحات في علوم الطبيعة ككتاب النبات لأبي حنيفة الدينوري فهي كذلك قليلة ونادرة فصارت الاستفادة منها لذلك محدودة ونادرة أيضاً، حتى أنه لولا أريحية بعض المحسنين والولاة ممن رأوا نفعها وخشوا فقدانها نهائياً فأوصوا بنسخ عدد منها لضاعت كلياً[٢٠].

٣ - إتجاه الأغلبية الساحقة من القراء من كبراء وبسطاء، أغنياء وفقراء، وبين عال ودون، للاقبال على كتب الأدب والفقه والتنجيم والتاريخ الرخيصة المألوفة وإكبارهم لمؤلفيها وناقليها فراج سوقها وكثر طلبها وأُهمِلَتْ مؤلفات العلماء المجيدين والباحثين المحققين وقلّ طالبها وزادت نفقاتها وندر ناقلوها. وهكذا كانت المفشلات والمثبطات تفت في عضد العاملين المجدين وتتزايد العراقيل في سبل التقدم العلمي والانتاج الرفيع، فأصبح نقل تلك الكتب الهامة صعباً وحفظها عسيراً. وعملاً بمبدأ العرض والطلب والمصلحة الفردية والعامة والذوق السليم وتقيد الناقل المجتهد بحاجات قرائه ومتطلبات العيش دفعته مع أغلبية زملائه من

= وتاريخ علم الحساب العربي[١] حساب اليد - المنازل السبع لأبي الوفاء البوزجاني، نفس الناشر، ونادر النابلسي (تحقيق) مفتاح الحساب لجمشيد الكاشي، دمشق، مطبعة الجامعة، ١٩٧٧، وصلاح الدين أحمد ورشدي راشد، الباهر في الجبر، مطبعة دمشق وزارة التعليم العالي ١٩٦٢ وفيه ٨٤ صفحة فرنسي + ٢٦٣ عربي. أنظر أيضاً الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل تصنيف أبي العزيز إسماعيل الجزري، تحقيق أحمد يوسف الحسن. جامعة حلب، معهد التراث، ١٩٧٩، رقم ٢ من سلسلة مصادر دراسات في تاريخ العلوم العربية الاسلامية وهو كتاب في غاية الأهمية.

(٢٠) يصدق هذا على النسخ الباقية من كتب ديسقوريدس وحفظ الصحة لابن بطلان وجامع ابن البيطار وبعض كتب الكندي وابن الهيثم وأبو الريحان البيروني وابن ميمون كوهين العطار، ومفردات الغافقي وبعض كتب الفلك وآلات الرصد والتوقيت والزيجات وكتاب التصريف للزهراوي. وجدير بالذكر أن المؤلفين المسلمين قد أجادوا في تنسيق العلوم وتصنيفها وغالباً ما رتبوها حسب العلوم الأصيلة العربية والدينية والدخيلة كالطب والفلك.

النساخ إلى نقل ما تطلبه الأكثرية الساحقة وإهمال الكتب المختصة بالعلوم والمعارف وصنائع الحيل العلمية والفنية.

ثم إننا إذا نظرنا إلى واقع الحال اليوم نجد، مع الأسف، اتجاهاً مماثلاً في المطبوعات العصرية. فالمجلات المصورة السخيفة والرخيصة والكتب الهزيلة الخالية من كل جديد، والمؤلفات «المرتجلة» أو المسروقة تجد سوقاً رائجة بين القراء وفي المكتبات حتى أن أصحاب المطابع بدأوا يرحبون بها لسرعة بيعها وغزارة طلبها وقلة تكاليفها ووفرة مرابحها غاضين النظر عن الحاجة الماسة إلى الكتب العلمية المفيدة وترويج ما فيه غذاء عقلي وروحي وعلمي لشعب أنهكته المهاترات وأفسدت ذوقه المغريات المادية وهو أحوج ما يكون إلى ثقافة علمية وفنية وقومية صحيحة سامية.

٤ - ثم إنه مع ضعف روح الكشف والابداع وتدهورها والاهمال في البحث وراء الحقيقة والسعي لحل ألغاز الكون وقوانينه ونظامه وطلب المألوف الشائع أصبح التقليد الأعمى تجارة رابحة والمجاراة والاتباع رائد الكتاب والمؤلفين السطحيين، كما هو الواقع في كثير من الأحوال في عصرنا الحاضر مع بعض الفروق. وبسبب هذا الاتجاه الاجتماعي خبت الأذهان المتوقدة وجمدت العقول النيرة وتقيدت حرية الفكر وحسب الابداء بدعة والبحث لفهم أسرار الكون خروجاً عن العرف والعادة وتوقفت الأبحاث الأصيلة والاختبارات العلمية بطلت حتى صار العلماء أنفسهم يخشون وصمة الكفر والمروق إن نطقوا بما هم به عارفون وله مختبرون[٢١].

---

(٢١) اتهم الكثيرون من المؤرخين المسلمين والعلماء الرازي مثلاً بأنه كافر قد أنكر صدق الوحي وجادل في خلود الروح ومع الأسف لم تصل إلينا كل تلك الكتابات التي نسبت إليه لنتأكد من صحة هذه التهم أو عدمها. أنظر البيروني **رسالة في فهرست كتب محمد بن زكريا الرازي**، تحقيق بولس كراوس، القاهرة القلم، ١٩٣٦، ص٣٣-٤٨ وقد ترجمهايوليوس روسكا إلى الالمانية ونشرت في المجلد الخامس من **مجلة إيزيس**، ١٩٢٣، ص٢٦-٥٠ أنظر أيضاً سامي حمارنة، **فهرست مخطوطات الطب والصيدلة في المكتبة الوطنية الظاهرية** دمشق، ١٩٦٩، ص١٠٤-١٠٧.

وفي الختام نقول أنه مهما كان العدد الباقي من المخطوطات المتعلقة في تاريخ العلوم وصنائع الحيل العلمية والفنية في التراث العربي والاسلامي قليلاً بالنسبة للكثير الذي فقد واندثر فإن هذا القليل الباقي يجب حفظه ويجب درسه والاخلاص في تقييمه لأنه صورة عن الماضي وذخر الأجداد وبعض ما خلفوه للأجيال وهو ما بقي لنا لنحكم ونستنتج منه ونبني عليه ومنه نستجلي فكرة واضحة تكشف عن غنى حضارة سلفت قدر أهلها العلم والعلماء وأكرموا وفادتهم. ومما لا شك فيه أن التقييم والبحوث والجدية والايجابية في هذا التراث لا بد وأن تدر علينا ربحاً علمياً وروحياً كبيراً وتعطينا حصاداً حضارياً وفيراً فعلينا أن لا نضيع الوقت ولا نهمل الواجب بل نهب لاحياء تراث عريق لحضارة أذهلت بازدهارها عقول المنصفين وحيرت بروعتها أفكار المنتقدين.

بقلم سامي خلف حمارنة
أستاذ زائر- جامعة حلب- معهد التراث



ملحق أول

هذه بعض المراجع حول الكتب المخطوطة والفهارس المطبوعة لمخطوطات عربية مدرجة هنا كنموذج أولي لما تم طبعه وما يجب تحقيقه ومما يلزم تأمينه لمكتبات مراكز البحوث لاحياء العلوم، وإن تعذر شراء البعض مطبوعة فيمكن الحصول على صورة شمسية لها مصغرة أو بالحجم المطلوب للحفظ أو التجليد. وهذه المراجع مرتبة حسب حروف الهجاء لأسماء المؤلفين إلا التي لا تحمل منها إسماً لمؤلف بالذات فوضعناه حسب ما هو الأشيع أو الأقرب للذاكرة كالأزهر واستانبول:

- أبا حسين، علي: **فهرس مخطوطات البحرين**، ج١ بيروت، ١٩٧٧، تحت إشراف إدارة الآثار والمتاحف بالبحرين.

- الأزهر: **فهرس الكتب الموجودة بالمكتبة الأزهرية**، القاهرة، مطبعة جامع الأزهر، ١٩٥٠/١٣٦٩ المجلد السادس (العلوم).

- استانبول: **دفتر كُتُبخانة**، آيا صوفية، أسعد أفندي ألخ، قوائم كل في مجلد، من سنة ١٣٠٤هـ وما بعدها. وفهمي أدهم، **مخطوطات مكتبة ومتحف طوب كابي سراي**، في أربع مجلدات ١٩٦٤م.

- الأصمعي، أبي سعيد عبد الملك بن قريب (١٢٨ - ٢١٦هـ) **كتاب النبات**، تحقيق عبد الله يوسف الغنيم، القاهرة، مطبعة المدني، ١٩٧٢ وتحت نفس العنوان لأبي حنيفة أحمد بن داود الدينوري الجزء٣ وقسم من الجزء٥، طبع بيروت، مكتبة لبنان ١٩٧٤ (تحقيق ب. لفين).

- أصيبعة: أحمد بن القاسم بن أبي، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**: في مجلدين القاهرة، الوهبية، ١٨٨٢، والطبعة الألمانية (ماكس موللر)، ١٨٨٤ في جزئين، ومجلد طبع بيروت، دار مكتبة الحياة، تحقيق نزار رضا (معتمداً على الطبعة أعلاه)، ١٩٦٥.

- الأميني: محمد هادي: **مخطوطات آية الله السيد محمد البغدادي الحسيني**، النجف، العراق، ١٩٦٤.

- بروكلمن، كارل: انظر النص في الترجمة العربية بعنوان **تاريخ الأدب العربي**، طبع القاهرة.

- البغدادي، اسماعيل: **هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين**، في مجلدين، استانبول دائرة المعارف، ١٩٥١ - ١٩٥٥، وعلى الاوفست، مكتبة المثنى، بغداد، العراق.

- الجبوري، عبد الله: **مكتبة الأوقاف العامة، تاريخها ونوادر مخطوطاتها**، بغداد، الأوقاف ١٩٦٩ وله أيضاً **فهرس مخطوطات حسن الأنكرلي المهداة إلى مكتبة الأوقاف العامة ببغداد**، النجف، مطبعة الآداب ١٩٦٧.

- الجلبي داود: **مخطوطات الموصل**، بغداد، مطبعة الفرات، ١٩٢٧.

- حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله كاتب جلبي: **كشف الظنون على أسامي الكتب والفنون**، في مجلدين، القاهرة، بولاق، ١٨٩٤، وفي مجلدين طبع استانبول.

- حمارنة، سامي خلف: **فهرس المخطوطات العربية في الطب والصيدلة** بدار الكتب (طب حليم وطب خليل)، في جزئين (عربي وانكليزي)، القاهرة، ١٩٦٧، وله أيضاً **فهرس مخطوطات الظاهرية، الطب والصيدلة**، دمشق، مجمع اللغة العربية، ١٩٦٩، (مع مقدمة بالانكليزية)، **وبيبليوجرافي لتاريخ الطب والصيدلة**، شتتجرت، المانيا، ١٩٦٤، **وفهرس مخطوطات المكتبة البريطانية**، ١٩٧٥ بالانكليزية مع مقدمة بالعربية.

- الخاقاني، علي: **مخطوطات العباسية في البصرة**، ج١ بغداد، ١٩٦١، **ونهاية الأرب في معرفة أنساب العرب** لأبي العباس أحمد القلقشندي ت٨٢١هـ (تحقيق) بغداد، مطبعة النجاح، ١٩٥٨.

- خوري إبراهيم: **فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية، علم الهيئة وملحقاته**، دمشق، مجمع اللغة العربية، ١٩٦٩.

- الدقاق، عمر: **مصادر التراث العربي**، حلب، المكتبة العربية ١٩٦٨ (صدر في أكثر من طبعة).

- الدمياطي، محمد مصطفى: **معجم أسماء النباتات الواردة في تاج العروس** (من جواهر القاموس لمحمد مرتضي).

- الحسيني الواسطي للزبيدي (١١٤٥ - ١٢٠٥هـ): في ١٠ أجزاء، القاهرة، المطبعة الخيرية ١٣٠٦هـ وثم في القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٥ (طبعة حديثة).

- زريق، قسطنطين: **نحن والتاريخ - مطالب وتساؤلات في صناعة التاريخ**، بيروت، دار العلم للملايين، طبعة ثانية، ١٩٦٣.

- الزركلي، خير الدين: **الاعلام**، طبعة ثانية منقحة في ١٠ مجلدات، بالقاهرة.

- زكريا، هاشم: **المستشرقون والاسلام**، القاهرة، ١٩٦٥.

- الزيات، حبيب: **خزائن الكتب في دمشق وضواحيها**، القاهرة، المعارف، ١٩٠٢.

- سارتون، جورج: **تاريخ العلم**، ترجمة ابراهيم بيومي مدكور (ومن معه) في ستة أجزاء القاهرة، دائرة المعارف، ١٩٥٧ - ١٩٧٢.

- سركيس، يوسف اليان: **معجم المطبوعات العربية والمعربة** (حتى عام ١٩١٩)، مجلدين، القاهرة ١٩٢٨.

- سزكين، فؤاد: **تاريخ التراث العربي**، ترجمة فهمي أبو الفضل ومحمود فهمي حجازي ج١، القاهرة الهيئة المصرية للتأليف والنشر، ١٩٧١ (أجزاء أخرى تتبع).

- سوفاجيه، جان، وصلاح الدين المنجد: **رائد التراث العربي** (مسرد نقدي لما ألفه علماء المشرقيات عن التراث) بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٤٧.

- سيد، فؤاد: **فهرس المخطوطات المصورة**: في ٣ مجلدات، القاهرة، معهد المخطوطات العربية ١٩٥٤ - ١٩٥٩، وابراهيم شبوح، ساهم في ج٣، قسم٣، **الطب والصيدلة**، ٩٥٩ (النظر المراجع رقم٣).

- ششن، رمضان: **نوادر المخطوطات العربية في مكتبات تركيا**، بيروت، دار الكتاب الجديد، ١٩٧٥.

- الشهابي، مصطفى: **معجم الألفاظ الزراعية بالفرنسية والعربية**، طبعة ثانية، القاهرة، مطبعة مصر، ١٩٥٩.

- شيخو، لويس: **فهرس المخطوطات في المكتبة الشرقية لجامعة القديس يوسف**، ستة أجزاء بيروت المطبعة الكاثوليكية ١٩٢٣ - ١٩٢٩.

- العش، يوسف: **فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية**، التاريخ، دمشق، مطبعة الترقي ١٩٤٧.

- علوشي، م.س وعبد الله الرجراجي: **فهرس المخطوطات بالرباط**، مجلدين، الرباط وباريس، ١٩٥٤ - ١٩٥٨ (معهد الدراسات المغربية العليا).

- عواد، كوركيس: **معجم المؤلفين العراقيين في القرنين التاسع عشر والعشرين**، في ثلاث مجلدات، مطبعة الإرشاد، ١٩٦٩، **فهرس خزانة يعقوب سركيس**، بغداد مطبعة العاني، ١٩٦٦، **وله فهرس المخطوطات العربية في خزانة قاسم محمد الرجب**، بغداد، مكتبة المثنى، ١٩٦٦، **وخزائن الكتب القديمة في العراق**، بغداد، مطبعة المعارف، ١٩٤٨، وأيضاً **جمهرة المراجع البغدادية**، (مع عبد الحميد العلوجي)، بغداد،

الرابطة ١٩٦٢، ومع فؤاد قزانجي، **مراجع الكتب والمكتبات في العراق** (مع الفهارس والمخطوطات) بغداد، ١٩٧٤.

- عيسى، أحمد: **معجم الأطباء** (تكملة لعيون الأنباء لابن أبي أصيبعة)، القاهرة، مطبعة نورى، ١٩٤٢.

- غبرئييلي، يوسف: **مؤسسة كاتياني للأبحاث عن تاريخ الاسلام وحضارته** (مع فهرسة مخطوطاتها الشرقية)، روما، أكاديمية لينجاري الملكية، ١٩٢٦.

- فنديك، ادورد كرنيليوس: **اكتفاء القنوع بما هو مطبوع** (للتآليف العربية عامة، تصحيح محمد علي الببلاوي، القاهرة، ١٨٩٧.

- قطاية، سلمان: **مخطوطات الطب والصيدلة في المكتبات العامة بحلب**، حلب، معهد التراث العلمي العربي حلب، ١٩٧٦.

- قنواتي، جورج شحاته: **مؤلفات ابن سينا**، القاهرة، دار المعارف، ١٩٥٠ وله أيضاً **مؤلفات ابن رشد**، مهرجان الجزائر، ١٩٧٨، تحت إشراف المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

- كحالة، عمر رضا: **العلوم البحتة في العصور الاسلامية**، دمشق، مطبعة الترقي، ١٩٧٢ وله أيضاً **أعلام النساء في عالمي العرب والاسلام**، في خمسة أجزاء، دمشق المطبعة الهاشمية، ١٩٥٩، **ومعجم قبائل العرب**، بيروت، ، دار العلم للملايين، في ثلاث مجلدات، ١٩٦٨ **ومستدرك** في جزئين، ١٩٧٥ طبع دمشق.

- كراتشكوفسكي، م.يو: **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، قسم١، القاهرة، جامعة الدول العربية، ١٩٥٧.

- كيال، منير: **الحمامات الدمشقية وتقاليدها**، دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٦٤.

- لبنان: **فهرس المخطوطات**، في جزئين، بيروت وزارة التربية الوطنية، المؤسسة الوطنية، ١٩٦٥ - ١٩٦٦.

- المنجد، صلاح الدين: «مصادر جديدة عن تاريخ الطب عند العرب» **مجلة معهد المخطوطات العربية**، القاهـرة، ٥(١٩٥٩)، ٢٢٩ - ٣٤٨، **فهرس المخطوطات العربية في مكتبة فروج سلاطيان**، بيروت، دار الكتاب الجديد، ١٩٦٥، **وفهـرس المخطوطـات العربيـة في مكتبة الكـونجرس واشنطن**، بيروت، نفس الطبعة، ١٩٦٩، **وفهرس المخطوطات العربية في الأمبروزيانا**، القاهرة ١٩٦٠.

- هارون، عبد السلام: **نوادر المخطوطات**، ثمانية أجزاء، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٥١ - ١٩٥٥.

- وجدي، رزق غالي: **المعجمات العربية** - بيبليوجرافية شاملة مشروحة، القاهرة، الهيئة العامة للتأليف والنشر، ١٩٧١.

- اليونسكو (الشعبية القومية للتربية والعلوم والثقافة): **الدليل البيبليوجرافي الثقافية للقيم العربية**، مراجع للدراسات العربية، القاهرة، ١٩٦٥.

ملحق ثاني

هذه قائمة بمنتخب من المراجع العربية المساعدة والضرورية في عمل البحوث لتقييم الحضارة العربية الاسلامية العلمية، وغايتها إعطاء القارىء دليلاً، يساعده على الشروع والتقدم في أبحاثه ولكنها ليست شاملة وافية بكل الغرض، ثم إننا نقترح ونرجو أن هذه وغيرها من المراجع تكون متوفرة كبداية وكحد أدنى في المراكز التي تعمل على احياء التراث العربي وفي المكتبات الجامعية والوطنية لا سيما في الأقطار العربية والاسلامية لتفتح أمام الباحث طريق الشروع بعمله، وهي مرتبة حسب حروف الهجاء:

الأثير الشيباني، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد ابن (٥٥٥-٦٣٠هـ): **اللباب في تهذيب الأنساب**، في ثلاثة أجزاء القاهرة، مكتبة القدسي، ١٣٥٧هـ، وله أيضاً **الكامل في التاريخ**، في تسعة أجزاء، القاهرة، المنيرية والمكتبة التجارية الكبرى، ١٣٤٨هـ.

- أرسلان، شكيب: **الحلل السندسية في الأخبار الأندلسية**، في ثلاث أجزاء، بيروت، دار مكتبة الحياة، ١٩٣٩.

الأصفهاني، أبو الفرج علي (ت٣٥٦/٩٦٦م) **الأغاني في ٢٥ مجلداً**، القاهرة، ١٩٦٩-١٩٧٤ (وتوجد طبعات أخرى).

- الأكفاني، ابن سعيد الأنصاري السنجري: **إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد**، حيدر آباد الدكن الهند، المعارف العثمانية، ١٣١٨/١٩٠١.

- الأنباري، ابو بكر كمال الدين عبد الرحمن بن محمد (ت٥٧٧/١١٨١) /**نزهة الألباء في طبقات الأطباء**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار النهضة مصر، ١٩٦٧.

- اياس الحنفي، محمد بن أحمد بن، **بدائع الزهور في وقائع**

الدهور، في خمسة أجزاء تحقيق محمد مصطفى، القاهرة البابي الحلبي، ١٩٦٠-١٩٧٣.

- الباشا، عبد الرحمن رأفت: **الصيد عند العرب، أدواته وطرقه وحيوانه الصائد والمصيد**، بيروت دار النفائس - مؤسسة الرسالة، ١٩٧٤.

- بدوي، عبد الرحمن: **دور العرب في تكوين الفكر الاوروبي**: بيروت،دار الآداب، ١٩٦٥.

- بطوطة، ابن: **رحلة تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، في عدة طبعات منها تحقيق علي المنتصر الكتاني، في جزئين، بيروت - مؤسسة الرسالة ١٩٧٥، ومطبعة الاستقامة بالقاهرة في جزئين، ١٣٨٦/١٩٦٧م.

- بنمنصور، عبد الوهاب: **الموسوعة التاريخية في أعلام المغرب**، الرباط، المطبعة الملكية، ج١، ١٩٧٩.

- البوريني، الحسن بن محمد (ت١٠٢٤/١٦١٥): **تراجم الأعيان في أنباء الزمان**، دمشق، المجمع العلمي، تحقيق صلاح الدين المنجد، في جزئين ١٩٥٩-١٩٦٣.

-البيطار، عبد الرزاق: **حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر**، تحقيق محمد بهجة البيطار في ثلاثة أجزاء، دمشق، مجمع اللغة العربية، ١٩٦١-١٩٦٣.

- البيهقي، ظهير الدين (ت ١١٧٠م): **تاريخ حكماء الاسلام**، هناك تحقيق طبع الهند ولكن الأفضل تحقيق محمد كرد علي، دمشق، المجمع العلمي، ١٩٤٦ (وهو تكملة **صوان الحكمة** لأبي سلمان المنطقي السجستاني).

- الثعالبي، النيسابوري، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل (ت٤٢٩هـ)، **يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر**: تحقيق محي الدين عبد الحميد حجازي، في ٤ أجزاء القاهرة، ١٩٤٧.

- الجزري، ابو الخير محمد بن (ت٨٣٣هـ): **غاية النهاية في طبقات القراء**، تحقيق ج برجستراسر في جزئين، القاهرة، السعادة، ١٩٣٣.

- الجزري، ابن الرذاذ: **الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل**، تحقيق أحمد الحسن، معهد التراث، جامعة حلب، ١٩٧٩مع شروح.

- جلجل، سليمان بن حسان بن: **طبقات الأطباء والحكماء** (تم تأليفه في ٩٨٧/٣٧٧) تحقيق فؤاد سيد، القاهرة، المعهد الفرنسي، ١٩٥٥.

- الجوزي، ابو الفرج عبد الرحمن ابن (٥١٠-٥٩٧هـ): **المنتظم في تاريخ الامم**، محمد مرسي الخولي، القاهرة، معهد المخطوطات، ١٩٧٠ وله أخبار **الحمقى والمغفلين**، بيروت، المكتب التجاري وفي دمشق، مطبعة التوفيق، ١٣٤٥هـ ١٩٢٦م.

- الجوزي، سبط ابن (١١٨٦-١٢٥٧م): **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان**، من البدء حتى عام ١٢٥٦م، حيدر آباد الدكن، الهند ١٩٥١-١٩٥٢.

- الحشاء، أبو جعفر أحمد بن محمد بن، **مفيد العلوم ومبيد الهموم (تفسير الالفاظ الطبية واللغوية في المنصوري)** تحقيق جورج كولان وب رلينو، الرباط معهد العلوم العليا المغربية، ١٩٤١.

- حزم الأندلسي، أبو محمد بن أحمد بن سعيد ابن (٣٨٤-٤٥٦/٩٩٤-١٠٦٤): **جمهرة أنساب العرب**، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، دار المعارف، ذخائر العرب (٢)، ١٩٦٢.

- حمادة، محمد ماهر: **المصادر العربية والمعربة**، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٧٢.

- الحفني، محمود أحمد: **علم الآلات الموسيقية**، القاهرة، الهيئة المصرية للتأليف والنشر، ١٩٧١.

- الحميري، محمد بن المنعم: **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق إحسان عباس، بيروت، مكتبة لبنان، ١٩٧٥.

- الحنبلي، رضي الدين محمد بن إبراهيم بن يوسف الحلبي (٩٠٨-٩٧١هـ): **در الحبب في تاريخ أعيان حلب**، تحقيق محمود الفاخوري ويحيى عبادة في جزئين، دمشق وزارة الثقافة، ١٩٧٣.

- حوراني، جورج فضلو: **العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل القرون الوسطى**، ترجمة يعقوب بكر، القاهرة، الأنجلو المصرية، ١٩٥٨.

- الخزرجي، صفي الدين أحمد بن عبد الله: **خلاصة تذهيب الكمال في أسماء الرجال**، تحقيق م. ع. فايد، ٣مجلدات، مكتبة القاهرة، ١٩٧١.

- حيان القرطبي، أبو مروان حيان بن خلف بن حسين بن (٣٧٧-٤٢٢/٩٨٧-١٠٣١): **المقتبس في أنباء أهل الأندلس**، تحقيق محمود علي مكي، بيروت دار الكتاب العربي، ١٩٧٣.

- خطاب، فرات فائق: **الكحالة عند العرب**، بغداد، كلية الطب ١٩٧٤.

- الخطيب، محمود عجاج: **لمحات في المكتبة والبحث والمصادر**، دمشق، دار القلم، ١٩٧٥.

- الخفاجي، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر (٩٧٧-١٠٦٩هـ) **ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا**، تحقيق عبد الفتاح الحلو، في جزئين، القاهرة، البابي الحلبي، ١٩٦٧.

- خلكان، شمس الدين أبو العباس أحمد بن: **وفيات الأعيان** (تم تأليفه في ١٢٧٢/٦٧٢)، طبع في جزئين، القاهرة، الميمونية، ١٨٩٣، وفي ستة أجزاء تحقيق محي الدين عبد الحميد، القاهرة، النهضة المصرية، ١٩٤٨، ولكن أفضل طبعة هي تحقيق إحسان عباس في ٨مجلدات مع ملاحق وفهارس مفيدة، بيروت دار صادر، ١٩٦٨-١٩٧٢، **وملحقه الوافي بالوفيات** لصلاح الدين خليل بن إيبك الصفدي طبعة ثانية في ثمانية أجزاء (٤مجلدات)، تحقيق هلمون ريتر ومحمد نجم، فيسبادن بالمانيا، والذيل **فوات الوفيات** لمحمد بن شاكر بن أحمد الكتبي (ت٧٦٤)، في جزئين تحقيق محي الدين عبد الحميد القاهرة، ١٩٥١.

- خليل، عماد الدين: **التفسير الإسلامي للتاريخ**، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٧٥.

- الخوارزمي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف الكاتب (ت٩٩٧/٣٨٧): **مفاتيح العلوم، القاهرة المنيرية**، ١٩٢٤.

- خياط، خليفة بن: **الطبقات**، تحقيق سهيل زكار، دمشق، وزراة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٦٢.

- خير الله، أمين أسعد: **مساهمة العرب في الطب والعلوم المتصلة به**، بيروت، ١٩٤٦.

- الدجيلي، عبد الصاحب عمران: **أعلام العرب في العلوم والفنون**، طبعة ثانية، ٣أجزاء، النجف، مطبعة المأمون، ١٩٦٦..

- دروزة، محمد عزت: **تاريخ الجنس العربي في مختلف الأطوار والأدوار والأقطار**، في سبعة أجزاء، صيدا، بيروت، المكتبة العصرية، ١٩٥٩-١٩٦٢.

- الدوري، عبد العزيز: **بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب**،

بيروت المطبعة الكاثوليكية، ١٩٦٠. وله أيضاً **الجذور التاريخية للقومية العربية**.

- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الحافظ (٦٧٣-١٢٧٤/٧٤٨-١٣٤٨): سير أعلام النبلاء، تحقيق صلاح الدين المنجد في٣ أجزاء، القاهرة، ١٩٦٢ (ذخائر العرب ١٩ باشراف معهد المخطوطات العربية) **وله العبر في أخبار من عبر**، الكويت، في٥ أجزاء، التراث العربي، ١٩٦٠-١٩٦٦ **وأيضاً ميزان الاعتدال في نقد الرجال**، تحقيق علي محمد البجاوي، القاهرة، البابي الحلبي، ١٩٦٣.

- رنسيمان، ستيفن: **تاريخ الحروب الصليبية**: تعريب الباز العريني في٣ أجزاء، بيروت، دار الثقافة، ١٩٦٧-١٩٦٩.

- زامباور، م.ن.: **معجم الأنساب والأُسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي**، ترجمة زكي حسن وحسن محمود، القاهرة، مطبعة الجامعة، ١٩٥١.

- زيدان، جرجي: **تاريخ آداب اللغة العربية**، أربعة أجزاء في مجلدين، القاهرة، الهلال، ١٩١٢-١٩٢٢، وله **تاريخ التمدن الاسلامي**، في خمسة أجزاء، نفس الناشر، ١٩٢١-١٩٢٢.

- زين الدين، ناجي: **مصور الخط العربي، بيروت**، ١٩٧٤ (طبعة منقحة).

- السبكي، تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب: **طبقات الشافعية الكبرى**، القاهرة، المطبعة الحسينية في ٦أجزاء، ١٣٢٤هـ، وطبعة اخرى في٩ أجزاء تحقيق محمود الطناجي وعبد الفتاح الحلو، القاهرة، البابي الحلبي، ١٩٦٤-١٩٧٤. وانظر **طبقات الشافعية** لعبد الرحيم بن الحسن الأسنوي (ت٧٧٢هـ)، في جزئين، بغداد، إحياء التراث الإسلامي مطبعة الرشاد، ١٣٩١هـ.

- السخاوي، محمد بن عبد الرحمن (ت٩٠٢هـ): **الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ**، دمشق، مطبعة الترقي، ١٣٤٩هـ. وله **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع في ١٢ جزء** (ستة مجلدات بيروت، دار الحياة (الاوفست).

- الشرنوبي، محمد عبد الرحمن: **العرب والملاحة في المحيط الهندي**، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٨.

- الشوكاني، محمد بن علي (ت١٢٥٠هـ): **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ويليه الملحق** التابع للبدر الطالع لمحمد بن محمد بن زبارة اليمني، القاهرة، مطبعة السعادة ١٣٤٨هـ (في مجلدين).

- صاعد الأندلسي أبو القاسم صاعد بن أحمد بن: **طبقات الامم**، طبعة القاهرة، التقدم، والمطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩١٢، تحقيق لويس شيخو وهي الطبعة الأفضل.

- طاش كبرى زاده، أحمد بن مصطفى (ت٩٦٨/١٥٦١): **الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية**، بيروت، دار الكتاب العربي، **وله مفتاح السعادة ومصباح السيادة** تحقيق كامل بكري وعبد الوهاب أبو النور في ٣أجزاء، القاهرة، دار الكتب الحديثة، ١٩٦٨.

- الطباخ، محمد راغب: **أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء**، في سبعة مجلدات، حلب، المطبعة العلمية، ١٩٢٣-١٩٢٦.

- طوقان، قدري حافظ: **تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك**، القاهرة، المقتطف، ١٩٤١، وله **العلوم عند العرب**، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٦٠ ومع آخرين **نشاط العرب في مائة سنة**، بيروت، الجامعة الامريكية، ١٩٦٣.

- العاملي، السيد محسن الأمين الحسيني: **أعيان الشيعة**، في ٢٣

جزء، دمشق، ابن زيدون ١٩٣٥-١٩٤٦.

- العسقلاني الحافظ، شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر (٧٧٣-٨٥٢هـ): **إنباء الغمر بأنباء العمر**، في ٣مجلدات، القاهرة، لجنة إحياء التراث الاسلامي ١٩٦٩-١٩٧٢، وله **تهذيب التهذيب**، بيروت، تصوير عن طبعة حيدر آباد - الدكن، ١٣٢٥-١٣٢٧هـ في ١٢ جزء، دائرة المعارف العثمانية، بالهند، وله **تبصير المنتبه بتحرير المشتبه**، تحقيق علي البجاوي ومحمد النجار، ٤أجزاء، الدار المصرية، ١٩٦٤-١٩٦٧، **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، في أربعة أجزاء. (مجلدين) حيدر آباد، المعارف العثمانية، ١٣٤٨-١٣٤٩هـ، وأيضاً **لسان الميزان**، بيروت، الأعلمي طبعة ثانية، ١٩٧١.

- العقيقي، نجيب، **المستشرقون**، طبعة ثالثة في ٣أجزاء، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٤- ١٩٦٥.

- علي، جواد: **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، بيروت - بغداد في عشرة أجزاء، دار العلم للملايين، ١٩٦٨-١٩٧٣ (الجزء الأخير فهارس).

- العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي بن (ت١٠٨٩هـ: **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، بيروت، في ٨أجزاء (٤مجلدات) المكتب التجاري (صورة عن طبعة القاهرة ١٣٥٠-١٣٥٥هـ).

- العمري، ياسين بن خير الله: **مهذب الروضة الفيحاء في تواريخ النساء**، تحقيق رجاء السامرائي بغداد، دار الجمهورية، ١٩٦٦ (سلسلة كتب التراث رقم٣).

- عياض، أبو الفضل بن موسى القاضي (ت٥٥٤/١١٤٩): **ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك**، تحقيق أحمد محمود، في خمسة أجزاء مع الفهارس، بيروت دار مكتبة الحياة، ١٩٦٧.

- الغزي، نجم الدين: **الكواكب السائرة باعيان المائة العاشرة**، تحقيق جبرائيل جبور، بيروت وحريصا، ٣مجلدات، ١٩٤٥-١٩٥٨.

- الفارابي، أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان (ت٣٣٨/ ٩٥٠): **إحصاء العلوم**، القاهرة، مطبعة السعادة، ١٩٣١. وطبعة منقحة تحقيق عثمان محمد أمين القاهرة، ١٩٤٩.

- فرحون المالكي، ابن: **الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب**، تحقيق محمد ابو النور، في مجلدين، القاهرة، دار التراث، ١٩٧٤.

- الفرضي، عبد الله الأزدي بن: كتاب **تاريخ علماء الأندلس**، مدريد في مجلدين، ١٨٩٠-١٨٩١م.

- القفطي، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القاضي (ت٦٤٦/١٢٤٨): **أخبار العلماء بأخبار الحكماء أو تاريخ الحكماء، مختصر** الزوزني **المسمى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب الخ**. طبع في القاهرة بمطبعة السعادة، ١٣٢٦/١٩٠٨، وأيضاً تحقيق يوليوس ليبرت، ليبزغ، ١٩٠٣، والاوفست مكتبة المثنى، بغداد.

- القنوجي، صديق بن حسن(ت١٣٠٧/١٨٨٩): **أبجد العلوم**، تحقيق عبد الجبار زكار، دمشق وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٧٨ وهو الجزء الأول المسمى **بالوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم**.

- **كوديرا، فرنسيس**: **الفهرست**، مدريد، وطبعة ثانية بإعداد محمد بن خير، بغداد، دار المثنى، ١٩٦٣، مع ترجمة وشروح وفهارس.

- المحبي، محمد: **خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر**، بيروت، دار صادر، ١٢٩٠هـ في ٣أجزاء (بالاوفست).

- مغربي، محمد علي: **أعلام القرن الرابع عشر**، تحت الطبع (حوالي ١٩٧٩).

- المقدسي (البشاري)، محمد بن أحمد شمس الدين: **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ليدن، بريل، ١٩٠٦.

- المقري التلمساني، أحمد بن محمد (ت١٠٤١هـ) **نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب**، بيروت دار الكتاب العربي، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، في عشرة أجزاء ١٩٤٩-١٩٦٩ (بالاوفست عن نسخة القاهرة)، وتحقيق احسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨ (في ثمانية أجزاء).

- المقريزي، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر **اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء**، القاهرة، لجنة إحياء التراث الاسلامي، تحقيق جمال الدين الشيال، في مجلدين، ١٩٦٧-١٩٧١، وله **السلوك لمعرفة دول الملوك**، تحقيق محمد مصطفى زيادة، في٣ مجلدات، القاهرة، دار صادر (نسخة بالاوفست عن طبعة بولاق ١٢٧١هـ في مجلدين).

- المليح، محمد سعيد وأحمد محمد عيسوي: **فهرس مخطوطات المكتبة العربية بالجامع الكبير**، صنعاء اليمن، الهيئة العامة للآثار ودار الكتب، ١٩٧٨.

- موسى، جلال محمد: **منهج البحث العلمي عند العرب**، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٢.

- ميبلي، الدو: **العلم عند العرب واثره في تطوير العلم العالمي**، نقل عبد الحليم النجار ومحمد موسى، القاهرة، دار العلم، ١٩٦٢.

- ابن النديم: انظر المراجع رقم٤ أعلاه.

- نلينو، كرلو: **علم الفلك وتاريخه عند العرب في القرون الوسطى**، روما، ١٩١١ (وبالاوفست مكتبة المثنى، بغداد).

- النووي، أبو زكريا محي الدين بن شرف (ت٦٧٦هـ): **تهذيب الأسماء واللغات**، في٣ أجزاء القاهرة، المنيرية، بدون تاريخ.

- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت٧٣٣/١٣٣٢): **نهاية الأرب في فنون الأدب** في ١٨جزءاً، القاهرة، وزارة الارشاد القومي ١٩٦٣.

- ويردى، ميشيل الله: **فلسفة الموسيقى الشرقية في أسرار الفن العربية**، دمشق، مطبعة ابن زيدون، ١٩٤٨.

- ياقوت، شهاب الدين أبو عبد الله الرومي الحموي (ت٦٢٦/١٢٢٨): **معجم الأدباء، أو رشاد الأريب إلى معرفة الأديب**، تحقيق د.. مارغليوت، في٦ مجلدات، القاهرة، لندن ١٩٢٣-١٩٢٦، ومنه في ٢٠ مجلد، طبعة القاهرة، البابي الحلبي، ١٩٣٦-١٩٣٨. وله **معجم البلدان** في عشرة أجزاء، القاهرة، وطبعة بيروت في خمسة مجلدات، دار صادر، ١٩٥٧.

- اليافعي اليمني، أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي (ت٧٦٨هـ): **مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان** في أربعة أجزاء، بيروت، الأعلمي، طبعة ثانية.

- يعلمي، أبي الحسين محمد بن أبي: **طبقات الحنابلة**، تحقيق محمد حامد القفي، القاهرة، السنة المحمدية، ١٩٥٢ والذيل عليه لنفس المحقق وبنفس المطبعة ١٩٥٢.

جمع وإعداد

سامي خلف حمارنة

استاذ زائر

جامعة حلب - معهد التراث

ولاة الحلة وحكامها في القرن التاسع عشر حتى نهاية الحكم التركي في العراق (١٨٠٠-١٩١٧) وأثرهم في الشعر

بقلم
محمد حسن علي مجيد
كلية التربية. جامعة بغداد

حين عُنيت بدراسة الحياة الأدبية في الحلة من القرن التاسع عشر[١]، كان عليّ أن أُمهّد لتلك الدراسة بمدخل يتناول أحوال الحلة السياسية في تلك الحقبة، لأقف من خلالها على مدى تأثيرها في الأدب. فحاولت في البداية التعرف على حكامها وولاتها وعلى سلوكهم فيها، ومدى تأثيرهم في الحياة العامة وفي الأدب بوجه خاص، ولكنني حين جمعت ما يتعلق بهذا الجانب وبخاصة أسماء الحكام والولاة وسلوكهم وسني حكمهم، وجدت الأخبار قليلة جداً، فالمصادر التي تحدثت عن مدينة الحلة في القرن التاسع عشر قليلة، وخاصة ما يتعلق بحكامها، فلا تذكر من أسمائهم وأعمالهم غير النزر اليسير[٢]، أغلبهم ممن أشتهر بالظلم، ومن جأرت الناس منه بالشكوى. كما اعترف قسم آخر من المؤلفين بوجود فجوات زمنية لم يستطيعوا أن يعرفوا فيها أسماء الولاة الذين حكموا الحلة في تلك

---

(١) الدراسة رسالة ماجستير بعنوان (الشعر في الحلة بين سنتي ١٨٢٤ ١٩١٧) في كلية الآداب بجامعة بغداد ١٩٧٧.

(٢) لم يذكر يوسف كركوش في كتابه (تاريخ الحلة) من حكام المدينة في القرن التاسع عشر حتى سنة ١٩١٧ سوى (٢١) حاكمًا، كانت معلوماته عن الكثير منهم مبتسرة.

الفترات رغم البحث والتنقيب[٣]. كما أن السياح والرحالة الأجانب الذين زاروا العراق في تلك الحقبة ومروا بالحلة لم يذكروا لنا من أسماء حكامها ومن أعمالهم وسلوكهم إلا ما ندر. حتى السجلات والصحف لم تحفظ من سيرهم وأسمائهم غير عدد محدود. أما باقي حكامها فلم يعرف عنهم إلا القليل، وإن ما عرف عن هذا القليل لا يتعدى أحياناً مجرد ذكر إسمه. أما دواوين شعراء الحلة ومجموعاتها الشعرية المطبوعة والمخطوطة، فانها لم تذكر من أسماء اولئك الولاة الذين قيل الشعر فيهم أو قيل في أيامهم إلا العدد اليسير الذي لا يتجاوز أصابع اليدين، لأن أهل المدينة وشعراءها لم يكونوا في حالة وفاق مع الحكام في تلك الحقبة، ولا أشك أن حالة الإنفصام[٤] التي كانت تحكم العلاقة بين الحكام والأهلين في الحلة كانت ذات أثر كبير في ضياع أخبار الحكام ومعالمهم وأسمائهم، لأنهم لم يؤثروا تأثيراً واضحاً في حياة المدنية ولم يحسنوا لأهلها وللشعراء فيها بوجه خاص كي يضطر الشاعر أو المؤرخ معه أن يبادلهم فضلاً بفضل أو إحساناً بإحسان.

ومع ذلك فقد جمعت هذا الثبت من أسماء حكام الحلة وولاتها في القرن التاسع عشر حتى نهاية الحكم التركي في العراق، والذي يضم اولئك الولاة والشعر الذي قيل فيهم ودلالته عليهم. أضعه بين أيدي الباحثين للإفادة منه في بحوث تاريخية أو أدبية قد تكتب في المستقبل، جمعته بعد التنقيب والبحث في عدد كبير من المصادر وكتب التاريخ والأدب ودواوين الشعر المطبوعة والمخطوطة. وكتب الرحلات والصحف والمجلات وغيرها،

---

(٣) إعترف وداي العطية في كتابه (تاريخ الديوانية) ص٥٥ في معرض حديثه عن حكام الحلة والديوانية بعدم وقوفه على أسماء متصرفي الحلة بعد استعفاء (فهد السعدون) من متصرفية الحلة سنة ١٢٨٦هـ وقال: وبعد انصراف فهد بك السعدون من اللواء لا بد أن الحكومة عينت خلفاً له، إلا إننا لم نهتد إلى معرفة خلفه وبقينا نجهل ذلك حتى عينت الحكومة شبلي باشا متصرفاً للحلة مرة ثانية.

(٤) أنظر عن حالة الانفصام بين أهل الحلة وبين السلطات الحكومية: الشعر في الحلة ص٨- ٢٠.

أرجو أن يضيف فائدة أو يسد نقصاً، خاصة أن ثورة السابع عشر من تموز القومية التقدمية فسحت المجال واسعاً للمؤرخين والأدباء للكتابة في تاريخ العراق بشكل علمي وموضوعي دقيق.

الحكام والولاة والمتصرفون:

١ - **مراد جلبي**: تذكر المصادر أنه كان يحكم الحلة أواخر القرن الثامن عشر الحاكم (علي جلبي)[٥]، وحين مرّ الكتخدا[٦] (علي باشا)[٧] بالحلة سنة ١٧٩٩م وهو من طريق عودته من حملة عسكرية قام بها على بعض عشائر عنزة في مقاطعة الطهمازية[٨]، شكا إليه أهل الحلة من ضابطها (علي جلبي) هذا، فعزله وعين مكانه (مراد جلبي)[٩]. فمراد جلبي إذن أول حاكم للحلة في القرن التاسع عشر، إلا أن المصادر لم تذكر المدة التي قضاها في امارة الحلة.

٢ - **محمود آغا السفاك**: حكم بعد مراد الجلبي: وقد عرف عهده بالظلم، واتسم سلوكه بالتعسف والجور. ولعلنا نلحظ من تسميته بـ (السفاك) ما يؤكد تعسفه وظلمه، مما اضطر الشاعر محمد بن الخلفة الحلي[١٠] إلى أن يشكو أمره إلى (الإمام علي) ويفصل له ما نزل بمدينة

(٥) (علي جلبي) هذا من أسرة آل عبد الجليل التي كانت تحكم الحلة منذ بداية القرن الثامن عشر. وهي أسرة بغدادية الأصل، سكنت الحلة وبقي أبناؤها ذوي نفوذ إجتماعي كبير فيها في القرن التاسع عشر. وقد مدحهم الكثير من شعراء الحلة بقصائد كثيرة تدل على نفوذهم الواسع ومنزلتهم الرفيعة. أنظر عنهم: شعراء الحلة ١/٦٣، تاريخ الحلة ١/١٢٢.

(٦) الكتخدا: تعني معاون الوالي أو نائبه. وقد تلفظ أحياناً الكهيا أو الكخيا.

(٧) (علي باشا): هو صهر الوالي (سليمان باشا الكبير) تولى الحكم بعد وفاته سنة ١٨٠٢م. واغتيل وهو يصلي الفجر سنة ١٨٠٦م انظر: مطالع السعود- مخطوط- الورقة ١٨٥، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ص٢٢٢- ٢٢٤.

(٨) الطهمازية: قرية تقع غرب مدينة الحلة تابعة لها.

(٩) تاريخ العراق بين احتلالين ٦/١٣٧، تاريخ الحلة ١/١٣٠.

(١٠) هو محمد بن اسماعيل الحلي الملقب بإبن الخلفة. ولد ببغداد أواخر القرن الثامن عشر =

الحلة، وإجتياح المماليك وجنودهم لها إثر فشل تمردها على السلطة وتأييد أهلها لموقف قبيلة الخزاعل المناوىء للحكومة. وقد بدت رنة الحزن والأسى واضحة في قصيدته. فركب يروح بأهل المدينة من المبعدين عنها، وركب آخر يتبعه، حتى أظلمت (الفيحاء) بهد بهجة وتكدرت بعد صفاء بسبب عاملٍ قاسٍ بليت به المدينة. فيقول:

إلى ومتى ذا الجـور يحمله القلبُ ... عليك أبا السبطين لا يمكن العتب
يـروح بنا ركب ويغـدو بنا ركب ... أفي كـل يـوم في ربى الهم والعنا
وكدّر من آفاقهـا الشرق والغـرب ... واظلمت الفيحـاء من بعـد بهجـة
له عامل لا القعضبية[11] والقضب[12] ... بلينـا ضحى في عـامـل فيـراعـه

وقد ذكر أحد المعاصرين[13] في مخطوطة له والذي قدّم لهذه الأبيات: أن حاكم المدينة المسمى (محمود آغا السفاك) بعد أن فتك بأهلها وهدم دورها، أسر عدداً كبيراً من رجالها ونسائها، وأرسلهم إلى بغداد ليوزعوا بين البلدان، إلا أنه قُتل بعد ذلك قتلة شنيعة، كما وصف حال الأسرى وهدم دورهم بقوله «حتى أتوا بأعيانها مقرنين بالأصفاد بلا راحلة ولا زاد، كأنهم أسارى بين الأجناد... ففعل بهم من لا يقر بالمعبود ولا يعترف

= وانتقل به أبوه وهو طفل إلى الحلة، فنشأ بها، وكان يحضر مجالسها ودواوينها، وتفتقت فيه روح الشعر حتى صار من أشهر شعرائها في تلك الحقبة. وتوفي فيها سنة ١٢٤٧هـ/١٨٣٢م بالطاعون. وقد ذكر اليعقوبي في (البابليات): «إنه كان له ديوان شعر نادر الوجود» إلا أنه فقد. وهو صاحب البنود الشهيرة، والتي منها بنده المعروف والذي مطلعه:

ألا يا أيهُا اللائم في الحب، دع اللوم عن الصب... الخ. أنظر ترجمته في البابليات ٢/٤٩- ٥٥.

(١١) القعضبية: نسبة إلى رجل يعمل الأسنة في الجاهلية تنسب إليه أسنّة قعضب. أنظر: لسان العرب- مادة (قعب).

(١٢) مجموعة آل السيد سليمان (المخطوطة) - الورقة ٩١.

(١٣) هو السيد داود بن السيد سليمان الحلي المتوفى سنة ١٢٣٢هـ/١٨١٥م. وهو جد الشاعر السيد حيدر الحلي.

باليوم الموعود ومن تسمى بعكس إسمه محمود، فهدمت الدور وهتكت الستور.. : فأخذه الله أخذ عزيز مقتدر... حتى سلط الله عليه من قتله شر قتله»[١٤].

٣ - **الحاج طالب آغا**: تولى الحاج طالب آغا[١٥] أمارة الحلة بعد وفاة الوالي عبد الله باشا[١٦] وهو الذي انيطت به قيادة القوة التي كانت تحت إمرة الكتخدا (محمد أغا) معاون داود باشا والمنشق عليه، فلما استولى الكتخدا المنشق على الحلة سنة ١٢٤٠هـ/١٨٢٤م[١٧]، استدعى الوالي داوود باشا الحاج طالب آغا واتخذه مستشاراً له بدل محمد آغا، ثم أصيب بالطاعون فمات به[١٨] سنة ١٢٤٦هـ/ ١٨٣٠م.

٤ - **سليمان آغا الأربلي**: تولى سليمان آغا الأربلي أمارة الحلة أيام ولاية داوود باشا على العراق[١٩]. وكان الأربلي متعسفاً ظالماً شديداً على أهل الحلة، حتى ذكر أحد المؤرخين[٢٠] عنه قائلاً: «إن بيك الحلة وواليها

---

(١٤) مجموعة آل السيد سليمان (المخطوطة) الورقة ٩١.

(١٥) الحاج طالب آغا هو والد المؤرخ العراقي (سليمان فائق) مؤلف كتاب (تاريخ بغداد، وتاريخ المماليك- الكدلة ضد) وغيرهما وأحد متصرفي الحلة فيما بعد.

(١٦) توفي عبد الله باشا والي بغداد سنة ١٨١٣م.

(١٧) إتخذ الكتخدا (محمد آغا) من الحلة مركزاً لاعلان عصيانه على الوالي داود باشا سنة ١٢٤٠هـ/١٨٢٤م، بعد أن استولى عليها. وقيل أنه دخلها باستدعاء من أهلها، وإنهم آزروه وأقسموا له يمين الاخلاص فحدثت معارك دامية بين جيش محمد آغا وجيش الوالي بقيادة الكتخدا (أحمد باشا)، إنهزم بعدها محمد آغا أواخر سنة ١٢٤١هـ.
أنظر: تاريخ العراق بين احتلالين ٢٨٨/٦- ٢٨٩، أربعة قرون من تاريخ العراق، ص٢٤٨ ط٣.

(١٨) تاريخ بغداد، ص١٢٠- ١٢١.

(١٩) تولى داود باشا حكم العراق بين سنتي ١٨١٦- ١٨٣١. وهو آخر الولاة المماليك فيه - ينظر عن ترجمته وسيرته:
داود باشا والي العراق للدكتور عبد العزيز سليمان نوار، داود باشا ونهاية المماليك في العراق. للدكتور يوسف عز الدين.

(٢٠) هو الشيخ محمد حسين بن الشيخ علي كاشف الغطاء، ولد سنة ١٨٧٧م، وتوفي سنة ١٩٥٣م.

سليمان آغا الأربلي كان قد نصب على باب دائرته جذعاً، وكان يأمر جلاوزته أن يصلبوا به كل من يسخط عليه من أهل الحلة[٢١]». كما كان هذا الحاكم كثير الشكوك والهواجس، حتى أنه عندما رأى تضامن الحليين واتحادهم فيما بينهم وابتعادهم عن دوائر الحكومة، عزا ذلك إلى الشيخ موسى كاشف الغطاء[٢٢] فأمر باخراجه وعائلته من الحلة، لأنه عده خطراً عليها[٢٣]. فاستاء الحليون من ذلك استياء شديداً. حتى وصف الشاعر صالح التميمي - وكان مقيمًا في الحلة حينذاك - ذلك الإستياء، وموكب خروج الشيخ موسى من المدينة بقوله:

بمن تفخرُ الفيحاءُ والفخر دابها قديماً وعنها سار موسى بأهله
وغادرها من بعد عز ومنعة تحاذر كيد السامري وعجله

وقيل أنه عندما بلغ بيتا التميم مسامع الوالي داوود باشا استدعاه وسأله عما سُمع عنه، أنه اعتذر عن ذلك، وتنصل، وروى له البيتين بعد ان حرفهما. واجابه اني قلت:

زهتْ بأبي داوود حلةُ بابل وألبسها بالأمن بردةَ عدله
وكانت قديماً قبل موسى وقبله تحاذرُ كيد السامري وعجله[٢٥]

---

(٢١) العبقات العنبرية (مخطوط) مجلد ٢، الورقة ١٣٣.

(٢٢) الشيخ موسى بن الشيخ جعفر بن خضر الجناجي صاحب كتاب (كشف الغطاء)، المؤلف والفقيه المشهور.

أنظر: عن ترجمة الشيخ جعفر طبقات أعلام الشيعة ٢/٢٤٨- ٢٥٢.

(٢٣) أنظر: نهضة العراق الأدبية، ص٨٤.

(٢٤) ولد الشاعر صالح التميمي في الكاظمية سنة ١١٩٠هـ/١٧٧٦م، ومات أبوه وهو صغير، وعندما نشأ هاجر إلى النجف فدرس فيها وبعدها سكن في الحلة حقبة من الزمن حتى استدعاه الوالي داود باشا إلى بغداد وعينه موظفاً وأسند إليه رئاسة ديوان الانشاء العربي، وتوفي ببغداد سنة ١٢٦١هـ/١٨٤٥م.

أنظر عن ترجمته: ديوان صالح التميمي صفحة ب- ق، نهضة العراق الأدبية، ص٧٢- ٨٨.

(٢٥) نهضة العراق الأدبية، ص٨٤، تاريخ الحلة ١٣٥/١.

كما أن الشاعر السيد حسين الحكيم الحلي(٢٦)، هو الآخر وصف تعسف الحاكم سليمان آغا وإخراجه الشيخ موسى مع عائلته ظلمًا وعدواناً، فكتب قصيدة طويلة أرسلها إلى الشيخ موسى يصف فيها تفجعه لفراقه، ذاكراً أن عمل الحاكم لا يعدو كونه تعسفاً وإجحافاً، وإن عمله أدمى قلوب الحليين حزناً وجعل مآقي الشاعر قريحة، وعينه غارقة بدموعها، وفؤاده شبت فيه النيران، وأنه لن يستفيق من ذهوله وهواه حتى يعود، لأنه رب الندى وابن المعالي الذي تخفق عليه أعلامها. لنسمعه يقول:

لا تسل بعد ما جرى عن فؤادي ... فهو خلف الظعن المسوق مشوقُ
وعجيب بقاء إنسان عيني ... وهو في لجة الدموع غريق
وانتفاعي بالجسم وهو عليل ... بعدهم والفؤاد وهو حريق
أي نفع لمغرم سلب الغمض ... إذا زاره الخيال الطروق
ليت شعري أما لشمس اجتماعي ... بكم بعد ذا الغروب شروق
لي فؤاد ومدمع ذا أسير ... مدنف في الهوى وهذا طليق
ما شجاني العقيق بعد نواكم ... كل ربع حللتموه عقيق(٢٧)
ما لسهم مسدد من ملام ... في خروق الأسماع مني مروق
كيف أسلو وما سلا مغرم قبـ ... ـلي وأصحو وذو الهوى لا يفيق
حاش موسى رب الندى والمعالي ... ولإعلامها عليه خفوق(٢٨)

وفي أيام هذا الحاكم انتفض الحليون ضد السلطة، وعاضدوا

(٢٦) الشاعر السيد حسين الحكيم آل السيد سليمان (١١٦٢- ١٢٣٦هـ) ولد ونشأ في الحلة وتزعم أسرته، وكانت له علاقة بولاة بغداد وأمراء الحلة، وكان يمارس مهنة الطب على الطريقة القديمة، لذلك لقب (بالحكيم).

ينظر عن ترجمته: تراجم أدباء الأطباء ٢/٧١- ٧٣، شعراء الحلة، ٢/١٩٧- ٢٠٦.

(٢٧) العقيق: واد في الحجاز طالما ذكره الشعراء في مقدمات قصائدهم الطللية.

(٢٨) شعراء الحلة، ٢/٢١٦.

الكتخدا محمد آغا المنشق على الوالي داوود باشا، وطردوا الحاكم سليمان آغا من الحلة ونصبوا مكانه صالح آغا[٢٩].

٥ - **صالح آغا**: وهو من أبناء الحلة ورؤسائها، عينه الحليون[٣٠] حاكمًا عليهم بعد خلع حاكمها سليمان آغا سنة ١٢٤١هـ/١٨٢٥م. وذلك حينما ضيق الوالي داوود باشا على مدينة الحلة، وأوعز للعقليين من أفراد حامية الحلة العسكرية بإطلاق أيديهم في المدينة. فأكثروا من الفساد والتعسف فيها، فشق الحليون عصا الطاعة على الحكومة وطردوا حاكمها المشار إليه واختاروا من بينهم صالح آغا حاكمًا عليهم[٣١]، ثم حاصروا الحامية العسكرية، وأحرقوا أبوابها، وتمكنوا من إقتحامها، وأبادوا أكثر أفرادها[٣٢]. ولم تهدأ الحالة إلا بعد معارك دامت أكثر من سنتين[٣٣].

٦ - **إبن السياف**: كان (ابن السياف) حاكمًا على الحلة أواخر ايام الوالي داوود باشا. وعندما جاء الوالي (علي رضا اللاظ) إلى بغداد سنة ١٨٣١م عزله[٣٤].

٧ - **ابن النائب محمد أسعد**: عينه الوالي (علي رضا) حاكمًا في الحلة بعد عزل سلفه (ابن السياف)، وهو أموي النسب[٣٥].

٨ - **الحاج أفندي الكردي**: تولى حكم الحلة بعد (ابن النائب)، «وكان ظلوماً غشوماً، كان قد استعان به داوود باشا في عهده على نهب

---

(٢٩) الروض الأزهر ص١١، أعيان الشيعة، ٢٠٨/٣٦.

(٣٠) ذكر مصطفى الواعظ: أن صالح آغا ادعى أن فرماناً صدر له من الباب العالي بتعيينه والياً، وبعزل الوالي داود باشا. الروض الأزهر ص١١.

(٣١) أعيان الشيعة، ٢٠٨/٣٦.

(٣٢) الحصون المنيعة (مخطوط) - المجلد الثاني الورقة ٤٠٠، تاريخ الحلة ١/١٣٦- ١٣٧.

(٣٣) العبقات العنبرية (مخطوط) - المجلد الثاني- الورقة ٣٤- ٣٧.

(٣٤) تاريخ الحلة ١/١٤٠.

(٣٥) المرجع السابق ١/١٤٠.

أموال الناس ومصادرتها[٣٦]» وفي أيام هذا الحاكم ثارت الحلة ضد حكم والي بغداد (علي رضا) وجلاوزته[٣٧] في الحركة المسماة ب (ثورة الجربيية)[٣٨]. ولعل هذا الحاكم هو الذي تحدث عنه مفتي الحلة مصطفى الواعظ، ولم يذكر إسمه وقال عنه: إن أهل الحلة «هجموا عليه ليلاً في قصره وألفوه نائمًا مع ندمائه مخمورفا من سكره، فقتلوه شر قتلة... وأتوا به مسحوباً على وجهه مضمخاً بدمه، فاستراح الخلق من ظلمه»[٣٩].

٩ - **الكمركجي**: وهو أخو عبد القادر الكمركجي متعهد كمرك بغداد، وأحد جلاوزة الوالي علي رضا ومن المتنفذين عنده[٤٠].

١٠ - **خلف آغا**: وقد عين (خلف آغا) لحاكمية الحلة أيام ولاية نامق باشا الاولى[٤١] على العراق سنة ١٢٦٨هـ/١٨٥١م. وتذكر المصادر: أن الحليين كانوا يكرهونه كرهاً شديداً، لأنه كان أقسى حاكم عرفته الحلة حتى ذلك التاريخ. وقد ذكر الشاوي في تاريخه الكبير عن ظلم خلف آغا هذا وتعسفه[٤٢]. فقد كان يتعقب أبناء الحلة لتجنيدهم أيام ولاية (عمر باشا السرذار) في بغداد سنة ١٨٥٧م، فصار الحليون يخشونه كثيراً، مما جعلهم يقولون عن خلف آغا، وعن ترصده بهم في كل مكان بعبارة

---

(٣٦) تاريخ العراق بين احتلالين ٦/٣٣١.

(٣٧) تاريخ الحلة ١/١٤٠.

(٣٨) أدب الحلة: (مخطوط) ص٤٠، تاريخ الحلة ١/١٤٠ و (الجربيية) اصطلاح يطلق على الناس الذين يظلمون بإسم الحكومة.

(٣٩) الروض الأزهر، ص١٣.

(٤٠) ذكر الأستاذ جعفر خياط: أن عبد القادر كمركجي عمد إلى تعيين أقاربه، فتوسط لدى الوالي (علي رضا) بتعيين أخيه صالح والياً على البصرة، وأخيه الثاني - دون أن يذكر إسمه - والياً على الحلة. فعاد الأخوان يحملان الأموال إليه ويجبيان الواردات لخزائن أخيهما لزيادة أمواله الطائلة.
صور من تاريخ العراق في العصور المظلمة، ١/٣٠٠.

(٤١) تسلم نامق باشا ولاية العراق للمرة الأولى بين سنتي ١٨٥١- ١٨٥٢م.

(٤٢) تاريخ العراق بين احتلالين، ٧/٩٣، من تاريخ الشاوي، ص٢٢.

«خلف آغا بالعتق»[٤٣] لكثرة تعقبه لهم وتربصه بهم، فكأنه يكمن لهم حتى في رؤوس النخيل، فهو وراءهم حتى لو فروا إلى الريف أو اختفوا في البساتين، كما أنه كان يعاقب **المتهمين منهم بفرض التجنيد عليهم**[٤٤]. وقد بقي خلف آغا في حاكمية الحلة حتى سنة ١٨٥٨م.

١١ - **شبلي باشا العريان الدرزي**: عين شبلي العريان حاكماً في الحلة للمرة الأولى أواخر أيام ولاية (عمر باشا السردار) على العراق سنة ١٢٧٥هـ/١٨٥٨م، وهو من دروز سوريا، جاء إلى العراق مع الوالي عمر باشا السردار عند تعيينه والياً على العراق سنة ١٨٥٧م، وفي أيام شبلي العريان سرق الكنيس اليهودي في الحلة، فعاقب الكثير من أهل المدينة وحاول تغريمهم ثمن المسروقات بعد فشله في معرفة السارق الحقيقي، فشكل الحليون وفداً لمقابلة والي بغداد، وشرحوا له الأمر، فاقتنع الوالي بأقوالهم، وكتب له بالكف عن تصرفاته، ثم نقله من الحلة[٤٥].

ومن الجدير بالذكر أن الحاكم شبلي العريان هو الذي حاول خلال فترة حكمه هذه القضاء على نفوذ قبيلة الخزاعل في منطقة الديوانية وتوابعها، كما طارد زعيمهم (مطلق بن كريدي)، حتى ألجأه إلى الهرب، إلا أنه تمكن من القبض عليه وعلى باقي زعماء الخزاعل في منطقة (أمُّ خشّم) في قضاء الشامية بإستعمال أساليب الحيلة والخداع. فقد دعاهم مؤمِّناً لهم باسطاً لهم العهود والمواثيق، إلاَّ أنه حين اجتمعوا عنده، نكث بتلك العهود، وغدر بهم، فألقي القبض عليهم، ثم سفَّرهم إلى بغداد، ومنها نفوا مع زعيمهم مطلق إلى خارج ألعراق وذلك سنة ١٢٨٤هـ/١٨٦٧م[٤٦]، وقتل هناك في منفاه، وكان ذلك أيام ولاية نامق باشا ألثانية على العراق.

---

(٤٣) تاريخ الحلة، ١/١٤٣.

(٤٤) المرجع السابق، ١/١٤٣.

(٤٥) المرجع نفسه، ١/١٤٤.

(٤٦) تاريخ الديوانية، ص٤٩.

وقد حزت هذه الحادثة في نفوس العراقيين كثيراً، وخاصة أبناء بغداد والفرات الأوسط، لذلك استشاط الشاعر السيد صالح القزويني[٤٧] غضباً وأثاره غدر الأتراك بالزعماء العرب. فقال متألماً:

وكم لملوك الترك هتك لحرمةٍ
لِأهل النهى والغدر من شيم الترك

وما خلت حتى سرت في الفلك أنني
أرى الفلك الأعلي يسيرّ في الفلك

ولما نظمت الملك بعد بداده
بحد المواضي نظمك الدر في السلك

سعوا سعيَ موتور بواتره وقد
حذوا حذو حمدان بصفين في عك

وإنك لم تجنح إلى السِّلم خيفةً
كما جنحوا للسِّلم خوفاً من الفتك

ووافيتهم لما دعوك وما وفوا
بعهدك قدماً والمواثيق في الصكِّ

ولا عجب من غدرهم بعد أمنهم
وكم مضحك قولاً ومن فعله مبكي

يلوح لعيني سعد شمس خزاعة
بوجهك مثل الشَّمس لكن بلا دلك

فلا تخشَ من سجنٍ فإنك مطلق
بعون اله الناس منهم بلا شك

---

(٤٧) الشاعر السيد صالح القزويني: نجفي الأصل ولد فيها سنة ١٢٠٨هـ، ورحل إلى بغداد في شبابه، وسكن فيها حتى وفاته سنة ١٣٠٧هـ، وهو والد الشاعر السيد راضي القزويني. له ديوانان من الشعر ما يزالان مخطوطين في مكتبة الآثار العراقية ببغداد الأول بإسم: ديوان السيد صالح القزويني تحت رقم ١٨٩٢، والثاني بإسم: الدرر الفروية في مدح العشرة المصطفوية تحت رقم ٢٠٩٨.

وإن العلا والمجد والحلم والندى
بسجنك قد وافى على جرف الهلك[٤٨]

لكن آمال الشاعر تبددت ولم يطلق سراح السجين.

١٢ - **توفيق بك**: خلف توفيق بك شبلي العريان في حكم الحلة. وقد عينّ متصرفاً في لواء الحلة بعد إصدار الوالي (مدحة باشا) التنظيمات الإدارية الجديدة سنة ١٨٦٩م. فكان توفيق بك أول متصرف للواء الحلة بعد تلك التنظيمات[٤٩]، وتوفيق بك هو ابن اخت الوالي (مدحة باشا). لكن أيام هذا المتصرف لم تدم طويلاً، بل سرعان ما قُتل في السنة نفسها حين توجه إلى عفك والدغارة لمحاربة عشائرها المعروفة بقوتها وصلابة شوكتها بين عشائر الفرات ومعه ثلاث آلاف جندي ليحصل على الضرائب المتأخرة على تلك العشائر والتي أبت دفعها بحجة تلف المزروعات في السنوات الاخيرة بسبب الفيضانات بوجه خاص. فتصدت له تلك العشائر وقتلته[٥٠]

١٣ - **فهد بك السعدون**: عينّ لمتصرفية الحلة بعد مقتل توفيق بك. إلا أنه لم يبق فيها سوى ستة أشهر[٥١] من عام ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م، لانه كان راغباً عن التصرفية، لكن الوالي (مدحة باشا) طلب منه أن يتسلم

---

(٤٨) ديوان السيد صالح القزويني (مخطوط) الورقتان ١١١- ١١٢.

(٤٩) صار لواء الحلة بموجب تلك التنظيمات يضم أقضية الديوانية والسماوة والهندية والنجف والشامية.

أنظر: تاريخ العراق بين احتلالين، ٧/ ١٧٠.

(٥٠) ينظر عن تلك الحملة ومقتل المتصرف:

مذكرات مدحت باشا، ص١٦٠- ١٦٣، تاريخ الديوانية ٥١- ٥٤ مجلة (العدل) النجفية - مقال حمدري الساعدي- العدد/١، السنة/١ آب ١٩٦٥، ص٢٤.

(٥١) من شهر جمادي الثانية إلى ذي الحجة من عام ١٢٨٦هـ (١٨٦٩م) أنظر: تاريخ الحلة ١/ ١٤٥، تاريخ الديوانية ص٥٤.

متصرفية الحلة التي كانت تتبع لها الديوانية وضواحيها ريثما يستقر الأمن، لما يتمتع به السعدون من مكانة لدى العشائر العراقية، فقد كان تعيينه تهدئة للخواطر لأنه عراقي عربي معتز بقومه[٥٢]، فلما تحقق الإستقرار على يده، استعفى من الوظيفة فأعفاه الوالي[٥٣]. ومن الجدير بالذكر ان (فهد السعدون) هو والد (عبد المحسن السعدون) رئيس وزراء العراق الاسبق[٥٤].

١٤ - **مظهر باشا**: عينً لمتصرفية الحلة بعد فهد السعدون منقولاً من متصرفية السليمانية[٥٥] سنة ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م.

١٥ - **سليمان فائق**: وفي أواخر سنة ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م عين سليمان فائق متصرفاً في لواء الحلة[٥٦].

---

(٥٢) فهد السعدون هو من شيوخ قبائل المنتفك البارزين، وتولى رئاسة تلك القبائل عدة مرات. وقد منحته الدولة العثمانية لقب باشا سنة ١٨٦٦م. توفي سنة ١٨٩٦م/١٣١٣هـ. وقد ذكر (لطفي جعفر) مؤلف كتاب (عبد المحسن السعدون): إن فهد السعدون والد عبد المحسن السعدون تولى متصرفية الديوانية سنة ١٨٦٩م/١٢٨٦هـ نقلاً عن كتاب (ذكرى السعدون) لعلي الشرقي، وهذا غير صواب لأن مركز المتصرفية سنة ١٨٦٩م كان في الحلة وليس في الديوانية.

(٥٣) تاريخ الديوانية، ص٥٤.

(٥٤) عبد المحسن السعدون، ص١١، ٣٠.

(٥٥) تاريخ العراق بين احتلالين ٢٣٢/٧، وجاء فيه: وقد عهد بمنصب متصرف السليمانية إلى (قربي باشا) متصرف لواء الحلة الأسبق. (إلا أننا لم نعثر على مصدر آخر يذكر إسم قربي باشا أو تاريخ توليه متصرفية الحلة). كما جاء في المرجع نفسه ٢٤٢/٧: أن متصرف البصرة (راشد باشا) توفي أثناء عودته من الكويت فعين مكانه (خليل بك) نقلاً من متصرفية الحلة إلى البصرة، وعين معاونه (سعيد باشا) متصرفاً للواء الحلة. (ولم أجد لهذين المتصرفين إشارة ما في مرجع آخر غير كتاب الفراوي هذا، كما لم يذكر الأستاذ الفراوي تاريخ توليهما متصرفية الحلة. على أنه من المستبعد أن يكون المتصرف بدرجة (بك) ومعاونه بدرجة (باشا) لما لهذه الألقاب من أهمية كبيرة في تلك الحقبة، تحدد على أساسها منزلة الموظفين في الدولة.

(٥٦) تاريخ العراق بين احتلالين، ١٩٤/٧.

١٦ - **محمد رشيد بك**: تولى متصرفية الحلة سنة ١٢٨٧هـ[٥٧].

١٧ - **محمد باشا**: تولى متصرفية الحلة سنة ١٢٨٨هـ[٥٨].

١٨ - **مظهر باشا**: ألذي تحول إلى متصرفية الحلة ·مرة اخرى عام ١٢٨٩هـ منقولاً إليها من متصرفية كربلاء، بعد أن تحولت كربلاء إلى قائمقامية بلواء الحلة[٥٩].

١٩ - **مراد أفندي العربي**: ألذي فتح باب التبرع لجمع المال لبناء المدرسة ألرشيدية الأولى في الحلة[٦٠]. وقد ذكر الفراوي ان (مراد أبو كذيلة) نُقل إلى متصرفية الحلة سنة ١٢٩٠هـ/١٨٧٣م. وهو زوج نائلة خاتون صاحبة الأوقاف والخيرات المعروفة بإسمها[٦١]. ونرجح انه هو المقصود بمراد ألعربي لأنه لم يرد من حكامها بهذا الإسم غير مراد العربي هذا وفي نفس الفترة الزمنية، إلاَّ اننا نعتقد ان تاريخ توليه المتصرفية كان سنة ١٢٨٩هـ كما جاء في جريدة الزوراء لا سنة ١٢٩٠هـ كما ذكر الفراوي.

٢٠ - **شبلي العريان الدرزي**: ثم تولى شبلي العريان متصرفية الحلة مرة ثانية سنة ١٢٩٠هـ وحين وصوله وتسلمه المتصرفية حاول أن يعاقب الذين وقفوا ضده من الأهالي في قضية ألكنيس اليهودي أثناء ولايته الأولى. إلاّ أنه عدّل سيرته بعد ذلك وحاول أن يسترضي الأهلين ويختلط بهم، فصار يحضر مجالسهم ودواوينهم. وقد بقي في الحلة في هذه المرة حوالي

---

(٥٧) جريدة الزوراء. عدد ١٢ تشرين الأول ١٢٨٧هـ.

(٥٨) جريدة الزوراء- عدد ٧ محرم ١٢٨٨هـ.

(٥٩) جريدة الزوراء- عدد ٤ جمادي الآخرة ١٢٨٩هـ.

(٦٠) جريدة الزوراء- عدد ٥٩٦، ١١ رمضان ١٢٨٩هـ، تاريخ الحلة ١/١٤٥. وجاء في المرجع الأخير (أن المدرسة الرشيدية التي هي في داخل سوق الهرج وذلك سنة ١٢٨٩هـ وكانت قبلاً تسمى بالمدرسة الزينبية. والمظنون أنها من مدارس الحلة القديمة إبان نهضتها في القرون الوسطى).

(٦١) تاريخ العراق بين احتلالين، ٨/٢٤.

سنتين، توفي على أثرها بالطاعون اوائل سنة ١٢٩٢هـ[٦٢]. وفي رواية: ان السلطة هي ألتي دسَّت إليه السم[٦٣] بسبب ما ذُكر عن اختلاطه بالأهالي ومجاراته لهم ثم إلتفافهم حوله[٦٤]. وهناك من يرجح سبب موته إلى ما أشيع عنه أنه رفض فرض ضرائب إضافية وغرامات مالية على الأهلين مما كانت تطلبه منه حكومة بغداد[٦٥]، مما أزعج الحكومة وأقلقها فاستشعرت الخطر منه فعمدت إلى التخلص منه.

٢١ - حسام الدين افندي: في أوائل سنة ١٢٩٢هـ تحوَّل مركز اللواء من الحلة إلى الديوانية، وصارت الحلة قضاءً تابعاً لها، فعينّ (حسام الدين افندي) قائمقاماً فيها[٦٦]. ويبدو أن هذا ألقائمقام كان على قسط من الثقافة والمعرفة، فقد كانت له مراسلات مع بعض وجهاء النجف والحلة وبغداد وأدبائها، ويبدو انه كان ذا تأثير في حياة المدينة وأهلها، وعلى علاقة طيبة بهم بخلاف ما كانت عليه علاقات غالبية الحكام قبله من السلبية والنفور، حتى بلغ من ذلك أن السيد حيدر الحلي أكبر شعراء الحلة في تلك الحقبة مدحه بقصيدة طويلة بليغة، مطلعها:

---

(٦٢) تاريخ الحلة، ١/١٤٦.

(٦٣) جاء في كتاب: تاريخ الديوانية ص٩٠: أن إبنة شبلي العريان ذكرت أن والدها مات مسموماً.

(٦٤) تاريخ الحلة، ١/١٤٦، صور من تاريخ العراق ١/٣٥١.

(٦٥) لعل السبب المباشر في تفكير الدولة بإزاحته وقتله إضافة لما ذكر من التفاف الأهلين حوله ورفضه فرض ضرائب إضافية هو خلافه الحاد مع والي بغداد عبد الرحمن باشا (١٢٩١- ١٢٩٣هـ) على كثير من الأمور وعدم تنفيذه كل الأوامر الصادرة إليه، ثم اختلافه بعد ذلك مع نقيب بغداد، فاتفق الاثنان ضده، وكتبا إلى الأستانة ذاكرين سوء تصرف هذا المتصرف وعدم امتثاله أوامر الحكومة وعدم تنفيذه تعليماتها، كما أثارا مخاوفها بإخبارها أنه صار يهدد أمن الدولة وهيبتها، مما حدا بالسلطة هناك بالايعاز إلى الوالي بإرسال من يقضي عليه بالسم أو القتل، فتم لها ما أرادت. وحين مات دفن بالجامع الكبير في الحلة.

للمزيد عن التفاصيل - ينظر: تاريخ الديوانية ص٥٩- ٦١.

(٦٦) تاريخ الحلة، ١/١٤٧.

اطلع شمس السرّاح ليلاً أغيد كأنه من نورها مجسّدُ

وبعد مقدمة غزلية خمرية رقيقة بلغت تسعة وعشرين بيتاً يعرج على مدحه فيصفه بأحسن الصفات، ويضفي عليه أرق النعوت، بل يجعل منه الصورة المجسمة للعدل والشجاعة، وإنه السوط الذي يجلد ظهر الجور والسيف الذي يغلق رأس الباطل، حتى صار مثال الحق الذي تحتذي به(ملوك العصر) ممن جرى في مضماره يحاولون اللحاق بمجده، ولكن هيهات، لأن على من يطمع في عليائه أن يقف صاغراً يائساً لا يمتلك الوسيلة والإداة التي يمتلكها هذا (الحسام) القاطع العادل. وإن العدل والشجاعة ليست هي كل ما يميّز هذا الحاكم، إنما جمع إليها (المجد والندى والحمد والعلى والسؤدد) وغيرها من المفاخر. لنسمعه يقول:

يا طالبَ العدلِ هلمّ ظافراً فالعدل شخص قد حواه بلدُ
أما ترى الفيحاء كيف أصبحت والجور من ورائها مشرد

على أن لهفة الشاعر للعدل وتجسيده برجل ثم إقترانه بالجور المشرد يعكس إحساس الشاعر بفقدان العدالة، وبتفشي الجور، فالشاعر إذ يركز على بعض المقومات الاجتماعية فذلك يعني أنه يفتقدها من المجتمع فيتوق مع أحلامه إلى تحقيقها. ثم يستمر في تبيان عظمة الممدوح ومزاياه فيقول:

هذا (حسام الدين) بين أهلها	أصبح والملك به مقلّد
جرت ملوك العصر في مضماره	لغاية إلاّ عليه تبعد
فجاء يجري سابقاً ما مسحت	غرّة علياه سوى العزّ يد
فقل لمن يطمح في عليائه	قف صاغراً ليس إليها مصعد
فالمجد إرث والندى سجية	والحمد كسب والعلاء مولد
تبصر في رواقه محجباً	منه ولا حاجب إلاّ السؤدد
قد خدمت أقلامه بيض الظبا	تصدرها عن أمره وتورد
سيف بكف الملك منه قائم	مقام خديه الطلا والعضد

منزلتان ليس في كليهما ... ينوب عنه الصارم المجرَّد

أما عن سميّه السيف فيخاطبه

وأنت حيث بإسمه شاركته ... لا تفتخر يا أيُّها المهندُ
فهو على هام العداة منتضى ... دأباً وأنت تنتضى وتغمد
إن أشعرتك رهبةً هيبته ... فمنه في صدر الندىّ أسد
أغلب لا يطمح في حضرته ... طرف ولا ينطق فيها مذود
مصور في شخصه روح النهى ... عليه أبراد الفخار جدد
وغيره يغريك حسن شكله ... ومنه ما في البرد إلاّ جسد
أبلج عنه وإليه في الندى ... تروى أحاديث الندى وتسند
يا خير من زار الثناء ربعه ... فزار أزكى من نماه محتد
اليكها سيارة مع الصبا ... تتهم في نشر الثنا وتنجد
سحارة الألفاظ بابلية ... أم الكلام مثلها لا تلد
بل كل معنى جاهلي قد غدا ... يود منها أنه مولّد
لا تحمد العود على قافية ... ما كل عود في الأمور أحمد
أنت فدم سيد أبناء العلى ... ونظمها للشعر فيك سيد[٦٧]

إن تركيز مديح السيد حيدر هذا الحاكم يلفت النظر، فنحن نعرف إن هوة كبيرة كانت تفصل بين حكام الحلة وبين سعرائها في هذه الحقبة، وأن حبل الوصل كان مقطوعاً إلا ما ندر، إلا أن ما عرف به هذا الحاكم من عدل وعلم لم يعهدهما شعراء الحلة والسيد حيدر منهم بالذات في حكام الحلة وولاتها قبله كان شيئاً جديداً بالنسبة لهم، فشعر أنه طراز جديد من الحكام يستحق المدح والثناء.

٢٢ - طه أفندي:

تولى قائممقامية الحلة أواخر سنة ١٢٩٢هـ، وبقي فيها سنتين[٦٨].

---

(٦٧) ديوان السيد حيدر الحلي، ٢/٢٧- ٣٠.

(٦٨) تاريخ الحلة، ١/١٤٦.

٢٣ - **محمد باشا بابان الملقب بالخديوي:**

تولى متصرفية الحلة سنة ١٢٩٤هـ[٦٩] للمرة الأولى.

٢٤ - **شريف بك:**

لم تذكر المصادر غير اسمه[٧٠].

٢٥ - **أشرف باشا:**

الذي عين لمتصرفية الحلة بعد أن أعيد مركز اللواء مرة اخرى إلى الحلة سنة ١٢٩٥هـ. وأنه هو الذي قام بتشتيت قبائل الخزاعل وآل شبل بعد تمردهم على الحكومة[٧١]، وقد ذكر (وداي العطية) إن (أشرف باشا) جاء بعد (محمد باشا بابان)[٧٢] وهو غير صواب، فقد جاء في ديوان الشاعر (محسن الخضري)[٧٣]: «ولما نقل متصرف الحلة (شريف بك وعين مكانه (أشرف بك) زاره جماعة من الأشراف بضمنهم صاحب الديوان فقال مرتجلاً بحضرته:

متصرف الفيحاء جاء وقبله قد كنت منعطفاً على متصرف
فعدلت عن ذاك الشريف لأنني أصبحت مشغوفاً بحب الأشرف[٧٤]»

---

(٦٩) سالنامة بغداد لسنة ١٢٩٤هـ، الحصون المنيعة (مخطوط) مجلد/٢ الورقة ١٤٥. وقد جاء في (تاريخ الديوانية) ص٦٢: أن (محمد باشا) جاء بعد شبلي باشا في ٣ كانون الثاني سنة ١٢٩٢هـ، وهو غير صواب فقد سبقه إليها بعد شبلي كل من حسام الدين أفندي وطه أفندي المذكورين.

(٧٠) ديوان محسن الخضري ص١٤٦، أنظر بيتي محسن الخضري في توديع شريف بك واستقبال أشرف باشا.

(٧١) تاريخ الحلة ١/١٤٧، الحصون المنيعة (مخطوط) مجلد/٢ الورقة ١٤٥.

(٧٢) تاريخ الديوانية ص٦٣.

(٧٣) ولد الشاعر محسن الخضري في النجف سنة ١٢٤٥هـ، وكانت له مكانة مرموقة بين أبناء مجتمعه. كان على حظ وافر من العلم، توفي في النجف سنة ١٣٠٢هـ.
أنظر: ديوان محسن الخضري ١٨٧- ١٩٦، نهضة العراق الأدبية ١٨٤- ١٩٣.

(٧٤) ديوان محسن الخضري ص١٤٦.

٢٦ - محمد باشا بابان الملقب بالخديوي:

الذي تسلم متصرفية الحلة للمرة الثانية في ٢٩ مارس ١٢٩٩هـ[٧٥].
وقد ذكر علي الخاقاني: أن محمد باشا المشهور بالخديوي كان متصرفاً في الحلة أيام ولاية (تقي الدين) الثانية على العراق بين سنتي ١٢٩٦-١٣٠٣هـ وذلك حين مدح الشاعر عباس العذاري الحلي[٧٦] الوالي تقي الدين، ثم عرج على مدح المتصرف المذكور بقوله:

هذا تقي الدين والملك الذي	خضعت لهيبة عزه الأمراء
وسعى به الشهم الغيور محمد ال	متصرف المتسدد الآداء
فلتفخر الفيحاء فيه فإنه	لقلوبها هو رحمة وشفاء
وله مناقب كاثرت تعدادها	شهب السماء فما لها إحصاء
ولتشكرن صنيعه بمعارف	هي للمكارم في الورى أسماء[٧٧]

٢٧ - محمد رشيد بابان:

عين لمتصرفية الحلة في ٤ تشرين الأول سنة ١٣٠٠هـ وكانت أهم أعماله فيها إنشاء بناية كبيرة جديدة ذات طابقين في الجانب الكبير (الغربي) من الحلة، وجعلها مركزاً للحكومة[٧٨] ونقل إليها جميع دوائر الدولة من

---

(٧٥) تاريخ الديوانية ص٦٣، الروض الأزهر ص٤٠٥.

(٧٦) الشاعر عباس العذاري بن الشيخ علي، ولد في قرية العذار إحدى قرى الحلة ودرس في الحلة والنجف، وحضر الدرس لدى جماعة من علمائها، ثم عاد إلى الحلة ورحل بعدها إلى بغداد فسكن فيها زمناً اتصل خلاله ببعض بيوتها العلمية والأدبية. كان شاعراً دقيق النظم حسن الخط، عمر طويلاً ونسخ الكثير من الكتب. توفي في الحلة سنة ١٣١٨هـ/١٩٠٠م.
أنظر: البابليات ج٣/ق١/ص٤٣.

(٧٧) شعراء الحلة ٢/٢٥٤، والهامش من الصفحة نفسها.

(٧٨) وقد بقيت تلك البناية مركز لدوائر الحكومة من الحلة إلى عهد قريب وإنها تقع في الجانب الأيمن من مدخل السوق الكبير من الحلة من جهة النهر، إلا أنه عندما شيدت بنايات جديدة لدوائر الحكومة ولمركز المحافظة في عهد ثورة ١٧ تموز المظفرة، وانتقلت إليها المؤسسات الحكومية، أهملت البناية القديمة، ثم هدمت وصارت ساحة فارغة لم يشيد عليها بناء حتى الآن.

بنايتها القديمة في الجانب الشرقي من المدينة[79]. كما أنه عرف ببعض إصلاحاته وباتصالاته بالأهلين، لذلك تقرب إليه بعض شعراء الحلة ومدحوه، منهم الشاعر السيد حيدر الحلي الذي قال مشيداً بإنجازاته ومنها بناية الحكومة الجديدة ومؤرخاً إياها:

ذا محمد رشيد باشا بباني ... شاد للحكم دار عز ومجد
تزدهي في مقاصير لو للكسرى ... مثلت قال: هذه فوق جهدي
إنما (آصف) أتانا بصرح ... من أتاه يجده جنة خلد
قد دعا الملك مطرياً أرخوه ... (شاد بدر البهاء دارة سعد)[80]
يا عيون الفيحاء قرى بمولى ... فيه يقذى طرف الخصيم الالد
وبه فاخري الممالك طراً ... واستطيلي بعزة واستبدي[81]

٢٨ - **عبد الغني باشا:**

«عين لمتصرفية الحلة أواخر سنة ١٣٠٠هـ»[82].

---

(٧٩) تاريخ الحلة ١/١٥١، تاريخ الديوانية ص٦٤. وقد ورد في سالنامة بغداد لسنة ١٣٠٢هـ: أن محمد رشيد بابان تولى متصرفية الحلة سنة ١٣٠٢هـ. ونحن نرجح التاريخ الأول (سنة ١٣٠٠هـ) لأن معلومات السالنامات جمعت بعد سنين من تاريخها، وأن صاحبي تاريخ الحلة، وتاريخ الديوانية استقيا معلوماتها من مناسبات معينة وشواهد وتواريخ شعرية.

(٨٠) ديوان السيد حيدر الحلي ٢/١٦٢، لكن ناشر الديوان الشيخ علي الخاقاني قدم للأبيات بقوله «وقال وقد سأله (محمد رشيد بابان) ان يصنع هذا التاريخ وهو سنة ١٢٩٠هـ، وهو سهو منه لأن محمد رشيد بابان جاء إلى الحلة سنة ١٣٠٠هـ كما هو معلوم وكما يدل عليه التاريخ الشعري من عجز البيت الرابع. ولعل الشيخ الخاقاني توهم أنه المتصرف (محمد رشيد بك) الذي جاء إلى الحلة سنة ١٢٨٧هـ.

(٨١) البيتان الأخيران ذكرهما الشيخ يوسف كركوش في تاريخ الحلة ١/١٥٢، وهما غير موجودين في ديوان السيد حيدر الذي نشره الشيخ علي الخاقاني.

(٨٢) سالنامة بغداد لسنة ١٣٠٠هـ، ص١٤٠، كذا ورد في السالنامة، إلا أننا نعتقد أن مجيء عبد الغني باشا إلى الحلة بعد سنة ١٣٠٠هـ، لأن سلفه محمد رشيد بابان جاء إلى الحلة في ٤ تشرين الأول ١٣٠٠هـ وبنى فيها دار الحكومة وعرف باتصالاته وعلاقاته بالحليين ولا يمكن أن يكون هذا كله تم خلال شهرين أو ثلاثة أشهر من تلك السنة وإنما معلومات السالنامة المجموعة متأخرة هي التي لم تضبط التاريخ.

٢٩ - صالح بك النفطجي:

«من أشراف كركول، تولى متصرفية الحلة أيام الوالي مصطفى عاصم»[٨٣].

٣٠ - صالح بك الدلاَّل:

وهو من كركول أيضاً جاء إلى الحلة بعد إنفصال صالح بك النفطجي[٨٤].

٣١ - زكي بك:

عين في ٥ تشرين الثاني سنة ١٣٠٣هـ[٨٥].

٣٢ - يحيى نزهة أفندي:

عين لمتصرفية الحلة في ١٤ كانون الأول سنة ١٣٠٤هـ[٨٦]. وفي عهده مات شط الحلة بعد أن غير مجراه إلى شط الحلة.

٣٣ - صالح باشا:

عين لمتصرفية الحلة بعد يحي نزهة في ٢٨ مارت ١٣٠٦ غربية[٨٧] (١٣٠٧هـ).

٣٤ - محمود بك:

عين لمتصرفية الحلة بعد صالح باشا في ١٩ حزيران سنة ١٣٠٧ غربية[٨] (١٣٠٨هـ).

٣٥ - جلال بك:

خلف محمود بك في متصرفية الحلة في ٣١ كانون الأول سنة ١٣٠٧

---

(٨٣) الروض الأزهر ص ٤٠٧، ٤١١، وجاء تسميته فيه ب(النفتجي).
(٨٤) الروض الأزهر ص٤١١.
(٨٥) تاريخ الحلة ١/١٥٢، تاريخ الديوانية ص٦٥.
(٨٦) الروض الأزهر ص٤١٢، تاريخ الحلة ١/١٥٢.
(٨٧) تاريخ الحلة ١/١٥٣.
(٨٨) الروض الأزهر ص٤١١، تاريخ الحلة ١/١٥٣، تاريخ الديوانية ص٦٧.

غربية (١٣٠٨هـ). وقد عرف عنه أنه كثير الوساوس والإعتقاد بالمجذوبين(٨٩).

٣٦ - علي رضا بك:

الذي عين لمتصرفية الحلة في ٢٦ كانون الأول سنة ١٣٠٨ غربية (١٣٠٩هـ). وفي أيام هذا المتصرف قرَّر والي بغداد (الحاج حسن رفيق ١٨٨٩-١٨٩٤م) نقل مركز اللواء مرة اخرى من الحلة إلى الديوانية، وبقيت الحلة قضاء تابعاً للديوانية حتى نهاية الحكم التركي في العراق. ومن الجدير بالذكر أن هذا المتصرف عارض فكرة نقل مركز المتصرفية من الحلة إلى الديوانية معارضة شديدة، ورفع بهذا الشأن مذكرة إلى الوالي وضح فيها أسباب معارضته لهذا النقل ذاكراً: أنه كيف يمكن نقل مركز المتصرفية من مدينة عامرة تحيط بها البساتين وأشجار الفاكهة والنخيل من كل جانب إلى قرية جرداء قليلة الكلأ والماء، إضافة إلى عدم وجود مركز حكومي في الديوانية يتسع لدوائر الدولة، ولا ثكنات عسكرية كافية لجنودها، حيث توجد مثل هذه البناية الحكومية وثكنات واسعة للجنود في الحلة، كما أن كافة موظفي اللواء لم يكونوا مرتاحين لهذا النقل. ولكن الوالي اصر على رأيه، وغضب من المتصرف وعين بدله (واصف بك) محاسب أوقاف بغداد وكيلاً لمتصرفية الديوانية، وحضر الوكيل إلى الحلة وأبلغ الموظفين بوجوب النقل، فلم يبق لهم بدّ من الانتقال إلى الديوانية فانتقلوا مع أسرهم بالسفن ومعهم وكيل المتصرف، فاضطر المتصرف (علي رضا) حينذاك إلى الاستقالة، ثم عين الوالي بعد ذلك (موسى كاظم باشا) متصرفاً في الديوانية(٩٠).

٣٧ - عارف بك الألوسي:

عين لقائممقامية الحلة بعد نقل مركز اللواء الى الديوانية وإستقالة

(٨٩) المراجع السابقة، وبنفس الصفحات.

(٩٠) الروض الأزهر ص٤١٢، تاريخ الحلة ١/١٥٣- ١٥٤.

المتصرف السابق وذلك سنة ١٣١٠هـ[٩١]، إلا أن متصرف الديوانية غضب منه بعد فترة، فعزلته حكومة بغداد[٩٢]، وأسندت قائممقامية الحلة بعده إلى (راقم أفندي). إلا أن عارف بك برغم الفترة القصيرة التي قضاها في الحلة، فإنه تمكن من الامتزاج بأهلها وكسب رضاهم بسبب حضوره مجالسهم الخاصة ومنتدياتهم، حتى مدحه بعض شعرائها، منهم الشاعر (قاسم بن الشيخ محمد الملاّ الحلي)[٩٣] الذي قال يهنئه بمناسبة ختان ولده بقصيدة بلغت أكثر من ثلاثين بيتاً، بدأ بمقدمة خمرية غزلية جاء فيها:

حيا فأحيا الندامى بابنة العنب
ممزوجة بلماه البارد العذب
ظبي من الترك ممشوق القوام غدا
يختال فيها بنادي اللهو والطرب
وزفها شبه خديه موردةً
حب القلوب عليها طاف كالحبب
نما الأقاح إذا ما شيم مبتسمًا
يفتر عن سمط در زين في شنب
يا للهوى لغرير زارني سحراً
ويا تنزه عن وصف الدمى العرب
فبتُّ أنشق من ريحان وفرته
روعاً من الطيب في أمن من الريب
حتى وشى فيه خيط الفجر من حسد
ونمّ فيه الصبا بالمندل الرطب

---

(٩١) تاريخ الحلة ١/١٥٤.

(٩٢) المرجع السابق ١/١٥٦- ١٥٧.

(٩٣) الشاعر قاسم الملاّ هو ابن الشيخ محمد الملاّ الحلي الشاعر والوشاح المعروف، ولد بالحلة سنة ١٢٩٠هـ، ودرس على أبيه فيها وعلى الشاعر الحاج حسن القيم، هاجر إلى الكوفة قبل واقعة عاكف وسكن فيها ردحاً من الزمن، ثم عاد إلى الحلة وتوفي فيها سنة ١٣٧٤هـ.
أنظر: البابليات ج٣/ق٢/ص١٨٦.

٣٨ - راقم أفندي:

عين راقم أفندي لقائممقامية الحلة بعد عزل عارف الألوسي(٩٥)، وهو مدير الأراضي السنية(٩٦) في الحلة، والذي كان يشغل منصبه هذا في إدارة الأملاك السنية منذ عشر سنوات. لذلك كان واسع النفوذ ذا مكانة مرموقة بين الناس، فأقبل عليه الأهلون، وصار يتوسط لهم في قضاء بعض أمورهم في دوائر الحكومة، حتى مدحه قسم من شعرائهم منهم الشاعر (السيد جعفر الحلي)(٩٧) الذي نعته بأحسن النعوت ووصفه بالعزم والحزم والمساواة حتى لم يعد في البلاد مظلوم ولا ظالم. حتى جمع عدله الشاة مع الذئب على صعيد واحد دون خوف أو وجل كإنما قد ظهر (القائم) المهدي المنتظر. لنسمعه يقول:

ما جاءنا مثلك يا راقم
حاكم عدل حازم حاسم
تمضي مضاء السيف في أمره
لم يثنك العاذل واللائم
حكمك قد مهَّد اقطارنا
فليس مظلوم ولا ظالم

---

(٩٤) ديوان قاسم بن الشيخ محمد الملاّ - مخطوط - غير مرقم.

(٩٥) تاريخ الحلة ١٥٧/١.

(٩٦) الأراضي والأملاك السنية هي الممتلكات العائدة للسلطان عبد الحميد، وكانت لها تشكيلات إدارية خاصة ولها مديرون ومجلس إدارة في بغداد، وأن مدراء الأراضي السنية لم يكونوا يخضعون للمتصرف أو القائممقام كبقية الموظفين الاداريين، إنما كانوا يرجعون إلى والي بغداد مباشرة.

(٩٧) الشاعر جعفر الحلي: هو السيد جعفر بن حمد آل كمال الدين ولد في قرية السادة من قرى الحلة سنة ١٢٧٧هـ، ثم سكن الحلة ودرس فيها، رحل بعدها إلى النجف للدراسة إلا أنه أقام فيها بقية عمره حتى وفاته سنة ١٣١٥هـ.

للمزيد عن ترجمته - أنظر: مقدمة ديوان (سحر بابل)، نهضة العراق الأدبية ص١٤٤- ١٧٦.

الشاة والذئب سواء بها
كانما قد ظهر (القائم)[98]

ولعل قضاء هذا المسؤول لشؤون قسم من أهل الحلة وتوسطه في إنجاز بعض معاملاتهم في دوائر الحكومة في بغداد والحلة هو الذي دعا الحليين وقسمًا من شعرائهم إلى إطرائه، وإضفاء النعوت الكثيرة عليه. فهذا الشاعر (محمد القزاز) الملقب (بالتبريزي)[99] يعترف بفضل هذا الحاكم، وأنه كشف عنه معضلة كان حائراً مهموماً بسببها، وبذلك حمّله منّة لن ينساها فهو يقول:

يا كائناً لعيون المجد انساناً
وللمكارم والخيرات إنساناً
كشفت لي أنت يا مولاي معضلة
قد كنت فيها حزين القلب حيراناً
أحسنت في كشفها عني مدافعة
جزاك ربك بالإحسان إحسانا
حملتني منّة ما كان يحملها
رضوى فنلت من الرحمن رحمانا[100]

إن هذه المدائح تدل على مكانة هذا الحاكم الخطيرة من نفوس الناس وعلى علاقته الوثيقة بهم وخورة مكانته لديهم، ومما يدل على تلك المكانة ان قسمًا من آل القزويني الشعراء قد مدحوا (راقمًا) هذا. فقد مدحه الشاعر

(98) ديوان (سحر بابل) ص٤٠٧.
(99) الشاعر محمد القزاز الملقب بالتبريزي. ولد في تبريز بإيران سنة ١٢٤٣هـ، هاجر في شبابه إلى العراق، فسكن الحلة، وكان يمتهن بيع القز والابريسم والحرير لذلك دعي (بالقزاز) واتقن العربية حتى تمكن منها، ومن كثرة اتقانه لها واختلاطه بمجالس الحلة وأنديتها الأدبية صار شاعراً مشهوراً من شعرائها وكان يغلب على شعره طابع المرح والهزل والغزل. توفي في الحلة سنة ١٣٢٢هـ.
ينظر عن ترجمته: البابليات ج٣/ق١/ص٧٢- ٧٥.
(100) مجموعة تراجم العلماء (مخطوط) ص٣٨.

(السيد أحمد القزويني)[101] بقوله يهنئه بعيد الفطر:

رقمت بسرود الفرحتين لراقم
لم يحص بعضاً من علاه الراقم
عيدان فيه للولاية أكملا
فلها بها، ولنا السرور ملازم[102]

فإذا عرفنا أنه ندر أن مدح من شعراء آل القزويني أحداً من الحكام أو الناس - لمكانتهم المتميزة في الحلة في تلك الحقبة - تبينَّ لنا أهمية هذا المديح لراقم أفندي.

٣٩ - شوكة بك بن رفعة بك:

عين لقائممقامية الحلة بعد راقم أفندي أواخر سنة ١٣١٠هـ وتذكر المصادر أن بداية عهد شوكة بك في الحلة كانت متسمة بعدم الاستقرار والفوضى التي كانت تعم الحلة وضواحيها[104]، وباضطراب حبل الأمن

---

(١٠١) الشاعر أحمد القزويني هو إبن السيد ميرزا صالح بن السيد مهدي القزويني الكبير، ولد في الحلة سنة ١٢٨٧هـ، ودرس فيها وفي النجف، كان يرتجل الشعر ويعد من أعلام الشعر الشعبي في أيامه، له ديوان شعر كبير ما زال مخطوطاً لدى أحفاده في مدينة الهندية، توفي سنة ١٣٢٤هـ، ينظر عنه:

أعيان الشيعة ٣٢٨/٨، شعراء الحلة ١٠٤/١، البابليات ج٣/ق٢/ص٧٧.

(١٠٢) شعراء الحلة ١٤٦/١.

(١٠٣) شوكة بك هو إبن رفعة بك بن أحمد آغا البغدادي الأصل، تقلد مناصب عدة في العهد العثماني، وعين قائممقاماً للحلة والكوت، وانتخب في العهد الدستوري نائباً (مبعوثاً) عن لواء الديوانية، ثم انتخب بعدها عن ولاية بغداد، وتوفي أثناء نيابته في الآستانة سنة ١٣٣٤هـ وعمره يقارب ٦٠ عاماً، وهو والد ناجي شوكة، والأطباء صائب وسامي شوكة.

أنظر عن ترجمته: ديوان يعقوب الحاج جعفر ص١٠٥.

(١٠٤) جاء في الروض الأزهر ص٢١٣ «أنه حدثت خصومة بين مفتي الحلة وبين جماعة من وجوه أهل الحلة سنة ١٣١٠هـ أيام حاكمها شوكة بك بن رفعة بك، وقد عارض الحاكم المفتي، وأمر بالقبض على خصومه من الأهلين وتعبيدهم وتحقيرهم، فأركبهم =

وأن عصابات السراق كانت تنهب المارة في وضح النهار(١٠٥). إلاّ ان شوكة بك إستطاع بعد ذلك أن يسيطر على البلاد ويضبط الأمن فيها، فسادت في أواخر أيامه حالة من الاستقرار والهدوء حتى استقطب إليه الناس ومدحه الشعراء. فهذا الشاعر (يعقوب الحاج جعفر)(١٠٦) يسبغ عليه كل نعوت الفخر والرفعة، ويصفه بالعدل والانصاف والحزم والكرم، ويقول: إن لواء العدل أضحى مرفرفاً على الفيحاء في عز وكبرياء أيام هذا القائممقام الذي اتصف بالاباء وترفع عن الصغائر فهو يقول:

لواء العدل يا فحياء أضحى ... يرف عليك في عز ونصر
(بشوكة) قائم بمقام كسرى ... أخي الأنصاف ذي عدل وبر
ترفَّع في العلى كأبيه شأناً ... وكبراً تاه فخراً لا بكبر
(لرفعة) شأنه من قاس جهلاً ... سواه يقس طودا بذر
تحدث عنه فيما شئت واترك ... حديث الناس عن زيد وعمرو
حلفت بمجده والحلف فيه ... أليَّة صادق ويمين برّ
طوى في حكمه جور الليالي ... وقد نشر العدالة أي نشر
فتى حمد الأنام به المساعي ... فراحت وهي في حمد وشكر
إذا ما الدهر جاء بمشكلات ... فمنه تحل في حزم ونكر
أخو عزم غداة الروع يغني ... شباه عن مهندة وسمر

= على الحمير بصورة عكسية وجوههم إلى مؤخرة الحمير وأوجبوا أن يمسك كل واحد منهم بذيل الحمار بعد أن (سخموا وجهه) وطافوا بهم في شوارع المدينة تحت هرج الصبيان والنساء ومرجهم، ثم أخرجوا من الحلة متوجهين بهم إلى بغداد ليفرقوهم في البلدان».

(١٠٥) ينظر عن حالة الاضطراب والسرقات في عهد شوكة بك: تاريخ الحلة ١/١٥٧- ١٥٨.

(١٠٦) الشاعر يعقوب الحاج جعفر: ولد في النجف سنة ١٢٧٠هـ، ونشأ ودرس فيها، ثم هاجر إلى الحلة سنة ١٣٠٠هـ وسكن فيها حتى وفاته سنة ١٣٢٩هـ. وهو والد الأديب الشاعر المرحوم الشيخ محمد علي اليعقوبي.
أنظر ترجمته في: ديوان يعقوب الحاج جعفر ص٣- ١٦.

يحل الخصب أرضا حل فيها ... وعنها الجدب والإعسار يسري
فيا لك فيه من سنة أتتنا ... بما نهواه من زهو وبشر
همت يمناه في الفيحاء يمناً ... وفاضت منه يسراه بيسر
أدار بها الادارة باعتدال ... وساس الناس في نهي وامر
تخال بها الفرات العذب لما ... جرى من كوثر الفردوس يجري
موارده حلت عللاً ونهلاً ... فما شيبت لواردها بمرّ
وأسهر أعين الباغين خوفاً ... وقال لأعين الفيحاء قرّي
وراح يبيد داء الجهل لما ... سرى فيها وداء الجهل يسري
أعاد لها عهود بني دبيس[١٠٧] ... حماة الجار من بؤس وضر
لقد رفلت ببرد الفخر فيه ... كما رفلت بهم ببرود فخر[١٠٨]

وقد بقي (شوكة بك) قائممقاما في الحلة حتى سنة ١٣١٥هـ حتى عزله الوالي (جمال باشا) لأنه تأخر عن إستقباله عندما زار الحلة[١٠٩].

٤٠ - الحاج نامق أفندي:

كان نامق أفندي ذا إتجاه دستوري، لذلك كان يشجّع أهل الحلة على المطالبة بالدستور، كما كان يحضر دواوينهم ومجالسهم فكان عاملاً من عوامل اليقظة السياسية والفكرية في الحلة[١١٠].

---

(١٠٧) بنو دبيس هم مؤسسو مدينة الحلة من الأمراء المزيديين من بني أسد. ودبيس هو نور الدولة بن سيف الدولة الأمير صدقة بن منصور مؤسس الحلة سنة ٤٩٥هـ، كان معروفاً بالحزم والهيبة، قتل غيلة سنة ٥٢٩هـ.

ينظر عن بني دبيس والأمراء المزيديين من بني أسد وعن تأسيس الحلة: الامارة المزيدية. للدكتور عبد الجبار تاجي. مط. دار الطباعة الحديثة.

(١٠٨) ديوان يعقوب الحاج جعفر ص١٠٥- ١٠٦.

(١٠٩) الروض الأزهر ص٣٩٤- ٣٩٥.

(١١٠) الروض الأزهر ص٣٩٥، تاريخ الحلة ١٥٨/١.

٤١ - **خليل راسخ أفندي:**

كان قائممقاماً في الحلة سنة ١٣١٧هـ(١١١).

٤٢ - **خيري أفندي:**

كان قائممقاماً في الحلة سنة ١٣١٩هـ(١١٢).

٤٣ - **صالح باشا:**

كان قائممقاماً في الحلة سنة ١٣٢٣هـ(١١٣).

٤٤ - **محمد علي بك:**

كان قائممقاماً في الحلة سنة ١٣٢٥هـ(١١٤).

٤٥ - **العصيمي(١١٥):**

هو من زعماء المنتفك، وممن كان موالياً للأتراك. وتذكر المصادر أنه كان رجلاً ضعيف الشخصية والادارة. قليل السيطرة جاء إلى قائممقامية الحلة والمدينة بيد أهلها أواخر الحكم التركي في العراق وقد انحسر ظل السلطة فيها إلى حد كبير(١١٦).

٤٦ - **مصطفي بك المميز:**

جاء إلى الحلة أواسط سنة ١٩١٦م. وقد حاول هذا القائممقام أن يعيد للحكومة هيبتها فلم يفلح. فاصطدم بأهلها وببعض وجهائها

---

(١١١) سالنامة بغداد لسنة ١٣١٧هـ، ص٢٥٨.
(١١٢) سالنامة بغداد لسنة ١٣١٩هـ، ص٣٤٥.
(١١٣) سالنامة بغداد لسنة ١٣٢٣هـ، ص٣٣٧.
(١١٤) سالنامة بغداد لسنة ١٣٢٥هـ، ص١٧٧.
(١١٥) لم تذكر المصادر إسم هذا القائممقام.
(١١٦) تاريخ الحلة ١٦٣/١.

والمتنفذين فيها، فطردوه من الحلة[١١٧]. ولم تستطع الحكومة أن تحرك ساكناً، كما لم تبعث حاكمًا غيره. وبقيت الحلة بيد أهلها حتى كانت (واقعة عاكف)[١١٨] المشهورة في الحلة في تشرين الثاني في سنة ١٩١٦م، وما حدث بعد ذلك من مضاعفات، حتى احتل الانكليز بغداد في ١١ آذار ١٩١٧، فعينوا في الحلة الكابتن (كولد سمث) معاوناً للحاكم السياسي في مايس ١٩١٧، وفي ٢٢ تشرين الثاني من السنة نفسها عين الميجر (مكفارسون) حاكمًا سياسياً في الحلة[١١٩].

محمد حسن علي مجيد



(١١٧) فصول من تاريخ العراق القريب، هامش ص٩٨، تاريخ الحلة ١/١٦٣- ١٦٤.

(١١٨) أنظر عن حوادث واضطرابات الحلة أواخر الحكم التركي في العراق وعن واقعة عاكف فيها:

الروض الأزهر ص ٤٥ - ١٥١، تاريخ الحلة ١/١٦٤- ١٧١.

(١١٩) فصول من تاريخ العراق القريب ص١١٢، والهامش من الصفحة نفسها.

ثبت المصادر والمراجع

(١) أدب الحلة. الدكتور جواد أحمد علوش (مخطوط) موجود لدى عائلة المؤلف في بغداد.

(٢) أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث. ستيفن هيمسلي لونكريك ترجمة جعفر خياط، ط٣، مطبعة البرهان - بغداد ١٩٦٢.

(٣) أعيان الشيعة محسن الأمين العاملي ط٤، بيروت ١٩٦٠.

(٤) الامارة المزيدية. الدكتور عبد الجبار ناجي. دار الطباعة الحديثة ١٩٧٠.

(٥) البابليات. محمد اليعقوبي.
ج٣/ق١، المطبعة العلمية بالنجف ١٣٧٣هـ
ج٣/ق٢، المطبعة العلمية بالنجف ١٩٥٤م.

(٦) تاريخ بغداد أو مرآة الزوراء. كتبه بالتركية سليمان فائق ترجمه إلى العربية موسى كاظم نورس. مط المعارف ببغداد ١٩٦٢.

(٧) تاريخ الحلة. يوسف كركوش ق١، المطبعة الحيدرية - نجف ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م.

(٨) تاريخ الديوانية قديماً وحديثاً. الحاج وداي العطية. المطبعة الحيدرية - نجف ١٣٧٥هـ/١٩٥٤م.

(٩) تاريخ العراق بين احتلالين. عباس العزاوي، ج٦ شركة التجارة والطباعة المحدودة ١٣٦٩/١٩٤٩.

(١٠) تاريخ المماليك (الكولة ضد). كتبه بالتركية سليمان فائق ترجمه محمد نجيب أرمنازي - مطبعة المعارف بغداد ١٩٦١.

(١١) جريدة الزوراء. اعداد سنة ١٢٨٧هـ، ١٢٨٨هـ، ١٢٨٩هـ.

(١٢) الحصون المنيعة في طبقات الشيعة. علي كاشف الغطاء (مخطوط) موجود في مكتبة الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء في النجف.

(١٣) داود باشا آخر الولاة المماليك. للدكتور عبد العزيز سليمان نوار.

(١٤) داود باشا ونهاية المماليك في العراق. الدكتور يوسف عز الدين.

(١٥) ديوان السيد أحمد القزويني (مخطوط) غير مرقم. موجود لدى عائلة المؤلف في الهندية.

(١٦) ديوان السيد حيدر الحلي. نشره علي الخاقاني، ج٢ مطبعة المعارف - بغداد ١٣٨٣/١٩٦٤.

(١٧) ديوان (الدرر الغروية في مدح العترة المصطفوية) للسيد صالح القزويني البغدادي. (مخطوط) موجود في مكتبة الآثار ببغداد تحت رقم ٢٠٩٨.

(١٨) ديوان (سحر بابل وسجع البلابل). للسيد جعفر الحلي مطبعة العرفان - صيدا سنة ١٣٣١هـ.

(١٩) ديوان صالح التميمي. مطبعة النجف ١٩٤٨.

(٢٠) ديوان السيد صالح القزويني البغدادي - مخطوط موجود في مكتبة الآثار ببغداد تحت رقم ١٨٩٢.

(٢١) ديوان قاسم بن الشيخ محمد الملا الحلي. مخطوط - موجود لدى ولده وهاب الشيخ قاسم الملا من الحلة.

(٢٢) ديوان الشيخ محسن الخضري. المطبعة العلمية نجف ١٩٤٧م.

(٢٣) الروض الأزهر في تراجم آل السيد جعفر - مصطفى نور الدين الواعظ مطبعة الاتحاد - الموصل ١٩٤٨م.

(٢٤) سالنامات بغداد للسنوات ١٣٠١هـ، ١٣١٠هـ، ١٣١٥هـ، ١٣١٩هـ، ١٣٢١هـ، ١٣٢٣هـ، ١٣٢٥هـ، ١٣٢٩هـ.

(٢٥) شعراء الحلة. علي الخاقاني

ج١، ط٢ دار الأندلس - بيروت ١٩٦٤.

ج٢، ج٣، ج٤، ج٥، ط١ المطبعة الحيدرية نجف ١٩٥٢.

(٢٦) الشعر في الحلة بين سنتي ١٨٢٤- ١٩١٧. محمد حسن علي مجيد، رسالة ماجستير مطبوعة على الرونيو.

(٢٧) صور من تاريخ العراق في العصور المظلمة. جعفر خياط مطبعة دار الكتب - بيروت ١٩٧١.

(٢٨) طبقات أعلام الشيعة. محمد محسن آغا بزدك المطبعة العلمية - نجف ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م.

(٢٩) عبد المحسن السعدون- لطفي جعفر رسالة ماجستير. مطبوعة على الرونيو.

(٣٠) العبقات العنبرية في طبقات الجعفرية، محمد حسن آل كاشف الغطاء (مخطوط) موجود في مكتبة الشيخ محمد حسن آل كاشف الغطاء في النجف.

(٣١) فصول من تاريخ العراق القريب - إلمس غير تردد بل ترجمة جعفر خياط - مطبعة دار الكتب - بيروت ١٩٧١.

(٣٢) لسان العرب - معجم لغوي - إبن منظور.

(٣٣) مجلة (العدل) النجفية - مقال حمودي الساعدي بعنوان (ثورة عفك والاقرع في أيام ولاية مدحة باشا).

العدد/١ السنة/١ آب ١٩٦٥.

(٣٤) مجموعة آل السيد سليمان - مخطوط- بقلم السيد داود بن السيد سليمان. موجود لدى عائلة المؤلف في الحلة.

(٣٥) مجموعة تراجم العلماء - محمود شكري الألوسي (مخطوط) - موجود في مكتبة الآثار ببغداد برقم ٢٠٩٩.

(٣٦) مذكرات مدحت باشا - نشرها علي حيدر، تعريب يوسف كمال حتاته - مطبعة هندية بمصر، دون تاريخ.

(٣٧) مطالع السعود في أخبار أعلم الوزراء وأعظمهم داود.
عثمان بن سند الوائلي - مخطوط - موجود في مكتبة الآثار ببغداد تحت رقم ٢٣٣.

(٣٨) نهضة العراق الأدبية في القرن التاسع عشر. محمد مهدي البصير، مطبعة المعارف - بغداد ١٣٦٥هـ/١٩٤٦م.



تحليل مصادر العسجد المسبوك للغساني

بقلم
الدكتور/ شاكر محمود عبد المنعم
جامعة أم القرى/قسم التاريخ

دون مؤلف العسْجد المسبوك لفترة سبقت مولده بقرون عدة، لذلك فمن المؤكد أنه نقل عن غيره من المؤرخين، وخاصَّة المدة ألتي تبدأ بالقرن الأول الهجري وتنتهي بالنصف الأول من القرن الثامن الهجري.

أمَّا فيما بعد ذلك فقد يكون الكتاب أصيلاً فيما يروى. غير أننا لسوء الحظ لم نستطع أن نعثر على القسم[1] الأخير من الكتاب في الوقت الحاضر لنعطي عنه فكرة متبلورة كاملة يطمئن إليها.

غير أن قيمة (أي تاريخ إسلامي كمصدر تاريخي يقرّرها قدمه وقربه

---

(١) انظر نسخة معهد احياء المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية رقم ١١٣٦ ميكروفيلم (المرموز لها بالحرف جـ). ان هذه النسخة التي اعتمدنا عليها في معرفة خطة الكتاب ومنهجه تنبتر في آخرها ولم نجد من القسم الثاني المخصّص لذكر الملوك والذي تضمن خمسة ابواب، سوى الباب الخاص بملوك مصر والشام. انظر مقالنا السابق «توثيق العسْجد المسبوك» المجلة التاريخية/العدد/٤/١٩٧٥. وسوف نعطي الرمز - أ - لنسخة دار الكتب المصرية رقم (١٢٨٩ تاريخ ميكروفيلم) من العسجد المسبوك للغساني، والرمز (ب) لنسخة دار الكتب المصرية المخطوطة ذات الرقم (٣٨٦٣ تاريخ) وعنها نسخة مصورة في مكتبة الدراسات العليا بكلية الاداب بجامعة بغداد. إبتغاءً لسهولة الإشارة إليها.

من الحوادث التي يصفها أو إستخدامه لكتب مفقودة قديمة أو قريبة من المعاصرة)[1].

والواقع أن كتاب العسْجد المسبوك في قسمه الأول ليس قريباً من الحوادث التي يصفها لكنه اعتمد على كتب لم تصلنا لأبن السّاعي[2] الذي يسميه هو (ابن الخازن) كما سنبينّ ذلك بعد قليل. كما وردت بعض الحوادث والأخبار والتراجم ولم نجد ما يماثلها فيما بين أيدينا من مصادر التاريخ الاسلامي.

واعتمد العسْجد المسبوك على مصادر معاصرة للأحداث ككتاب الكامل في التاريخ لابن الاثير المتوفى سنة ٦٣٠. وكتاب نزهة العيون[3] لوالده الملك الافضل عبّاس بن رسول المتوفى سنة ٧٧٨. كما أنه اعتمد على مؤرخين موثقين في تاريخ القرون الثلاثة الاولى الهجرية، فلقد أشار إلى إعتماده على الواقدي (ت٢٠٧) والطبري (ت٣١٠) وابن الجوزي (ت٥٩٧)، يضاف إلى ذلك فاننا حاولنا ان نجمع اشاراته إلى الذين أخذ عنهم فوجدناها قائمة كبيرة تجعل الكتاب في مصاف المؤلفات الحديثة من حيث اعتمادها على المصادر، مع فارق مهم هو عدم تحديده المقدار المقتبس من المصادر الاخرى، والاشارة التي جاءت في العسْجد المسبوك غامضة بل مبهمة احيانا كقوله: «قال علماء التاريخ أو السِّير»[5]. ثم انه عندما يشير

---

(١) إنظر: فرانز روزنشال، علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة الدكتور صالح أحمد العلي، بغداد/١٩٦٣، ص١٤.

(٢) انظر بهذا الصدد: الدكتور جعفر حسين خصباك، العراق في عهد المغول الإيلخانين، مطبعة العاني، بغداد ١٩٦٨ المقدمة ص ز. الدكتور ناجي معروف، المدارس الشرابية، مطبعة الارشاد، بغداد، ١٩٦٥ ص٢٦-٢٧.

(٣) انظر: ما دونّاه عن هذا الكتاب ادناه.

(٥) انظر نسخة دار الكتب المصرية رقم ٢١٨٩ ميكروفيلم المرموز لها بالحرف أ، الورقة ٢٥أ. أو كقوله «قال القضاعي» الذي تكرر ذكره ثلاث مرّات في الكتاب من غير أن يذكر اسم المصَنف الذي أخذ عنه، وعندما ذهبنا إلى المصادر نستوضحها وجدنا أن هناك =

إلى ما أخذه أو نقله عن غيره لا يذكر اسم الكتاب كاملاً كما انه يورد اسم المؤلف أو كتابه موجزاً جداً ويكتفي احياناً بذكر اسم المؤلّف موجزاًفقط. ولا يخفى ان هذا النوع من الاشارات يوقع الباحث في حيرة خاصة إذا كانت للمؤلف المنقول عنه كتب عديدة.

أمّا الذين أشار إليهم صراحة فهم:

الواقدي [٦]

ابو جعفر الطبري[٧]

الشريف ادريس[٨]

ابن الاثير[٩]

القضاعي[١٠]

الملك الأفضل عباس ولم يذكر اسمه انما اكتفى بقوله «قال الوالد او والدي في نزهة العيون». أو «قاله في نزهة العيون»[١١].

= عدداً من الذين تلقبوا بالقضاعي وأغلبهم مؤلفين كما انهم من الذين اشتغلوا بالتاريخ. فكيف يمكن ان نميز القضاعي الذي كان يعنيه مؤلف العسْجد؟ وعلى سبيل المثال نذكر منهم: محمد بن سلامة بن جعفر القضاعي (ت٤٥٤) مصنف الشهاب والمختار في ذكر الخطط والآثار. والانباء بانباء الانبياء وتواريخ الخلفاء وغير ذلك. ثم ابن الأبّار القضاعي (ت٦٥٩) صاحب تكملة الصلة والمعجم والحلة السّيراء واعْتاب الكتاب. ثم محمد بن محمد بن إدريس بن مالك القضاعي (ت٧٠٧) ويعرف بالقلاوسي وهو فرضي وعروضي ومؤرخ له ارجوزة في الفرائض وزهرة الطرف من زهرة الظرف. وغير ذلك.

(٦) انظر: أ، الورقة: ٧٠ب، ٧١ أ، ٧٧ب، ٧٨ب، ٧٩ب، ١١٤أ، ١١٩ب، ١٣٥.

(٧) انظر: أ، :٢ب، ٨٦ب، ١٣٦أ.

(٨) انظر: أ، الورقة: ٤٩ب، ٦٧ أ، ٦٨أ.

(٩) انظر: أ، الورقة: ٢ب وانظر النسخة ب، الورقة: ٥٤ أ، ٥٥ب، ٥٦ أ، ٥٧ أ، ٦٦ أ، ٦٨ ب، ٧١ب، ٧٤ أ، ٧٨ أ، ٨٣ ب، ٨٤ أ، ٨٦ أ، ٨٦ ب، ٨٨ أ، ٩٠ ب، ٩٤ أ، ٩٧ أ، ٩٩ أ، ١٠٦ ب، ١١٤ ب، ١٢١ أ، ١٢٣أ، ١٢٦ ب، ١٢٩ أ، ١٣١ أ، ١٣٢ ب، ١٣٤ ب، ١٣٦ ب، ١٣٧ أ، ١٤١ أ.

(١٠) انظر: أ، الورقة: ٣١ أ، ١٧٤ أ، ٢٠٣ أ وانظر النسخة ب، الورقة: ١٢ ب.

(١١) انظر النسخة أ، الورقة: ٤٩ب، ٦٩ ب وفيها قال: «روى والدي في كتابه نزهة

ابن خلكان[١٢].
ابن الجوزي[١٣].
ابن الخازن ويقصد به ابن السّاعي[١٤]، كما سنوضح ذلك.
صاحب التذكرة[١٥].
الخطيب[١٦].

هؤلاء هم الذين ذكرهم الغساني، وتراوح عدد مرات ذكرهم ما بين مرتين إلى أربع وثلاثين مرّة. غير أنه نسب أقوالاً إلى آخرين وذكرهم مرة واحدة فقط وهم:

الموفق عبد اللطيف[١٧] وابن عساكر[١٨] وصاحب السّنة[١٩] والسمعاني[٢٠] وابن ابي الفوارس[٢١] وأبو حامد الاسفراييني[٢٢]

الابصار». والنسخة ب، الورقة: ٥ب، ٨أ، ٤٣أ، ٦٣ب، ٦٦أ، ١٣٣ب، ١٣٨أ.

(١٢) انظر النسخة: أ، الورقة: ١٩٠ب. والنسخة: ب، الورقة: ٢أ، ٣٢ب ٤٤أ، ٥٣أ، ٨٤أ.

(١٣) انظر النسخة ب، الورقة: ٢أ، ٣أ، ١٤أ، ٢٥أ، ٣٠أ، ٣٦أ ٣٦ب، ٥٠ب، ٧٩أ، ٩٤أ.

(١٤) النسخة ب، الورقة: ١٤٨ب، ١٥٤ب، ١٥٧أ، ١٦٣ب، ١٦٤ب، ١٦٩أ، ١٦٩ب، ١٧٠أ، ١٧٣أ، ١٧٨أ، ١٧٨ب، ١٧٩أ، ١٧٩ب، ١٨١أ، ١٨١ب، ١٨٢ب، ١٨٣ب.

(١٥) النسخة ب، الورقة: ١٤أ، ٢٣ب، ٢٨ب، ٣٥أ، ٣٦ب.

(١٦) ب، الورقة: ٢٣أ، ٣١أ.

(١٧) ب، الورقة: ١٠٦أ.

(١٨) ب، الورقة: ٦٨أ.

(١٩) ب، الورقة: ١٧ب.

(٢٠) ب، الورقة: ٦١ب.

(٢١) ب، الورقة: ١١أ.

(٢٢) ب، الورقة: ١١أ.

والثعالبي [٢٣] والحافظ ابو عبد الله البغدادي [٢٤] والعماد الكاتب وكتابه البرق الشامي[٢٥] والازرقي وكتابه تاريخ مكة[٢٦].

وهنا قد يثار السؤال، ترى هل أنه اعتمد على ما كتبه هؤلاء مباشرة أم أنه اعتمد على كتابات قسم منهم كانوا قد اعتمدوا على القسم الآخر؟..

الواقع اننا لا ندري على وجه التحديد. لكن نتيجة لدراستنا للعسْجد نرجح ان الذين ذكرهم مرة واحدة أو مرتين لم يعتمد على كتاباتهم أو مؤلفاتهم مباشرة، وانما تابع في ذكرهم الذين اعتمد على كتاباتهم بصورة مباشرة. والدليل على ذلك هو استعماله عبارات معينة توحي بأنه لم يعتمد على قسمٍ من الذين ذكرناهم اعلاه مباشرة ولم ينقل عن كتاباتهم. فهو يقول مثلاً «هذه رواية والدي عن الشريف إدريس عن مشايخه رحمة الله عليهم أجمعين»[٢٧]أو كقوله: «ذكر ذلك مولانا الوالد في كتابه نزهة العيون عن مشايخه»[٢٨] أو كقوله: «حكي في نزهة العيون عن السمعاني»[٢٩] أو كقوله: «ذكره ابن الأثير عن ابن الجوزي»[٣٠]. وبعد التمحيص والتدقيق لاحظنا ان العسْجد المسبوك عندما ذكر الموفَّق عبد اللطيف البغدادي[٣١] (ت٦٢٩) لم ينقل عنه مباشرة وانما تابع ابن السَّاعي[٣٢]في نقله عن كتاب

---

(٢٣) ب، الورقة ١٥ب.

(٢٤) ب، الورقة ١٧٥أ.

(٢٥) ب، الورقة: ٩٥ب.

(٢٦) النسخة أ، الورقة: ١٦٥.

(٢٧) أ، الورقة: ٤٩ب.

(٢٨) انظر: أ، الورقة: ٤٣أ.

(٢٩) أ، الورقة: ٦٦أ.

(٣٠) أ، الورقة: ٨٦ب.

(٣١) حيث أشار إليه مرة واحدة عندما ذكر الغلاء الشديد بمصر سنة ٥٩٧، النسخة أ، الورقة: ١٠٦أ.

(٣٢) انظر: ابن الساعي الجامع المختصر، ج٩ ص٤٧. وانظر: ص١٠٨ حاشية (٣) من نص هذا الكتاب.

الإفادة والإعتبار في أخبار الديار المصرية للبغدادي. ولو أنه كان قد اعتمد عليه مباشرة لأشار مرة أخرى على الأقل. ثم لماذا هذا الاتفاق في النقل بينه وبين ابن السَّاعي؟ ولماذا وردت العبارات حرفياً؟ ومثل هذا يمكن ان يقال بالنسبة للعماد الكاتب وكتابه البرق الشامي الذي تابع مؤلفنا(٣٣)ابن الاثير في الاعتماد عليه.

وهنا نود أن نعيد إلى الأذهان ما سبق(٣٤)ان ذكرناه من ان كتاب نزهة العيون، وهو أحدْ مصادر العسْجد، اعتمد على كتب عديدة ودوِّنت على صفحة العنوان في النسخة المخطوطة (رقم ٣٥١ تاريخ) التي رأيناها في دار الكتب المصرية. وقال مؤلفه في المقدمة: «وجمعناه من نيف وثلاثين كتاباً»(٣٥)، وكان من بين هذه الكتب مرآة الزمان لابن الجوزي (ت٩٥٧) ومروج الذَّهب والتنبيه والاشراف للمسعودي (ت٣٤٦) وتاريخ دمشق لابن عساكر (ت٥٧١) والأخبار الطوال للدينوري (ت٢٨٢) والكامل لابن الاثير (ت٦٣٠) وتاريخ البلاذري (ت٢٧٩) وتاريخ الأطباء(٣٦)لابن ابي اصيبعة (ت٦٦٨) وكتاب الجمهرة في الأنساب وكتاب تاريخ اليمن وكتاب سيرة ملوك العجم وكتاب تجارب الامم وكتاب تهذيب الكمال وكتاب تاريخ بني أيوب وكتب اخرى لا يتسع المجال لذكرها(٣٧).

هذا ولما كان مؤلفنا قد اعتمد على كتاب والده نزهة العيون كما أشار هو إلى ذلك مرات عديدة وكما بيَّنا سلفاً، فلا يستبعد ان اعتماده على

---

(٣٣) النسخةأ، الورقة: ٩٥ب أو ص٤٣ من النص. وانظر: ابن الاثير: الكامل ج٩ ص٢١٠.

(٣٤) انظر: الدراسة الموجزة التي قدمناها عن مؤلفات الملك الافضل عباس والد الملك الاشرف. في العسجد المسبوك، ج١ ص٦١.

(٣٥) انظر: الافضل عبَّاس بن رسول، نزهة العيون، المصدر السابق، الورقة: ٥٨ب.

(٣٦) ربما كان يقصد كتاب عيون الانباء في طبقات الاطباء.

(٣٧) انظر: نزهة العيون، صفحة العنوان، إن شئت.

بعض الذين ذكرهم ليس مباشراً وانما تابع فيه كتاب نزهة العيون، أو غيره من المصادر.

ثم ان ظاهرة نقل اللاحقين عمن سبقهم تكاد تكون مألوفة في التاريخ الاسلامي، غير انه هناك من ينقل حرفياً، وهناك من يظهر ذاتيته بما يضيفه من تعليقات واستدراكات وفوائد قائمة على اساس الاستنتاج. والمؤرخون في ذلك بَيَنْ بيْن تبعاً لتعليمهم وقابلياتهم واطلاعهم وما إلى ذلك من امور معروفة. وعلى هذا الاساس فاننا نستطيع القول ان كل الذين اشار اليهم مؤلفنا تعتبر مؤلفاتهم او احاديثهم مصادر للعسْجد المسبوك. لكن السؤال يبقى قائماً حول المصادر التي اعتمد عليها بشكل مباشر!. والذي نراه هنا ان المصدر قد يكون مباشراً للعسجد المسبوك إذا أخذنا عدة امور بنظر الاعتبار منها:

١ - مقارنة النصوص بين العسْجد المسبوك وبين المصادر التي تحدثت عن المدد التاريخية التي تناولها العسْجد بالبحث للتأكد منها وتثبيت أوجه الشبه والخلاف.

٢ - كثرة اشارات العسجد المسبوك إلى مصدر من المصادر. فالمرجَّح انه عندما يكثر الاشارة إلى مصدر ما فانه قد يكون اعتماده عليه مباشراً.

٣ - ذكر اسم الكتاب إلى جانب اسم المؤلف.

وفي ضوء ما تقدم، ومن دراستنا للنصوص والتراجم ومقارنتها، يمكن القول ان الذين اعتمد عليهم المؤلف بصورة مباشرة هم:

١ - ابو جعفر الطبري.
٢ - ابن الجوزي.
٣ - ابن الاثير.
٤ - ابن السّاعي.
٥ - ابن خلكان.

٦ - الشريف إدريس.
٧ - الأفضل عبّاس بن رسول.
٨ - صاحب التذكرة.

ولعل من المفيد أن نوضح العلاقة بين بعض ما كتبه هؤلاء وبين ما ورد في العسجد المسبوك من حوادث وتراجم.

١ - ابو جعفر الطبري[٣٨]: **(٢٢٤-٣١٠)**: هو ابو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري وقيل يزيد بن كثير بن غالب المؤرخ والمفسِّر، كان اماما في فنون كثيرة منها التفسير والحديث والفقة والتاريخ... وكان ثقة في نقله وتاريخه من أصح التواريخ وأثبتها ولد بآمل طبرستان واستوطن بغداد وتوفي بها عرض عليه القضاء فامتنع والمظالم فأبى ومن مصنفاته:

١ - تاريخ الامم والملوك. ويعرف بتاريخ الطبري.
٢ - جامع البيان في تفسير القرآن. ويعرف بتفسير الطبري.
٣ - إختلاف الفقهاء.
٤ - المسترشد في علوم الدين.
٥ - والقراءات.

وغير ذلك. أما علاقة العسْجد بمؤلفات الطبري فتنحصر هذه العلاقة في كتابه «تاريخ الامم والملوك» الذي اطلق عليه مؤلفنا اسم

(٣٨) انظر ترجمته في: ياقوت، ارشاد الاريب، ج٦ ص٢٣-٤٢٥. ابن خلكان الوفيات، ج٣ ص٣٣٢. السبكي، الطبقات، ج٢ ص١٣٥-١٤٠. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١١ ص١٤٥-١٤٧. ابن الجزري، غاية النهاية، ج٦ ص١٠٦-١٠٧. طاش كبرى زاده، مفتاح السعادة، ج١ ص٢٥٢ وج٢ ص٨٠. كشف الظنون، ص٤٣٧. وغيرهم كثيرون.

تاريخ[٣٩] الطبري وهو من الكتب الكبيرة، بدأ بالخليقة وانتهى بذكر حوادث سنة ٣٠٢هـ. ثم ذيَّل عليه عريب بن سعيد القرطبي (ت٣٦٦) بكتاب صلة تاريخ الطبري من سنة (٢٩١-٣٢٠). والذي لاحظناه من مقارنة بعض النصوص ان مؤلفنا اعتمد عليه في ذكر مقدمة كتابه (عن رسول الله (ص) حتى سنة ١٢٦هـ[٤٠]. وقد اختصر مؤلفنا كعادته بعض الحوادث كما أنه حذف السند الذي اعتاد ان يذكره الطبري واكتفى بالقول: «روى أبو جعفر الطبري»[٤١] وقال احياناً «قال الطبري»[٤٢]. ومن مقارنة بعض الحوادث تبين انها اكثر تفصيلاً عند الطبري، ثم ان بعض الاخبار تتكرر في الطبري عند حصول اختلاف في روايتها لكن العسْجد يكتفي بالإشارة إلى الاختلاف إشارة عابرة.

٢ - ابن الجوزي[٤٣]: (٥١٠-٥٩٧)

هو ابو الفرج عبد الرحمن بن محمد بن علي بن عبد الله بن الجوزي الحنبلي بلغت عدة مصنفاته مائتين ونيف وخمسين مصنفاً[٤٤] و«كتبه اكثر من ان تعد»[٤٥] ولقد احال مؤلفنا إلى ابن الجوزي وكتابه المنتظم في تاريخ الامم والملوك مرات عديدة[٤٦]. ولاحظنا انه اعتمد عليه احياناً بصورة غير

---

(٣٩) انظر: أالورقة: ١٣٦.

(٤٠) أ، الورقة: ٢ب، ٧٠ب، ٧٩ب، ٨٦ب، ١٣٦أ.

(٤١) أ، الورقة: ٨٦ب.

(٤٢) أ، الورقة: ١٣٦أ.

(٤٣) انظر ترجمته في:
ابن الاثير، الكامل، ج١٩ ص٢٥٥. سبط بن الجوزي، مرأة الزمان، ج٨ ق٢ ص٤٨١. ابي شامة، الروضتين، ج٢، ص٢٤٥. ابن الشّاعي، الجامع المختصر، ج٩، ص٦٦ بتفصيل. أبي الفداء، المختصر، ج٣، ص١٠٦. الذهبي، دول الاسلام، ج٢ ص٨٩. وغيرهم.

(٤٤) مرآة الزمان، ج٨ ق٢، ص٤٨١.

(٤٥) طاش كبرى زاده، مفتاح السعادة، ج١ ص٢٥٤.

(٤٦) انظر النسخة ب، الورقة:
٢أ، ٣أ، ١٤أ، ٢٥أ، ٣٠أ، ٣٦أ، ٣٦ب، ٥٠ب، ٧٩أ، ٩٤أ.

مباشرة كقوله مثلاً: «ذكره ابن الاثير عن ابن الجوزي»[٤٧] كما وردت اشارة اخرى تثير الانتباه وهي قوله: «ذكر ابن خلكان في تاريخه عن ابن الجوزي في شذور العقود»[٤٨]. ولقد وردت الاشارة إلى هذا الكتاب مرة واحدة فقط والراجح انه مختصر كتاب المنتظم[٤٩] المذكور. وتكررت احالته إلى ابن الجوزي حتى سنة ٨٥٣[٥٠].

ولدى مقارنتنا العسجد بالمنتظم وجدنا ان هناك تشابهاً في بعض الحوادث التي أوردها كل من الكتابين[٥١] في سنة ٣٣٤ وسنة ٤٧٦[٥٢] وسنة ٤٩٥[٥٣] وسنة ٥١١ وسنة ٥١٢[٥٤] وسنة ٥١٣[٥٥] وسنة ٥٢٤[٥٦] وسنة ٥٢٥ وسنة ٥٢٨[٥٧]. وهذه مجرد أمثلة ولابد من القول بأن الاختصار يبدو واضحاً على حوادث العسْجد المسبوك. وعلى سبيل المثال، ان العسْجد

(٤٧) ب، الورقة: ٨٦ب.

(٤٨) ب، الورقة: ٢أ.

(٤٩) ذكر عدد من المؤرخين كتاب «شذور العقود في تاريخ العهود» منهم: - الذهبي في تاريخ الاسلام وحاجي خليفة في كشف الظنون واسماعيل البغدادي في هديَّة العارفين كما ذكره السْخاوي موضّحاً انه مختصر المنتظم وذكره سبط بن الجوزي في مرآة الزمان قائلاً أنه في مجلد كما ذكره بروكلمان... منه نسخة مخطوطة في دار الكتب المصرية برقم ٩٩٤ تاريخ وهي مصوَّرة عن مخطوطة استانبول (وعنها نسخة مصورة في معهد المخطوطات العربية بالقاهرة تحت رقم ٣٩١). وانظر بهذا الصدد: عبد الحميد العلوجي، مؤلفات ابن الجوزي، بغداد، ١٣٨٥/١٩٦٥، ص١١٣ وفؤاد سيد، فهرست المخطوطات المصوَّرة، ج٢ ق٢ ص٩٠.

(٥٠) ب، الورقة: ٩٤أ.

(٥١) انظر مثلاً العسْجد المسبوك النسخة ب، الورقة: ٢أ. والمنتظم، ج٦ ص٣٤١ ثم العسجد المسبوك، النسخة ب، الورقة: ٢ ب. والمنتظم، ج٦ ص٣٤٤.

(٥٢) في المنتظم، ج٩ ص٧.

(٥٣) في المنتظم، ج٩ ص١٣٢.

(٥٤) في المنتظم، ج٩ ص١٩٣-١٩٧.

(٥٥) في المنتظم، ج٩ ص٢٠٤-٢١٦.

(٥٦) في المنتظم، ج١٠ ص١٤.

(٥٧) المنتظم، ج١٠ ص٣٤.

المسبوك لم يذكر سوى حادثة أو ترجمة واحدة في السنوات ٣٣٦ و٣٣٧ و٣٣٨ بينما لاحظنا ان حوادث وتراجم هذه السنوات وردت مفصلة نسبياً في المنتظم[٥٨]. وهذا ينطبق على السنوات من ٣٤١ حتى سنة ٣٥٩ ومن سنة ٤٤٤ حتى سنة ٤٤٧ حيث اختصر مؤلفنا حوادث كثيرة كما أنه لا يذكر معظمها[٥٩].

يضاف إلى ذلك فان العسْجد المسبوك أورد حوادث مختلفة أحياناً عن ما أورده المنتظم كما انه يورد احياناً حوادث وأبيات من الشعر لا يوردها المنتظم[٦٠] ووجدنا ان حوادث سنة ٣٦١ في العسجد المسبوك ذكرت في المنتظم ضمن حوادث سنة ٣٦٢.

اما التراجم فلقد وجدنا فيها اختلافاً[٦١] في كلا الكتابين، فأورد العسجد تراجم في سنة ٤٠١ لم نجدها في المنتظم[٦٢]. وتختلف التراجم من حيث عددها في كل سنة ومن حيث مادتها، وحينما تعرّض المنتظم[٦٣] مثلاً لذكر ترجمة الامام الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ أوضح مؤلفه انه أحصى الاغلاط على الامام الغزالي في كتاب سماه «إعلام الأحياء بأغلاط الإحياء» لكن العسْجد المسبوك لم يورد شيئاً من هذا القبيل. ومن أوجه الخلاف التي لاحظناها مثلاً ان المنتظم جعل وفاة عبد الرزاق الصوفي الغزنوي سنة ٤٩٣[٦٤] في حين جعلها العسجد في سنة ٤٩٢[٦٥]. وعندما ترجم المنتظم لعزيزي بن عبد الملك بن منصور الجيلي الملقّب شيذله والمتوفى سنة ٤٩٤

---

(٥٨) انظر: المنتظم، ج٦ ص ٣٤٩-٣٦٧.

(٥٩) انظر: المنتظم، ج٦ ص٣٧٠-٣٩٨ وج٧ ص٢-٥٣.

(٦٠) انظر: مثلاً حوادث سنة ٣٣٩. وسنة ٣٦٦ وسنة ٣٦٨. وسنة ٤٧٨ وسنة ٥٦١، وسنة ٥٦٢ وسنة ٥٦٣. (في كلا الكتابين).

(٦١) انظر: حوادث وتراجم سنة ٤٩٥ وسنة ٥٠٧ وسنة ٥٠٩.

(٦٢) المنتظم ج٧ ص٢٤٨. والنسخة ب، الورقة: ١٧أ.

(٦٣) المنتظم، ج٩ ص١٦٩-١٧٠.

(٦٤) انظر المنتظم، ج٩ ص١١٦.

(٦٥) ب، الورقة: ٤١ب.

قال عنه «وكانت فيه حدَّة وبذاءة لسان وسرَّ أهل باب **الازج** بوفاته»(٦٦) بينما قال عنه صاحب العسجد «وكان زاهداً متعففاً وهو الذي صنَّف مصارع العشَّاق»(٦٧). وأورد العسْجد تراجم في سنة **٥٢٤هـ**(٦٨) لم نجدها في المنتظم.
من كل ما تقدم نستطيع القول:

١ - ان هناك تشابهاً بين الكتابين.
٢ - ان حوادث العسجد في المدة التي قارناها بالمنتظم موجزة نسبياً.
٣ - وردت في العسجد تراجم اشخاص لم ترد في المنتظم.
٤ - ان هناك اختلافاً في التراجم التي أوردها كل منهما رغم وجود التشابه احياناً.

٣ - ابن الاثير(٦٩) (٥٥٥-٦٣٠)

هو ابو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الاثير الجزري الملقَّب عز الدين. كان عالماً في السير وفنون الآداب والتواريخ ولقد أثنى عليه مترجموه وعدُّوه إماماً في التاريخ والحديث، وكان بيته مثابة للطلبة، أما مؤلفاته فهي:

١ - اللباب في تهذيب الأنساب.
٢ - أُسْد الغابة في معرفة الصحابة.
٣ - التاريخ الباهر في الدولة الاتّابكية (بالموصل).
٤ - الكامل في التاريخ.

---

(٦٦) المنتظم، ج٩ ص١٢٦.
(٦٧) النسخة ب، الورقة: ٤٢أ.
(٦٨) النسخة ب، ٥٠ب. وانظر المنتظم، ج١٠ ص١٤.
(٦٩) انظر: ترجمته في: ابن خلكان، الوفيات، ج٣، ص٣٣. الحوادث الجامعة، ص٨٨ وقد غلط عندما ذكر مؤلفه وفاته في حوادث سنة ٦٣٣ ولم ينبِّه المحقق إلى ذلك. أبي الفداء، المختصر، ج٣، ص١٦١. الذهبي، دول الاسلام، ج٢ ص١٠٢. وغيرهم.

والكتاب الاخير من كتب التاريخ العامة وعن طريقه نال ابن الاثير شهرته كمؤرخ كبير. ابتدأ هذا الكتاب «من اول الزمان» إلى سنة ٦٢٨.

لقد أكثر(٧٠) مؤلفنا النقل عن ابن الاثير وخاصة من كتابه الكامل.

ولكي نبرز نوع العلاقة بين الكتابين نقول: اعتبرنا الكامل بمثابة نسخة ثانية للعسْجد لغرض المقابلة والتوثُق من الحوادث في القسم الذي حققناه من العسْجد حتى سنة ٦٢٨ ولذلك سيلاحظ القارىء مواضع الاختلاف والتشابه بينهما وبعض الإضافات الضرورية التي أخذناها عن الكامل.*

إن أسلوب العسْجد المسبوك في ذكر الحوادث يشابه أسلوب ابن الاثير. كما أن مادة الحوادث تتشابه في كثير من الاحيان ونذكر على سبيل المثال حوادث سنة ٥٣٦ حتى سنة ٥٤٣(٧١). يضاف إلى ذلك فلقد تأييد لنا نقل مؤلفنا عن الكامل بكثرة أخباره عن منطقة الجزيرة التي عاش فيها ابن الاثير، واستعماله مصطلحات دأب ابن الاثير على استعمالها في كامله. فعندما بدأ العسجد بذكر حوادث سنة ٥٧٤ قال فيها: «**انقطعت الامطار بالكُليَّة** في سائر البلاد فاشتدَّ الغلاء فبيعت الغرارة(٧٢) الحنطة بدمشق **وهي** أربعة عشر مَكُوكاً **بالموصلي** بعشرين ديناراً صورية عتق وكان السِّعر **بالموصل لكل ثلاثة مكاكي** بدينار أميري وفي سائر البلاد ما يناسب

---

(٧٠) انظر: ب، الورقة:
٥٤أ، ٥٥ب، ٥٦أ، ٥٦ب، ٥٧أ، ٦٦أ، ٦٨ب، ٧١ب، ٧٤أ، و١٧٨أ، ٨٣ب، ٨٤أ، ٨٨أ، ٩٠ب، ٩٤أ، ٩٧أ، ٩٩أ، ١٠٦ب، ١١٤ب، ١٢١أ، ١٢٣أ، ١٢٦ب، ١٢٩أ، ١٣١أ، ١٣٢ب، ١٣٤ب، ١٣٦ب، ١٣٧أ، ١٤١أ.

(*) طبع كتاب العسجد المسبوك بتحقيقنا في بيروت/ ١٩٧٥. ويضم حوادث وتراجم من سنة ٥٧٥هـ إلى ٦٥٦هـ.

(٧١) في الكامل، ج٩ ص٢-٢٣. والعسجد المسبوك النسخة ب، الورقة: ٥٩-٦٤أ.

(٧٢) بالأصل: الغرار بالحنطة. انظر: النسخة ب، الورقة، ٨٩ب، وما اثبتناه عن الكامل، ج٩ ص١٤٥.

ذلك... الخ»[٧٣] ان تأكيده على مكاييل واسعار الموصل دليل بارز على انه نقل عن ابن الاثير فضلاً عن التشابه الكبير في ايرادهما للنص[٧٤]. ويطول الحديث لو حاولنا الاستطراد في ذكر الامثلة من هذا النوع، ولذلك نوجّه العناية إلى تعليقاتنا على القسم الذي حققناه فان فيه أدلة كثيرة تؤيد ما ذهبنا إليه. وقد أوضحنا فيما سبق ان مؤلف العسْجد تابع مؤلف الكامل في الاعتماد على كتاب البرق الشامي للعماد الكاتب[٧٥]. وعندما ذكر ابن الاثير «ملك خوارزمشاه علاء الدين كرمان ومكران والسند» في سنة ٦١١ قال: «لا أعلم الحقيقة أي سنة كانت انما هي اما هذه السنة أو قبلها بقليل أو بعدها بقليل...»[٧٦]فتابعه مؤلف العسجد في قوله المذكور آنفاً[٧٧].

وعلى العموم فان مقارنتنا للحوادث في كلا الكتابين أظهرت أن حوادث العسجد وردت مختصرة بالنسبةلحوادث الكامل، بل لقد اهمل العسجد ذكر بعض الحوادث والاخبار التي وردت في الكامل[٧٨]. ولقد درج ابن الاثير على ذكر حوادث كل سنة بالتفصيل، وبعد ان يذكر الحوادث التي تصورها مهمة يقوم بذكر «عدة حوادث». ويلوح لنا من خلال المقارنة بين الكتابين ان العسْجد في حوادث بعض السنوات اقتصر على ذكر هذه الحوادث التي جعلها ابن الاثير في نهاية الحوادث المهمة في كل سنة والتي وضع لها عنواناً صغيراً فسماها «ذكر عدة حوادث».

والذي يلاحظ على العسْجد المسبوك انه رغم اعتماده على الكامل

---

(٧٣) انظر: النسخة، ب، الورقة: ٨٩ب.

(٧٤) انظر: الكامل، ج٩ ص١٤٥.

(٧٥) انظر: الكامل، ج٩ ص٢١٠. والعسجد المسبوك النسخة ب، الورقة: ٩٥ب

(٧٦) انظر: الكامل، ج٩ ص٣٠٨.

(٧٧) انظر: العسجد المسبوك، النسخة ب، الورقة: ١٢٣أ.

(٧٨) انظر: حوادث كلا الكتابين في السنوات التالية: ٥٧٨، ٥٧٩، ٥٨٠، ٥٨١، ٥٨٢، ٥٨٤، ٥٨٥، ٥٨٦، ٥٨٧، ٥٨٨، ٥٩١، ٥٩٣، ٥٩٥، ٥٩٧، ٦١٤.

ورغم اشاراته الكثيرة إلى ذلك، فانه قصر ترجمة ابن الاثير المتوفى سنة ٦٣٠ على ذكر اسمه فقط وقال عنه «صاحب التاريخ المذكور»[٧٩].

وحاول مؤلفنا ان يقدم بعض العبارات ويؤخِّر بعضها ولعله اراد أن لا يظهر نقله في بعض المواضع، كما انه استبدل الآيات القرآنية بآيات قرآنية أخرى مناسبة لما هو بصدده من حوادث واخبار. وعلى سبيل المثال عندما ذكر استيلاء[٨٠] الكرج على حصن قرس من اعمال خلاط تابع ابن الاثير في ذكر الحادثة إلى أن قال ابن الاثير[٨١] «فانا لله وانا إليه راجعون» فاستبدل لها مؤلفنا بقوله «فحسبنا الله ونعم الوكيل».

ورغم ما اشرنا إليه من وجود تشابه في حوادث الكتابين فقد لاحظنا وجود بعض الاختلاف. وهذا ينطبق على وقائع التتر مع المسلمين التي بدأت سنة ٦١٧. فلقد قدّم مؤلفنا بعض الحوادث وأخرَّ بعضها مخالفاً ترتيب ابن الاثير للحوادث ووضعها كما يرتأي. ثم أن حرب خوارزمشاه مع الخطا وذكر الوقعة التي أفنتهم وردت في الكامل ضمن حوادث سنة ٦٠٤[٨٢] بينما وردت في العسْجد المسبوك في حوادث سنة ٦٠٦[٨٣].

واختلف مؤلف العسْجد أحياناً مع ابن الاثير فثبت هذا الإختلاف وأشار إلى ما كان يراه صواباً. وعن المدة التي حكم فيها الفاطميون في مصر قال مؤلف العسْجد: «قال ابن الاثير وكان مدة ما ملكوا من السنين مائتين واثنتين وتسعين سنة تقريباً وقال ابن خلكان كانت مدة دولتهم مائتي سنة وستاً وستين سنة، قال الاشرف أبو العبّاس إسماعيل بن العبّاس...

---

(٧٩) النسخة ب، الورقة: ١٤٨ب.

(٨٠) انظر النسخة ب، الورقة: ١١٦أ.

(٨١) الكامل، ج٩ ص٢٨٩.

(٨٢) انظر الكامل، ج٩ ص٢٩٤-٢٩٥.

(٨٣) انظر: النسخة ب، الورقة: ١١٩-١٢٠.

والصواب ان مدة ما ملكوا من السنين مائتي سنة وسبعين سنة إلّا سبعين يوماً والله أعلم»[٨٤].

وثمة فارق آخر لاحظناه بين الكامل والعسْجد، وهو ان كتاب العسْجد ينقسم إلى أقسام ثم إلى أبواب ثم إلى فصول وفي نهاية كل فصل تخص حياة الخليفة المعني وذكر الموظفين في زمنه من وزراء وقضاة وحجّاب وغير ذلك كما ذكر المدة التي استمر فيها كل منهم في وظيفته[٨٥]. ويشير خلال ذلك إلى من تسمى باسم الخليفة الذي تكون ترجمته موضوع البحث. وهذه أمور لم نلاحظها وبهذا الشكل في الكامل.

اما التراجم، فلقد ترجم العسْجد المسبوك لاشخاص لم نجدهم[٨٦] في الكامل ولقد نبّهنا إلى ذلك في القسم الذي حققناه. وعندما يختلف مؤلف العسجد مع ابن الاثير في تاريخ وفاة شخص ما كما حدث مثلاً في ترجمة ابي منصور فخر الدين عبد الرحمن بن عساكر (ت٦٢٠) نراه يبين هذا الاختلاف[٨٧]. **وعندما** ترجم ابن الاثير لاخيه ابي السّعادات المبارك (ت٦٠٦) ذكر جانباً من صفاته وقال «ولعلّ من يقف على ما ذكرته يتهمني في قولي ومن عرفه من أهل عصرنا يعلم اني مقصر»[٨٨]. أما في العسجد فبعد أن ذكر المؤلف صفاته وسيرته العلمية قال «وكان من اشد الناس بخلاً»[٨٩]. **وقد** ترجم كل من الكتابين للملك الظاهر غازي (ت٦١٣) فوجدنا تشابهاً في بداية الترجمة ثم بدأ الاختلاف ظاهراً في الجزء الاخير منها

(٨٤) النسخة ب، الورقة: ٨٣ب-٨٤أ.

(٨٥) انظر مثلاً النسخة ب، الورقة: ١٣٧-١٣٨ «الخاصة بموظفي الناصر لدين الله». والورقة: ١٤٠.

(٨٦) انظر: ب، الورقة: ١٢٤ب، ١٢٥ب، ١٣١أ، ١٣١ب، ١٣٤ب، ١٣٥أ، ١٤٤.

(٨٧) انظر: ب، الورقة: ١٣٤ب-١٣٥أ. ثم انظر الورقة: ١٢١ب.

(٨٨) انظر: الكامل، ج٩ ص٣٠٢.

(٨٩) انظر: العسجد المسبوك، ج٢ ص٣٣٢.

وقد نبهنا إلى ذلك في موضعه[٩٠]. واخيراً يمكن ان نوضح العلاقة بين العسجد والكامل بالنقاط التالية:

١ - ان مؤلف العسجد نقل عن الكامل دون ادنى شك.

٢ - ان الحوادث في كلا الكتابين تكاد تكون متشابهة حتى سنة ٦٢٨.

٣ - حوادث العسجد يميزها طابع الاختصار بالنسبة لحوادث الكامل.

٤ - ان بعض الحوادث التي وردت في الكامل لم ترد في العسجد.

٥ - هناك بعض الاختلاف بين الكتابين ويرجع هذا الاختلاف فيما نرجح إلى ان مؤلف العسجد اعتمد مصادر عديدة.

٦ - وردت تراجم في العسجد لم ترد في الكامل. كما ان بعض التراجم التي وردت في كلا الكتابين فيها اختلاف من حيث مادتها.

٤ - إبن السَّاعي[٩١]: (٥٩٣-٦٧٤)

هو علي بن أنجب بن عثمان بن عبد الله بن عبيد الله بن عبد الرحيم البغدادي أبو طالب، المعروف بابن الساعي الخازن الشافعي المذهب. كان حافظاً مبرزاً وفقيهاً بارعاً ومحدثاً وشاعراً ومؤرّخاً كبيراً. صنّف كثيراً من الكتب في التفسير والحديث والفقه والتاريخ تلقّى تعليمه

(٩٠) انظر: العسجد المسبوك، ج٢/ص٣٥٣ فما بعد.

(٩١) انظر ترجمته في: الاربلي، خلاصة الذهب المسبوك، ص١٦٢، ص١٩١. وسماه علي بن الحسن. الحوادث الجامعة، ص٣٨٦. وفيه علي بن انجب بن عبد الله بن عمّار. الاسنوي، الطبقات، الورقة: ١٧٤أ، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣ ص٢٧٠. التقي الفاسي، تاريخ علماء بغداد المسمى المنتخب المختار، ص١٣٧-١٣٩. حاجي خليفة، كشف الظنون ج١ ص٢٧٨-٢٧٩. ابن العماد الشذرات، ج٥ ص٣٤٣. وغيرهم كثيرون نحجم عن ذكرهم خشية الاطالة.

على خيرة علماء عصره، وتخرج على يديه عدد من العلماء المشهورين[٩٢]. وكان خازن الكتب بالمدرسة المستنصرية.

اما مصنفاته فكثيرة جداً - فيما ذكر مترجموه - غير أنها تعد مفقودة في الوقت الحاضر باستثناء ثلاثة كتب هي الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السِيرَ ونساء الخلفاء. وينسب إليه بتحفظ كتاب أخبار الخلفاء الذي طبع بمصر منذ سنة ١٣٠٩هـ. اما بمصر مؤلفاته[٩٣]الاخرى فمنها: اخبار الأدباء واخبار الحلاّج واخبار الربط واخبار قضاة بغداد واخبار المصنفين واخبار الوزراء والاشارات الموفّقية في علماء الدولة البويهية والايناس في مناقب الخلفاء من بني العباس وبلغة الظرفاء إلى معرفة تواريخ الخلفاء وتاريخ الشهود والحكام ببغداد وتاريخ من ادركت خلافة ولدها والثمانية العالية وحسن الوفاء لمشاهير الخلفاء وذيل كامل التواريخ والروض الناضر في اخبار الامام الناصر وسيرة المستنصر وكتاب الزهّاد وقال الذين ترجموه (أن هذا الكتاب هو آخر ما الف أبن الساعي) ومشيخة ابن الساعي. والمعلم الاتابكي في التاريخ ومناقب الخلفاء الاربعة. ونزهة الابصار في معرفة نقباء الأسرة الاطهار[٩٤].

ولقد اعتمد مؤلف العسجد على ابن الساعي الذي سماه «ابن الخازن» والواقع ان الصواب هو «ابن الساعي الخازن» لانه كان - كما تقدم - خازن الكتب في المدرسة المستنصرية.

وقد يثار السؤال حول كيف عرفنا انه كان يستعمل ابن الخازن ويقصد به ابن السّاعي؟ فان لدينا أدلة كثيرة نذكر منها ما يلي:

---

(٩٢) انظر: شيوخه وتلامذته في: تاريخ علماء بغداد، ص١٣٧-١٣٩.

(٩٣) أنظر مؤلفاته في تاريخ علماء بغداد ص١٣٨-١٣٩. وكشف الظنون، ج١ ص٢٧٨-٢٧٩ تحت مادة تاريخ ابن السّاعي. وانظر: ج١ ص٢٩٦، وص٣٠٨.

(٩٤) ورد اسم الكتاب في العسْجد المسبوك في القسم الذي حققناه بشكل آخر حينما قال المؤلف: «قال ابن الخازن: وعرضت كتاباً ألفته وسميته نزهة الابصار في ختان السّادة الاطهار». انظر: العسْجد المسبوك، ج٢، ص٥٤٧. ولا ندري في الواقع هل انهما كتابين ام كتاب واحد طرأ على عنوانه تحريف أو تصحيف.

١ - ان لقب علي بن أنجب هو ابن السّاعي الخازن فلعله قال ابن الخازن من باب الاختصار.

٢ - لقد ذكر مؤلَفَين من مؤلفاته فقال: «حكى ابن الخازن في تذييله»[٩٥] ويقصد به ذيل تاريخ بغداد الذي سنذكره بعد قليل. ثم ذكر كتاباً آخر لابن السّاعي، فعندما تحدث عن ختان الامراء الصغار ابي العباس احمد وابي الفضائل عبد الرحمن ابن الامام المستعصم بالله في سنة ٦٤٤[٩٦]. وذكر الاحتفال بهذه المناسبة قال: «قال ابن الخازن وعرضت كتاباً الفته وسميته نزهة الابصار في ختان السّادة الاطهار»[٩٧] فذهبنا إلى المصادر نستوضحها الامر فوجدنا ان لأبن السّاعي كتاباً بهذا العنوان إلا أنه محرّف قليلاً وهو تحت عنوان «نزهة الابصار في معرفة نقباء الأسرة الاطهار». الذي ذكره حاجي خليفة كما ذكره هو في الجامع المختصر[٩٨].

ونحن إذ لا ندري هل أنهما كتابان أو كتاب واحد لانعدام وسائلنا وفقدان أغلب كتب ابن السّاعي يمكن القول بتحفظ ان الكتاب المذكور آنفاً هو من مؤلفات ابن السّاعي ولا يستبعد منه ذلك. كيف وقد اتحف الخليفة المستعصم بأشعاره وتهانيه في مناسبات عدة.

٣ - والاهم من كل ما تقدم هو تشابه نقول العسْجد مع نقول غيره من المؤرخين الذين اشاروا صراحة إلى أنهم نقلوا عن ابن الساعي، في الوقت الذي استعمل مؤلف العسْجد في اشارته «ابن الخازن» بدل «ابن السّاعي»، وهذه مسألة سنوضحها فيما بعد. وحسبنا ان نشير

(٩٥) انظر النسخة ب، الورقة: ١٥٧أ، ١٨٧ب.

(٩٦) انظر: النسخة ب، الورقة: ١٦٩أ-١٧٠أ.

(٩٧) انظر النسخة ب، الورقة ١٧٠أ.

(٩٨) انظر: ابن السّاعي، الجامع المختصر، ج٩ ص٧٩.

هنا إلى ان مؤلف العسجد ذكر تفاصيل عن المدرسة المستنصرية وتجهيزاتها لم نجدها في المصادر التي ارّخت للمدرسة المذكورة والتي هي بمتناول أيدينا، ألا أننا استطعنا العثور على بعضها في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق (مجلد ٤، ج١، دمشق ١٩٢٤ ص٤٠-٤٣). وهي منقولة عن تاريخ الصلاح الصفدي المرتّب على السنين[٩٩]، وهو من مخطوطات المكتبة الاحمدية في حلب. وعندما ذكر **الألوسي**[١٠٠]نفس التفاصيل المشار إليها، قال انه نقلها من تاريخ الصّفدي المرتّب على السنين ومن حوادث سنة ٦٣١، بالذات، **واوضح** ان الصفدي قال: «وهذه الشروط نقلتها من تاريخ ابن السّاعي»[١٠١]. ولقد وجدنا تشابهاً كبيراً بين العسْجد المسبوك والحوادث الجامعة في ترجمة الصلاح عبد الغني بن فاخر شيخ الفراشين المتوفى سنة ٦٤٨ وفي الوقت الذي نسب مؤلف العسْجد المسبوك الحديث لابن الخازن[١٠٢]نسبة صاحب الحوادث الجامعة إلى تاج الدين علي بن انجب المعروف بابن السّاعي[١٠٣]. كما ورد في العسْجد المسبوك ذكر الزلزلة التي حدثت في مدينة الرسول سنة ٦٥٤[١٠٤]التي وردت بالحرف الواحد تقريباً في البداية والنهاية

---

(٩٩) انظر بهذا الصدد العسجد المسبوك، ج٢ ص٤٨٥ وانظر ما دوناه في الحاشية رقم[٦].

(١٠٠) انظر: محمود شكري الالوسي، تاريخ مساجد بغداد وآثارها، مطبعة دار السلام، بغداد، ١٣٤٦، ص٨٧-٨٩.

(١٠١) انظر ن.م السابق ص٨٩.

(١٠٢) انظر النسخة ب، الورقة: ١٧٨ب.

(١٠٣) انظر الحوادث الجامعة، ص٢٥٢.

(١٠٤) انظر العسجد المسبوك، ج٢ ص٦١٩-٦٢٠. ومن هذا القبيل ورد خبر في العسجد المسبوك حول رجل وقف يستعطي فناوله رجل آخر ديناراً فتبين له انه كان قد ضاع منه قبل سنة في جملة ذهب وقد عرفه لانه كان بعجز حبة فرجع إليه ما كان قد فقده. وقد ذكر صاحب الحوادث الجامعة وابن كثير هذا الخبر ونسباه إلى ابن السّاعي انظر: الحوادث الجامعة، ص٢٦٨. والبداية والنهاية، ج١٣ ص١٨٤.

ونسب ابن كثير روايتها إلى ابن الساعي[١٠٥].

مما تقدم نستطيع القول ان ابن الخازن الذي اشار إليه مؤلف العسْجد المسبوك انما هو نفسه ابن السّاعي.

اشار مؤلفنا إلى نقوله عن «ابن الخازن» مرات عديدة[١٠٦] ولكنه كعادته لا يحدد مقدار هذه النقول ويكتفي بسرد الحوادث أو الاخبار ويقول «**هكذا قال** ابن الخازن» أو يبدأ بنسبة الحديث إليه ثم يذكر الحوادث بعد ذلك كقوله «قال ابن الخازن...» أو «ومن شعره ما رواه ابن الخازن...» أو كقوله «حكى ابن الخازن في تذييله».

والواقع انه بعد أن ذكر وفاة ابن الاثير سنة ٦٣٠ وفي نفس الورقة[١٠٧] بدأ يعتمد على «ابن الخازن» كمصدر لكتابه. واعتبار من الورقة ١٤٨ ب من النسخة (ب) حتى نهاية القطعة من العسْجد المسبوك في الورقة ١٩٦أ لم يذكر أي مصدر آخر سوى «ابن الخازن». ثم ان الحوادث والاخبار التي ذكرها بعد سنة ٦٣٠ حتى سنة ٦٥٦ تكاد تكون خاصّة بالدولة العبّاسية وخلفائها ومناسباتهم. إضافة إلى انها وردت مفصّلة بشكل لم نلاحظه في اقسام الكتاب الاخرى كما ان التراجم هي الاخرى جاءت بشكل اكثر تفصيلاً مما لاحظنا في تراجم السنوات التي سبقت هذه المدة، بل ان قسمًا منها لم نجده في كتب الطبقات أو الوفيات، مما يشير إلى أنها تراجم قد يكون ابن السّاعي قد انفرد في ايرادها. وتمتاز بانها اغزر مادة من تراجم الكتاب السابقة. فهل ان المؤلّف لم يختصرها؟ أم أن «ابن الخازن» استوفى البحث عنها؟ أم أن المؤلف اجتمعت له عدة مؤلفات إلى جانب مؤلفات ابن

---

(١٠٥) انظر: البداية والنهاية، ج١٣ ص١٨٧-١٩٣.

(١٠٦) انظر: النسخة ب، الورقة: ١٤٨ ب، ١٥٤ب، ١٥٧أ، ١٦٣ب، ١٦٤ب، ١٦٩أ، ١٦٩ب، ١٧٠أ، ١٧٣أ، ١٧٨أ، ١٧٨ب، ١٧٩ ب، ١٧٩أ، ١٨١أ، ١٨١ب، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٧ب.

(١٠٧) انظر: النسخة ب، الورقة: ١٤٨ب.

الخازن؟ والجواب هو: ان هذه امور كلها محتملة. ان المادة التي استقاها مؤلفنا من ابن السّاعي تعتبر ذات أهمية خاصة لان مؤلفات ابن السّاعي تعدمفقودة[108] كما بينا، وعندما ظهرت في النص بعض التعابير الغامضة أو المواضع البيضاء أو اسم بحاجة إلى ضبط أو نص تشريف أو كتاب صادر عن الخليفة[109]، لم نجد فيما تيسر لنا مصدراً نعول عليه لضبط هذه الامور. لذلك فان معلومات هذا القسم من الكتاب تعتبر أصيلة نسبياً.

غير ان مؤلفنا لم ينص على الكتاب الذي أخذ عنه من مؤلفات ابن السّاعي سوى مرتين حينما قال: «حكى ابن الخازن فيتذييله»[110]. ويبدو أن هذاالتذييل[111]اهتم بحوادث وأخبار وتراجم تتعلق ببغداد.

وقارنا بين الجامع المختصر وبين العسْجد المسبوك. وكما هو معروف فان كتاب الجامع المختصر ما هو في الواقع إلا الجزء التاسع من كتاب كبير يقع في نحو خمسة وعشرين مجلداً بلغ فيه مؤلفاته إلىسنة ٦٥٦[112]. أما الجزء التاسع المذكور فانه يتضمن حوادث من سنة ٥٩٥ حتى سنة ٦٠٦.

---

(١٠٨) انظر: خصباك، العراق في عهد المغول الايلخانين، المقدمة ص ز. ناجي معروف، حياة اقبال الشرابي، ص١٢-١٣.

(١٠٩) انظر النسخة ب، الورقة: ١٤٦-١٤٧.

(١١٠) انظر: ب، الورقة: ١٥٧أ، ١٨٧ب. كما انه ذكر عرضاً كتاب نزهة الابصار لابن الساعي، انظر الورقة: ١٦٩-١٧٠.

(١١١) هو «ذيل تاريخ بغداد» ذكره حاجي خليفة، كشف الظنون، ج١ ص٢٧٩. وهناك اختلاف بين الباحثين حول هذا الذيل فمنهم من ذهب إلى القول انه ذيل على تاريخ شيخه الحافظ ابي عبد الله محمد بن النجار. انظر: تاريخ علماء بغداد، ص١٣٨. وفي كشف الظنون، ج١ ص٢٨٨ عندما ذكر ذيل تاريخ بغداد لابن النجار المتوفى سنة ٦٤٣ قال عنه وهو ذيل عظيم يقال انه يتم في ثلاثين مجلداً ثم قال والذيل على ذيل ابن النجار لتقي الدين محمد بن رافع (ت٧٧٤) وهو في غاية الاتقان والذيل عليه أيضاً لابي بكر المارستاني والذيل على ذيل المارستاني لابن السّاعي.

(١١٢) انظر: جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، ج٣ ص٢١٤.

وتمخضت مقارنتنا للكتابين عن بعض الملاحظات أثبتناها في تعليقاتنا على النص الذي حققناه.

٥ - ابن خلكان[١١٣] (٦٠٨-٦٨١):

هو شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد المعروف بابن خلكان البرمكي الاربلي الشافعي قاضي قضاة دمشق وعالمها ومؤرخها. وكان ثقة في نقله، منفرداً في الادب والتاريخ صنّف تاريخاً سماه «وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان مما ثبت بالنقل والسمع أو أثبته العيان»[١١٤]. وقد اثنى مترجموه على هذا الكتاب ثناء كبيراً وبه نال ابن خلكان شهرة واسعة كمؤرخ[١١٥]. وبلغ من اهتمام المؤرّخين بهذا الكتاب ان ذيّلوا عليه اكثر من ستة ذيول[١١٦]. واختصر ثمان مرات[١١٧]. وترجم إلى الفارسية والتركية والانكليزية، وهو كتاب في التراجم كبير الفائدة.

أما علاقة العسْجد المسبوك بتاريخ ابن خلكان فتظهر في الاحالات العديدة[١١٨] التي وردت في العسجد المسبوك، والتي تجعلنا منساقين إلى القول

(١١٣) انظر: ترجمته في: السبكي، الطبقات، ج٥ ص١٤-١٥. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣ ص٣٠١. ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة، ج٧ ص٣٥٣-٣٥٤. طاش كبرى زاده، مفتاح السعادة، ج١ ص٢٥٦- ٢٥٧.

(١١٤) طبع هذا الكتاب مرات عديدة في باريس وكوتنجن ومصر ولقد عوّلنا عليه في تحقيق تراجم كثيرة.

(١١٥) أما بشأن مؤلفاته الاخرى فقال عنها العزاوي «ألّف ابن خلكان مصنفات عديدة لا مجال لتعدادها». انظر: عباس العزاوي، التعريف بالمؤرخين في عهد المغول والتركمان، بغداد، ١٣٧٦/١٩٥٧. ص٩٦. بينما قال جرجي زيدان «لم يخلف ابن خلكان غير هذا الكتاب (يعني الوفيات) لكنه يساوي مئات من الكتب وهو ذخيرة علم وأدب وتاريخ ولغة». انظر تاريخ آداب اللغة العربية، ج٣ ص١٧٢. وتأمل

(١١٦) انظر: العزاوي، التعريف بالمؤرخين، ص٩٩-١٠٠ وعندما ذكر حاجي خليفة «وفيات الاعيان» قال و «متعلقاته». انظر: كشف الظنون، ج١ ص٣٣٢.

(١١٧) كان من بينها مختصر الملك الافضل عبّاس بن رسول الذي ذكرناه ضمن مؤلفات الافضل المذكور.

(١١٨) انظر النسخةأ، الورقة: ١٩٠ب. والنسخة ب، الورقة: ٢أ، ٣٢ب، ٤٤أ، ٥٣أ، ٨٤أ.

باعتماد العسجد المسبوك عليه، وفقاً للمقاييس التي وضعناها فيما تقدم.

أما طريقة الاشارة إلى تاريخ ابن خلكان فقد وردت مختلفة، فهو تارة يقول «... وذكر ابن خلكان في تاريخه عن ابن الجوزي» وتارة يقول «قال ابن خلكان...» وتارة يقول «حكى ذلك القاضي احمد بن خلكان في كتابه».

ولاحظنا تكرار الاشارة إلى ابن خلكان من سنة ٢٠٥ حتى سنة ٥٦٧ فقط. والذي يبدو ان العسجد المسبوك اعتمد على تاريخ ابن خلكان في ذكر بعض التراجم. وكان يلجأ إلى الاشارة إليه حينما تتضمن الترجمة شيئاً من الغرابة وعلى سبيل المثال نذكر انه عندما ذكر خلافة المطيع في سنة ٣٣٤ قال: «وكان مدير ملكه معز الدولة احمد بن بويه إلى ان توفي في شهر ربيع الاول من سنة ست وخمسين وثلاثمائة... وذكر ابن خلكان في تاريخه عن ابن الجوزي في شذور العقود ان معز الدولة كان أول أمره يحمل الحطب على رأسه... الخ»[١١٩]. وقال ابن خلكان بهذا الصدد «وذكر أبو الفرج ابن الجوزي في كتاب شذور العقود ان معزّ الدولة المذكور كان أول أمره يحمل الحطب على رأسه... الخ»[١٢٠] وفي ترجمة ابي يحي تميم بن المعزّ بن باديس صاحب أفريقيا والمتوفى سنة ٥٠٠ قال مؤلف العسْجد «خلّف من البنين اكثر من مائة ومن البنات ستين»[١٢١]. وأحال إلى ابن خلكان وقد لاحظنا ان ما ورد في العسْجد المسبوك بهذا الصدد يوافق ما ورد في وفيات الاعيان[١٢٢].

ولا يعزب عن البال أن العسْجد المسبوك جمع بين الحوادث والوفيات في حين اهتم كتاب وفيات الأعيان بالوفيات وحسب، وان

---

(١١٩) انظر: ب، الورقة: ٢أ.

(١٢٠) انظر: ابن خلكان، وفيات الاعيان، ج١ ص١٥٨.

(١٢١) انظر: ب، الورقة: ٤٤أ.

(١٢٢) انظر: ج١ ص٢٧١-٢٧٢.

ما ذكره من حوادث وأخبار يعتبر شيئا ثانويا، ولذلك فقد كان طبيعيا أن يستوفي البحث عن التراجم. ولهذا السبب فان تراجمه جاءت أكثر تفصيلا مما وردت في العسْجد المسبوك. وثمة ملاحظة أخرى لاحظناها على الكتابين وهي أن وفيات الأعيان اهتم بتراجم الأشخاص من العلماء والكتّاب على الكتابين وهي أن وفيات الأعيان أهتم بتراجم الأشخاص من العلماء والكتّاب والفقهاء والشعراء والمحدّثين والقضاة والمبرزين بصورة عامة بينما لم ير مؤلف العسْجد المسبوك بأسا في أن يذكر تراجم لهؤلاء ولغيرهم من المغمورين أو الفرّاشين أو الخدم أو حتى أولئك الذين لا يعرفون القراءة والكتابة.

٦ - الشريف إدريس[١٢٣](ت ٧١٤):

هو الأمير عماد الدين أبو محمد إدريس بن علي عبد الله بن سلمان أمير القحمة وحج في زمن الدولة الرسولية. ولقد ذكرناه فيما تقدم. وحسبنا هنا أن نبين أهم مؤلفاته وعلاقته بالعسْجد المسبوك. قام الشريف ادريس بتلخيص كتاب الكامل لابن الأثير ثم أضاف اليه أخبار العراق ومصر والشام حتى سنة ٧١٣، وأخبار اليمن الى سنة ٧١٤، وأطلق على هذا الكتاب اسم «كنز الأخبار في معرفة السير والأخبار»[١٢٤]. اعتمد فيه على تاريخ الطبري وتاريخ المسعودي وتاريخ ابن الأثير.

---

(١٢٣) أنظر ترجمته في: الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ج١ ص٤١٠. يحي بن الحسين غاية الأماني، ق١ ص٤٩١. إدريس بن الحسن الأنف، نزهة الأفكار، الورقة: ١٥٨ب. جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، ج٣، ص٢٢٠. فؤاد سيد، فهرس المخطوطات المصورة، ج٢ ق٣ ص٢٤٦-٢٤٧.

(١٢٤) قال جرجي زيدان: منه - أي من كنز الأخبار - نسخة في المتحف البريطاني... انظر: تاريخ آداب اللغة العربية، ج٣ ص٢١٨أ هـ. وفي معهد أحياء المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية مجلد واحد يعتقد أنه القسم الأول من الجزء الثاني تبدأ حوادثه من سنة ٤٠هـ وتنتهي بحوادث سنة ٢٩٠هـ. وهو تحت رقم (١١٨٤). ميكروفيلم. والنسخة مصوّرة عن مكتبة السيد محمد تقي بلكنو بالهند رقم: ٣٠٧٦.

وقد أشار مؤلّف العسجد الى اقتباسه[١٢٥] من الشريف إدريس لكنه لم يذكر اسم الكتاب الذي أخذ عنه. أما طريقة اشارته الى الشريف إدريس فهي مختلفة أيضا فهو يقول مثلا بعد أن يذكر الرواية: «... هذه رواية والدي عن الشريف إدريس عن مشايخه رحمة الله عليهم أجمعين». وأحيانا يقول: «قال الشريف إدريس...». والملاحظ أن نسبة ما اقتبسه مؤلفنا من الشريف إدريس ضئيل إذا ما قارناه بما اقتبسه عن ابن الأثير أو ابن السّاعي اللذين أوضحنا اعتماد العسْجد عليهما فيما تقدم.

٧ - الملك الأفضل عبّاس[١٢٦] بن المجاهد بن رسول (ت٧٧٨):

هو والد الملك الأشرف مؤلّف العسْجد المسبوك، وأشرنا إلى اعتماد المؤلف عليه وخاصة على كتابه «نزهة العيون في تاريخ طوائف القرون»[١٢٧]. ولقد أشار الأشرف إلى ما أخذه عن نزهة العيون في مواضع[١٢٨] عديدة من كتابه. أما طريق اشارته إلى هذا المصدر فإنه كان يستعمل مرة: «ذكره أو قاله في نزهة العيون» ومرة يقول «قال الوالد أو والدي في نزهة العيون». كما انه كان يشير أحياناً الى مصدر نزهة العيون في الحادثة أو الخبر أو الترجمة التي هي موضوع البحث كقوله مثلا «حكى في نزهة العيون عن السمعاني»[١٢٩] والذي يلاحظ أنه أشار إلى كتاب نزهة العيون كمصدر عندما كان يذكر خبراً غريبا أو يحتمل المناقشة[١٣٠]. هذا ولما كان كتاب نزهة العيون

(١٢٥) أنظر: النسخة أ، الورقة: ٤٩ب، ٦٧أ، ٦٨أ.

(١٢٦) أنظر: ترجمته ومصادر تخريجها ومؤلفاته في العسجد المسبوك؛ ج١، ص٦٠-٦٣.

(١٢٧) أنظر تفاصيل عن هذا الكتاب في العسجد المسبوك ج١ ص٦١ كما أنه اعتمد على كتاب آخر للأفضل وذكره مرة واحدة عندما قال «روى والدي في كتابه نزهة الأبصار: أنظر: النسخة أ، الورقة: ٦٩ب.

(١٢٨) أنظر: النسخة أ، الورقة: ٤٩ب. والنسخة ب، الورقة: ٥ب، ١٨أ، ٤٣أ، ٦٦أ، ١٣٣ب، ١٣٨أ.

(١٢٩) أنظر: النسخة ب، الورقة: ٦٦أ.

(١٣٠) والأمثلة كثيرة لا يسعنا أن نتحدث عنها خشية الاطالة ولكن لاحظ احالاتنا في صفحات العسْجد المسبوك التي ورد فيها ذكر كتاب نزهة العيون ان شئت.

يبحث في تراجم الرجال فان أغلب ما اقتبسه الأشرف من كتاب أبيه المذكور هو تراجم كاملة أو جوانب معينة منها:

٨ - ومن المصادر التي أشار اليها مؤلف العسجد المسبوك كتاب التذكرة[١٣١]. غير أنه وردت الاشارة الى هذا المصدر غامضة لأنه اكتفى بالقول «فيما حكاه صاحب التذكرة» أو «وقال صاحب التذكرة» وإذا ما علمنا أن الكتب التي تحت عنوان التذكرة كثيرة جداً وان صاحب كشف الظنون[١٣٢] ذكر منها ما يزيد على التسعين مصنفاً تحت عنوان «التذكرة» أدركنا أن من الصعوبة بمكان أن نحدد الذي كان يعنيه مؤلفنا بقوله: «صاحب التذكرة»[١٣٣]. وعلى كل حال فان اعتماده على هذا المصدر كان محدودا ومنحصرا في ذكر وفاة شخص أو تحديد يوم مولده أو وفاته أو ذكر جانب من صفاته أو عند ما يحصل اختلاف في وفاة المترجم.

لقد قمنا بمقابلة حوادث وتراجم العسْجد المسبوك على كتب عديدة لضبط النص من جهة وتخريج التراجم من جهة ثانية. وقد تحدثنا فيما مر عن قسم من هذه الكتب التي تبين لنا أنها كانت مصادر للمؤلف في كتابه العسْجد المسبوك. ولعل من المناسب أن نبين مدى الاتفاق والاختلاف بين العسْجد المسبوك وبين بعض الكتب الأخرى التي لم نذكرها. علما بأن

---

(١٣١) أنظر النسخة ب، الورقة: ١٤أ، ٢٣ب، ٢٨ب، ٣٥أ، ٣٦ب.

(١٣٢) أنظر كشف الظنون، ج١، ص٣٨٣-٣٩٣ وانظر: البغدادي، ايضاح المكنون ص٢٧٢-٢٧٧.

(١٣٣) وعلى الرغم من صعوبة القطع بمن هو صاحب التذكرة، فأن أشهر كتب التذكرات هو كتاب التذكرة الحمدونية لأبي المعالي محمد بن أبي سعد بن الحسن بن محمد بن علي بن حمدون الكاتب كافي الكفاءة بهاء الدين البغدادي (٤٩٥-٥٦٢). وهو من أحسن المجاميع. انظر ترجمته في: العماد الاصبهاني، خريدة القصر ج١ (القسم العراقي) ص١٨٤. وذكره ابن الدبيثي، التاريخ مجلد٢ الورقة: ١٥أ. كما ترجم له طاش كبرى زاده، مفتاح السعاده، ج١ ص٢٢٧. وعندما ترجم الغساني لابنه أبي سعيد الحسن قال: وأبوه مصنف التذكرة الحمدونية. انظر العسجد المسبوك، ج٢ ص٣٣٩-٣٤٠.

مقارنتنا التالية ستشمل المدة الواقعة بين سنة ٥٧٥هـ وحتى سنة ٦٥٦هـ فقط.

وكان من بين هذه الكتب كتاب مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي[١٣٤] (ت٦٥٤)، لقد وردت في العسْجد المسبوك[١٣٥] تراجم لم نجدها في مرآة الزمان. كما وردت في العسْجد تراجم لعدد كبير من الأشخاص وخاصة بعد سنة ٦٣٨ وبالمقارنة مع مرآة الزمان نجد أن تراجم العسجد المسبوك في المدة المنوه عنها أكثر عدداً. ولقد اختصر مؤلف مرآة الزمان بعض التراجم التي فصل مؤلف العسجد المسبوك الحديث عنها نسبيا.[١٣٦] ثم أن هناك اختلافا في تحديدهما لوفيات بعض المترجمين. وعلى سبيل المثال نذكر مقتل الملك المنصور نور الدين عمر بن علي بن رسول الذي جعل الأشرف مقتله في سنة ٦٤٨[١٣٧] بينما ذكره سبط بن الجوزي[١٣٨] في سنة ٦٤٦.

ومع وجود تشابه بسيط بين حوادث الكتابين فأن حوادث العسجد المسبوك أكثر تفصيلا وعدداً، ومادته أغزر. ولابد من القول أن مؤلف مرآة الزمان ذكر بعض التراجم بشكل مفصّل إلا أن هذا ليس عاما في المدة المذكورة.

ومن بين الكتب التي قمنا بمعارضة العسجد المسبوك عليها الكتاب الموسوم بالحوادث الجامعة لمجهول[١٣٩] الذي نبّه عدد من الباحثين إلى أنه يماثل العسْجد المسبوك، وإلى هذا المعنى أشار الأستاذ الدكتور جعفر

(١٣٤) انظر: اسمه الكامل واسم كتابه في قائمة المراجع. والمقارنة تمت بطبيعة الحال، على الجزء الموجود من مرآة الزمان وهو ج٨ ق١ ق٢.

(١٣٥) انظر: بهذا الصدد: النسخة ب، الورقة: ١٣١ب. وانظر مثلا حوادث سنة ٥٧٥ وسنة ٦١٨ وسنة ٦٢٦ في كلا الكتابين.

(١٣٦) انظر مثلا تراجم سنة ٦٢٠ في الكتابين.

(١٣٧) انظر العسجد المسبوك النسخة أ، (حوادث سنة ٦٤٨)، الورقة: ١٧٨أ.

(١٣٨) مرآة الزمان، ج٨ ق٢ ص٧٧١.

(١٣٩) وينسب غلطا للمؤرخ أبي الفضل عبد الرزاق بن الفوطي المتوفي سنة ٧٢٣.

خصباك فقال عن كتاب الحوادث: «وترد كثير من أخبار هذا الكتاب في مخطوطة (العسجد المسبوك)... حتى أن بعض العبارات تتردد نفسها في الكتابين على أن الثاني منها[140] أوضح وأصح لأنه يخلو من التصحيف ويبدو أن كليهما ينقلان من مصدر واحد هو ابن السّاعي»[141]. وقال الأستاذ الدكتور ناجي معروف عن أخبار العسجد المسبوك: «وهي تشبه إلى حد كبير الأخبار التي ذكرها مؤلف الكتاب المسمى بالحوادث الجامعة بل تكاد تكون نسخة منها وتزيد عليها في بعض التفصيلات»[142].

والواقع أن تشابها كبيرا يظهر بين الكتابين بل لقد لاحظنا تطابقا بين الكتابين في بعض الحوادث والتراجم.

لكن على الرغم من ذلك، فإن هناك اختلافا بينهما ونبّهنا أيضا إلى مواضع هذا الاختلاف ولذلك فسنكتفي هنا بذكر بعض الشواهد القليلة على سبيل المثال لا الحصر.

أما التشابه بينهما فمرجعه إلى اعتماد الكتابين على مؤلفات ابن السَّاعي، وقد أوضحنا ذلك فيما تقدم. ومن التراجم التي وردت متشابهة إلى حد كبير، ترجمة الصلاح عبد الغني بن فاخر المتوفى سنة ٦٤٨[143]. وترجمة محمد بن الفرج بن عبد الله بن رئيس الرؤساء المتوفى سنة ٦٤٩[143]. وترجمة علي بن حازم المعروف بالأبْله المتوفى سنة ٦٣٧[143]. وترجمة عمر بن محمد بن ابي نصر الفرغاني المتوفى سنة ٦٣٢[143]. وترجمة محمد بن خليد الكاتب المتوفي سنة ٦٢٩[143]. وإذا ما كان التشابه كبيراً في بعض التراجم فانه ليس كذلك في بعضها الآخر بل قد يصل الاختلاف إلى حد التناقض أحياناً فعندما ترجم كل منهما للملك الأشرف موسى بن العادل صاحب دمشق المتوفي سنة ٦٣٥[143] ذكر كل منهما سيرته إلى أن قال

---

(١٤٠) ويقصد العسجد المسبوك.

(١٤١) أنظر: العراق في عهد المغول، المقدمة: صز.

(١٤٢) المدارس الشرابية، ص٢٧ وانظر بهذا الصدد أيضا الدكتور مصطفى جواد، دليل خارطة بغداد ص٣٢٣.

(١٤٣) انظر: وفيات هذه السنوات في الكتابين.

مؤلف العسجد: «وكان عادلا حسن السيرة قليل الجور خائفا لله متواضعا للفقراء يزورهم ويبعث إليهم بصحون الحلوى»(١٤٤) وقال صاحب الحوادث الجامعة: «وكان متعفّفا عن أموال الرعية منعكفا على ملاذه مشتهراً بحب الغلمان الأتراك والميل اليهم مستهترا بهم وله فيهم أشعار كثيرة ليست بالجيدة...»(١٤٥).

كما أن صاحب الحوادث الجامعة لا يترجم لأشخاص ترجم لهم مؤلفنا. وهناك أمثلة كثيرة سيلاحظها القارىء في تعليقاتنا على القسم الذي حققناه. ومن هؤلاء مثلاً بدران بن صدقة الأسدي المتوفي سنة ٦٣٠(١٤٦) وعبيد الله بن ابراهيم الأنصاري المتوفى سنة ٦٣٠(١٤٦) أيضا. وعماد الدين عمر بن علي الجويني المتوفي سنة ٦٣٦(١٤٦). ومحمود بن أحمد بن عبد السيد البخاري المتوفي سنة ٦٣٦(١٤٦) وغيرهم كثيرون. وقد وردت ترجمة ابن الأثير صاحب الكامل في الحوادث ضمن وفيات سنة ٦٣٣(١٤٧) وهذاوهم، بينما وردت ترجمته في العسجد ضمن وفيات سنة ٦٣٠. وهذا هو التاريخ المتفق عليه بين المؤرخين.

أما الحوادث في كلا الكتابين فهي كالتراجم، فان بينها تشابها كبيراً يكاد يكون حرفيا أحيانا، كما ورد بينها اختلاف أيضا. فمثلا في فتح أربل سنة ٦٣٠(١٤٨) تشابهت رواية الكتابين. كما وردت نفس الأبيات من الشعر التي قيلت بهذه المناسبة في كل منهما. وجاء في العسْجد المسبوك في حوادث سنة ٦٣٤ أن جماعة قصدوا انسانا مريضا لزيارته وهم سبعة نفر فوقع

(١٤٤) انظر: العسجد المسبوك، ج٢ ص٤٨٢. وانظر ما دوناه في الحاشية رقم (٤٧).

(١٤٥) انظر: الحوادث الجامعة، ص١٠٦.

(١٤٦) انظر: إن شئت وفيات هذه السنوات في الكتابين.

(١٤٧) انظر: الحوادث الجامعة، ص٨٨.

(١٤٨) أنظر: الحوادث الجامعة، ص٤٤ وما بعدها، العسجد المسبوك، ج٢ ص٤٥٤.

السقف تحتهم فماتوا وسلم المريض[١٤٩]. وورد نفس هذا الخبر في الحوادث الجامعة[١٥٠].

لقد ظهر من دراستنا لمنهج العسجد المسبوك أن الاختصار يميّز الكتاب إذا أخذناه بصورة عامة، وهذا شيء متوقع لمن يريد أن يؤرخ لثمانية قرون. وعلى الرغم من ذلك فقد وردت فيه تفصيلات أكثر من كتاب الحوادث الجامعة. واعتبارا من سنة ٦٤٢ لاحظنا أن صاحب الحوادث الجامعة يختصر كثيراً من الأخبار وقد لا يذكر بعضها نهائيا، في حين أورد مؤلفنا تفاصيل وتراجم أكثر مما ورد في الحوادث الجامعة، ولقد احتفظ لنا العسجد المسبوك بملامح من التاريخ الاجتماعي بتدوينه لبعض الحفلات الخاصة عن مواكب الحج[١٥١] وحفلات الختان[١٥٢] وعندما يولد مولود[١٥٣] للخليفة أو ترتيب رئيس احدى الطوائف غير الاسلامية[١٥٤] (اليهودية والمسيحية) أن بعض هذه الحفلات ذكرها صاحب الحوادث الجامعة ولكن باختصار شديد كما أنه لم يذكر قسما منها وقد أشرنا إلى ذلك في تعليقنا على القسم الذي حققناه.

ثم إن اهتمام العسْجد المسبوك بتوقيت الحوادث يعتبر كبيراً بالقياس للحوادث الجامعة، فهو يذكر في الغالب اليوم والشهر والسنة غير أن الحوادث الجامعة اكتفى في الغالب بذكر السنة فقط. وزاد عليه العسجد المسبوك بأنه يذكر أحيانا مولد المترجم الى جانب تاريخ وفاته.

ومن بين الكتب الأخرى التي قارنا العسْجد بها كتاب البداية والنهاية

---

(١٤٩) انظر: العسجد المسبوك، ج٢ ص٤٧٤.

(١٥٠) الحوادث الجامعة، ص٩٠.

(١٥١) انظر: حوادث سنة ٦٤٥.

(١٥٢) انظر: حوادث سنة ٦٥٠.

(١٥٣) انظر: حوادث سنة ٦٥١.

(١٥٤) انظر: حوادث سنة ٦٤٦.

لابن كثير (ت ٧٧٤). والتشابه وإن كان موجوداً بينهما إلا أنه تشابه لا يقاس بالتشابه الموجود بين العسْجد والحوادث الجامعة، وبعبارة أخرى فإن التشابه قليل. ولكن عندما ينقل ابن كثير عن ابن السّاعي يبدو التشابه كبيراً بين العسجد والبداية والنهاية، وهذا ينطبق مثلا على ما أورداه عن المستنصر بالله في حوادث سنة ٦٢٣ كما ينطبق على ذكرهما الزلزلة في مدينة الرسول (ص) في حوادث سنة ٦٥٤[١٥٥]. وغير ذلك.

وعلى العموم فإن حوادث وأخبار العسْجد المسبوك جاءت أغزر مادة وأكثر تفصيلاً من المشرق الاسلامي . كأخبار خوارزمشاه وشهاب الدين الغوري[١٥٦] مثلا التي لم يهتم بها ابن كثير. وظهر لنا من المقارنة أن ابن كثير اهتم وأكد على الحوادث الخاصة ببلاد الشام فمثلا نراه يذكر معركة الزلاقه وحوادثها بشيء من التفصيل[١٥٧] كما فصل القول في حروب صلاح الدين مع الفرنج وكيف تم فتح بيت المقدس[١٥٨]. بينما لم يذكر ذلك مؤلّف العسْجد المسبوك إلا أنه وعد بذكرها في القسم الثاني[١٥٩] من كتابه فذكرها ضمن الباب الأول من القسم الثاني. ولكن ليس بالشكل الذي وردت فيه في البداية والنهاية.

واختصر ابن كثير حوادث بعض السنوات التي وردت بشكل أكثر تفصيلا في العسجد المسبوك[١٦٠]. وعندما تحدث ابن كثير عن وصف المستنصرية وتجهيزاتها[١٦١] جاء حديثه عنها مقتضبا جدا ثم قال: «وقد ذكر

---

(١٥٥) انظر: حوادث هذه السنة في الكتابين.

(١٥٦) انظر: النسخة ب، الورقة ١٠١، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠.

(١٥٧) انظر: البداية والنهاية، ج١٣ ص١٠.

(١٥٨) انظر: البداية والنهاية، ج١٣ حوادث سنة ٥٨٣.

(١٥٩) انظر: النسخة ب، الورقة ٨٥ب، وانظر: نسخة معهد أحياء المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية ذات الرقم ١١٣٦ تاريخ.

(١٦٠) انظر مثلا: حوادث السنوات التالية: ٥٧٩، ٥٨٠، ٥٩٠، ٦٠٢، ٦٠٤.

(١٦١) انظر: البداية والنهاية، ج١٣ ص١٣٩-١٤٠.

ابن السّاعي في تاريخه مطولا مبسوطا شافياكافيا»[١٦٢] بينماأوضحنا فيما سبق أن مؤلفنا وصفها وذكر تجهيزاتها بتفصيل لم نلاحظه في غيره من الكتب المتداولة بين أيدينا عن هذه المدة. واعتبارا من سنة ٦٤٥ حتى سنة ٦٥٦ لاحظنا أن مادة العسجد أكثر تراجما وأحداثا من مادة البداية والنهاية.

أما بالنسبة للتراجم في الكتابين فقد أظهرت لنا المقارنة أن العسجد المسبوك أورد تراجم لأشخاص من العراق ومصر والمغرب والأندلس والشام واليمن والمشرق الاسلامي عموما، بينما وردت في البداية والنهاية تراجم من أنحاء العالم الاسلامي غير أنه ليس من الصعب أن نلاحظ أنه كان يهتم كثيرا ويؤكد على أولئك الذين عاشوا في بلاد الشام أو وردوها.

أما من حيث عدد التراجم فالواقع أننا لا نستطيع أن نحدد أيهما أورد عدداً أكبر من التراجم فأحيانا يقتصر ابن كثير على ترجمة واحدة[١٦٣] أو ثلاث[١٦٤] تراجم في السنة الواحدة وأحيانا يورد تراجم[١٦٥] أكثر مما يورده العسْجد المسبوك. كما أورد مؤلفنا في بعض الأحيان تراجم في السنة الواحدة أكثر مما أورد ابن كثير.

وقارنّا العسْجد المسبوك بطراز الزمن[١٦٦] للخزرجي (ت ٨١٢) وهو جزءان بمجلد واحد[١٦٧] الأول في تاريخ الاسلام منذ نشأته الى سنة ٦٥٦. والثاني في التراجم. رتبت تراجمه على حروف المعجم تبدأ بحرف الألف فالباء فالتاء.. وهلم جرا.

---

(١٦٢) ن. م. ج١٣ ص١٤٠.

(١٦٣) أنظر البداية والنهاية، ج١٢، ص٣١٥ (وفيات سنة ٥٨٢).

(١٦٤) ن. م. ج١٣ ص١٥٣-١٥٥ (وفيات سنة ٦٣٧).

(١٦٥) ن. م. ج١٣ ص٧٥ (وفيات سنة ٦١٣) وانظر: وفيات سنة ٥٨١.

(١٦٦) انظر: وصفنا لهذا الكتاب: في العسجد المسبوك ج١ ص٨١-٨٢.

(١٦٧) وقد رأيناه في دار الكتب المصرية تحت رقم (١٢٦٥٧ح).

إن مقارنتنا تشمل الجزء الأول على اعتبار أن الجزء الثاني يذكر تراجم معظمها تدور حول أهل اليمن.

أما الجزء الأول من الكتاب فقد تناول الحديث عن نفس المدة التي تناولها العسْجد المسبوك، ولذلك فالتشابه موجود في حوادث وتراجم كثيرة، غير أنه لا يمكن القول انهما يتطابقان لوجود اختلافات نوجزها فيما يأتي:

١ - لم يُرتب كتاب طراز الزمن بشكل فصول كما هو الحال بالنسبة للعسجد.

٢ - لم يذكر طراز الزمن الفصل الذي ذكره العسجد المسبوك بعد واقعة بغداد. وهو الخاص بتفصيل أحوال الخلفاء العباسيين(١٦٨).

٣ - إن عدد التراجم التي وردت في العسجد أكبر من عدد التراجم التي وردت في طراز الزمن في جزئه الأول طبعا(١٦٩).كما أن العسْجد المسبوك أغزر مادة وحوادثه أكثر تفصيلا(١٦٩).

٤ - لقد لاحظنا في دراسة منهج العسْجد المسبوك أن مؤلفه الأشرف ذيّل بعض الحوادث والأخبار باسمه معلّقا تارة وناقداً تارة أخرى، كما أنه أبدى رأيه في قضايا تعتبر استنتاجية. وهذا مما لم نلاحظه على كتاب طراز الزمن للخزرجي(١٧٠).

٥ - زوّدنا العسجد المسبوك، وخاصة في تراجمه بتواريخ للميلاد والوفاة معاً وهذا قليل جداً في طراز الزمن. كما أن الأشرف اعتاد أن يذكر تاريخين أو ثلاثة تواريخ حينما لا يكون متأكدا كما فعل مثلا بالنسبة لوفاة القادر بالله(١٧١).

---

(١٦٨) انظر الفصل الأربعين من العسجد المسبوك، ج٢ ص٦٤٦ فما بعد.

(١٦٩) تأكد من ذلك: في طراز الزمن، ج١ الورقة: ٢٩٩، ٣٨٩، ٣٨٤، ٤١٠ (حوادث وتراجم سنة ٦١٥). وانظر النسخة ب، ٨، ٩٣، ٨٩، ١٢٥ (حوادث وتراجم ٦١٥).

(١٧٠) انظر مثلا: النسخة ب، الورقة: ٩٣ ب وطراز الزمن، ج١ الورقة: ٣٨٩.

(١٧١) انظر: النسخة ب، الورقة: ١٢ب وطراز الزمن، ج١ الورقة: ٣٠٤-٣٠٥.

٦ - إن كتاب الزمن لا يظهر فيه تسلسل السنوات، فقد جاءت غير متتابعة خلافا للعسْجد، كما أنه لا يذكر حوادث بعض السنوات بل يتخطاها فمثلا عندما ذكر سنة ٣٤١ ينتقل بعدها الى سنة ٣٤٥[١٧٢]. ويتخطى أحيانا حوادث سنتين لا يذكرها[١٧٣]. وهذا أمر لم نلاحظه كثيرا في التصحيف والأخطاء في طراز الزمن لعلها من مسؤولية الناسخ.



(١٧٢) انظر: طراز الزمن، ج١ الورقة: ٢٩١.

(١٧٣) انظر: ن.م، ج١ الورقة: ٣٩٣، ٣٣.

Rwanda	4			
Ivory Coast	4			
Total	48	78	16	30

Source: OPEC, **News Bulletin,** Vol.4, No.7 (July 1978), p.26

Table II

Training Programs Financed by the Fund and Presented to African Countries through Specialized Arab Organizations

Country	Arab Organization for Adminstrative Science	Arab Labor Organization	Arab Postal Union	Ministry of Information
Uganda	4	4		
Ghana		4		2
Kenya		4		5
Zambia		10		5
Nigeria		4		1
Liberia	4	2		2
Gambia		4		
Tanzania	4	4		11
Sierra Leone	4	4		4
Somalia		4		
Mauritania		4		
Djibuti		2		
Senegal		2		
Guinea		2		
Mali		2		
Chad	4	3		
Benin		6		
Togo		2		
Zaire	4	9		
Niger	4	2		
Upper Volta		4		
Central Africa		4		
Congo		4	5	
Cameroom		4		
Namibia	4			
Mauritius	4		6	
Burundi	4		5	

TableI

Technical Assistance Commitments at the End of 1977

Country	Scholarships	Training Grants	Experts	Consultants Services	Other Forms of Aid
Uganda	3		54		
Benin			9		
Burundi			15		
Tanzania				10	
Comoros			20	1	Printing house
Cape Verde Islands	10				
Djibuti			72		Printing house
Zambia			24'		
Sao Tome & Principi				1	Arabic Language Laboratory
Sudan	5		1		
Sierra Leone		30			Typing Institute
Somalia		25	73		
Ghana	1(				
Guinea Bissau	10(		2	1	
Guinea	10		11		
Palestine	2(		9		
Cameroom	3				
Kenya	1	4	2	2	
Liberia			1		
Lesotho			1		
Mali			1		
Mauritania	2		9		
Mauritius Niger	10		8		
South Yemen	7				
North Yemen	3(.				
Union of African Universities	25			0	
Total	92	59	312	15	

Nation to work for the establishment of the closest relations with these countries on many defferent fronts. This is essential to survival especially in the Contemporary World. The common aims and circumstances... of these nations will force them to unite among themselves. This unity has a decisive importance in illuminating colonialism in all its old and new forms on these continents and in achieving social progress... and reshaping relations and on international balance in a form that gives these nations an influential position in the international community.»



Arab failure to provide cheap oil to the continent, seeing this as evidence of a growing rift in the new-found solidarity. In fact, oil imports represent only from eight to fifteen per cent of the total important bill of underdeveloped nations, so the deterioration of the international economic order, with the resultant rampant inflation, has had a much greater overall impact. Nevertheless, the increase in oil prices will cost Africa at least $500 million more, and possibly over one billion dollars. In response, Arab nations have made a substantial contribution in the form of bilateral aid agreements with African nations.(31) The real effort in terms of sustained economic cooperation, however, has been in the regional organizations set up.

The Arabs have established the Special Arab Aid Fund for Loans to African Countries, with $200 million in capital; the Arab Bank for Economic Development in Africa (ABEDA), with $230 million in capital (1975), raised to $392 million in February 1978. Since 1976, the funds earmarked for SAAFA were alloted to ABEDA, raising the latter's resources by $350 million to $742 million.

In 1976, ABEDA disbursed $62 million in loans; in 1977, $66.2 million to 10 African states. Furthermore, 47 percent of its funding during its first three years of operation was given in the form of grants.(32) Tables 1 and 2, below, give fuller details of Arab aid and assistance to African nations.

CONCLUSION:

As stated earlier, the basis for Afro-Arab solidarity has existed for some time and in many fields has existed internationally since the 1950's. The Political Report of the Eighth Regional Congress (1974) of the Baath Party of Iraq (p.209) summarizes the historic necessity catalyzing the increasing movement toward solidarity accordingly.

> «The Arab World is situated on two continents-Asia and Africa. It borders a number of countries. These countries have ties and ancient relationships in a number of ways. It's natural for the Arab

(31) Chedly Ayari, «The Reality of Afro-Arab Solidarity,» **African Report,** Novemner-December 1975, pp.7-8.

(32) OAPEC News Bulletin, Vol.4, No.7, July 1978, pp.22-24.

U.N. session. The objective was to link racism and zionism and thus implicitly South Africa and Israel. The first major hurdle was getting the resolution approved by the U.N. Social, Humanitarian and Cultural Committe. Although African plan for a united front of the Committee was scuttled by the negative votes of Malawi and Liberia (South African and American protégés) and by abstentionsby Botswana, Burundi, Ethiopia, Ivory Coast, Rwanda, Sierra Leone, Swaziland, Togo, Zaire, Ghana, Kenya, Upper Volta and Zambia, the resolution passed anyway. This is important point. Thus most African states, despite their reservations about the resolution, did not break Afro-Arab solidarity by voting against it. This is again, more importantly, manifested by the fact that the resolution was subsequently passed by the General Assembly.

Only five African states still recognize Israel today: South Africa, Lesotho, Swaziland, Malawi and Mauritius. Lesotho, Swaziland and Malawi are strongly influenced by South Africa. This only helps to strengthen Israeli-South African relations and the apparent connection between zionism and racism.

ENERGY AND AID:

Much of the Western press attributed Afro-Arab solidarity, particularly vis-a-vis Isreal, to trade-offs of Arab oil and Arab aid in exchange for African support. The trade-offs, the journalistic rationale runs, came into play because of rising oil prices which jeopardized African economic development. In exchange for aid and the promise of cheap oil, Africans sold out their deplomacy. This paper has attempted to show that the development of Afro-Arab solidarity has been a continuous effort on both sides for at least two decades; and that the convergence of opinion on the position of Israel was precipitated by Israeli occupation of Arab territory in the 1967 war and crystallized by the 1973 war. Changes in the world economy in general, and oil prices in particular, were coincident to this. These changes, however, emphasized the need for economic solidarity as well, and it is neither surprising nor invidious to suggest that solidarity thus manifested itself in both political and economic spheres at a time of crisis in both spheres.

The Western press has also emphasized African dissatisfaction with

an African liberation group as well as an Arab one and extended to it all privileges that OAU «Liberation Committee» gives to other such African groups.

Many Arab nations, such as Libya and Syria, at the Conference of Non-aligned States in Lima in August 1975 wanted the conferees to call for Israel's expulsion from the U.N. as well as to form a committe to implement the decisions of the Rabat Arab Summit of 1974. The issue was placed in the hands of a special committee so a unified position could be formed. The final resolution on the issue embodied in the «Lima Declaration» followed the lines of the OAU one, although it was stronger and did not mention Israel's expulsion from the U.N. A further Afro-Arab summit of 37 nations met in Cairo in March 1977 to discuss a range of bilateral issues.

AT THE U.N.

Afro-Arab cooperation at the U.N. had been substantial. Between 1946 and 1962, for example, African and Arab states voted the same 47 per cent of the time in the General Assembly.[28] This included a consensus on the South African question. In 1973 the Arab states joined the African ones in boycotting the General Assembly due to the presence of South Africa. Due to Afro-Arab solidarity the PLO was brought as an observer to the U.N. and South Africa was suspended. Both were accomplished when the Algerian Foreign Minister was the president of the General Assembly, representing a state was both Arab as well as African.[29] Consequently events have «left both sides feeling that Arab-African diplomatic cooperation pays well indeed.»[30]

Another major Afro-Arab success after the 1973 war was the expulsion of Israel from the UNESCO General Council, although it retained membership in the body's European regional group due to membership rule changes. Despite this it was the first effort by the Afro-Arab group to get Israel out of the U.N. as a whole.

The next major Afro-Arab action against Isreal was at the fall 1975

(28) T.Y. Ismael, **op. cit.**, p.173.
(29) L. Hahn, **op. cit.**, pp.1-2.
(30) L. Hahn, **Op. cit.**, p.10.

In other developments Moslem African states at the Conference of Islamic States in Saudi Arabia in July 1975 all accepted a resolution calling for Israel's expulsion from the U.N. and recongnizing the PLO as the sole representative of Palestinians. It as well called for all Moslems as their first objective to get Israel out of Jerusalem and to cut off all ties with Israel.[25]

Afro-Arab solidarity was again boosted at the annual OAU Summit in Kampala in August 1975. Although the conferees rejected an Arab sponsored resolution calling for Israel's explusion from the U.N. in favor of one calling for increased pressure on Israel at the U.N. to comply with the latter's resolutions, the resolution did represent a hardening of the OAU's stand against Israel in view of its continued interansigence, especially shown by the failure of Kissenger's March shuttles. This OAU resolution is quite important as it affected Arab efforts at both the Lima Conference and the U.N. sessions that followed in which the Arabs again tried unsuccessfully to get support for Israel's explusion from the U.N. This shows that African opinion does have some impact on world opinion.

Despite this the implication for the Arab states of the OAU resolution was clear. Iraq, for example, viewed the action as demonstrating «full OAU backing» for the Arabs against Israel and as silencing «the enemies of Arab-African solidarity.»[26] Algeria was especially pleased, since the OAU document was largely inspired and written by her Foreign Minister Abdelazziz Bouteflika, who commented after the conference:

> «The African continent has become aware of the fact that it is being beseiged by Portugal, South Africa and Israel... The sessions of the OAU were an historic turning point in relations between the Arab world point in relations between the Arab world and the African continent.»[27]

Also at the meeting the OAU recongnized as well that the PLO was

---

(25) **New York Times,** July 16, 1975, p.7.

(26) **Baghdad Observer,** 2 August 1975, p.1 and 4.

(27) **Revue Francaise D'Etudes Politique Africaines,** Paris, Dec. 76, p.60.

The Arab countries, to demonstrate the reality of Afro-Arab solidarity and the strength of the common front against imperialism, at their summit meeting in Algeria on November 28th, extended their oil embargo to include South Africa, Rhodesia and Portugal.[22] This can be seen as some measure of greater Afro-Arab unity.

The «Good Neighbor Group» of sixteen east and central African states also met in November. Like the OAU conference, it condemned Israel and found that the imperialists were working in collusion. The combined net result of all these activities was that by the end of 1973 only three African states still recognized Israel.

Strong Afro-Arab solidarity continued through 1974 and in particular increased in the financial sphere. The Arab states of Africa and the Middle East, in an effort to compensate African nations for the increased financial strain caused by higher oil prices, vastly increased their aid to these states. The most important development in this regard was the establishment of the «Arab Bank for Economic Development in Africa» with $230 million in initial pledges (raised to $392 million in 1978) from practically all Arab states from Mauritania to Kuwait. In addition the «Special Arab Fund for Loans to African Countries» was to distribute $200 million to needy African states, and the «Arab Fund for Technical Aid to Africa,» $25 million. Such commitments were concrete manifestations by the Arabs of Afro-Arab solidarity and importance they placed on it. Neither were the Africans left out of the Arab's highest council; the OAU Secretary-General was an official observer at the important 1974 Rabat Arab Summit.

At the OAU conference in February 1975 the PLO was given full delegation status and thus accepted as an African «state».[23] In addition, the Secretary-General of the OAU, William Etteki M'Boumoua, said that the Palestinian question was an integral African one fully as important as decolonization and South Africa.[24] Such reflections could only strengthen the common antiimperialist struggle against racism and zionism.

---

(22) **New York Times,** Nov. 29, 1973, p.1.

(23) Kum Buo in «The Illusion of Afro-Arab Solidarity,» **African Report,** Sept.-Oct., 1975, p.48.

(24) **El Moudjahid** (Algeirs), 21 Feb. 75, p.1.

conferees, calling for their support of the PLO. As a result of this and the growing Afro-Arab solidarity the Conference passed a resolution condemning Zionism and threatening sanctions against Israel.[19] Thus support for the Arab cause was growing not only in Africa but in the Third World as a whole.

THE BREAKING OF RELATIONS:

In April 1972 Uganda joined Guinea, the only black African statethat never re-established ties with Israel after the 1967 war, in severing its relations for the duration of the Middle East conflict. During the following twelve months Burundi, Chad, Congo, Niger and Mali broke off relations with Israel. This was an impressive demonstration of Afro-Arab solidarity. With the developments of October 1973, African states abandoned Israel in mass. Thus between October 4 and November 8, Zaire, Benin, Rwanda, Mauritania, Upper Volta, Cameroun, Equatorial Guinea, Tanzania, Malagasy and Central African Republics, Nigeria, Ethiopia, Zambia, Gambia, Sengal, Ghana, Gabon, Sierra Leone, Ivory Coast, and Kenya broke off relations with Israel. This exemplified the fact that almost all African states, whatever their political complexion, realized the need for and reality of Afro-Arab solidarity in a time of pressing international crisis.

AFRO-ARAB SOLIDARITY AFTER THE 1973 WAR:

As a result of the October War the OAU met in special session in mid-November, 1973. Its Secretary-General accurately stated that the spate of diplomatic ruptures were a substantial international defeat for Israel.[20] More importantly, the meeting passed a resolution condemning Israeli aggression. Furthermore, it stated theat Israeli zionism, Portuguese colonialism, Rhodesian racism, and South African apartheid were in massive alliance. Consequently, it was only right for the African and Arab nations to merge their antiimperialist struggles as the common enemy was one and the same, international imperialism. This was a great boon to continental unity and Afro-Arab solidarity.[21]

---

(19) **New York Times,** 1973: Sept. 7, p.4; Sept. 9, p.20; Sept. 10, p.1.

(20) **New York Times,** Nov. 21, 1973, p.10

(21) Miller, **op. cit.,** p.399.

teransigence increasingly made the black African countries accept the Arab arguments against Israel and in the process strengthen Afro-Arab solidarity. Furthermore, by 1969 fully 25% of Israel's trade with Africa was with south Africa. In sum, these factors in combination made the African states view Israel as an imperialist power as well as one that was drawing closer to their arch-enemy, South Africa. African opinion shifted to greater sympathy with the Arab cause.

The 1971 OAUconference, as a result of Jarring's failure to solve the Middle East conflict, set up the «Commission of Ten» (Mauritania, Ethiopia, Ivory Coast, Kenya, Liberia, Tanzania, Nigeria, Zaire, Senegal, Cameroun) to help solve the conflict via its good offices. A subcommittee of it investigated the conflict for the OAU. Although Israel viewed this as a good development, the sub-committe sided with Egypt, called for an arms embargo against Israel as well as condemned the latter for the continued occupation of the former's territory.[16] Thus, the new trend toward increased Afro-Arab solidarity was manifesting itself, and was greatly influenced by Israeli intransigence in relinquishing occupied Arab land.[17]

This position was reiterated by the OAUin 1972 and 1973. The 1972 Council of Ministers meeting **unanimously** passed a resolution pledging its full support of Egypt. At the May, 1973, OAU conference the conferees tried to establish a joint African stand in terms of a «political declaration» on the Middle East conflict. The resultant resolution called for Israeli withdrawal from the occupied Arab territories and of special significance, threatened OAU economic and political sanctions.[18] This is an important development in Afro-Arab solidarity as the OAU was now threatening to take concrete action in view of continuing Israeli intransigence.

In other developments, at the Conference of Non-Aligned Nations in Algeria the following September, Yasser Arafat of the Palestine Liberation Organization (PLO) and Hafiz el-Assad of Syria addressed the

---

(16) Miller, **op. cit.** p.397.

(17) T.Y. Ismael, **op.cit., p.178.**

(18) **New York Times**, 1973: May 23, p.7; May 25, p.7; May 26, p.9; May 31, p.6.

many Arab North African states, meet annually at the highest level. More importantly is its secretariat where and sub-Saharan African nations cooperate and interact daily at many levels. Furthermore, it is «an important direct channel of Afro-Asian contact denied to the Israelis.»[13]

The OAU in its first years took no firm stand against Israel. The Africans resisted Arab pressures to do so and the Arabs for their part did not want to push the point in case the Africans became alienated entirely. Decolonization at the time was proceeding rapidly and this was the African's main interest. At this time, too, Africans viewed their acceptance of non-alignment to include neutrality in the Middle East conflict as well. This tendency allowed them to justify the acceptance of aid from both Arab and Israeli patrons alike. The Arabs, however, tried to change this African view by linking their antiimprialistic struggle with that of the Africans.

In the mid 1960's the OAU slowly began to change its official stance in the Middle East conflict. During this period many black African and Middle Eastern Arab states increased their diplomatic presence in each others' areas. Thus, by 1966, for example, Egypt was represented in 24 African states and Algeria in 15.[14] This was one clear indication of growing Afro-Arab ties.

Despite this, it was the June 1967 war which acted as the catalyst for the solidification of Afro-Arab solidarity. From it the new historic trend of firm Afro-Arab cooperation began. African states started to align themselves with the Arab cause. Guinea, Mali, Somalia, Burundi, Zambia and Tanzania firmly supported the Arabs while only Malawi was pro-Israel.[15]

After the war and again in 1968 the OAUpassed resolutions pledging OAU support for Arab demands of Israel's withdrawal from the occupied Arab lands. A 1969 resolution reaffirmed this principle. Israel's continued occupation of Arab land constituted an affront to the international community, the OAU included. Israeli aggression and in-

(13) T.Y. Ismael. op. cit., p.179.

(14) T.Y. Ismael. op. cit., pp.170-171.

(15) T.Y. Ismael. op. cit., p.177.

and African support of the Arabs against Zionism must be viewed in this common anti-imperialist struggle of an early origin.

Early International Conferences. At the Third World conferences which began in 1955 with the Bandung meeting, Africans and Arabs tried to reach a consensus on major international issues(9). The Arabs, in particular Nasser, saw Afro-Arab solidarity as helping the international position of both Africa and the Arabs. He and others saw strong Afro-Arab relations as a strategy to counteract neo-colonialist efforts in the area. Arab states placed a great emphasis on these conferences for enchcing Thrid World solidarity and still do: as a semi-official Iraqi paper noted:

> «They have played a great part in closing the ranks of the developing countries, and developing their struggle for full political and economic liberation.»(10)

At the Bandung Conference in 1955, and the First and Second Conferences of Independent African states (1958 and 1959) the Arabs attempted to expose the imperialist nature of Israel and the racist nature of zionism. Concrete results were not obtained until the Casablanca Conference in 1961 which passed a resolution condemning Israel as a source of imperialism endangering not only the Middle East but Africa as well.(11) Similarly, the Third Conference of the All African Peoples' Organization at Cario the same year passed a resolution linking the U.S., Israel, South Africa and other states as imperial neocolonialists.(12) Thus, these two conferences were the first manifestations of Afro-Arab solidarity against Israel. The last one is of particular importance for at least as early as 1961 it shows the perceived link between the U.S., Israel, South Africa and imperialism by the Afro-Arab group.

THE OAU,1963-1973:

Perhaps the most important forum for and representation of Afro-Arab solidarity is the OAU. Under its auspices member states, including

(9) T.Y. Ismael, **op. cit.**, p.169.

(10) **Baghdad Observer**, 14 April 74, p.3.

(11) L. Hahn in **Arabs and Africans: Cooperation and Conflict**, (Middle East Problem Paper #14. Washington: Middle East Institute, 1975), p.6.

(12) **Ibid.**, p.7.

It is toward this kind of international cooperation that these countries have been striving since the mid 1950's.

The Political Report of the Eighth Regional Congress (1974) of the Baath party ruling Iraq, summarized this movement toward solidarity:

> «The Arab World belongs to the so-called Third World, which consists of the continents of Asia, Africa and Latin America. Most of these countries have many similarities: they have been under Colonial control in one way or another; they are struggling to achieve liberation, progress, national awakening and national unity for their divided nations as the Arab nation; they suffer from backwardness in the economic social and educational fields. In the march toward the common struggle against imperialism, a common language emerged among these nations and close relations developed. The non-aligned movement, which began with the Bandung Conference in 1955 and continued until the Algerian Conference of 1973, expressed the basic framework which brought these countries together.»[7]

THE ARAB INITIATIVE IN AFRICA: 1955-1963

Contemporary Afro-Arab cooperation dates at least to the twilight of the colonial era. In the 1950's president Nasser assisted African groups dedicated to decolonization. This trend continued in the 1960's, especially after 1962 and the independence of Algeria, and still continues today[8]. For Africans this assistance represented valuable moral, physical and international support during a difficult period.

Similarly, after independence, many African states adopted international nonalignment, which was developed in part by president Nasser, as well as anti-imperialism.Thus, from the start in modern Afro-Arab relations a common non-aligned and anti-imperialistic line developed. Furthermore, the present Arab support of Africans against South Africa

(7) Al-Taqrir Al-Syasi Al-Sadir An Al-Mutamur Al-Qutri Al-Thamin (The Political Report issued by the Eighth Regional Congress, January 1974), (The Arab Baath Socialist Party, Iraqi Region, Baghdad: 1974), p.208.

(8) Iraq, for example, gave 14% of its oil revenue to Afro-Asian liberation groups in 1974. See **Middle East Economic Digest,** March 7, 1975, p.12.

bined with their acceptance of nationalism gained from European education, experiences and travel abroad has resulted in a common perception of the world[5].

This mutual perception and approach to problems can best be seen in the foreign and domestic policies of African and Arab states[6]. Domestically these states share common problems resulting from the economic and political modernization process. Generally the nations of both regions have adopted socialism as the appropriate modernizing agent as well as the ultimate goal; eastern totalitarianism and western capitalism have both been rejected.

In foreign policy the states of both areas have embraced anti-imperialism, anti-colonialism (manifested largely in the economic sphere) due to their common colonial background. Similarly nonalignment has been widely accepted as the best means to resist big power influence and remain aloof from the «cold war».

Religious affinity is another important and growing bond of Afro-Arab solidarity. African and Arab Moslems alike are unable to forget that the Islamic world has largely lost access to the Holy Places of Jerusalem due to Israeli occupation since 1967. Both in West and in East Africa Islam has been strong and is spreading.

Geography is another over-riding factor in African-Arab relations. The states of the Maghrib, while culturally Arab and geographically African, link black Africa to the Arab world. Similarly many North African nations are both members of the Arab League as well as the Organization of African Unity.

Thus religion, geography, history and foreign and domestic policy is the basis of Afro-Arab solidarity. Regionally these feelings of unity are expressed by Pan-Africanism and Pan-Arabism, and in the larger sphere by Afro-Arab solidarity. The peoples of Africa and Arab world have realized that only by this solidarity and Third World cooperation generally can their important domestic and foreign policy goals be achieved.

---

(5) T.Y. Ismael, **op. cit.**, p.165.

(6) T.Y. Ismael. **op. cit.**, pp. 166-167.

African nations would fall under the domination of Israel directly and its imperialist sponsors indirectly. Secondly, by establishing diplomatic relations with large number of emerging African states Israel could prevent herself from becoming isolated by the Arab states in the world generally and in the U.N. in particular[1].

Israel utilized three basic tools to implement the strategy: diplomacy, trade and foreign aid[2]. Israeli diplomacy was backed up by foreign aid. Technical, medical, agricultural, and military missions were sent to a wide variety of sub-Saharn states such as Ethiopia, Uganda, Zaire,etc.

While two-thirds of Israel's total foreign aid went to Africa, only 4% of her total trade went to the continent, representing $ 65.5 million. Furthermore, more than half of this was with only five states; South Africa, one of the five, took $14.6 in trade[3]. Most of Israel's small amount of trade was in agricultural technology and agricultural petro-chemicals, areas in which she had a competitive advantage. Thus, in sum, Africa had little to offer Israel in trade[4] and the idea that Africa and Israel had strong trade ties is an illusion. In reality this is true of only South Africa and Israel.

By 1961 Israel was recognized by sixteen African states and by 1972, twenty-nine. The 1956 and 1967 Middle East wars failed to permanently separate Israel from Africa. Thus up to 1972, with the exception of Guinea, the imperialist-zionist strategy appeared to be a success.

THE BASIS OF AFRO -ARAB SOLIDARITY:

Historically African-Arab relations have been long and intense. For centuries a great exchange of both ideas and men has occurred. Perhaps most importantly, though, as an influence on contemporary events and as a factor in Afro-Arab solidarity is the common colonial backgrounds of the states of Africa and the Middle East. This common heritage com-

---

(1) J.C. Miller, «African-Israeli Relations: Impact on Continental Unity.» **Middle East Journal,** Vol. 29, No.4, Autumn 1975, p.394.

(2) T.Y. Ismael in **The Middle East in World Politics.** (Syracuse: Syracuse University Press. 1974), p.173.

(3) **Ibid.,** pp.175-176.

(4) Y. Elytsour, **Ma'ari** (Tel Aviv), 17 Nov. 1971.

CONSULTATIVE BOARD



CONTENTS


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

THE
ARAB HISTORIAN

A BULLETIN OF HISTORICAL RESEARCH

VOL XX

1980



EDITOR - IN - CHIEF
Prof. Dr. Hussein Amin

Issued By
THE UNION OF ARAB HISTORIANS
BAGHDAD - IRAQ